أنا أروي، إذن أنت موجود.

حكاية الجارية

مارغريت آتوود

مكتبة 434

ترجمة أحمد العلي

الطبعة الثانية

مارغريت آتوود

حكاية الجارية

ترجمة أحمد العلي

هذا الكتاب بدعم من:



حكاية الجارية

تأليف: مارغريت آتوود
ترجمة وتحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-39-063-3



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الثانية 2019

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae



مارغريت آتوود

حكاية الجارية

ترجمة أحمد العلي

حكاية الجارية

مارغريت آتوود

«فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلاَّ فَأَنَا أَمُوتُ! فَحَمِيَ غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: أَلَعَلِّي مَكَانَ اللهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكِ ثَمْرَةَ الْبَطْنِ؟ فَقَالَتْ: هُوَذَا جَارِيَتِي بِلْهَةُ، ادْخُلْ عَلَيْهَا فَتَلِدَ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَأُرْزَقُ أَنَا أَيْضًا مِنْهَا بَنِينَ*».

الكتاب المقدّس، سفر التكوين 30: 3-1

"لكنّني، بعد أن سئمت سنوات طويلة من تقديم أفكار عبثيّة، عاطفيّة، رؤيويّة، وبعد أن يئست من أن أُكلّل بالنجاح اليأسَ كلّه، فإنني لحُسن الحظّ عثرتُ على هذا الاقتراح..."

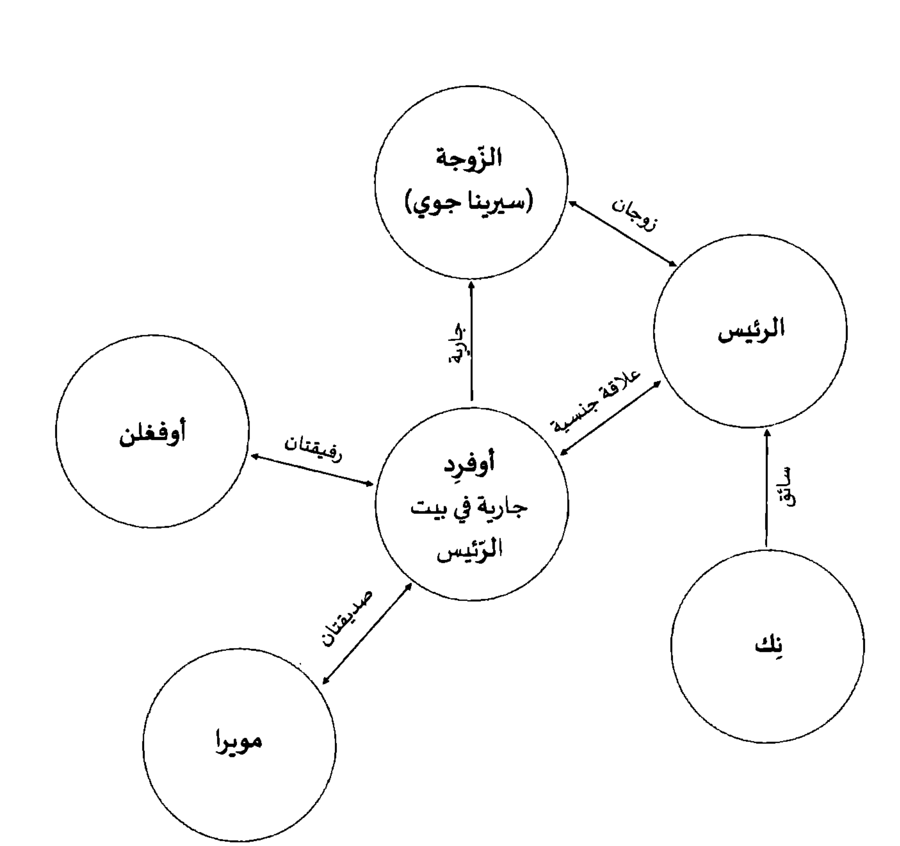
جوناثان سويفت، اقتراح متواضع**.

"ليس في الفلاة لافتة تقول لك: لا تأكل الحصى"

مَقولٌ صوفيّ.

* غلّبتُ "الجارية" في ترجمة عنوان الكتاب "The Handmaid Tale" على "أمَة" و"خادمة" لورودها نصًّا في الاقتباس من الكتاب المقدّس الذي صدّرَت به الروائية كتابها (هُوَذَا جَارِيَتِي بِلْهَةُ) وتلك هي فكرة الكتاب برمّته. وأيضًا لمعانيها المناسبة للمقام في اللغة العربية، منها "الفتيَّة من النِّساء" بما يناسب شرط أن تكون خصبة ولّادة؛ ومنها "الجارية في خدمة سيّدها". في حين أن "الأمَة" تُشير فقط إلى أنها مملوكة، عبدة؛ و"الخادمة" إلى قضاء حاجات البيت اليوميّة.

** جوناثان سويفت (1745-1667) أديب وسياسي إنكليزي-إيرلندي، اشتهر بمؤلفاته الساخرة المنتقدة لعيوب المجتمع البريطاني والسلطة الإنكليزية في إيرلندا. كتابه "اقتراح متواضع" (A Modest Propos-al) يتناول المجاعة في إيرلندا، ويقترح فيه بسخرية على السلطات الإنكليزية تشجيع الإيرلنديين على أكل أطفالهم لمكافحة المجاعة.


الزّوجة
(سيرينا جوي)
زوجان
الرئيس
جارية
أوفغلن
علاقة جنسية
رفيقتان
أوفرِد
جارية في بيت
الرّئيس
سائق
صديقتان
نِك
مويرا

المحتويات

I. ليل
II. تسوّق
III. ليل
IV. غرفة انتظار
V. غفوة
VI. أهل البيت
VII. ليل
VIII. يوم ميلاد
IX. ليل
X. لفائف الرّوح
XI. ليل
XII. إيزابل
XIII. ليل
XIV. إنابة
XV. ليل
ملاحظات تاريخية

١

ليل

1

مكتبة

اعتدنا النوم، حينئذ، في مبنى كان ذات يوم قاعة رياضيّة[1]. خشب مطليّ بالورنيش يكسو أرضيّة القاعة، رُسمت عليه خطوط ملوّنة ودوائر خاصة بالألعاب التي كانت تقام هناك. الحلقات المعدنية لشِباك كرة السلّة ما زالت في مكانها، رغم أن الشباك نفسها اختفت. للمُشاهدين شُرفة تُطوِّق القاعة من الدّاخل، خُيِّل إليّ أن في استطاعتي استنشاق رائحة عرَق نفَّاذة، مختلطة بروائح عِلكة وعطور انبعثت من فتيات مشجّعات، كما سبق أن رأيتهن في الصّور قديمًا، يرتدين تنانير منفوشة، وتنانير ضيّقة قصيرة، وبناطيل، بعضهن تضع قُرطًا في أذن واحدة فقط، وبعضهن شعورهن منفوشة ومقلّمة بخصَل خضراء. أقيمت حلقات رقص هناك دون شك، وتردّدت موسيقى هادئة لم يكن قرْع الطّبل فيها يعني صدور أمرٍ للمثول أو الاستعداد، بل إبداعًا فنيًّا صرفًا، موسيقى تتبع أخرى، وعويل عُشّاق افترقوا، وفي الأرجاء أكاليل زهور ورقيّة وشياطين كرتونيّة، وفي السّقف كرة دوّارة من مرايا كثيرة، تدور ناثرةً الضوء على الراقصين.

يجري في المكان هواء مضاجعات قديمة، ووحدة، وتوقّع. أتذكّر ذاك التوقّع بحدوث أمرٍ وشيك، لن تعود بعده حياتنا كما عرفناها أبدًا، راوَدَ الواحدة منّا فيما ذراعان تتلمّسان أعلى مؤخّرتها، حينها في القاعة، أو خارجها، في مواقف سيّارات، أو في غرفة تلفاز حيث يُخفَض الصوت تمامًا فلا تبقى سوى انعكاسات الصّور تتلاحق على الجسد الذي يعلو وينخفض.

توقّعنا المستقبل. كيف تعلّمناها، تلك القدرة على توقّع اختلال التوازن في الحياة؟ لقد كانت في الهواء، وكانت ما زالت في الهواء مثل فكرة طارئة تخطر إلى النّفس بعد أن انقلبت الحياة رأسًا على عقب وأمسينا نحاول الاستسلام للنوم في أسرّة مصفوفة قابلة للطيّ في القاعة إيّاها، ومتجاورة على مسافات متباعدة كي لا نتمكّن من تجاذب أطراف الحديث. دثارنا مصنوع من قماش الفانيلا،

أشبه بشراشف الأطفال، كما كانت لدينا أغطية عسكريّة، قديمة وتحمل شعار «و.م[2]». كنّا نطوي ملابسنا ونضعها في ترتيب ونظام فوق مقاعد موجودة عند نهايات الأسرّة. الأضواء حينها تكون قد خبَت دون أن تُطفأ، وشرعت الخالتان، سارة وإليزابث، في دوريّتهما الليليّة. كانت لديهما عصيٌّ كهربائية خاصة بالمواشي معلّقة بشريط جلدي مربوط على حزاميهما الجلديين أيضًا.

مع ذلك لم تكن هناك بنادق؛ فلم تُمحضا ثقة كافية بحيث تُعطيان السّلاح، فالبنادق مخصصة للأوصياء[3] الذين يختارهم الملائكة[4] حصْرًا. ولا يُسمَح لهم بدخول المبنى إلاّ إذا طُلب منهم ذلك، ونحن لم يكن يُصرّح لنا بالخروج من المبنى إلاّ من أجل التريُّض والنزهة، ويحدث ذلك مرتين يوميا، نخرج خلالها اثنتين اثنتين حول ملعب كرة القدم، الذي صار حينها مُحاطًا بسياج تعلوه أسلاك شائكة. الملائكة يقفون خارجه مُديرين ظهورهم إلينا. كانوا مصدر رُعْب وخوف، لكنهم مصدر أيضًا لشيء آخر. تمنّينا أن يستديروا، أن ينظروا إلينا، أن نتجاذب أطراف الحديث معهم؛ إذ اعتقدنا أنه إذا حدث ذلك فإننا حتمًا سنتبادل الأشياء، نعقُد صفقةً ما مثلًا، فما زلنا نحتفظ بأجسادنا. كنّا نسرّح خيالاتنا إلى ذلك الحدّ.

تعلمنا كيف نتكلم همسًا دون أيّ صوت تقريبًا، وفي شبه الظلام السائد، نمدّ أذرعنا – عندما تكون الخالتان غافلتين ولا تنظران إلينا – لكي نلمس أيدي بعضنا عَبْر المسافات الفاصلة. تعلّمت الواحدةُ منّا كيف تقرأ حركة شفتَي الأخرى، بينما نستلقي جانبيًّا في أسرّتنا ورؤوسنا على الوسائد، هكذا يرقب بعضنا أفواه بعض، وبهذه الوسيلة تناقلنا الأسماء من سرير إلى سرير: آلما، وجانين، ودولورس، وموبرا، وجون.

١١

تسوّق

مقعد ومنضدة ومصباح، وفي السقف الأبيض زخرفة جصيّة بالحفْر البارز المدوّر على هيئة إكليل زهر. وفي وسط الإكليل مساحة شاغرة مثل موضع في وجهٍ انتُزعت منه العينان. حتمًا كانت هناك ثُريًّا ذات يوم. فلقد أزالوا أي شيء يمكنك أن تربط إليه حبْلاً.

نافذة وستارتان بيضاوان. وتحت النافذة مقعد مبطّن مخصّص لها. عندما تُفتَح النافذة قليلًا –وهي دائمًا مواربة ولا تنفتح أبدًا على مصراعيها– فإنه يمكن للهواء أن يدخل منسابا فيحرّك الستارتين. في استطاعتي الجلوس على مقعد السّرير، أو مقعد النافذة، طاويةً ذراعي، مستغرقة في التأمّل. من النافذة ينساب أيضا ضوء الشمس إلى الداخل، ويسقط فوق الأرضية المكسوّة بمستطيلات خشب ضيّقة مصقولة. أستطيع استنشاق رائحة مادّة التلميع. ثمّة سجّادة بيضويّة الشكل، موشّاة بشريط من الخرق البالية. وهذا هو الطابع الذي يفضلونه: الفن الفلكلوري. الفن القديم المهجور الذي تصنعه النساء في أوقات فراغهن من أشياء لم تعُد تُستَخدم في أيّ أمر مفيد. العودة إلى القيم التقليدية. إذا لم تُهدر شيئًا فإنّك لن تحتاج شيئًا. وها أنا لم أُهدَر، فلمَ حاجتي؟

عُلّقت على الجدار، فوق المقعد، لوحة مؤطّرة، لكن دون زجاج: صورة مطبوعة لزهور. نباتات السَّوْسَن الزرقاء. ألوان مائية. الأزهار ما زالت من الأمور المسموح بها. هل لكلّ واحدة منّا اللوحة نفسها، والمقعد نفسه، والستائر البيضاء نفسها؟ إنني توّاقة لأن أعرف. أهي مسألة حكوميّة؟

"اعتبرن أنفسكن في الجيش" قالت الخالة ليديا.

سرير. مساحته تكفي جسدًا واحدًا، ومرتبته متوسّطة الخشونة، مغطاة بمفرش محشوٍّ أبيض اللون. ولا شيء يحدث في السرير باستثناء النوم، وقد لا يحدث حتى النوم. لا أحاول الاستغراق في التفكير؛ إذ ينبغي ترشيد التفكير والاقتصاد

فيه، شأنه شأن الأمور الأخرى الآن. فهناك أمور كثيرة لا تتحمَّل التفكير فيها. قد يضرّ التفكير بالفرص التي تُتاح لك. وأنا أنوي الاستمرار في البقاء. أعرف سبب انعدام وجود زجاج لإطار لوحة نباتات السّوسن الزرقاء ذات الألوان المائية. وأعرف سبب مواربة النافذة فقط دون فتحها تمامًا. وأعرف سبب اختيار زجاج النافذة أن يكون ضد الكسر والتناثر. إنّهم لا يخشون هربنا، فلا يمكننا الهرب مسافات بعيدة. بل يخشون تلك المهارب الأخرى، التي يمكنك فتحها في داخلك، في جسدك، إذا تمكّنت من الحصول على شفرة حادة.

لذلك، بعيدًا عن التفاصيل، فإن هذه الغرفة يمكن أن تكون غرفة ضيافة في سجن، من أجل الزوار المغمورين. أو غرفةً في بيتٍ يؤجّر غرفَه المفروشة، كما في السابق، لسيّدات يواجهن أحوالًا صعبة. وتلك هي حالنا الآن. والأحوال قد ازدادت سوءًا، على الأقل بالنسبة إلى اللّاتي ما زلن يعشن حالًا ما.

لكن مقعدًا، وضوءَ شمسٍ، وأزهارًا: هذه أشياء لا يمكن التغاضي عنها. وأنا أنبض بالحياة. أنا أعيش، وأتنفّس، وأمدّ يدي سليمةً نحو إشراقة الشمس. المكان الذي أنا فيه ليس سجنًا، بل امتيازًا، كما قالت الخالة ليديا التي كانت مولعة بالمقارنات.

الناقوس يدقّ. الوقت هنا يُقاس بأجراس النواقيس، كما في أديرة الراهبات ومساكنهن، وليس سوى مرايا قليلة، كما هو الحال هناك أيضًا.

أنهض من المقعد، وأمدّ قدميّ إلى ضوء الشمس في حذائهما الأحمر. حذاء مُسطّح دون كعب، وذلك لإنقاذ العمود الفقري، لا من أجل الرقص. القفّاز الأحمر مُلقى فوق السرير. ألتقطه وأدسّ كفّي فيه إصبعًا بعد آخر. كل شيء أحمر، باستثناء قلنسوة بيضاء، فوق حجابي. إنّ لون الدماء يحدّد هويتنا. تمتدّ التنّورة طولًا حتى الكعبين. كاملة الطول. تجتمع عند الخصر، حيث تمتدّ صعودًا فوق الصّدر. والكُمّان أيضًا كاملان.

القلنسوة البيضاء أيضًا مسألة متعمّدة: فهي تمنعنا من النظر حولنا، وفي الوقت

نفسه تمنع الآخرين من مشاهدتنا. لم يحدث قط أن كان شكلي حسنًا بينما أرفل في ثياب حمراء، فهو لون لا يناسبني. ألتقط سلّة شراء الحاجيّات وأضعها فوق ذراعي.
باب الغرفة – ليست غرفتي، فأنا أرفض القول إنّها غرفتي – ليس مقفلًا. حقيقة الأمر أنّه لا ينغلق بطريقة سليمة. أَخرُج منها إلى رَدهةٍ لامعة، على أرضيّتها سجّادة تتوسّطها وتجري على امتدادها، لونها ورديّ غُباريّ. مثل طريق يشقّ غابة كثّة، أو سجّادة لسَير الملوك، تُرشدني إلى حيث ينبغي أن أسلك.
تميل السجّادة وتنزل درج المدخل الرئيس. أسير فوقها واضعةً إحدى يديّ على السّياج الذي كان شجرة، ثمّ دخلَ في قَرْن آخر من الزمان، وأصبح لامعًا بفعل احتكاك الأيدي به على مرّ الأيّام. أعمل في بيت يعود تصميم معماره إلى العصر الفكتوريّ المتأخّر. إنّه بيت عائلي مُشيّد من أجل عائلة كبيرة ثريّة. ثمّة دولاب ساعة ذات بندول في ردهة البيت، تدقّ كلّ رأس ساعة حسب عدد الساعات التي مضت. بعدها يوجد باب يؤدي إلى غرفة جلوس أمامية حميمة، بكلّ ألوانها اللحميّة. غرفة جلوسٍ لا أجلس فيها أبدًا، وإنما أقف أو أركع فقط. يعلو الباب الأمامي، في نهاية الرّدهة، كوّة زجاج مُلوَّنة، يُشعّ منها الضوء على هيئة مروحة: أزهار حمراء وزرقاء.
تبقّى عليّ ذِكر المرآة المعلقة على جدار الرّدهة. فإذا أدرت وجهي بحيث أنّ قلنسوتي التي تؤطّر وجهي توجّه رؤيتي إليها، فإنني أستطيع حينها مشاهدة نفسي فيها بينما أهبط الدّرج. المرآة مستديرة الأطراف، ومحدَّبة، وعريضة مثل عيْن سمكة، أبدو منعكسةً عليها مشوّهة القامَة، مثل تقليد ساخر لأحد ما، مثل شبح في الحكايات الخرافيّة، يرتدي عباءة حمراء ويهبط الدرج في لحظة رعونة توازي الخطر المحدق. أختٌ مغموسة في الدم.
هناك في الأسفل، ينتهي الدرج عند حامل لتعليق القبّعات والمظلّات. خشبه يتلوّى ويستدير ويتطاول ثمّ ينعقف إلى أعلى على هيئة خطاطيف وأوراق نبات السرخس المتفتحة. ثمّة مظلات عديدة: سوداء من أجل الرّئيس[5]، وزرقاء من

أجل الزّوجة، والمظلّة المخصّصة لي لونها أحمر. أترك المظلّة الحمراء في مكانها لأنني أدرك من خلال النافذة أن اليوم مُشْمِس. هل الزّوجة في غرفة الجلوس؟ أتساءل. هي لا تجلس هناك دومًا، بل أسمعها أحيانًا تمشي بخطوات وئيدة ذهابا وإيابا... خطوة ثقيلة تعقبها خطوة خفيفة، ونقر عصاها الخفيف على السجادة الورديّة غُباريّة اللون.

أسير عبر الصالة متجاوزة باب غرفة الجلوس، وعنما أجاور باب غرفة الطعام، أفتح بابًا في آخر الرّواق وأعبر منه إلى المطبخ، حيث تتلاشى روائح مادة تلميع الأثاث. إنّ ريتا هنا، واقفة عند منضدة المطبخ المكسوّة بمعدن ذي طلاء أبيض تقشّر هنا وهناك. ترتدي ثوبها المعتاد الذي يُعرف باسم ثوب مَرْثا[6]، وهو رداء أخضر باهت مثل أردية الجرّاحين في العهد الفائت. ثوب يشبه ما أرتديه من حيث الشكل، فهو طويل يُخفي الجسد، لكن مع خِمَار عند فُتحة الرأس، ولهذا لا حاجة إلى قلنسوة. إنها تضع خمارها حين تخرج، لكن لا أحد يهتم كثيرًا للنظر إلى وجه امرأة ترتدي ثوب مَرْثا. في المطبخ، كُمّا فستانها مُشمّران إلى المرفقين، ما كشف عن ذراعيها السّمراوَين. كانت تخبز خبزًا، تُلقي أرغفةً من أجل عجْنها عجْنًا أخيرًا ووضعها في الشّكل المطلوب.
تلقاني ريتا فتومئ لي برأسها، تحيّة ربما، أو اعترافًا بوجودي جوارها، لا أعرف أيّهما الحقيقة. ثم، في مريلتها، تمسح يديها المكسوّتين بالدقيق وتُقلّب في درج المطبخ بحثًا عن دفتر قسائم شراء الحاجيات. متجهّمةً تنزع ثلاث قسائم وتمدّها إليّ. قد يتبدّى اللطف على وجهها لو أنها ابتسمت. لكن هذا العبوس ليس لسبب شخصيّ بيننا: بل بسبب رؤيتها الرّداء الأحمر الذي ألبسه وتكرهه، وتكره معانيه أيضًا. تعتقد أنني بخروجي قد ألتقط شيئًا ما، عدوى مثلًا، أو حظًّا عاثرًا.
أحيانا أسترق السمع من خارج الأبواب المغلقة. وهو أمر لم أكن أفعله فيما مضى. لكنني لا أسترق السمع فترات طويلة، فلستُ أرغب أن يراني أحد في هذا الوضع. مرّةً سمعت ريتا تقول لكورا إنها لم ترغب في التقليل من شأنها على ذلك النحو.

"لم يُطلَب منكِ ذلك،" قالت كورا. "لكن ماذا ستفعلين لو حدث؟"
"سأذهب إلى المستعمرات،" قالت ريتا. "هذا خيارهم."
"تذهبين هناك! إلى أشباه النساء[7]؟" قالت كورا، "والمعاناة من الجوع حتى الموت، وكل ما يكتنف ذلك من أمور لا يعلمها إلا الله؟ سيوقعونك في الشّرك."
كانتا تقشران البازلاء. ورغم أن الباب كان مواربًا، فإنّي استطعت سماع قرقعة سقوط حبات البازلاء اليابسة في طاسة معدنية. وسمعت من ريتا صوتًا أشبه بالنّخرة، أو التنهيدة، تحتج بها على أمر أو توافق عليه.
"على أيّ حال، إنّهم يقومون بذلك كلّه من أجلنا جميعًا،" قالت كورا "أو هكذا يقولون. ولو لم يُزيلوا مهبلي لربما وقع الاختيار علي، لو كنت أصغر سنّا بنحو عشر سنوات."
"من الجيّد أنهم اختاروها هي، لا أنا" قالت ريتا، وعندئذ فتحتُ الباب. رأيت في وجهَيهما تعبير وجوه النساء عندما يغتبنَك ثم يعتقدن أنك سمعت غيبتهن: خجل وارتباك مع شيء من التحدّي أيضًا، كما لو كان ذلك انتصارًا. يومئذ، صارت كورا لطيفة معي أكثر ممّا اعتدته منها، بينما صارت ريتا أكثر فظاظة وسوء خُلُق.
اليوم، رغم وجه ريتا الجهم وشفتيها المزمومتين، شعرت برغبة للبقاء هنا في المطبخ. وكان من المتوقّع أن تأتي كورا أيضًا من داخل البيت حاملة زجاجة زيت ليمونها ومنفضة غبارها. عندئذ قد تقوم ريتا بإعداد قهوة – فما زالت بيوت الرؤساء تجلب قهوة ممتازة، حقيقية – ونجلس إلى منضدة المطبخ الخاصة بريتا، المنضدة التي ليست لها، مثلما أن المنضدة الخاصة بي ليست لي، ونتكلّم عن الأوجاع والآلام والأمراض، وأقدامنا وظهورنا، وأنواع الشرور جميعها، والأضرار الجسيمة المختلفة التي يمكن أن تتعرَّض لها أجسامنا، شأننا في ذلك شأن الأطفال الجامحين. وقد تومئ برأسها أحدنا قاطعةً أصوات الأخريات كي تُشير إلى موافقتها على ما تسمع، ومعرفتها كلّ ما يتعلق به. وقد نتبادل الآراء حول بعض المشكلات وحلولها، ثمّ يحاول أن يتفوّق بعضنا على بعض في سرد أحداث آلامنا ووقائع تعاستنا الجسمانية. نشكو في شيء من التهذيب والرقة بأصوات خافتة،

حزينة، سُلّمها الموسيقيّ صغير مثل حمام أحواض الطُّنف البارزة من سقف البيت. أحيانًا نقول **أدرك ما تعنين**. أو ذاك التعبير الذي نسمعه عادةً من المسنّين إنّي أسمع دَخيلتك، كما لو كان الصوت نفسه مسافرًا يصل من مكان بعيد. وذاك ما هو عليه حقًّا، ما يُفترَض به.

لكم اعتدتُ احتقارَ مثل ذاك الكلام في العهد السابق. لكنني الآن أتطلّع إليه وأتلهّف عليه. هو كلام حقيقيّ على الأقل، ونتجاذب أطرافه.

وقد نجلس لنتبادل الشائعات، فالمَرْثيّات يعرفن أمورا كثيرة ويتناقلنها بين بعضهن. لا شك أنهن يسترقن السمع عند الأبواب المغلقة، مثلما أفعل تماما، ويشاهدن الأمور والأشياء حتى وهُنَّ يحوّلن أبصارهن عنها. لقد عثرت عليهن يفعلن ذلك، وسمعت جوانب من محادثاتهن الخاصة: لقد وُلد ميتًا، أو: طُعن بصنارة الحياكة في البطن. لابدّ أن الغيرة والحقد كانا ينهشان كيانها. أو باستثارَة: لقد استخدمت منظّفات الحمّام. لابدّ أنّه ذاك السكّير! لكنهم وجدوها على ما يُرام.

أو أنني أساعد ريتا في الخَبز. أغوص بيديَّ في الدفء الليّن الذي يكتنفه شيء من المقاومة، يشبه قوامَ اللحم. إنني جائعة إلى لمس أيّ شيء غير القماش والخشب. جائعة إلى اللمس، إلى ارتكاب جريمة اللمس.

لكن إن كان السبيل إلى ذلك هو أن أطلبه فقط، أو أن أنتهك آداب اللياقة، فإن ريتا لن تسمح لي. ستخاف من ذلك غاية الخوف. فالمَرْثيّات ليس من المفترض بهن أن تآخيننا.

إن كلمة تآخي معناها التصرّف مثل أخ. هذا ما قاله لي لوقا. وقال لي أيضًا إنه لا توجد في اللغة الإنجليزية كلمة تعنى التصرّف مثل أخت. وإنه إذا جاز لنا القول إن هناك كلمة تعبّر عن ذلك، فإنها ستكون مأخوذة من اللغة اللاتينية. كان يعشق معرفة مثل تلك التفاصيل. يحبّ مشتقات الكلمات واستخداماتها الغريبة. وقد اعتدتُ أن أضايقه كثيرا بسبب تحذلقه في اللغة.

يد ريتا ممدودة، أتناول منها القسائم التي تحمل رسومات وصور تعبّر عن الأشياء التي يمكن استبدالها بها: اثنتي عشرة بيضة، وشريحة من الجبن، وشيء بُنّي اللون

يُفترض به أن يكون شريحة لحم. أضع القسائم في جَيْب خِيطَ في كُمّ ردائي، وهو الجيب الذي أضع فيه تصريح المرور أيضًا.

"قولي لهم بيضًا طازجًا نُريد،" تقول لي ريتا "لا كالذي جلبتِه آخر مرة. وأخبريهم أننا نريد دجاجة، لا فرخًا. وأخبريهم لمن تعود هذه الأطعمة كي لا يُهملوا الأمر."

"وهو كذلك" أقول لها دون ابتسامة. لمَ أدفعها إلى صداقتي؟

3

خرجت من باب المطبخ الخلفيّ إلى الحديقة الواسعة المنسّقة: مساحة الوسط زُرعت فيها حشائش، أزهار الصفصاف. حول الأطراف ثمّة سياج من الأزهار: بدأت تذبل فيه نباتات النرجس الأصفر، أمّا الزنابق فراحت تتفتح وتُبرز ألوانها. الزنابق حمراء، لكنها تتخذ لونًا قرمزيًّا غامقًا عند الساق، كما لو كانت قد جُرحت وبدأت جروحها تلتئم.

هذه الحديقة هي مجال نشاط الزوجة، شاهدتها مرارًا هنا من خلال نافذتي المحصّنة ضد الكسر، وقد وضعَت ركبتيها فوق وسادة، وألقت خمارًا أزرق فاتحًا فوق قبعتها العريضة المخصّصة لأعمال الحديقة، وإلى جوارها سلّة تحوي مجزّ أعشاب، وقطع خيوط لربط سيقان الأزهار. يقوم وصيّ بأعمال الحفر الشاقّة بناء على أوامر الرئيس، وتقوم الزّوجة بأعمال التوجيه والإشراف مُشيرة بعصاها. كثير من الزوجات لهن مثل هذه الحديقة، فهي تمثّل لهن عملًا يصدرن فيه الأوامر، شيئًا يحافظن عليه ويعتنين به.

كانت لي حديقة ذات يوم. أتذكّر رائحة الأرض المحروثة وامتلاء الأكفّ بالبصل كامل الاستدارة. أتذكر أيضًا البذار وحفيفها الجاف بين الأصابع. هكذا يمرّ الوقت بسرعة. أحيانًا يؤخذ مقعدٌ من البيت إلى الحديقة كي تجلس عليه الزّوجة، فيبدو المشهد من مسافة بعيدة كأنّه السّلام.

لكنها ليست في حديقتها الآن. وأتساءل أين هي؟ لا أحب مصادفتها فأبهَت. ربما تخيطُ في غرفة الجلوس، رافعةً قدمها اليسرى على مسند الأقدام، فهي تعاني من التهاب المفاصل. أو تحيك بالصنارة أوشحة من أجل الملائكة في الخطوط الأماميّة. لا أصدق أن الملائكة في حاجة إلى ذلك. على أيّ حال، أوشحة الزّوجة مفرطة في الزخرفة. إنها لا تهتم بنموذج الحياكة المسمّى بالصليب-و-النجمة الذي تستخدمه الزوجات الأخريات؛ لأنه لا يشكّل لها تحدّيًا. أشجار تنّوب تزحف على

طول نهايات أوشحتها، أو نسور، أو أشكال بشريّة صارمة: طفلٌ وطفلة. وهكذا فهي ليست أوشحة رجال شباب، بل أطفال.
يخامرني شكّ أحيانًا في أن تلك الأوشحة لا تُرسل إلى الملائكة إطلاقًا. وإنما تُنقَض وتُلفّ من جديد إلى كرات، فتُعاد حياكتها بالصنارة مرة ثانية. ربما هدف ذلك هو شَغل الزوجات باستمرار، كي يشعرن أن هناك هدفًا لوجودهن. لكنني أحسدها على قيامها بأعمال الحياكة. فمن الملائم أن يكون للإنسان أهداف صغيرة يمكن أن تتحقق بسهولة.
وما الشيء الذي تحسدني هي عليه؟
إنها لا تتحدث معي، إلاّ إذا لم تستطع تجنُّب ذلك. أنا عارها، وضرورتها في آن.

تواجَهنا أوّل مرّة قبل خمسة أسابيع، عندما وصلتُ إلى مقرّي هذا تنفيذًا لأمر عسكري. وَليّي[8] في مقرّي السّابق أحضرني إلى الباب الأمامي. ففي الأيام الأولى يُسمح لنا باستخدام الأبواب الأمامية، لكن يُفترض بنا استخدام الأبواب الخلفية بعد ذلك. الأمور لم تستقر حتى الآن. فتنظيم تكليف الجواري بدأ منذ فترة وجيزة، ولا نعرف الوضعَ تمامًا. ستتحدّد الخطوط بمرور الوقت: فإمّا الأبواب الأمامية كافّة، أو الأبواب الخلفية كافّة.
قالت الخالة ليديا إنها تسعى، في إلحاح، إلى استخدام الأبواب الأمامية. "إن موضعكِ موضع الشّرف!" قالت لي.
دقَّ الوليّ جرس الباب من أجلي. لكن لم يمضِ من الوقت ما يسع شخصًا ما ليسمع الجرس فينهض ويسير مسرعًا إليه، فقد انفتح الباب فورًا إلى الداخل. حتمًا أنها كانت تنتظرني وراء الباب. توقّعت أن تلقاني إحدى المَرْثيّات، لكنني وجدتها هي، برداء طويل فاتح الزُّرقة قطعَ أيّ احتمال لأيّ لبس.
"إذن، أنتِ الجديدة" قالت، ولم تخطُ خطوة جانبا لتسمح لي بالدخول، بل اكتفت بالوقوف في المدخل سادّةً المدخل الأمامي. أرادت أن تجعلني أحس بأنه لا يمكن لي الدخول إلى البيت إلاّ إذا سمحَت هي بذلك.

"أجل" قلت لها.

"اترك الحقيبة في الرّواق الخارجيّ" قالت للوليّ الذي كان يحمل حقيبتي الصغيرة البلاستيكيّة الحمراء. وهناك حقيبة أخرى ستُبعث إليّ لاحقًا، تحوي عباءة الشتاء وملابسه الثقيلة.

وضع الوليّ الحقيبة أرضًا، وقدّم لها التحية، ثم سمعت وقع أقدامه تبتعد ورائي، فانطباق البوابة الأمامية، حينها شعرت كأن الذّراع التي تحميني قد رحلت. فمدخل أيّ بيت جديد يبدو موحشًا وكئيبًا.

انتظرت، إلى أن أُدير محرّك السيارة وانطلقت مبتعدة. لم أكن أنظر إلى وجهها، لكني نظرت إلى ذلك الجزء من جسدها الذي يمكن رؤيته وأنا منكسة الرأس: خصرها الأزرق اللون، الممتلئ – ويدها اليسرى الممسكة برأس عاجيّة لعصاها، وماساتها الضخمة في إصبع الخواتم الذي كان حتمًا جميلاً ذات يوم، والذي لا يزال في حالة جيدة. وظفر الإصبع، البنصر، في يدها مُشذّب، ويبدو مقوّسًا بعض الشيء، أشبه بابتسامة ساخرة فوق إصبع، كأنّه يهزأ بها.

"يمكنك الدخول أيضًا" قالت. ثم أدارت ظهرها إليّ، وسارت في تأرجح وعرج عبْر الصالة حيث قالت "أغلقي الباب وراءك."

حملتُ حقيبتي الحمراء إلى الداخل. لا شك أنها توقّعت منّي ذلك. أغلقتُ الباب، ولم أنطق ببنت شفَة. فالخالة ليديا قالت إنه من الأفضل التزام الصّمت التامّ، إلاّ إذا وجّهوا إليّ سؤالا مباشرًا. "حاولي رؤية الأمور من زاويتهم،" قالت ذلك، شابكةً أصابعها، وارتسمت على وجهها ابتسامتها الدامية العصبيّة. "لم يكن الأمر سهلًا عليهنّ تقبّله".

"ادخلي إلى هنا،" سمعت الزّوجة تأمرني فتبعت الصّوت، وعندما دخلت غرفة الجلوس وجدتها في مقعدها، رافعةً قدمها اليسرى على مسند أقدام ذي وسادة خيطَت بالإبرة ووُشّيَت برسمة سلّة أزهار. أدوات الخياطة والحياكة ملقاة على الأرض جوار المقعد، والإبر مغروسة في خيوطها.

وقفتُ أمامها وقد طويتُ ذراعيّ. فقد طلبت مني أن أفعل ذلك. رفعت سيجارة

إلى شفتيها، وثبّتتها أثناء إشعالها. كانت شفتاها رفيعتين تتفرّع منهما خطوط عمودية حولهما مثل التي يشاهدها المرء في إعلانات مساحيق التجميل وأحمر الشفاه. القدّاحة بلون العاج، ولا بد أن السجائر جاءت من السوق السوداء، كما أظن، ما وهبني بعض الأمل. فطالما أنه لم يعد هناك نقود حقيقية فلا بد من أن تكون هناك سوق سوداء. دائما هناك سوق سوداء. ودائما ما يكون هناك شيء ما يمكن استبداله بشيء آخر. إذن، فهي امرأة من النوع الذي يمكن أن يلوي القوانين. لكن ماذا كان لديّ لأبادل به؟ ماذا كان عليّ أن أفعل... أن أتاجر؟ نظرتُ إلى السيجارة في اشتياق عارم، لكن السجائر ممنوعة عليَّ، شأنها في ذلك شأن الخمور والقهوة.

"ذاك الذي ما اسمه؟ عجوزٌ للغاية"

"لا يا سيدتي،" قلت.

فصدر عنها ما يمكن أن يكون ضحكة. ثم سعلت وقالت "يبدو أن الحظّ العاثر يلازمه. إنّه الرّجل الثاني في حياتك، أليس كذلك؟"

"إنه الثالث سيدتي،" قلت.

"ليس هذا بالأمر الحسن، ليس بالنسبة إليك أيضا،" ثم أطلقت ضحكة أخرى مشوبة بالسّعال، واستطردت "يمكنك الجلوس، لكنّ ذلك ليس قاعدة عامة، بل إني أطلب منك الجلوس هذه المرة فقط"

فجلستُ على حافة مقعد له ظهْر قاس. لم أرغب في الحملقة إلى ما حولي في الغرفة؛ كي لا أبدو غير منتبهة لها. ولذلك فإن الرف الرخاميّ إلى يميني، والمرآة فوقه، وباقات الزهور، كانت بمثابة ظلال عند حواف عيني. ولسوف يكون لدي متسع من الوقت فيما بعد لأستوعب هذه الأشياء.

وجهها آنئذ في مستوى وجهي، فخُيِّل إليَّ أنني تعرَّفتُ عليها، أو على الأقل هناك شيء ما في وجهها مألوف لي. ثمّة قدْر ضئيل من شعرها خارج حجابها، وما زال أشقر. اعتقدتُ أنها ربما صبغت شعرها ليبدو شاحبًا، وأن صبغة الشَّعر هي من الأشياء الأخرى التي يمكنها الحصول عليها من السوق السوداء، لكنني أدرك

الآن أن شعرها هو في الحقيقة شعر أشقر شاحب فعلًا. حاجبا عينيها منتوفان على هيئة خطَّين مقوّسين رفيعين، ما جعل وجهها يتخذ دائمًا ملامح الاندهاش، مثل تلك النظرة التي تبدو على وجه طفل مذعور. الإرهاق تحت الحاجبين بادٍ على جفنَيها. لكن لا أثر لذلك في عينيها، ذات الزُّرقة المسطّحة العدائيّة لسماء منتصف الصّيف في ضوء شمس ساطع، تلك الزُّرقة التي تحدّ من قوّة الضوء. وحتمًا أن أنفها كان يوصف ذات يوم بأنّه لطيف، إلا أنه أصبح الآن صغيرًا جدًّا ليلائم وجهها. ثمّة خطان ينسابان إلى أسفل من رُكنَي فمها، بينما الذقن مشدودة مثل قبضة يد.

"لا أريد أن أراكِ إلاَّ فيما ندر، بقدر الإمكان. وأتوقع أنك تشعرين بهذا الشعور نفسه نحوي،" قالت.

لم أجبها، لأن الردّ بنعم ستحمل إهانة في طيَّاتها، والردّ بالنفي ستكون مليئة بالتناقضات.

فاستطردَت "وأنا أدرك أنك لست غبية" قالت، ثم سحبت نفسًا من سيجارتها وأطلقت الدخان. "لقد قرأتُ ملفّك، وأمرك لا يعنيني إلا كما يعنيني أيّ تبادل تجاري، لكنني إن تعرّضتُ إلى المتاعب بسببك فإنني سأرد عليك وأتعبك، أتفهمينني ؟"

"أجل، سيدتي" قلت.

"لا تقولي لي سيدتي؛ فأنتِ لستِ من المَرْثيّات" أمرتني في انفعال حادّ.

لم أسألها عن اللقب الذي ينبغي عليَّ مناداتها به حين أخاطبها. فقد أدركتُ أنها تأمل ألاَّ تجيء أيّ مناسبة تستدعي لقاءنا فأضطر إلى مخاطبتها. هبطت عليَّ مشاعر إحباط وخيبة أمل. تمنّيتها أن تغدو أختًا كبيرة لي. أردتُ تحويلها إلى كيان أموميّ، إلى إنسانة تفهمني وتحميني. كانت الزّوجة في مقرّي السابق تقضي معظم أوقاتها في سريرها. قالت المَرْثيّات إنها كانت تُسرف في تناول الخمور. فتمنّيت أن تكون هذه الزوجة مختلفة عن تلك، وتمنيت أن أشعر نحوها بالارتياح عند مقابلتها مرة ثانية في مكان آخر، وفي حياة أخرى. لكن الأمور تُشير، منذ الآن، إلى

أنني لن أحبها في أي وقت من الأوقات، وهي لن تحبني.
أطفأت سيجارتها دون أن تكملها، في منفضة أسطوانية الشكل فوق منضدة المصباح جوارها. أطفأتها بحسم، وخزة واحدة وسحْقة واحدة، لا بسلسلة متتابعة من الطرقات الخفيفة كما أغلب الزّوجات.
"أمّا زوجي" قالت، "فهو كذلك تمامًا. زوجي. أريد أن تري هذا الأمر بوضوح شديد إلى أن يفرق الموت بيننا. تلك مسألة نهائية ومحسومة."
"أجل سيدتي،" قلتُ ناسية. في العهد السابق، كانت هناك دُمًى للأطفال: عرائس للفتيات الصغيرات، تتكلّم إذا جذبت خيطا يتدلّى على ظهرها. خُيّل إليّ أن صوتي يشبه أصوات تلك الدُّمى. صوت على وتيرة واحدة. صوت لُعب الأطفال. ومن المحتمل أنها كانت تتطلع وتشتاق إلى صفع وجهي بيدها. باستطاعتهن ضربنا. فهناك سابقَة وردت في النصوص المقدّسة. لكن الضرب ليس بأيّ وسيلة. الضرب يكون فقط باستخدام الأيدي.
"إنّ زواجنا هو أحد الأمور التي حاربَ كلانا من أجله" وفجأة لم تعد عيناها تنظران إلي. بل أصبحتا تنظران إلى أسفل، نحو كفّيها المرصّعتين بالماس. فعرفت أين شاهدتها قبلًا ولذا تبدو لي مألوفة الآن.
لقد شاهدتها أوّل مرّة في التلفاز. آنئذ كان عمري ثماني سنوات أو تسع. حدث ذلك عندما كانت والدتي نائمة، كالمعتاد، في صباح أحَدٍ ما، بينما أنهض مبكرة وأتجه إلى التلفاز الموضوع في غرفة المكتب الخاصة بوالدتي، وأقلّب القنوات بحثًا عن الرسوم المتحرّكة. وأحيانا، عندما لا أجد مبتغاي، أجلس لأشاهد برنامج «عِظات السيّد المسيح والحواريين»، حيث يقدمون قصصًا إنجيلية للأطفال بالإضافة إلى ترانيم وأغنيات دينية. ثمّة سيّدة في البرنامج تُدعى سيرينا جوي، هي قائدة المُنشدات. شاحبة الشُّقرة. ضئيلة الجسد، نحيلُه. أنفها قصير مرتفع. لها عينان هائلتان زرقاوان تنظر بهما إلى أعلى أثناء الترانيم. بمقدورها الابتسام والبكاء في آن واحد. دمعة أو دمعتان تنزلقان في رشاقة حتى آخر خدها، بينما صوتها يرتفع تدريجيا ليصل إلى أقصى درجاته، مرتعشًا في تموّجات، وسلِسًا في غير جُهْد. ثمّ

تنتقل، بعد الأناشيد، إلى أداء أمور أخرى.

المرأة الجالسة أمامي هي سيرينا جوي، والأصَحّ هو أنها حملَت ذاك الاسم يومًا ما. لذلك، فالأمور أسوأ مما كنت أعتقد.

أسير على الممر المفروش بالحصى، الذي يقسّم الأراضي الخلفيّة المكسوّة بالأعشاب المشذّبة إلى قسمين متساويين، مثل مفرق رأس الإنسان. الأمطار هطلَت البارحة؛ مما بلّل العشب على كلّا الجانبين، ورطّبَ الهواء. الديدان هنا وهناك دليل على خِصب التربة، لكن حاصرتها الشمس وقبضت عليها فدوَّختها حتى باتت شبه ميتة، وطريّة، وباهتة الاحمرار مثل شِفاه.

أفتح بوابة السور البيضاء وأتابع السّير. أتجاوز الأراضي الأمامية المُعشبة إلى البوابة الأمامية. وفي الممر الممتدّ بين البيت والشارع، يغسل وصيٌّ بيتنا السيارة. لا بُدّ أن الرّئيس موجود في أجنحة إقامته من البيت، جوار غرفة الطعام وكلّ ما يليها، فهو يقضي معظم الوقت هناك كما يبدو.

السيارة باهظة الثمن، من طراز الزّوبعة[9]، أحسن من المركبة[10]، وأفضل من تلك العمليّة الضيّقة، بهيموث[11]. سوداء، لون الهيبة والوقار، وسيّارات الموتى أيضًا. طويلة، ولامعة، وناعمة، السائق يمسحها بحُبّ بقطعة شاموا. هذا الأمر، على الأقل، لم يتغيَّر: كيف يهتمّ الرّجال بالسيّارات الجيّدة.

إنه يرتدي زيّ الأوصياء الرسميّ، لكن قبّعته مائلة قليلًا في شيء من عدم الاكتراث، كما أن كُمّيه مُشمَّران حتى مرفقيه. ساعداه مكسوّان بصُفرة بُنّيّة، لكنهما مزخرفان بشعر أسود. سيجارة مثبتة في زاوية فمه، ما يدل على أن لديه أيضًا ما يمكن أن يتاجر به في السوق السوداء.

أعرف اسم هذا الرجل، إنّه نِك، أعرف هذا؛ فقد سمعتُ ريتا وكورا تتحدثان عنه، كما أنني سمعت الرّئيس يتحدث معه ذات مرة، "يا نِك، لن أحتاج إلى السيارة،" قال له.

يعيش هنا في البيت، فوق المرآب. لم يُعطَ امرأة، ولا حتى امرأة واحدة. فهو لا يستحق ذلك بسبب بعض العيوب ونقص في الاتصالات. لكنه يتصرف كأنه لا

يعرف هذا، أو لا يهتم؛ فهو يتصف بالإهمال واللامبالاة الشديدة. ورغم ذلك، فإنّه ليس خَنوعًا ولا مستسلمًا. هل مردّ الأمر إلى الغباء؟ لا أعتقد ذلك. اعتاد الناس القول إن رائحته رائحة سمَك، لكنّها في أنفي أشبه برائحة الفئران. إنّه شخصٌ لا يُلائم وظيفته، مثل الرائحة النفاذة. على الرغم من أنني أحاول معرفة طبيعة الرائحة التي تكتنفه. إنها ليست رائحة سمك ولا رائحة فأر متعفّن، إنها تشبه رائحة جِلد مدبوغ وقد بُلّل، وعُرّضَ للشمس، والدخان يتصاعد منه. أتنهد، أتنفّس.

ينظر إليّ. يشاهدني بينما أنظُر إليه. له وجه فرنسيّ نحيل رفيع، وجه مميّز وغريب، بمساحاته المسطحة وزواياه كافة، مع تجعيدات حول فمه إذا ابتسم. سحبَ نفَسًا أخيرًا من سيجارته ثم ألقاها في الممشى وداس عليها، وشرع يصفّر. وبعدئذٍ غمز نحوي؛ فنكّست رأسي واستدرت كي تخفي قلنسوتي البيضاء وجهي، وأستمر في المشي. لقد قام بمخاطرة شديدة. لكن لماذا خاطر وجازف على ذلك النحو؟ ألم يخطر له أنني ربما أشكوه؟

ربما يبغي بثّ روح الودّ والصداقة البريئة بيننا، أو شاهد تلك النظرة التي ارتسمت على وجهي، وظن خطأ أنّها تحمل معنىً لم أقصده، فكل ما كنت أريده في الواقع هو سيجارة. وربما هو يختبرني كي يرى ما سأفعل، ربما كان عينًا[12].

أفتح البوابة الأمامية وأغلقها ورائي، ثم أنظر إلى أسفل ولا ألتفت أبدًا. الممشى الجانبي مرصوف بطوب أحمر، ذلك هو المنظر الطبيعي الذي يركّز بصري عليه: حقل من المستطيلات يتموّج قليلًا، صعودًا ونزولًا، في البُقَع التي انهارت التربة تحت طوبها بسبب صقيع الشتاء عبْر الزمن. وللطوب لون قديم، لكنه غير متآكل ونظيف، ورائق. تبدو الممرّات الجانبية أكثر نظافة مما اعتادت أن تكون عليه.

أسير إلى ناصية الشارع وأنتظر. لطالما كنت سيئة في الانتظار. لكن الخالة ليديا قالت إنهم لا يخدمون إلّا مَن ينتظر، دفعتنا لتذكّر ذلك جيّدًا. "لن تتمكنّ جميعًا

من النجاح! منكنّ مَن ستسقط في أرض جافة، أو شوكيّة. ومنكن من ليست جذورها ثابتة" قالت، بينما شامة ذقنها تصعد وتهبط أثناء حديثها، "يجب عليكن النّظر إلى أنفسكن على أنكن بذار،" وصار صوتها آنئذ يشعّ بالتآمر والمكائد، مثل أصوات النساء اللائي اعتدن تدريس الأطفال رقص الباليه، قائلات مثلًا "ارفعوا أيديكم عاليًا، ولنتظاهر أننا أشجارا!"

أقف في الناصية وأنتظر متظاهرة أنني شجرة.

قامَة. قامَة حمراء ولها قلنسوة بيضاء حول وجهها، قامَة تشبه قامَتي تمامًا. إنّها امرأة عادية، دون ملامح فارقة، مُكتنفة بالحُمرة تحمل سلّة وتسير عبر ممشى الطّوب نحوي. تحاذيني فتواجهني، تحملق كلّ منّا في وجه الأخرى، ونخرق بنظراتنا قلنسوَتَينا البيضوَيّتين. إنها مَن ينبغي عليّ رفقتها.

"مُباركةٌ هي الثّمرة[13]" تحيّيني التحيّة المتعارف عليها.

"فليفتح الله علينا" أجيبها بالردّ المقبول أيضًا، ثم نستدير ونسير معًا جوار بيوت كبيرة إلى وسط المدينة. لا يُسمح لنا الذهاب إلى هناك سوى في مجموعة من شخصين، اثنتين اثنتين. يقولون إن ذلك لتوفير الحماية لنا، رغم أنّه عُذرٌ سخيف؛ لأننا محاطات بحماية جيدة بالفعل. حقيقة الأمر هي أنها جاسوسة عليَّ مثلما أنا جاسوسة عليها. فلو أن واحدة منّا انزلقت من شبكة صيدها بسبب أمرٍ ما يحدث أثناء جولاتنا اليومية، فستكون الأخرى مسؤولة عمّا حدث ومعرّضة للعقاب.

هذه المرأة صارت رفيقتي منذ أسبوعين، ولا أعرف ماذا حدث لرفيقتي السابقة. اختفت يومًا ما، وطلعت هذه المرأة مكانها. لم يكن لنا طرح أيّ سؤال في هذا الشّأن، فالإجابات لا تكون عادة ممّا يرغب المرء في معرفته. وعلى أيّ حال، لن نحصل على إجابة أبدًا.

إنّها أكثر امتلاء منّي. عيناها بُنّيتان، واسمها أوفغلن، وهذا كلّ ما أعرفه عنها. تسير في خجل واستحياء مُنكّسة رأسها، وقد شابكت كفّيها المتواريَين في قفّازيهما الأحمرين أمامها، سائرةً في خطوات قصيرة خفيفة. في سيرها ذاك لم تقل قط ما

يخرج عن نطاق التعاليم الدينية الصارمة، ولم أخرج أنا أيضًا عن النطاق. قد تكون حقًّا صادقة الإيمان، جاريةً حقيقيّة، لا مسمّى الجارية وحسب. ولذلك لا أستطيع المجازفة معها.

"سمعتُ أن الحرب تجري على خير ما يرام" قالت.

"له الحمد" قلت.

"لقد أرسلَ الرّياح بنسائم عذبة."

"أستقبلها بالفرح."

"لقد هزموا مزيدًا من المتمرّدين[14] منذ الأمس."

"له الحمد" قلتُ، دون سؤالها عن مصدر معلوماتها. ثم قلت "وما هُم أولئك المتمرّدون؟"

"إنهم معمدانيّون. كانت منطقة بلو هيلز هي معقلهم، لكنّهم أخروجهم منها."

"له الحمد."

تمنّيت أحيانًا أن تخرَس وتدعني أسير في هدوء وسلام. لكنني في غاية اللهفة لمعرفة الأخبار، أيّ خبر، حتى ولو كان زائفًا، فلابدّ أن يشير إلى أمرٍ ما.

وصلنا إلى الحاجز الأول، وهو شبيه بحواجز سدّ الطرُق لأعمال الإصلاح أو مدّ أنابيب مياه: أعمدة خشب تتقاطع طولًا وعرضًا، مطلية بخطوط صفراء وسوداء وشكل سداسي الأضلاع أحمر اللون معناه «قف». وبالقرب من البوابة توجد بعض المصابيح المُطفأة، فلم يحن المساء بعد. وأعرفُ أن فوقنا أضواء كاشفة مربوطة إلى أعمدة الهاتف، تُستخدم في حالات الطوارئ. وثمّة رجال مزودون ببنادق، يتمركزون في حصون عسكرية خرسانية على جانبي الطريق. ورغم أنني لا أرى الأضواء الكاشفة ولا الحصون العسكرية بسبب قلنسوتي، فإنني أدرك فقط أن تلك الأشياء موجودة هناك.

وراء الحاجز يقف رجلان في انتظارنا عند البوابة الضيقة. يرتديان الزيّ الرسميّ الأخضر الخاص بالأوصياء، فعلى أكتافهم وقبّعتيهم رمزهم العسكريّ: سيفان متقاطعان فوق مثلّث أبيض. الوصيّان ليسا جنديّين حقيقيّين، بل

يُستخدمان لتأدية مهامّ الحفاظ على الأمن اليوميّة وغير ذلك من الأمور الوضيعة، مثل حرث حدائق الزّوجات. وهذا هو حال بقيّة الأوصياء. فهم أغبياء، أو مسنّون، أو مُعاقون، أو فِتيانٌ غَضّون باستثناء العيون القائمة بمهام التجسّس في سرية تامة.

هذان الوصيّان فَتيّان للغاية: شارب أحدهما خفيف منتثر، ووجه الآخر مبقّع بالحُمرة، وفمُ كلّ منهما تشتهيه النفس، لكنّني لن أقع تحت التأثير الخادع للفم. وغالبا ما يكون الأوصياء الصّغار هم الأكثر خطرًا وتعصّبًا وانفعالًا والأسرع استخدامًا لبنادقهم. فهم لم يفهموا بعد جوانب الحياة والوجود من خلال الزمن. ولذلك ينبغي على المرء أن يتعامل معهم في بُطء وحِكمة.

أطلقوا النيران قبل أسبوع على امرأة في هذا المكان نفسه. كانت من الفتيات المَرْثيّات، راحت تبحث وقتئذ في شيء من الارتباك داخل ردائها عن تصريح عبورها، فاعتقدوا أنها تبحث عن قنبلة. وخُيِّل إليهم أنها رجل يتخفّى في ثياب امرأة. مثل هذه الحوادث تكرّرت كثيرًا.

ريتا وكورا تعرفان تلك المرأة، ولقد سمعتهما تتحدثان عن هذه الحادثة في المطبخ.

"كانوا يؤدّون واجبهم" قالت كورا، "من أجل أمننا وأماننا."

"ولا أأمن علينا من القتلى" ردّت ريتا غاضبة، "لقد كانت في حال سبيلها، ولا من نداء أُطلق كي تُردى قَتيلة"

"إنها حادثة وقعت خطأً" قالت كورا.

"لا شيء من هذا القبيل" قالت ريتا، "كلّ شيء مُتعمّد". وكان باستطاعتي سماعها تقلّب الأواني في حوض الغسيل.

"حسنًا، على أيّ حال، سوف يفكّر مرارًا الآن مَن يبغي نسف هذا البيت" قالت كورا.

"الأمر سواء عندي" قالت ريتا، "تلك مِيتة شنيعة، ولقد كانت إنسانة مجتهدة في عملها."

"يمكنني تخيُّل ما هو أسوأ من ذلك" قالت كورا، "فعلى الأقل كان موتها سريعًا خاطفًا."

"يمكنك قَول ذلك" قالت ريتا، "أنا شخصيًا أُفضّل أن يُتاح للمرء بعض الوقت قبل أن يخوض تجربة الموت، كي يتمكن من وضع الأمور في نصابها."
يقوم الوصيّان الشابّان بتحيّتنا، وذلك برفع كلّ منهما ثلاثةَ أصابع إلى حافّة قبّعته. هذه الإشارات تُزجى لنا، فيُفترض بهم أن يُظهروا لنا الاحترام بسبب طبيعة الخدمات التي نقدّمها.
نُخرج تصريحَينا من جيوب أكمامنا الواسعة. ثمّ تُفحَص التصاريح وتُختَم. يذهب أحدهما إلى لوحة الأرقام المصمّمة للكفّ اليُمنى، ويُدخل أرقامنا في الفاحوص المزدوَج[15].
يُحني الوصيّ ذو الشارب الأصفر البرتقالي رأسه وهو يعيد تصريحي إليَّ محاولاً إلقاء نظرة على وجهي. أرفع رأسي قليلا كي أمكّنه من رؤيتي، ويرى بالفعل عينيَّ وأرى عينيه. يحمرّ وجهه خجلاً، وجهه طويل وحزين مثل وجه خروف. لكن عينيه كبيرتان مثل عيني كلب. وله بشرة شاحبة تبدو رقيقة ومعتلّة كأنّها تعاني مرضًا جلديًا. رغم ذلك، فإن نفسي تراودني أن ألمس بشرته بيدي، أضعها على وجهه المكشوف أمامي، لكنه هو بدأ بالالتفات بعيدًا.
إنه حدَثٌ مهمّ. إنه تحَدّ ضئيل للقواعد. ضئيل للغاية حتى إنه يتعذر اكتشافه، إلا أن مثل هذه اللحظات هي بمثابة المكافآت التي أقدمها لنفسي. أو هي الحلوى التي كنت أخفيها في أعماق الدُّرج عندما كنت طفلة. ومثل هذه اللحظات مجرد احتمالات. مجرد ثقوب للنظر من خلالها.
ماذا لو جئته ليلًا، عندما يكون في خدمة الحراسة الليلية وحده – رغم أنهم لن يسمحوا له مطلقا بعزلة كتلك – وسمحت له بالنظر إلى ما وراء قلنسوتي البيضاء؟ وماذا لو قمت بنزع كفَني الأحمر هذا وأن أظهر أمامه أو أمامهما تحت ضوء الفوانيس الشاحب؟ حتمًا أنهما يفكران في هذا الشيء نفسه بعض الأحيان، حيث يقفان باستمرار جوار هذا الحاجز الذي لا يمرّ منه أيّ شخص باستثناء الرّؤساء الذين يفدون في سياراتهم الطويلة السوداء الهادئة؛ أو زوجاتهم الزرقاوات وبناتهم ذوات الحجُب البيضاء ذاهبات إلى الإنابة[16] أو الابتهالات الصاخبة[17]؛ أو

مَرْئيّاتهم الخضراوات؛ أو الـولّادة المتنقلة[18] من حين لآخر، أو جواريهم الحمراوات اللـواتي يسِرن على الأقدام. وأحيانًا تمرّ عربة نقل صغيرة سوداء، وشعار العين المجنّحة مطليّ على أحد جانبيها، نوافذها مظلّلة كتيمة، ورجال المقاعد الأمامية يضعون نظّارات دكناء: غموض مزدوج.

وحتمًا أن عربات النّقل تلك أكثر هدوءً من بقيّة السيارات، وعندما تمرّ جوارنا ندير وجوهنا دون النظر إليها. وإذا تناهى إلينا أصوات من داخلها، فإننا نحاول الصّمَمَ دونها، فلا أحد يحمل قلبًا كامل الكمال.

عندما تصل تلك العربات السوداء إلى نقطة تفتيش، يلوحون لها بالاستمرار في السير دون حتى أن تُبطئ سرعتها؛ لأن الأوصياء لا يريدون أن يجازفوا بالنظر داخلها وتفتيشها، ومخالفة سلطاتهم العُليا. إنّهم لا يريدون التفكير في ذلك. وإذا فكّروا فعلًا فإنّه لا يمكن للمرء أن يعرف ذلك من مجرّد النظر إليهم.

لكنهم، غالبًا، لا يفكرون في الملابس، مثلًا، كأن يتخلّوا عنها مرميّةً فوق مَرجٍ أخضر. فهم إذا فكّروا في القُبلة، مثلًا، فلن يخطر لهم إلّا تفجّر الأضواء الكاشفة وطلقات الرصاص. ولذلك فهم بدلاً من التفكير في تلك الأمور المحفوفة بالمخاطر، يركزون أذهانهم على تأدية واجباتهم والترقية بحيث يصبحون أفرادًا ينتمون إلى الملائكة، وإمكانية السّماح لهم بالزواج، وأن تُخصّص لهم بعد ذلك جارية إذا ما قُدّر لهم اكتساب قدْر كافٍ من النفوذ وبقوا أحياء حتى الشيخوخة.

يفتح الفتى ذو الشارب الخفيف البوّابة الصغيرة المخصصة للأفراد السائرين، ثم يخطو متراجعًا مُفسحًا الطريق أمامنا، فنمرّ. وبينما نسير مبتعدتين أدرك أنهما يراقباننا. هذان الرجلان اللذان لم يسمح لهما بلمْس النساء. إنهما يلمسان بعيونهما فقط. وأحرّك ردفيَّ قليلاً شاعرةً بتنّورتي الحمراء تتمايل. ذلك يشبه تحدي السلطات من وراء السور، أو مضايقة كلب بعظمة بعيدة عن متناوله، ثمّ أشعر بالعار من نفسي بسبب ذلك، فالذّنب ليس ذنبَ هذين الرجلين، فهما صغيران للغاية.

بعدئذ أجد أنني لا أشعر بالعار من نفسي أبدًا. بل أستمتع بالنفوذ، نفوذ العظْمة على الكلب. إنه نفوذ سلبيّ لكنه موجود هنالك. وآمل أن يعانيا من الانتصاب عند وقوع عيونهما علينا، ما يجعل كلّ واحد منهما يداعب نفسه دعكًا بالحواجز المطليّة في خِفية تامّة. ولسوف يعانيان ليلاً في سريريهما الخاضعين للنظم الصارمة. وهما الآن ليس أمامهما أي مخرج سوى نفسيهما وذلك في حد ذاته تدنيس للمقدسات وخرق للنواحي الدينية. لا مجلّات هناك ولا أفلام، لا بدائل. لا يوجد سواي وظلي من ورائي الآخذ في الابتعاد عن الرجلين اللذين يقفان وقفة انتباه عسكرية في تخشب صارم بجوار بوابة الطريق، ويرقبان قامتَينا الآخذتين في الابتعاد تدريجيا.

سرتُ في الطريق بخطوات مضاعفة. رغم أننا لم نعد داخل مجمّع مباني الرؤساء، فإنه توجد هنا أيضا بيوت كبيرة. أمام أحدها يقف وصيّ يشذّب حشائش حديقة. الحدائق أنيقة ومنظّمة، وواجهات البيوت فاتنة، حديثة الترميم، تشبه الصور التي اعتادت المجلات نشرها عن البيوت والحدائق والديكورات الداخلية. الناس يختفون من هنا أيضًا، وهواء النوم نفسه. الشارع يكاد يشبه المتاحف، أو هو شارع في مدينة نموذجية مشيدة لتوضح أسلوب الحياة التي اعتاد الناس عيشَه. ومثلما هو الحال في تلك الصور والمتاحف والمدن النموذجية، لا يوجد أطفال.

هذا هو قلب جلعاد[19]، حيث لا يمكن للحرب أن تقحم نفسها وتدخل إليها إلّا من شاشة التلفاز. لا نعرف على وجه الدقة حدودها. فهي حدود تختلف وتتغير طبقًا للهجمات والهجمات المضادة، لكن هذا هو قلْبها، حيث لا شيء يتحرّك. "جمهورية جلعاد" تقول الخالة ليديا "لا تعرف الحدود، فجلعاد تقبع داخلك." عاش أطباءٌ ذات يوم هنا، ومحامون، وأساتذة جامعات. لا محامين الآن، والجامعات مغلقة.

اعتدتُ السّير مع لوقا[20] سويًا بعضَ الأحيان في هذه الشوارع، واعتدنا الحديث معًا عن شراء بيت يشبه أحد هذه البيوت. بيت ضخم قديم، نُرمّمه ونهيّئ فيه حديقة ذات أراجيح من أجل الأطفال. سوف نُنجب أطفالًا، رغم وعينا كم هو صعب شراء بيت، لكن كان ذلك أمرًا نتحادث حوله، نتسلّى به في الآحاد. لكن، مثل تلك الحُريّة، تبدو الآن دون أهميّة.

ننعطف في سيرنا لندخل شارعًا رئيسًا حيث تتكثّف حركة المرور. السيارات تتجاوزنا، معظمها سوداء، وبعضها رماديّ وبُنّي. ثمّة نساء أخريات يحملن سلالاً، بعضهن في عباءات حمراء، والمَرْثيّات في عباءات خضراء، وبعضهن في عباءات

مخطّطة بالأحمر والأزرق والأخضر، وهي عباءات رخيصة وضئيلة الحجم، ترتديها نسوة الرّجال الفقراء، مَن يُطلَق عليهن زوجات الكَفاف[21]. وهؤلاء النسوة لا ينقسمن إلى طوائف حسب المهام التي يؤدّينها؛ فهنّ يُنجزن أشغالهن كلّها بأنفسهن. وأحيانًا نقابل نسوة ملفوفات بعباءات سوداء تمامًا، هنّ الأرامل. اعتاد الناس وجود مزيدٍ منهن، لكن أعدادهن في تناقُص مستمر كما يبدو.

لا تُرى الزوجات في الطّرق الفرعيّة أبدًا، بل في سيارات تعبر الطرق الرئيسة فقط. الطرق الفرعية هنا طرق إسمنتية. ومثل طفلة رحت أتجنّب وضع قدمي فوق الشقوق أثناء السير. إنني أتذكر قدميّ وهما تخطوان فوق هذه الطرق الفرعية في تلك الأيام السالفة، وأتذكر نوع الأحذية التي اعتدت انتعالها. أحيانًا كانت أحذية جَري، مبطّنة ولها ثقوب تهوية وتحمل نجومًا تعكس الأضواء في الظلام. ورغم أنني لم يسبق لي قط أن جريتُ في الليل، بل في النهار فقط جوار طرق يستخدمها أناس كثيرون، فإنني أعرف أن الحماية لم تكن متوفرة للنساء آنذاك.

أتذكر القواعد والقوانين. وهي قواعد لم تُتْلَ وتُقرأ أبدًا، لكنها معروفة لكلّ امرأة: لا تفتحي بابك لأي شخص أجنبي حتى لو قال عن نفسه إنه من رجال الشرطة، بل دعيه يدفع بطاقته الشخصية تحت عُقْب الباب؛ لا تتوقفي بسيّارتك في الطريق لمساعدة شخص مسافر يدَّعي أنه واقع في متاعب، بل استمرّي في غلق كل شيء ولا تتوقفي عن السير؛ لو قام أيّ شخص بالصّفير لك فلا تلتفتي للنظر إليه؛ لا تدخلي محلّات غسل الملابس بمفردك ليلاً.

أفكّر في تلك المحلّات، وماذا كنت ألبس عند الذهاب إليها: سراويل قصيرة جدًّا، وبناطيل جينز، وأخرى فضفاضة. أفكّر في ما كنت أحمل معي هناك: ملابسي، وصابون الغسيل، ونقودي، نقود كسبتها بنفسي. أفكر في تلك الدرجة من امتلاك المرء شأنه وتحكّمه به.

الآن نسير على الطريق نفسه مثل هيكلين حمراوَين، ولا أحد من الرجال يصيح بعبارات تجرح مشاعرنا أو يحاول التحدث معنا أو لمْسنا. لا أحد يصفِّر لنا.

"يوجد أكثر من نوع واحد من الحريّة" قالت الخالة ليديا، "الحريّة لِـ، والحريّة مِن.

ففي أيام الفوضى السياسية والعنف، كانت الحريّة هي الحريّة لِـ. لكنكن الآن تنلْن الحريّة مِن. فلا تبخسن قيمتها[22]".

قبالتنا، إلى اليمين، يوجد الدكان الذي نطلب منه أرديتنا، بعض الناس يطلقون عليها اسم «العادات». وهو اسم معبّر، فمن الصعب تحطيم العادات! للدكّان لافتة خشبية ضخمة على شكل زنبقة ذهبية، «زنابق الحقل[23]»، تستطيع رؤية بقعة، تحت الزّنبقة، حيث طُمست بعض الكلمات عندما قرّروا أنّ حتى أسماء الدكاكين تُشكّل إغراء لنا. والآن لا تُعرف الدكاكين إلاّ بأشكال لافتاتها دون أسماء. دكان الزنابق كان فيما مضى صالة سينما. يرتاده الطلبة بكثرة. ففي كلّ فصل ربيع يُقام مهرجان همفري بوغارت[24]، حيث تُعرَض أفلامه مع لورين باكال[25]، أو كاثرين هيبورن[26]، امرأتان تتصرّفان كما يرغبن، ويتخذن قراراتهن بأنفسهن. كانت كلّ منهما ترتدي قميصًا محلول الأزرار العُليا، موحيًا بنداء ما يقول «انزعني». وتلك المرأتان يعود إليهما وحدهما أمر حلّ أزرارهن أم لا، فقد كان يبدو عليهما أنهما قادرتان على الاختيار. وبدا علينا آنئذ أننا قادرات على الاختيار أيضًا. «كنّا مجتمعًا يحتضر» قالت الخالة ليديا، «بسبب وجود قدْر هائل من الخيارات الحُرّة المتاحة.»
لا أدري متى أوقفوا ذاك المهرجان، لا بدّ أنني كبرت في السنّ قليلًا، فلم ألحظ حدوثه.
لا ندخل دكّان الزنابق، بل نعبر الشارع وننعطف في شارع جانبيّ. في آخره، نتوقّف في أوّل مَقصَدٍ لنا، محلّ له لافتة خشبية أخرى: ثلاث بيضات ونحلة وبقرة. «لبن وعسل[27]»، هذا هو الاسم المطموس. ثمّة طابور من الناس وننتظر دورنا اثنتين اثنتين، وألحظ أنّهم يعرضون برتقالًا اليوم.
منذ سقوط أمريكا الوسطى في أيدي أحرار العقيدة[28]، أصبح من الصعب الحصول على البرتقال. حينًا يتوفّر وحينًا لا. الحرب تعيق قدوم البرتقال من كاليفورنيا، وحتى فلوريدا لا يمكن الاعتماد عليها عندما تكون هناك حواجز لإيقاف السيارات

وتفتيشها أو عندما تُنسَف خطوط القطارات. أنظر إلى البرتقال، وأتحرَّق شوقًا للحصول على واحدة. لكنني لم أُحضر معي أيّ قسيمة للبرتقال. ينبغي أن أعود وأخبر ريتا بتوفّرها، لسوف يُبهجها ذلك ويسرّها. فالحصول على البرتقال هو إنجاز صغير.

تلكم اللاتي وصلْن إلى طاولة الحساب، يمدُدْن أيديهن عبْرها بالقسائم لتسليمها إلى الرجلين المرتديين زيَّ الأوصياء، الواقفين على الجانب الآخر. لا أحد يثرثر كثيرا رغم تناهي حفيف من الكلام الهادئ إلى الأسماع، بينما رؤوس السيدات تتحرك خِفية وتتلصص من جانب لآخر: فالتسوق هنا يتيح الفرصة لمشاهدة شخص ما من المعارف القديمة. شخص عرفتَه في العهد السابق، أو التقيته في الدّار الحمراء[29]، فمجرّد أن تلمحي وجهها على ذلك النحو هو أمر مشّجع. آهٍ لو تمكّنتُ من رؤية مويرا. فقط لأعرف أنها ما زالت على قيد الحياة. من الصعب أن تتخيّل المرأة الآن أن لها صديقة.

لكن أوفغلن التي تسير جواري لا تدير رأسها إلى هنا أو هناك بحثًا عن أحد. ربما لم تعد تميّز أحدًا أبدًا. أو ربما أن مَن تعرفهن اختفين جميعًا، أو لا ترغب في أن يراها أحد. تقف صامتةً، منكسة الرأس.

بينما كنا ننتظر في الصفّ المزدوج، انفتح الباب ودخلت امرأتان، كلٌّ ترتدي عباءة حمراء وقلنسوة بيضاء، لباس الجواري. إحداهما حُبْلى حبلًا ضخمًا، فقد كان بطنها تحت رداءها الواسع متكوّر وبارز بانتصار. دبّ في المحلّ شيء من حركة مع همهمة وأنفاس هاربة، فنُعاند إرادتنا ونُدير رؤوسنا، بوقاحة صارخة، كي نحدّق بوضوح. أصابعنا تشتاق إلى لمسها. إنها كائنٌ سحريّ بالنسبة إلينا، موضوع حسَد ورغبة، نشتهيها. إنها علَم فوق تلّة، يُرينا ما الذي يمكننا تحقيقه بعد: نحن أيضًا يمكننا النجاة.

النساء في المحلّ تهامسن حتى كدن يتحدّثن؛ إنّهن مُستثارات للغاية.

"من تكون؟" أسمع أحدًا يسأل خلفي.

"أوفواين. لا. أوفوارن."

"هذا استعراض،" قال صوتٌ ضعيف، وهذه هي الحقيقة. فلا ينبغي على المرأة الحبلى الخروج إن كانت في أشهرها الأخيرة، وليس عليها أن تتسوّق. فعادَة سَير الحوامل اليوميّ للإبقاء على عضلات البطن ليّقة لم تعُد متاحة. إنها تحتاج فقط إلى تأدية تمارين الاستلقاء والتنفُّس. ولذا فإنّه يمكنها البقاء في البيت، فالخروج يهدّد سلامتها، ولا بدّ أن هناك وصيّ عند الباب ينتظرها. فالآن، لأنها تحملُ الحياة، فهي قريبة من الموت، لهذا تحتاج حماية خاصّة. قد تطالها يدٌ حاقدة، لقد حدثَ ذلك، فالأطفال مرغوبون الآن، لكن ليس أطفالًا من أيّ رجل.

قد يكون هذا السّير نزوة عابرة أرادتها، وهن يسايرن رغباتهن يتقدّم بهن الحمل حتى لا يعود الإجهاض محتملًا. أو ربما هي من بين أولئك القائلات راكمها كلّها، ولسوف أحملها! إنّها ضحيّة. لَمحتُ جانبا من وجهها، عندما رفعَت وجهها لتنظر حولها. ما نطق به الصوت خلفي كان محقًّا. لقد جاءت استعراضًا. إنّها مشعّة، متورّدة، وتستمتع بكلّ دقيقة من ألقها.

"هدوء" صاح وصيّ خلف طاولة الحساب، فسقطنا في صمت مطبق مثل فتيات مدارس. تقدّمتُ مع أوفغلن إلى طاولة الحساب. نمدّ قسائم الشّراء فيأخذها أحد الأوصياء ويُدخل أرقامها في الفاحوص الشّرائيّ[30]، بينما يناولنا الآخر مشترياتنا: اللبن والبيض، فنضعها في سلّتينا ونخرج عابرَتَيْن مرة أخرى جوار المرأة الحبلى ورفيقتها التي تبدو جوارها ضئيلة ومنكمشة، وهكذا نبدو جميعًا. بطن الحُبلى مثل ثمرة فاكهة هائلة. عملاقة، هذه إحدى كلمات طفولتي. ترتاح كفّاها على بطنها كما لو أنّهما تصدّان عنه أيّ خطر، أو تجمعان منها الدفء والقوة.

عندما أصبحت قبالتها، نظرت إليَّ نظرة ممتلئة، وحدّقت في عينيَّ مباشرة، فعرفتها. لقد جاورتها في الدار الحمراء. إنّها إحدى فتيات الخالة ليديا المفضّلات. لم أحبّها أبدًا. اسمها، في العهد السابق، كان جانين.

لحظتئذ، افترّت شفتا جانين عن ابتسامة متكلّفة. ثمّ هوَت ببصرها نحو بطني المسطّحة تحت ردائي الأحمر، فحجبَت القلنسوة وجهها، ولم أعد أرى سوى جبهتها، ورأس أنفها الوردي.

محطّتنا الثانية هي دكّان ذوات الأجساد[31] الذي تُميّزه لافتة خشبيّة على هيئة قطعة لحم تتدلّى بسلسلتين. الطابور هنا قصير، فأسعار اللحوم مرتفعة دومًا، والرؤساء أنفسهم لا يأكلونها كلّ يوم. أوفغلن تبتاع شريحة لحم للمرّة الثانية هذا الأسبوع، ولسوف أخبر المَرْثيّات بذلك: هذا هو نوع المعلومات التي يستمتعن بها، فهنّ حريصات على معرفة كيف تُدار البيوت الأخرى. تلك اللُقَم الصغيرة من النّميمة المثيرة للشفقة تدفعهن إمّا إلى الرّضا بوضعهن أو الحسرة.

أتناول الدجاجة، ملفوفة بورقة صقيلة رُبطَت بخيط. لم يعد استخدام البلاستيكيّات شائعًا. ما زلتُ أذكر أكياس البلاستيك البيضاء التي لا نهاية لها في البقالات الكبيرة، كم كرهتُ رميها ولذا كنت أجمعها تحت حوض الغسيل، إلى أن يجيء يوم أفتح فيه باب الخزانة فتطفر الأكياس وتنتشر على الأرض. شكا لوقا من ذلك كثيرا، ومن حينٍ لآخر يجمعها ويرميها.

"قد تُلبس رأسَها أحد هذه الأكياس" كان ليقول "تعرفين كيف يلعب الأطفال!". "لن تفعل ذلك أبدًا" لكنتُ أجبته، "إنها ناضجة" (أو ذكيّة، أو حسنة التصرّف) غير أني كنت سأشعر برعشة خوف باردة، متبوعة بشعور بالذّنب لأنني مُهملة. وذلك صحيح، فأنا أحمل مسلّمات كثيرة: لقد وثقت بالقدر حينئذ. "سأضعها كلّها أعلى الخزانة" لكنتُ قلتُ مُستأنفةً الكلام. "حسنًا، لا تُبقي عليها أبدًا" كان سيقول، "فنحن لم نستخدمها في أيّ أمر مفيد قط". "أكياسًا للقمامة،" كنتُ لأقول. ولقالَ ...

ليس هنا، ليس الآن. لا حيث ينظر إليّ الناس. ألتفت كي أرى انعكاسي الظّلّي على النافذة الزجاجيّة، فلقد خرجنا، صرنا في الشارع.

ثمّة مجموعة أناس يسيرون نحونا. إنهم سيّاح يابانيّون كما يبدو. قد يكونون وفدًا تجاريًا فى خضمّ جولة لرؤية المعالم التاريخية، أو الطبيعة المحليّة. إنّهم ضئيلون ومرتّبون جدًّا: يحمل كلّ واحد منهم – أو منهن – آلة تصوير وابتسامة. ينظرون حولهم بعيون برّاقة، ويميلون برؤوسهم إلى جانب واحد مثل طيور أبو

الحنّاء. وجدتُ في بشاشتهم المتدفّقة عدوانيّة، شراسَة لم أستطع معها منع نفسي من التحديق إليهم. لقد مرّ وقت طويل منذ رأيت تنانير بذاك الطول القصير على امرأة، فهي تقف تحت الركبة مباشرة، وتظهر السيقان منها في جوارب رقيقة شبه عارية بشكل صارخ. أمّا الأحذية العالية الكعوب، مع أشرطتها التي تُعقد حول السيقان، فهي أشبه بأدوات تعذيب مهذّبة. تتأرجح النساء في سَيْرهن مكبّلات السّيقان كما لو كن يسرْن على طُوّالتَين[32]، لكن دون فقدان الاتّزان. تتقوّس ظهورهن عند الخصر فتنتأ أردافهنّ وتبرز. كاشفات الرؤوس، سافرات الشعور، بكلّ سوادها الفاحم وشهوانيّتها. يضعن أحمر شفاه يحدّد أفواههنّ المبلّلة بلمعة تشبه لمعة كتابة سابقة على جدار استحمام.

أكفّ عن متابعة السير، فتقف أوفغلن جواري، أعرف أنها كذلك لا تملك أن تحوّل عينيها عن تلك النسوة. نحن منبهرتان بهن لكننا نرفضهن في الوقت نفسه؛ فهنّ يبدين بالنسبة إلينا عاريات. استغرقَنا الأمرُ وقتا قصيرًا كي نبدّل رأينا في شؤون كثيرة كالملابس.

حينها أفكّر: لطالما ارتديتُ ملابس مشابهة. تلك هي الحريّة. بدوتُ «غربيّة» كما اعتادوا القول.

سار السيّاح اليابانيون نحونا يتهامسون، فأدرنا رأسينا عنهم لكن بعد فوات الأوان، فقد شاهدوا وجهينا.

يرافقهم مترجم، ببدلته الزرقاء الرسميّة ورباط عنقها المقلّم بالأحمر، ويضع دبّوسًا له شكل عين تحمل جناحين. إنّه هو من برزَ من بين السيّاح، تقدّمهم ووقف قبالتنا سادًّا مجرانا. تدافع السياح وراءه مقتربين، ورفع أحدهم آلة تصوير.

"إذا سمحتما،" قال لنا معًا بدماثة جمّة، "إنهم يسألون إن كان في إمكانهم التقاط صورة لكما".

أُخفِض من بصري ناظرةً إلى الرصيف، وأومئ برأسي رافضة. فما يجب أن يشاهدوه هو القلنسوة البيضاء، مع شريحة من الوجه فقط، ذقني وجزء من فمي. لا العينين. وإنني لأحمل من المعرفة ما يُملي عليّ بألّا أنظر إلى وجه المترجم،

فمعظمهم عيون، أو هكذا يقال.

وإن معرفتي تُملي عليّ أيضًا بألّا أجيب طلبه وأقول «نعم». "الاحتشام يعني الاختفاء التامّ" هكذا قالت الخالة ليديا، "لا تنسين ذلك. فأن تُشاهَدنَ، أن تُشاهَدنَ، يعني – ارتعش صوتها – أن أحدهم اخترقكنّ، وما يجب عليكن، أيتها الفتيات، هو أن تكنَّ حصينات". نادتنا حينئذ بالفتيات!

أوفغلن جواري صامتة أيضًا. دسّت كفّيها ذوي القفازين الأحمرين كُلٌّ إلى تحت كُمّ، هكذا لتخفيهما تمامًا.

استدار المترجم نحوهم، وراح يحادثهم بكلمات مفكّكة وتهتهة. أعرف ما سيقوله لهم، أعرف السّطر الأهم. سيقول إنّ عادات النساء وتقاليدهن هنا مختلفة جدًّا، وإن التحديق إليهن عبر عدسة آلة تصوير هو، بالنسبة إليهن، عملٌ عنيفٌ وانتهاك.

ما زالت عيناي تنظران إلى الرّصيف، وقد بهرتني أقدام النسوة. ترتدي إحداهن صندلًا فيه فُتحة للأصابع، فظهرت أظافرها ورديّة الطلاء. أتذكر رائحة طلاء الأظافر، وكيف تتجعّد الطبقة الثانية من الطلاء إذا وضعتها على الأولى قبل جفافها؛ أتذكّر ملمس الجوارب السّاتانيّة على جلد السّاق؛ وأتذكر شعور أصابع القدمين تطفُر من فُتحة الصّندل بفعل ثقل الجسد كلّه. المرأة ذات الأظافر الورديّة تنقُل ثقلها من قدمٍ إلى أخرى، إنني بقدميّ أشعر بحذائها. رائحة طلاء الأظافر أشعرني بالجوع.

"إذا سمحتما" قال المترجم مرة أخرى كي يستعيد انتباهنا إليه، فأومأتُ برأسي أنني سمعته.

"إنه يسأل هل أنتما سعيدتان؟" قال المترجم. أستطيع استيعاب الفضول الذي قادهم إلى هنا: هل هُن سعيدات؟ وكيف ذلك؟ في قُدرتي الشعور بعيونهم السوداء البرّاقة متركزة علينا، فهم ينحنون إلى الأمام لتسقّط إجاباتنا، خاصّة النساء، لكن الرجال أيضًا فعلوا ذلك: نحن سرٌّ، نحن محرّمات، ولذلك نُثيرهم. لم تنبس أوفغلن ببنت شفة. حلّ الصمت بيننا وبينهم. لكن، أحيانًا، يغدو

الصّمت خطرًا خطورة الكلام.

"نعم، نحن سعيدتان للغاية" تمتمتُ. أنا مضطرّة لقول شيء ما، وما عساي أن أقول غير ذلك؟

6

تجاوزنا مربّعًا سكنيًّا بعد دكّان ذوات الأجساد، فتوقفت أوفغلن عن السّير، كأنّها حائرة أيّ الطّرُق نسلك. لنا الخيار: إمّا الطريق المباشِرة، أو الأخرى التي تُطيلها الاستدارة حول مقصدنا. نعرف أيّها سنختار، فنحن نتّخذها كلّ مرّة.

"أودُّ المرور بالكنسية" قالت أوفغلن خاشعةً متورّعة.

"حسنٌ" أجبتها رغم معرفتي مقصدها في الحقيقة.

نسير وقورَتَين. الشّمس وحدها في كبد السّماء سوى بعض السّحب البيضاء المنفوشة، تشبه غنمًا دون رؤوس. القلنسوتان حول وجهينا، حاجبتا الضوء، تصعّب علينا رفع أنظارنا، أو استقبال المشهد كاملًا للسماء أو لأي أمر آخر. لكننا نرى قَدْرًا ضئيلًا كلّ مرة، بتحريك الرّأس سريعًا إلى أعلى ثم أسفل، وإلى الجانبين والوراء. لقد تعلّمنا كيف نرى العالم في لقطات لاهثة.

ثمّة شارع إلى اليمين، لو أمكنك متابعة السّير إلى هناك لأفضى بك إلى النهر، حيث ينتصب كوخ مائي كانت مجاديف الزوارق تُحفظ فيه ذات يوم مع بعض الدعائم، وتنتصب أيضًا أشجار وتمتدّ ضفاف خضراء حيث يمكنك الجلوس ومشاهدة الأمواه والشبّان بأذرع عارية ترفع المجاديف عاليًا حتى الشمس بينما يتبارون للفوز. تعبُر، ذاهبًا إلى النهر، مساكن طلّاب قديمة جُيّرت الآن لأغراض أخرى، مع أبراجها الأشبه بتلك التي في الحكايات الخرافية، مطلية بالأبيض والذهبي والأزرق. عندما نتأمّل الماضي، فإن الأمور الجميلة هي ما نلتقط دون غيرها، راغبين في تصديق أنّ الماضي جميلٌ كلّه.

ملعب كرة القدم ما يزال قائمًا في الجوار، تُجرى فيه إنابة الذّكور، وأيضًا مباريات كرة قدم، أجل! ما زالوا يلعبونها.

لم أعد أذهب إلى النهر. لا أقطع جسورًا ولا أرتاد قطارات رغم أنّ المحطة قريبة من هنا. لن يُسمَح لن بالعبور، فالآن ثمّة أوصياء يحرسوننا، ولا أحمل سببًا

رسميًّا يدفعني إلى نزول درج المحطّة، وركوب قطارٍ يشقّ طريقه تحت النهر متوجّهًا إلى قلب المدينة. ولمَ قد نرغب في الذهاب من هنا إلى هناك؟ لن نحقق شيئًا نافعًا وسيكشفون أمرنا لا محالة.

ضيّقة هي الكنيسة، فهي بين أوائل الكنائس التي شُيّدت هنا منذ مئات السنين. لم تعد نشطة الآن فاتُّخذَت مُتحفًا[33]. ستشاهد داخلها لوحات سيّدات مرتديات فساتين طويلة دكناء، شعورهن مغطّاة بحجابات بيض، وثمّة لوحات لرجال منتصبي القامة، جهمين وملابسهم قاتمة[34]. أسلافنا. الدخول مجّاني.

رغم ذلك لا ندخل، بل نقف في الطريق ناظرين إلى فناء الكنيسة الذي يحوي شواهد قبور قديمة ما زالت قائمة، رغم تآكلها بسبب الطقس، وتحمل نقشَ جماجم وعظام متصالبة، إنّها الميمنتو موري[35]، بكلّ رموزها من ملائكة منتفخة الأوداج إلى ساعات رمليّة مجنّحة، تذكّرنا بانقضاء الحياة الدنيا وأيّامها. أمّا نقوش جرار رماد الموتى ونباتات الصفصاف فقد دخلت الميمنتو موري في قرنٍ لاحق، بُغية تذكيرنا بالفجيعة والحداد.

لم تلعبا بشواهد القبور أو تعبثا داخل الكنيسة، فالتاريخ الحديث هو مَن يُهينهن. رأس أوفغلن مُنكّس، كما لو كانت تصلّي. إنّها تقوم بذلك كلّما خرجنا للتسوّق معًا. ربما كان هناك شخص ما معين يهمها أمره قد انتقل إلى رحمة الله. أظنّ، ربما، أنّها فقدت أحدًا مثلي: زوجها، أو طفلتها. لكنني لا أصدّق ذلك تمام التصديق. ظنّي فيها أنها امرأة لا تفعل أمرًا إلّا لغرض الاستعراض. كلّ فِعل هو تمثيل، لا تمثُّل. تقوم بذلك لتبدو تقيّة، كما أظنّ. وإنها لعازمة على أداء ذلك ما أمكنها الأداء.

لكن هذا تمامًا ما يجب أن أبدو عليه – أنا أيضًا – أمامها، وهل يمكن غير ذلك؟

الآن ندير ظهرينا إلى الكنيسة، فنقابل ما جئنا في الحقيقة لرؤيته: الحائط[36].

الحائط جدُّ قديم أيضًا، عمره مئة عام أو أكثر. وهو، كما الأرصفة، شُيّد بطوب أحمر، وحتمًا كان ذات يوم خاليًا فبدا أنيقًا. لكن، الآن، ثمّة بوّابات مخفورة، وأضواء كاشفة جديدة ما أقبحها فوق قواعد معدنيّة تعلو الحائط. ثمّة أيضًا

أسلاك شائكة تسيّج قاعدته، وشظايا زجاج مخلوطة بحصى تفترش أعلاه.
لا يعبر أحد تلك البوّابات لأمرٍ فيه خَير. كل تلك الاحترازات وُضعت لمن يحاول الهرب، لكن أن تهرب إلى الحائط فقط من الداخل، متجاوزًا نظام الإنذار الإلكتروني، شبه مستحيل.
جوار البوّابة الرّئيسة تتدلّى ست جثث من أعناقها، أيديها معقودة أمامها، وقد أُلبسَت رؤوسها جوارب بيضاء وتميل مستندةً إلى أكتافها. أقيمت إنابات ذكوريّة حتمًا مبكّرًا هذا الصباح. لم أسمع قرع النواقيس التي أعلنت عن ذلك. ربما اعتدتها.
انتصبنا، معًا كأننا رهن إشارة. واقفتين ننظر إلى الجثث. لا يهمّ إذا نظرنا، بل يُفترض بنا ذلك: إنّها هناك لهذه الغاية، تتدلّى من الحائط. أحيانًا تبقى هناك أيّامًا حتى تُنابَ مجموعةٌ أخرى، وهكذا ستتاح فرصة رؤيتهم لأكبر عدد من الناس.
إنهم يتدلّون من خطاطيف مثبّتة في طوب الحائط نفسه لهذا الغرض. ليست مشغولة كلّها، تشبه ما قد يستعين به من ليست له أذرع، أو علامات استفهام فولاذيّة مقلوبة عموديًا وأفقيًا.
الجوارب تغطّي الرؤوس، إنّها أسوأ ما في المشهد، أسوأ من كشف الوجوه نفسها. إنّها تجعل الرجال يبدون مثل دُمى لم تُرسم وجوهها بعد، أو فزّاعات، إنهم فعلًا كذلك، فهم يريدون بها إقلاق الناس. أو كما لو أن رؤوسهم جوارب محشوّة بما لا يُعرَف، مثل الدقيق أو العجين. إنّه ثِقَلُ الرؤوس الواضح، إنّه فراغها، وطريقة الجاذبية في جذبها إلى أسفل دون أن تختلج فيها أيّ قوة حياتية لرفعها. الرؤوس أصفارٌ تامّة.
رغم ذلك، إذا تابعت التحديق والحملقة كما نفعل الآن، فإنّه يمكنك رؤية قسمات الوجه البارزة تحت القماش الأبيض، مثل ظلال رماديّة. الرؤوس رؤوس مجسّمات رجال الثلج، لكن عيونها الفحمية وأنوفها الجزريّة قد سقطت. الرؤوس راحت تذوب.

لكن ثمّة خيط دم نزّ من قماشة بيضاء لإحدى جوارب الرؤوس، حيث الفم لا شك. إنها تخلق فمًا آخر، صغيرًا مثل الأفواه التي يرسمها أطفال الحضانات بفُرشاة سميكة. إنّها ابتسامة في ذهن طفل. تلك الابتسامة الدمويّة هي ما يجذب الانتباه أخيرًا. فأولئك ليسوا مجسّمات لرجال ثلجيّين في نهاية المطاف.

ارتدى الرجال المشنوقون معاطف بيضاء، مثل تلك التي يرتديها الأطباء والعلماء، لكن ليس هؤلاء وحدهم من يُمكن أن يتدلّى هناك، فهناك آخرون، لكن لابدّ أنهم أُصطُفوا هذا الصباح. من عنق كلّ منهم تتدلّى لافتة تبيّن سبب الإعدام: لافتة على هيئة جنين بشري. لقد كانوا أطباء إذن في العهد السابق، عندما كانت ممارستهم تلك المهنة قانونيًّا. جالِبو الملائكة، هكذا كانوا يسمّونهم، أم أن لذلك معنىً آخر؟ لقد انكشفوا، ربما من خلال تفتيش سجلات المستشفيات، أو الأكثر احتمالا – بما أن أغلبها أتلفت سجلاتها المشابهة ما إن اتضح لها ما سيحدث – وشى بهم واشون: ممرّضات سابقات ربما، أو اثنتان منهن فقط، فشهادة امرأة واحدة ما عاد يُعتدّ بها؛ أو طبيب كان يؤمّل النّفس أن ينجو بجلده؛ أو آخر حُكم عليه فعلًا وراح في اندفاعة غاضبة يرجو يائسًا عدوّه، أو أيّ أحد آخر، الأمان. لكن الواشين تشملهم العقوبة غالبًا.

قيل لنا إن هؤلاء الرجال أشبه بمجرمي حرب. لا يُعتدّ به عُذرًا أن ما فعلوه كان قانونيًّا وقتئذ: إنّ جرائمهم تعود بأثر رجعي. لقد ارتكبوا فظاعات وحشيّة وينبغي أن يصبحوا عبرة للآخرين، رغم أن الحاجة إلى ذلك ليست ملحّة أبدًا. فلا توجد امرأة عاقلة، هذه الأيام، تسعى إلى منع حملها إذا كانت محظوظة جدًّا لتحمل أساسًا.

يُفترض أن يغمرنا شعور بالكُره تجاه تلك الجثث، والاحتقار أيضًا. لكن ليس ذلك ما يخالجني. فتلك الجثث المتدلية من الحائط هي عابرة للزّمن، مفارقات تاريخيّة. لقد جاءت إلى هنا من الماضي.

إنّي أشعر نحوها بخواء مجرّد. ما أشعر به هو اللاشعور. ما أشعر به، جزءٌ منه، هو ارتياح طفيف؛ لأن هؤلاء الرجال ليس بينهم لوقا. لوقا لم يكن طبيبًا، ليسَ كذلك.

أنظرُ إلى الابتسامة الحمراء الوحيدة. حُمْرة الابتسامة هي هي حُمْرة الزنابق في حديقة سيرينا جوي، عند كؤوس الأزهار حيث تلتئم. الحُمرة نفسها لكن دون رابط. الزنابق ليست زنابقَ من دم، والابتسامات الحمراء ليست أزهارًا، أحدها لا يُشير إلى الآخر. الزهرة ليست سببًا لنبذ الرجل المشنوق، والعكس صحيح أيضًا. كلّ واحد منهما موجود فعلًا، هو حقًّا هناك. إنه لمن خلال حقل من تلك الأمور الموجودة ينبغي عليَّ شقّ طريقي بحذر، كل يوم، وفي كل درب. أبذل جهدًا كبيرًا لأثبّت تلك الفروق، أحتاج إليها، أحتاج أن أكون ذهنيًّا واضحةً تمامًا.

أشعر بالمرأة جواري ترتعش. هل تبكي؟ وكيف سيُساهم ذلك في استعراضها؟ ليس عندي علم. كفّاي تُطبقان بشدّة على مقبض سلّتي. لن أدع شيئًا يُفلت منّي. "العاديّ" قالت الخالة ليديا "هو ما اعتدتموه فعلًا. قد لا يبدو ما تعيشونه عاديًّا لكُنّ الآن، لكنّه سيغدو كذلك مع مرور الوقت. سوف يصير عاديًّا".

III

ليل

الليل لي، وقتي، أفعل فيه كيف أشاء ما دمتُ هادئة، ما دمتُ ساكنة، ما دمتُ مستلقية هامدة. هناك فرق بين المُستلقي والمُضاجِع، فالأخير يُشير إلى شريك، لهذا أحَبّ الرّجال قول: أودُّ أن أضاجعها. كلّ ذلك تأمّل صِرف؛ فلستُ على دراية فعلًا بما اعتاد الرّجال قوله. أعرف فقط كلماتهم التي تُشير إلى ذلك[37].

وإذن، أستلقي في الغرفة، تحت تلك الزخرفة المدوّرة التي تشكّل إكليلَ زَهر في السّقف، إنّها عيْنٌ تراقبني من أعلى دومًا، ومن خلف الستائر البيضاء، ومن بين الشراشف المرتّبة، ثمّ أخطو جانبًا خارجةً من زمني هذا. خارج الزمن. لكن، هذا هو الزّمن، ولست خارجه.

غير أن الليل لي، زمني الذي أخرج فيه. وإذن، إلى أين أذهب؟

... إلى مكان جيّد.

تجلس مويرا على حافة سريري، السّاق على السّاق، واضعة كعبها على ركبتها. ملابسها قرمزيّة بالكامل، ويتدلّى منها قُرْطٌ واحد فقط، بينما أظافرها ذهبيّة الطلاء بقصد لفت الأنظار. تحمل سيجارة بين أصابعها القصيرة الثخينة ذات النهايات المصفرّة. "هيا بنا لنشرب الجعة".

"أنتِ تسقطين الرماد على سريري" قلت.

"لو كنتِ قد عزمتِ على الذّهاب لما تسبّبت بهذه المشكلة" قالت مويرا.

"بعد نصف ساعة" قلت لها، "أُعدّ بحثًا موعد تسليمه غدًا". عمّ كان؟ علم النفس ربما، أو اللغة الإنجليزية، أو الاقتصاد. درسنا موادّ كتلك سابقًا. ثمّة كتب تفترش أرضية الغرفة، كتب مقلوبة على وجهها، كتب مشرعة، كتب على هذا الحال أو ذاك. ترف.

"والآن" قالت مويرا "لا تحتاجي إلى طلاء وجهك، فأنا التي معك لا سواي. ما

الذي تتناوله ورقة بحثك؟ انتهيتُ مؤخّرًا من إعداد بحث عن الاغتصاب أثناء المواعدة[38]"

"الاغتصاب أثناء المواعدة؟" قلت لها "تميلين دومًا إلى المواضيع الرائجة حديثًا. يبدو اسم هذا النوع من الاغتصاب كأنّه اسم حلوى".

"ها ها ها" قالت مويرا "اجلبي معطفك هيّا"

جلبته بنفسها وألقته إليّ. "سأقترض منك خمسة دولارات، حسنٌ؟"

... أو إلى حديقة ما رفقةَ أمّي.

كم كان عمري؟ كان الشتاء قارسًا، ونرى أنفاسنا تتشكّل أمامنا. لا وريقات تحملها الأغصان؛ سماءٌ رماديّة، وبطتان بائستان في بركة. قطع خبز في كفّي وجيبي. وهذا كلّ ما في الأمر: قالت إننا ذاهبتان لإطعام البط.

لكن رأينا نساءً هناك يحرقن كتبًا، وهذا هو ما دعاها حقيقةً للمجيء. لكي ترى أصدقاءها. لقد كذبت عليّ. يُفترض بأيّام السّبت أن تُخصّص لي. استدرتُ مُستاءةً وابتعدتُ عنها نحو البطتين. لكن النيران دعتني، فقفلت راجعة.

ثمّة رجال هناك أيضًا مع النساء. وما ظننتها كتبًا التي تُحرق، كانت مجلات. لابدّ أنّهم سكبوا البنزين أوّلًا، فألسنة اللهب ناهضة متطاولة، ثمّ بدأوا يخرجون مجلّات من صناديق جوارهم، حزمة قليلة بعد أخرى. بعضهم كان يترنّم بأناشيد؛ فاجتمع المشاهدون.

السّعادة في وجوههم تتعاظم حتى الانتشاء. يمكن للنيران أن تفعل ذلك. حتى وجه أمّي، الشّاحب النحيل، بدا متورّدًا مبتهجًا مثل بطاقة أعياد ميلاد المسيح؛ وثمّة امرأة أخرى، ضخمة، لوّث السّخام أسفل وجنتها، وكانت ترتدي قبّعة برتقالية منسوجة. أتذكّرها.

"هل تريدين أن تُلقميها واحدة، عزيزتي؟" قالت لي. كم كان عمري؟ "نهاية جيّدة لنفاية سيّئة" قالت متضاحكة. "هل تمانعين؟" سألت أمي.

"إذا رغبَت هي في ذلك" قالت أمي؛ طريقتها في الحديث عنّي مع الآخرين تفترض

أنني صمّاء.
ناولتني المرأة مجلّة. يحمل غلافها صورة امرأة مُغرية، عارية وتتدلّى من السّقف بسلاسل حول معصميها. نظرت إليها باهتمام. لم تُخفني. ظننتها تتأرجح، كما يفعل طرزان وسط كروم العنب في التلفاز.
"لا تدعيها تراها" قالت أمي. "هاكِ" قالت المرأة "هيّا ألقِها، حالًا".
رميت المجلة في اللهب، فراحت رياح الحريق تتصفّح أوراقها. رقاقات ورق عريضة انشقّت، وارتفعت في الهواء، وفي النار ما زالت أعضاء جسديّة نسائيّة تشتعل فتطيرُ رمادًا أسود أمام عينيّ.

مكتبة

لكن ماذا يحدث حينها، لكن ماذا يحدث بعدئذ؟
أعرف أنني فقدتُ حبل الزمن.
حتمًا كان هناك إبَر، وحبوب، وأشياء من هذا القبيل. لم أكن لأفقد ذاك الوقت الطويل كلّه دون مساعدة! "تعرّضتِ إلى صدمة" قالوا لي.
سأنهض مشوّشةً وبأنفاس خائرة، مثل موجٍ للتوّ يعصف. أتذكّر سكينتي الداخلية التامّة، وأتذكّر صراخي، ربما شعرت أنّه صراخ غير أنّه لم يكن سوى همسة. "أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟"
لم أعرف ليلًا أو نهارًا سوى لُمَع. مضى بعض الوقت، عادت بعدها الكراسي إلى الظهور، ثمّ سرير، ثمّ نافذة. "إنها بين أيدٍ أمينة" قالوا "مع أكفّاء. وأنتِ لست كُفئة كما ينبغي، لكنّك تريدين الأفضل لها، أليس كذلك؟"
عرضوا عليّ صورة لها، تقف على عشب في الهواء الطلق، وجهها بدا بيضَويًا تامًّا، وشعرها الخفيف مشدود إلى الوراء ومعقود خلف رأسها. تمسك يدها امرأة لم أميّزها. طولها لم يتعدّ مرفق المرأة.
"لقد قتلتموها" قلت. بدت ملاكًا، مهيبة ومضمومة، مخلوقة من هواء، وترتدي فستانًا لم أره عليها قط، أبيض طويلًا يكسوها حتى الأرض.

أودُّ تصديق أن ما أحكيه مجرّد قصة. حاجَتي هي أن أصدّقها. يجب أن أصدقها. مَن يستطيعون تصديق أن القصص هي محض قصص يحملون فرصة أفضل لحكايتها.

إن كان ما أحكيه محض قصة، فإني أملك السيطرة على نهايتها. عندئذ سوف تغدو هناك نهاية للقصة، ولسوف تعاود الحياة الحقيقية جريانها بعدها. لي أن أستأنف القصّة من حيث تركتها عندئذ.

ليست قصة هذه التي أحكيها.

وما أحكيه هو في الوقت نفسه قصة، تدور داخل رأسي، بينما أتابع حياتي.

أحكي، لا أكتب. فليس عندي ما أكتب به. والكتابة محرّمة في جميع الأحوال. لكن إن كانت قصة، رغم دورانها في رأسي، فلابدّ أنني أحكيها لأحد. فأنت لا تحكي قصة لنفسك فقط. الآخَرُ هناك دومًا.

إنّه هناك، حتى لو لم يكن هناك أحد.

القصّة شبيهة برسالة. «إلى العزيز،» سوف أقول، مجرّد «العزيز» دون اسم. أن تُلحقها باسم يعني أن تلحَق أنت بعالم الحقائق، وهو أخطر، مُهلِك. فمن يعرف ما حظوظك هناك لتنجو. هل أقول «من عزيزتك»؟ سوف أقول «عزيزي»، عزيزي، كما أغنية حبّ قديمة. فقد تتوجّه إلى شعبٍ بأكمله.

إلى آلاف مؤلّفة.

لستُ في خطرٍ مُحدقٍ، سوف أقول لعزيزي.

سأتظاهر أنّك يا عزيزي تستطيع سماعي.

لكن لا فائدة من وراء ذلك، لأنني أعرف أنّك، يا عزيزي، لا تستطيع.

١٧

غرفة انتظار

ما زال الطقس جيّدًا، أشبه بطقس يونيو، حين نرتدي خفيفَ الملابس والصّنادل كي نذهب لتناول كوز بوظة. حديثًا تدلّت جثث ثلاثة من الحائط. أحدها لقسّيس في رداءه الكهنوتيّ، لقد ألبسوه إيّاه لمحاكمته، رغم أنّه اندثر وما عاد يُرتدى منذ سنوات طويلة، منذ اشتعال حروب الطوائف؛ فتلك الأردية تُبرزهم فيغدون أهدافًا سهلة. أمَّا الجثّتان الأخريان فقد عُلقت على رقبة كلّ منها لافتة بنفسجيّة كُتب عليها: الغدر بالجندر[39]. الجثّتان ما تزالان ترتديان زيَّ الأوصياء الرسميّ. ضُبطا معًا، لابدّ أنّ الأمر جرى كذلك، لكن أين؟ في ثكنة، في حمام؟ يصعب التخمين. مجسّم رجل الثلج ذي الابتسامة الحمراء قد راح وولّى.

"لابدّ أن نعود" أقول لأوفغلن، وكنت دومًا من يبادر بذلك. أشعر أحيانًا أنّها، إذا لم أقترح عليها العودة، فستبقى هنا إلى الأبد. لكن هل بكاءها هذا من حُزنٍ أم بهجةٍ شامِتة؟ لا أعرف.

ودون أن تنطق كلمة، استدارت في مكانها كما لو أنها تعمل بالأوامر الصوتيّة، أو تقف على عجلات صغيرة مزيّتة، أو واقفة في صندوق موسيقيّ. أمتعض من سماحتها هذه التي تبديها، من رأسها الخانع دومًا، المنحني كأنه يشقّ رياحًا عاتية، لكن ما من رياح هنا.

نغادر الحائط قافلَتين متّخذتين الطريق التي جئنا منها في شمس دافئة.

"يومٌ مايَويّ جميل..." تقول أوفغلن. أشعر – دون أن أرى – أن رأسها التفت إليّ، ينتظر إجابة.

"أجل" أقول لها" ثم أضيف بعد تفكير "له الحمد". ماي داي كان اسم نداء استغاثة[40] أُطلقَ خلال أحد الحروب التي درسنا وقائعها في المدرسة الثانوية. اعتدتُ ألّا أميّز بين "يومٌ مايَويّ" وبين "ماي داي"، لكن يمكنك تمييز إحداها عن الأخرى، لو ركّزت، إن كان الأمر المطروح يتناول الطائرات أم لا. لكنّه لوقا

من حدّثني عن ماي داي. يومٌ مايَويّ، ماي داي، للطيّارين إذا أصيبت طائراتهم، والسّفن – هل هو نداء استغاثة السفن أيضا؟ – أو ربما كانت السّفن تستعمل نظام إس.أُو.إس؟ ليتني أستطيع بحثَ المعلومة. أمّا إطلاق بشارة الانتصار فكان يبدأ بمقطوعة بتهوفن في إحدى تلك الحروب.

"هل تعرفين من أين جاءت الكلمة؟" قال لوقا "ماي داي؟"

"لا" قلتُ، "ما أغربها من كلمة للاستغاثة، أليست كذلك؟"

الصّحُف والقهوة، في صباحات أيّام الأحد، تُقرأ وتُرشَف منذ ما قبل ولادتها. ما زال ثمّة جرائد الآن. نتصفّحها خِفيةً في الأسرّة.

"إنها فرنسيّة" قال، "مُجتَرَحة من M'aidez".

أي، ساعدني.

ثمّة موكب صغير يتقدّم نحونا، إنّها جنازة: ثلاثة نسوة بأوشحة سوداء شفّافة ألقينها على وجوههن. زوجة كفاف، واثنتان أخريان، نادبتان، هما زوجتا كفاف أيضًا، ربما كانتا صديقتيها. ثيابهن المقلَّمة أبلاها العمل، كما وجوههن. "يومًا ما، عندما تتحسَّن ظروف الحياة" قالت الخالة ليديا "لن يعود على امرأة ما أن تكون زوجة كفاف".

الأولى هي الثّكلى، الأم: تحمل جرَّة سوداء صغيرة، تعرف بالنظر إلى حجمها عمر الطفل الفاسد[41] عندما جمُدَ داخلها ثم فاض. شهران أو ثلاثة، أصغر من معرفة أكان طفلًا فاسدًا أم لا. الأكبر منه والذين يموتون أثناء الولادة يوضعون في صناديق.

نكفّ عن السير، احترامًا، حتى يعبر الموكب. أتساءل ما إذا كانت أوفغلن تشعر بما أشعر الآن، وجعٌ مثل طعنة، في البطن. نضع يدينا على قلبَينا كي نُظهر لأولاء النسوة الغريبات أننا نشعر بهن ونشاركهن فقدهن. عبسَت الأولى في وجهينا من تحت حجابها. وإحدى الأخريان استدارت جانبًا وبصقت على الرصيف. زوجات الكفاف لا يحببْننا.

نتجاوز الدكاكين ونصل الحاجز مرّة أخرى، ويُسمَح بعبورنا. نستمرّ سائرتَين بين بيوت شاسعة تبدو شاغرة، ومساحات عشبيّة مُعتنى بها. عند ناصية قريبة من مقرّي، توقفت أوفغلن والتفتت نحوي.

"تحت عينه" تقول لي، التحيّة المُجازَة.

"تحت عينه" أجيبها، فتومئ لي إيماءة خفيفة. ثمّ تردّدت، كما لو أرادت قول شيء آخر، لكنها عندئذ تستدير مبتعدة في الشارع. أرقبها. إنها أشبه بانعكاسٍ لي في مرآةٍ أسيرُ مبتعدةً عنها.

نِك، في فناء السيّارات، يلمّع الزّوبعة من جديد. لقد وصل إلى الجزء المطليّ بالكُرُوم في الخلف. أضع يدي المقفّزة على مزلاج البوابة، أفتحها، وأدفعها نحو الداخل. تنطبق البوّابة ورائي. لم تكن الزنابق على طول السياج بهذه الحُمرة من قبل، متفتّحة، لا كما كؤوس النبيذ، بل مثل الطّاس المقدّسة[42]: ناشرةً بتلاتها نشرًا. لكن إلى أي مدى؟ إنها رغم ذلك فارغة، ما إن يتقدّم بها العمر حتى تقلب باطنها ظاهرها، ثم تتفجّر على مهلها، ناثرة بتلاتها كِسَر فخّار.

يرفع نِك عينيه ويُطلق صفيرًا. ثم يقول: "نزهة مُبهجة؟"

أومئ له، دون إجابة صوتيّة. يُفترض به ألّا يوجّه حديثًا إليّ. "حتمًا سيحاول بعضهم» قالت الخالة ليديا "فكلّ ذي جسد ضعيف". «كُلُّ ذِي جَسَدٍ عُشْبٌ» صحّحتُ الآية بيني وبين نفسي. "لا يملكون إزاء ذلك شيئًا" قالت "فطَرَهم الرّب هكذا، لكنّه لم يفعل المثل بكن. لقد أنشأكنّ خلاف ذلك، وهبكن قُدرة إقامة الحدود. ولسوف تُشكَرن إذا فعلتُن"

خلف البيت، في الحديقة، هناك الزوجة جالسة على مقعد أخرجَته معها. سيرينا جوي، يا له من اسم غبي، كأنّه اسم مستحضرٍ للشعر في زمن آخر، سنين مضت، من أجل تقويم اعوجاج خصلاته. سيرينا جوي، لكنتَ قرأته مطبوعًا على علبة، مع رأس امرأة ظِلّيّ مقطوع مستوي الحوافّ، فوق خلفيّة بيضويّة ورديّة ذات أقواس ذهبيّة. من بين كل الأسماء المتاحة لها، لمَ اختارت ذلك الاسم؟ لم يكن سيرينا جوي اسمها الحقيقي قط. إنّ اسمها الحقيقي وقتئذ هو بام. قرأت ذلك في

ملفّ أعدّ عنها في مجلّة إخباريّة، وذلك بعد سنوات طويلة على أوّل مرة شاهدتها فيها تغنّي أثناء نوم والدتي المعتاد في صباحات الأحد. لكنها كانت حينئذ جديرة بأن يُفرَد لها ملفّ: مجلة تايم ربما، أو نيوز ويك، كانت حتمًا أحدهما. توقّفت عن الغناء آنئذ وراحت تُلقي خطبًا. كانت متمكّنة من ذلك. دارت خطبها حول قداسة البيت، وأنه ينبغي على النساء أن يقَرْنَ فيه. لكن سيرينا جوي نفسها لم تقر، بل راحت تلقي الخطب هنا وهناك، مبرّرة ذلك أنّها تقدّم فشلها هذا كتضحية في سبيل المنفعة العامّة.

خلال ذلك الوقت، أطلق شخص عليها النار لكنه أخطأها، فأمينة سرّها التي تقف خلفها مباشرة هي من أصيبت وسقطت صريعة. وزرع شخص آخر قنبلة في سيارتها انفجرت مبكّرًا فنجت، وقال بعض الناس إنها هي التي وضعت القنبلة في سيارتها من أجل جذب تعاطف الناس. إلى ذلك الحدّ كانت حياتها ساخنة.

كنتُ مع لوقا نشاهدها أحيانًا في فقرة الأخبار منتصف الليل، كلّ منّا يرتدي ثياب نومه وقبّعته. نرى شعرها المثبّت وهستيريّتها، ودموعها التي تستطيع سفحها متى أرادت، والمَسْكرة التي تسوّد وجنتيها. بحلول تلك الفترة من حياتها المهنيّة باتت تضع مزيدًا من مستحضرات التجميل. اعتقدنا أنها مُضحكة. أو لوقا هو من اعتقد أنها مُضحكة. تظاهرتُ وحسب أنني أشاركه الرأي. فهي في ظنّي مُفزعة قليلًا. كانت متطرّفة.

لم تعد تلقي خطبًا ألبتّة. غدت بكماء. تقرّ في بيتها ولا يبدو أنّ ذلك يلائمها. يا للنقمة التي تحملها، الآن وقد أُخذَت بكلامها.

تتأمّل الزنابق. عكّازها جوارها، على العشب، وجانب وجهها نحوي. أرى ذلك بلمْحةٍ جانبيّة خاطفة ألقيتها إليها أثناء مروري جوارها. لا جدوى من الحملقة. لم يعد وجهها، جانبيًا، رأسًا ظلّيًا مقطوعًا مستوي الحواف، راح وجهها يغرق في نفسه، مثل تلك الأحياء التي شُيّدت فوق أنهار جوفية وانهارت، فاختفت بيوتها وشوارعها بين ليلة وضحاها مشكّلة مستنقعًا؛ أو مثل أحياء عمّال مناجم الفحم التي تنهار على المناجم تحتها. لا بدّ أن أمرًا شبيهًا بذلك حدث لها بمجرّد أن رأت ما

تدعو إليه يغدو حقيقيًّا ويُقبل نحوها.

لا تُدير رأسها. لا تقرّ بوجودي بأيّ طريقة كانت، رغم معرفتها أني حولها. أدرك ذلك حتمًا، إنّ له رائحة، أعني إقرارها: شيء ما يتحمّض، مثل حليب فسَد.

"ليس الأزواج من عليكن الاعتناء بهم" قالت الخالة ليديا، "بل الزوجات. لابدّ أن تتحسّسن دومًا دخائلهنّ، ولسوف يصدذنكنّ، وذاك فِطريّ. فلتحاولن مراعاتهن". لطالما ظنّت الخالة ليديا أنها بارعة في مراعاة الآخرين. "فلتشفقن عليهن. اغفرن لهن، لأنّهن لا يعرفن ماذا يفعلن[43]". ومرّة أخرى، ترتسم على شفتَي الخالة ابتسامة راجفة، ابتسامة شحّاذ، برفيف عينَين مستضعفتَين، ونظرة عُلويّة من خلال دائرتَي إطار النظارة المعدنيّ نحو آخر قاعة التدريس، كأن السقف ذا الطلاء الجصّي الأخضر سينشقّ عن الربّ في سحابة ورديّة متلألئة تتنزّل عبر أسلاكٍ ومِرَشّات مياه إطفاء. "يجب أن تدركن أنهن مقهورات، فلم يستطعن أن..."

وفي هذه اللحظة ينقطع صوتها، وتمتدّ لحظة صمتٍ لا أسمع خلالها سوى تنهيدة، تنهيدة جماعية تطلقها الجالسات حولي، حيث من السيّء التقلقل أو التململ أثناءها: قد تبدو الخالة ليديا ذاهلةً شاردة الذهن، لكنها في الحقيقة واعية لكلّ اختلاجة. ولذا، لا شيء سوى التنهيدة.

"المستقبل بين أيديكن" تابعَت الحديث. ثم مدّت يديها نحونا، ذلك الإيحاء العتيق بالهِبَة، دعوة التقدّم للَمّ الشّمل، لتبادل الرّضا. "بين أيديكن" قالت، وأخفضت نظرتها نحو يديها كأنّهما من أوحى إليها بذلك. لكنّهما فارغتان. إنها أيدينا التي من المفترض أن تكون ممتلئة، بالمستقبل؛ الذي يمكنك حيازته، دون أن تراه.

أنعطف سائرة نحو الباب الخلفي، أفتحه، ألِج، وأريح سلّتي على منضدة المطبخ. لقد فُركَت المنضدة وأزيلت عنها بقايا الطحين؛ أرغفة اليوم خُبزَت توًّا، وقد صُفّت لتبرُد في محفّة المخبوزات. تنتشر في المطبخ رائحة الخميرة، رائحة حنين ما. تذكّرني بمطابخ أخرى، مطابخ كانت لي. تنتشر فيه رائحة الأمهات، رغم أن أمّي لم

تكن تخبز الأرغفة. تلك رائحتي، في أزمان سالفة، عندما كنت أمًّا.
هذه رائحة غادرة، وأعرف أنني لابدّ أن أخرسها.
إنّ ريتا هناك. تجلس إلى المنضدة تُقشّر جزرًا وتقطعه إلى شرائح. جزر قديم ثخين، وقد مرّ عليه الشّتاء وهو في المخزن، وقد أشعثها مكوثها ذاك. أمّا الجزر الطازج، الليّن الباهت، فلن يأتي دوره إلّا بعد أسابيع. تستعمل سكّينًا حادّة تبرُق، جذّابة. أودّ سكّينًا كتلك.
تكفّ ريتا عن تقطيع الجزر، تنهض، وتخرج اللفائف من السلّة، كابحةً فضولها العارم. إنّها تتطلّع إلى معاينة ما جلبته، رغم أنها دائما ما تتجهَّم عند فتحها؛ لا شيء ممّا أجلبه يُرضيها تمامًا، فهي تظنّ أنّها قادرة على أداء عملي أفضل منّي. هي من يجب أن تتسوّق، أن تجلب ما تحتاجه بالضبط؛ وإنّها لتحسدني على الخروج من هنا وحسب. في هذا البيت، لا يفتأ بعضنا يحسد بعضًا على أقلّ الأشياء.
"إنّ لديهم برتقالًا" أقول لها، "في محلّ لبن وعسل، وما زال هناك بقيّة منه"، أمدّ لها هذه المعلومة مثل هِبَة. أريد أن أتملّقها. لقد رأيت البرتقال أمس، لكنّني لم أخبر ريتا، فلقد كانت حينئذ نَكِدة. "أستطيع أن أجلب لك بعضها غدًّا، إذا زوّدتني بالقسائم" وأُخرج لها الدجاجة. لقد أرادت شريحة لحم اليوم، لكنّها ليست متوفّرة.
نخرَت ريتا، لا الرّضا أبدته ولا القبول. سوف تفكر في الأمر، هذا ما تعنيه نخرتها، في ساعات راحتها. تحلّ الخيط المعقود حول الدجاجة وتُزيل الورقة الصّقيلة. تنخسها، تلوي جناحًا وتدفع إصبعها في تجويفها، تريد نزع أحشائها. تستلقي الدجاجة دون رأس ولا قدمين، حبيبات جلدها منتفخة كما لو أنّها تقشعرّ.
"يوم الغسيل" تقول ريتا دون أن تنظر إلي. تدخل كورا المطبخ قادمة من حجرة المؤَن في الخلف، حيث يُبقون أدوات التنظيف أيضًا. "دجاجة!" تقول، مبتهجة قليلًا.
"هزيلة" تقول ريتا "لكن علينا أن نؤدّي بها المطلوب".
"لم تكن هناك خيارات أخرى" أقول، لكن ريتا تتجاهلني.

"تبدو كبيرة بما يكفي، في نظري"، تقول كورا. هل تساندني؟ أنظر إليها لأعرف هل عليَّ الابتسام؛ لكن لا، إنّه الطعام وحده ما تفكّر فيه. إنها أصغر سنًّا من ريتا؛ شعاع شمس مائل ينفذ من النافذة الشرقية ساقطًا على شعرها المفروق المشدود إلى الوراء. لابدّ أنها كانت جميلة حتى وقت قريب. ثمّة علامة مثل نقرةٍ صغيرة في كلا أذنيها، حيث اتّسع ثقبا الأقراط فمحتاها.

"إنها طويلة،" تقول ريتا "لكنها ناتئة العظام. كان عليك الاعتراض عليها في المحلّ" ناظرةً إليّ مباشرة لأوّل مرّة "فأنت لست من عامّة الناس" إنّها تعني طبقة الرّئيس. لكن من زاوية أخرى، زاويتها، هي تصنفني من عامّة الناس. تجاوز عمرها السّتين عامًا، لقد باتت أفكارها ثابتة.

تسير إلى حوض الغسيل، تُجري يديها سريعًا تحت صنبور الماء، ثمّ تجفّفهما بفوطة الأطباق. الفوطة بيضاء ومقلّمة بالأزرق. بقيَت فوط الأطباق كما كانت دومًا. ومضات الحياة العاديّة كتلك تندفع إليّ أحيانًا جانبيًّا، كأنّها تتربّص بي، مثل كمائن. العاديّ، المألوف، إنّه تذكار، أشعر به مثل ركلة. أرى فوطة الأطباق خارجة عن سياق الحاضر، فأحبس أنفاسي. بالنسبة إلى البعض، بطريقة ما، لم تتبدّل الأمور كثيرًا.

"من سيقوم بالغسيل؟" تقول ريتا، موجّهة حديثها إلى كورا، لا إليّ "فلابدّ أن أُطَرّي هذا الطائر".

"سأغسل فيما بعد،" تقول كورا "بعد تنفيض الغبار".

"أسألُ لكي تُنجَز الأعمال وحسب" تقول ريتا.

تتحدثان عنّي عادّة كأنني لا أستطيع سماعهما، فأنا بالنسبة إليهما عملٌ منزليّ آخر، بين أعمال عديدة.

لقد صُرِفتُ. ألتقط السلة، أعبر باب المطبخ وأقطع الرواق نحو دولاب السّاعة ذات البندول. باب غرفة الجلوس مُطبَق. أشعّة الشمس تنفذ من كُوّة الباب، ساقطة على الأرض في ألوان حمراء وزرقاء وبنفسجيّة. أخطو في الألوان وأشرع

يديّ فتمتلئان أزهارًا ضوئيّة. أرتقي الدرج. وجهي بعيد شاحب ومشوّه، تؤطّره مرآة جدار الرّدهة، وجهٌ تجحظ عيناه كأنّه مضغوط. أتبع السجادة الورديّة غُباريّة اللون المفرودة طول الدرج والرّدهة العلويّة، عائدة إلى الغرفة.

ثمّة من يقف في الرّدهة العلويّة، قُرب باب الغرفة التي أقرّ فيها. جَوّ الرّدهة ساحرٌ مُحبّب، إنّه رجل وظهره إليّ، وهو يُلقي نظرةً إلى داخل الغرفة، فبدت قامَته مُظلمة من زاويتي إزاء ضوء الغرفة قبالته. اتّضحت رؤيتي الآن، إنه الرئيس. لا يُفترض به أن يتواجد هنا. يسمعني قادمة، يستدير، يتردّد، يتقدّم. نحوي. إنّه يُخالف الأعراف المتّبعة هنا. ما الذي ينبغي عليّ فعله الآن؟
أكفّ عن السّير. يتوقف. ما زلت أرى وجهه في غبَش. إنه ينظر إليّ. ماذا يريد؟ أتساءل. عاود التقدّم نحوي. ثم راح في خُطوة جانبيّة لكي يتجنب لمسي. يرفع رأسه. يضمحل.
لقد كُشفَ لي أمرٌ ما، لكن ما هو؟ مثل علَم أرضٍ لا أعرفها، يُرى خطفًا يرتفع في قمّة تلّة، قد يُشير إلى هجمةٍ قادمة، أو دعوة لمفاوضات، أو يُثبت حدًّا ما، مِلكيّة ما. كما تُشير الحيوانات بعضها إلى بعض: جفنان مُزرقّان متهدلان، أذنان مطويّتان إلى الخلف، وشعر عُنُق منتصب، وومضة من تكشيرة أنياب. ما الذي يظنّ أنّه فاعل بحقّ الجحيم؟ لم يره أحد سواي. آمل ذلك. هل يُعدّ العدّة لغارة ينويها؟ هل دخل غرفتي؟
الآن، أدعوها «غرفتي».

غرفتي، إذن. لابدّ أنّ ثمّة مساحة، في النهاية، أدّعي امتلاكها، حتى في هذا الزّمن. أنتظر، في غرفتي، فهي نفسها غرفة انتظاري. وحين النوم تُمسي غرفة نومي. ما زالت الستائر تتمايل مع النسائم، والشمس ساطعة لكن أشعّتها لا تنفذ مستقيمة من النافذة، فقد غدت في الغرب. أحاول ألّا أروي أيّ حكاية. أو، في كلّ الأحوال، ليس هذه الحكاية تحديدًا.

ثمّة مَن عاش في هذه الغرفة، قبلي. شخص ما مثلي، أفضّل تصديق ذلك.

اكتشفت ذلك بعد ثلاثة أيام على مكوثي هنا.

وحظيتُ بوقت فائض. قرّرت تزجيته في اكتشاف الغرفة. لا خطفًا، كما يفعل المرء في غرفة فندقيّة، دون توقّع أقلّ مفاجأة، يفتح أدراج المكتب والخزانة، ويغلقها، وينزع غلاف الصابونة الصغيرة، وينخس الوسائد. هل سأتواجد في غرفة فندقيّة مرة أخرى؟ لكم أهملتها، تلك الغرف، تلك الحريّة في أن أحدًا لا يراني. كأنّ الحريّة رُخصَة كانت مُعارَة لنا.

خلال ساعات النهار المتأخّرة، في فترةٍ كان لوقا فيها هاجرًا زوجته، حين ما زلتُ رؤى خياليّة بالنسبة إليه، قبل أن يتزوّجني فأتشكّل وأصبح ملموسة – كنتُ أسبقه في الذهاب إلى الفندق لأحجز غرفة لنا. لم نقم بذلك مرّات كثيرة، لكن تبدو لي الآن كأننا اعتدناها لعَقد كامل، لعَصْر بأكمله. أتذكّر ما ارتديت، كلّ قميص وكلّ وشاح. كنت أذرع الغرفة في انتظاره، أدير التلفاز وأطفئه، وأضع عطرًا خلف أذنَي، اسمه «أفيون»، يأتي في زجاجة صِينيّة، حمراء ذهبيّة.

كنت قلِقة. كيف لي أن أعرف أنه يحبني؟ ربما كانت هذه العلاقة بالنسبة إليه نزوة فقط. لماذا نقول دائمًا «فقط» رغم أن الرجال والنساء وقتئذ يجرّب بعضهم بعضًا باعتياديّة كما الملابس، رافضين ما لا يلائمهم.

تعلو طرقَة على الباب. أفتح، مرتاحةً، شَبِقة. كان لحُظِيّ الأفعال، كثيفها، ورغم

ذلك تبدو أبعاده دون الإحاطة. كنا نستلقي في تلك الأسرة، عصْرًا بعد أن ننتهي، أيدينا متشابكة، مستغرقَين نتباحث أمرنا. ممكن. مستحيل. ما الذي يمكن فعله؟ عانينا من تلك الأسئلة. كيف لنا معرفة أننا حقًّا سعيدان؟

لكنّها الغرف نفسها ما أشتاق إليه أيضًا، حتى إلى تلك اللوحات التشكيليّة المروّعة، المعلقة على الجدران: مناظر طبيعيّة لتساقط أوراق خريفيّة؛ أو ذوبان ثلوج في غابات أشجار صلدة؛ أو نساء يرتدين أزياء عصريّة، بوجوه أشبه بالدّمى الصينية، وحشو أرداف ومظلّات شمسيّة؛ أو مهرجون حزانى العيون؛ أو جفنات مليئة بفاكهة تبدو يابسة طباشيريّة الشّكل. الفوط النظيفة معدّة لنا كي نتلفها، والسّلال تفغر أفواهها مرحّبة، تُغري برمي المهملات. خالية البال. كنتُ خالية البال في تلك الغرف، أرفع سماعة الهاتف فيجيء إليّ الطّعام محمولًا على صحَفَة، طعام اخترتُه. طعام كان يضرّ صحّتي تناوله، وخمرٌ أيضًا. كانت هناك نسخ من الكتاب المقدّس في أدراج التسريحات، توزّعها جمعيّة خيريّة ما، رغم أنّه لا أحد يقرأها كثيرا. ثمّة أيضًا بطاقات بريدية، تحمل صورًا للفندق، تستطيع أن تكتب على أحدها وتبعثها إلى من تشاء. تلك أمور غدت مستحيلة الآن، كأنّها من وحي خيالك.

وإذن، أكتشف هذه الغرفة برويّة، خلاف الغرف الفندقيّة التي ضيّعت فرصة استجلاءها. لم أرغب في إنجاز ذلك كلّه مرّة واحدة، بل وددتُ أن أطيل المسألة. قسّمتُ الغرفة إلى أجزاء، بيني وبين نفسي؛ سمحتُ لنفسي اكتشاف جزء واحد كلّ يوم، وهذا الجزء قيد الاكتشاف كنت أفحص دقائقه فحصًا: تموّجات الجصّ تحت ورق الجدران؛ خدوش قواعد الجدران وإطار النافذة، وتشقّقات طبقة الطلاء الأخيرة؛ بقع الفراش أيضًا، فقد مضيتُ في ذلك متماديةً حتى رفعت اللحاف والشراشف، لكن ليس تمامًا، بل طويتها إلى الوراء في مكانها ورحت أعيدها رويدًا رويدًا لكي يسهل عليّ إعادتها سريعًا عند مجيء أحد.

بقع الفراش. مثل بتلات زهور جفّت هناك. ليس مؤخّرًا، بل حُبّ قديم: من بين صنوف الحبّ كلّها، هذا الصّنف هو ما يوجد في الغرفة فقط.

عندما وقعت عيني على تلك البقع، دليل تركه شخصان لممارسة حبّ ربما، أو أمرًا يُشبهه، أثر رغْبَة على الأقل، مجرّد لمسة، بين شخصين ربما طعنا الآن في السنّ أو ماتا. نضّدتُ الفراش مجددًا واستلقيت عليه. رفعتُ نظري إلى السقف، نحو تلك العين العمياء الجصيّة. أردت أن أشعر بلوقا مستلقيا جواري. تنتابني، تلك الهجمات الماضويّة، مثل وَهَنٍ، موجة تغمر رأسي. أحيانًا تتعذّر ولادة الذكريات. ما الذي ينبغي فعله حينئذ؟ ما الذي ينبغي فعله؟ لا شيء في الإمكان. تلك الهجمات تتقدّم أيضًا إلى مَن يكتفي بالوقوف وانتظارها، أو الاستلقاء وانتظارها. أعرف لماذا زجاج النافذة مُقاوِم للتشظّي، ولماذا أزالوا الثريّا. أردتُ أن أشعر بلوقا مستلقيا جواري، لكن لم يكن هناك متّسع له.

أبقيتُ على الخزانة الجداريّة دون تفتيش حتى اليوم الثالث. في البدء تفحّصت الباب، وجهه وظهره بعناية. ثم الجدران بخطاطيفها النحاسيّة – كيف أغفلوها؟ لماذا لم يزيلوها؟ هل لأنّ مستواها أقرب إلى الأرض منه إلى شيء آخر؟ رغم ذلك، فإنّ جوربًا نسائيًّا هو كل ما تحتاجه. ثمّ العمود الأفقيّ ذا المشاجب البلاستيكيّة، تتدلى منها أرديتي، وقُبّعة شتاء صوفيّة حمراء، ووشاح. جثوتُ كي أتفحّص الأرضية، وهنالك عثرتُ عليها. كلماتٌ بخطّ بالغ الصّغَر، حديثة كما يبدو، خُدشَ الجدار بها بدبوس، أو ربما بأظفر إصبع، في الركن الداخليّ حيث أدكن الظّلال القائمة: نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم[44].

جهلتُ معنى العبارة، واللغة التي كُتبت بها. اعتقدتُ أنها، ربما، لاتينية. لكنني لم أتعلّم اللاتينية قط. رغم ذلك فإنّها رسالة، رسالة مكتوبة، وهي محرّمة بسبب ذلك، ولم يكتشفها أحد بعد، عدايَ أنا، من تتوجّه إليه الرسالة. إنها موجّهة إلى القاطن التالي في هذه الغرفة.

سرّني تأمّلها. سرّني أنّني أتناجى وتلك المرأة المجهولة. ذلك لأنها مجهولة، أو إذا كانت معروفة فإنها لم تُذكَر لي قط. سرّني إدراك أن رسالتها المحرّمة نجحت في شقّ طريقها إلى شخص واحد على الأقل، أمضت وقتها على جدار خزانتي الجداريّة حتى فتحتها وقرأتها. أكرّر أحيانًا تلك الكلمات لنفسي. إنها تهبني سعادةً صغيرة.

عندما أتخيل المرأة التي كتبتها تبدو لي كأنّها تبلغ من العمر ما أبلغه، أو أصغر قليلاً. ثمّ أحوّلها إلى مويرا، مويرا كما كانت في الجامعة، تسكن الغرفة المجاورة لغرفتي: مراوغة، مرحة، رياضيّة، عندها درّاجة ذات يوم، وحقيبة ظهر للحركلة[45]. فيها نمش، أظنّ، وجراءة، ودهاء.

أتساءل مَن كانت، أو مَن تكون الآن؟ وماذا حدث لها؟

حاولتُ مع ريتا يومَ عثوري على الرسالة.

"مَن هي المرأة التي أقامتْ في تلك الغرفة" سألتها "قبلي؟" لو طرحتُ السؤال عليها بشكل مختلف، لو أنّني قلت "هل أقامت امرأة في تلك الغرفة قبلي؟" لما وصلت إلى أيّ نتيجة.

"أيّها؟" قالت، بنبرة متذمّرة، متشكّكة. لكن، لطالما كان صوتها هكذا عندما تتحدث إلي.

إذن، كانت هناك أكثر من امرأة. بعضهن لم يقضين فترة إقرارهنّ هنا كاملة، سنتين. بعضهن أُبعدنَ لسبب أو لآخر. أو ربما لم يُبعَدن؛ هل رحلن؟

"ذات النمش" كنتُ أخمّن "المرحة".

"هل كنت تعرفينها؟" سألت ريتا، والشكّ بلغ فيها مبلغه.

"أجل أعرفها" كذبت، "سمعتُ أنها أُرسلَت إلى هنا".

صدّقت ريتا قَولي. هي تعرف أنّ الشّائعات تنتشر، بطُرُق سريّة أو بأخرى.

"لم تنجح".

"كيف ذلك؟" سألتها، محاولة أن تبدو نبرتي محايدة ما أمكنني.

لكنّ ريتا زمّت شفتيها. أبدو قبالتها مثل طفلة. ثمّة أمور لا ينبغي إطلاعي عليها. ما لا تعرفينه لن يؤذيك. ذاك كلّ ما كانت ستقوله لو نطقَت.

أغنّي أحيانًا، بيني وبين نفسي، ترانيمَ جِداديّة، متفجّعة، كنَسيّة.

نعمةٌ عجيبة

يا له من صوت جميل

أنقذَ عبدًا مثلي من هلاكٍ ذليل

مَن غدا صالحًا بعد فساد

مَن بات حُرًّا دون أصفاد[46]

لست واثقة أن تلك الكلمات هي كلمات الترنيمة دون تحريف. لا أتذكّرها جيّدًا. لم يعد أحد يترنّم بها ولا بمثيلاتها علنًا، بِخاصّة تلك التي تحوي كلمات مثل «حُريّة». فهي تُعتبر جدّ خطرة؛ لأنها تخصّ الطوائف الخارجة على القانون.

أنا وحيد، يا حبيبي

أنا وحيد، يا حبيبي

أنا وحيد حتى الموت[47]

هذه الأغنية محظورة أيضًا. سمعتها أوّل مرّة من شريط كاسيت قديم لأمّي. لديها مسجّلة تشوّش الأصوات قليلًا ولا يمكن الوثوق بها، لكنها تستطيع أن تُدير تلك الأشرطة، فتفي بالغرض عندما يزور أمي أصدقاؤها، ويحتسون بعض كؤوس الشراب.

لكنني غالبًا لا أغنّي على ذاك النّحو المكتوم، إذ لا يسلَم حلقي من الألم.

ليس للموسيقى مكان في هذا البيت، سوى ما ينبعث من التلفاز. أحيانًا تهمهم ريتا أثناء العَجن أو التقشير؛ همهمة دون كلمات، لا نَغَم فيها، مُبهمة. وأحيانًا يتناهى من غرفة الجلوس الأمامية صوت رفيع يعود إلى سيرينا جوي نفسها، منبعثًا من أسطوانة أُعدّت منذ فترة طويلة، وتُدار الآن بصوت منخفض جدًّا كي لا يقع عليها أحد بينما تستمع إليه أثناء الحياكة، متذكّرة مجدها العالي سابقًا، المبتور حاليًّا: هلّلوا!

الأجواء حارّة خلال هذه الفترة من السّنة. بيوتٌ كهذه ترفع حرارتها الشّمس. فلا عوازل حراريّة كافية. الهواء من حولي ساكن، رغم تيّار ضعيف، نفَس، ينفذ متجاوزًا السّتائر. أودُّ لو أستطيع أن أشرع النافذة على مصراعيها. سوف يُسمح لنا قريبًا بارتداء الملابس الصيفيّة.

أُخرجت الملابس الصيفيّة وباتت معلّقة في الخزانة. بينها رداءان من القُطن النقيّ، وذلك أفضل من الموادّ الاصطناعيّة التي تُحاك بها الأردية الرّخيصة. لكن، رغم ذلك، حين يغدو الجوّ رطبًا، خلال يوليو وأغسطس، فإنّك تتصبّب عرقًا داخلها. "رغم ذلك، فلا داعي للقلق من حروق الشّمس" قالت الخالة ليديا "أو القيام بالاستعراضات كما كانت النساء يفعلن. كن يدهنّ بشرتهن بالزيوت، مثل سفود لحمٍ يُشوى، وظهورهن عارية كما أكتافهن، في الشارع، علنًا، وسيقانهن لا تستُرها حتى جوارب. لا عجب أن تلك الأمور كانت تحدث". «تلك الأمور» عبارة تستعيض بها عن ذكر أفعال بلغت من الشناعة حدًّا منعها من عبور شفتيها. الحياة الناجحة بالنسبة إليها هي تلك التي تتجنّب تلك الأمور، الخالية من تلك الأمور. فتلك الأمور لا تحدث للنساء الفاضلات. وهي ليست في صالح مظهَر البَشَرَة، أبدًا، فهي تجعّدها كما تفّاحة مجفّفة. لكن ليس من المفترض بنا الاهتمام ببشرتنا. لقد نسيَتْ ذلك.

"في الحديقة العامة" تابعَت الخالة ليديا، "كان ثمّة بُسُط مفروشة يستلقي عليها رجال ونساء متجاورين"، وهنا شرعت تبكي، منتصبةً أمامنا، بكامل هيئتها.

"إنني أبذل ما وسعني" قالت، "أحاول أن أهبكنّ أفضل فرصة قد تتاح لكُن" ثمّ طرفت عيناها، كان الضوء ساطعًا للغاية عليهما، وارتعش فمها حول أسنانها الأماميّة، أسنان بارزة قليلًا وطويلة، ومائلة إلى الصّفرة. فخطر لي عثورنا على فأر ميت بين حين وآخر عند عتبة بابنا، عندما كنا نعيش معًا في منزلنا، ثلاثتنا، أو أربعتنا إذا حسبنا قطتنا، فهي التي تقدّم تلك العطايا.

ضغطتْ الخالة ليديا بكفّها فمها، فم القوارض ذاك. مرّت دقيقة قبل أن تزيحها. أردتُ البكاء أيضًا، فقد أطلقت فيّ الذّكريات. "لو أنّ القطّة فقط لا تلتهم نصف

صيدها قبل تقديمه إلينا" قلت للوقا.

"لا تظنّن ذلك سهلًا عليّ" قالت الخالة ليديا.

تدخل مويرا عاصفةً غرفتي، مُلقيةً معطفها الدنيميّ[48] على الأرض. "هل تحملين أي سجائر؟" قالت.

"في حقيبة يدي" قلتُ لها، "لكن لا أعواد ثقاب".

تنقّب مويرا الحقيبة. «تخلّصي من بعض هذه المهملات» تقول، «سأقيم حفلة كسوة العاهرة[49]".

"تقيمين ماذا؟" أقول لها. لا مجال لإنجاز أيّ عمل في وجود مويرا، فهي لن تسمح بذلك. إنّها قطّة تدبّ فوق الصّفحة أثناء محاولتك القراءة.

"تعرفين، مثل الحفلات المنزليّة لبيع منتجات معيّنة على المدعوّين، أنا أبيع في الحفل ملابس داخليّة مُثيرة. تلك التي ترتديها العاهرات. قِطَع مفتوحة ما بين السّاقين. مشدّات جوارب. حمّالات صدر تُبرز الحلمتين". تعثر على قدّاحتي وتشعل سيجارة استلّتها من الحقيبة. "هل ترغبين في واحدة؟" وتلقي إليَّ العلبة مُدّعية كرمًا بالغًا دون أن تأخذ في الاعتبار أنّها لي.

"ألف شُكر" أقول بحموضة، "أنت مجنونة. من أين حصلت على فكرة كهذه؟"

"لكي أستطيع مواصلة الدراسة في الجامعة" تقول مويرا، "علاقاتي واسعة. أحد أصدقاء أمّي سيزوّدني بالملابس. تلك أمور منتشرة في الضواحي، إذ ما إن يبرز على جلودهم النّمش الشيخوخيّ حتى يحاولون خداع الزّمن. لهذا ثمّة دكاكين لبيع الألعاب الجنسيّة وكلّ ما تريدين".

أضحك. ولطالما أضحكتني.

"لكن هنا؟ في السكن الجامعيّ!" أقول لها "مَن سيأتي؟ مَن يحتاج إليها؟"

"لا يغدو الإنسان يافعًا جدًّا على تحصيل التجربة" تقول، "هيّا تشجّعي، ستكون حفلة عظيمة. سوف نبول في ثيابنا من الضحك!"

هل كنّا نعيش هكذا؟ عشنا الحياة كما تجري كل يوم، الجميع كان كذلك كالمعتاد، معظم الوقت. مهما كان الذي يجري، فهو يجري كالمعتاد. كما أنّ ما يجري علينا الآن، هنا، بات معتادًا.

لا شيء يتغير خلال لحظة واحدة، فلو استلقيت في مغطس استحمام ترتفع حرارة مياهه تدريجيًّا، فسوف تُسلَق حيًّا حتى الموت قبل أن تُدرك ذلك. ثمّة قصص، في الصّحف المتاحة لنا بالطبع، عن العثور على جثث مُلقاة في قنوات مياه أو غابات، جثث ضُربَت بالهراوات حتى الموت أو شُوّهت، عُبثَ بها كما يقولون. لكنّها كانت جثث نساء أخريات، والرّجال الذين أجرموا كانوا رجالاً آخرين. لا نعرف منهم أحد. قصص الصحف أحلام بالنسبة إلينا، كوابيس رآها آخرون. «يا للشناعة» نقول، فهي كذلك فعلًا، لكنها شناعة لم نكن نصدّق حقًّا وقوعها. تحمل من الميلودراميّة ما يفوقنا. إنها تحدُث في بُعدٍ مغاير تمامًا لبُعد حياتنا.

نحن الذين لا نظهر في الصحف، نعيش في بياض هوامش الصفحات. نحظى بحُريّة أوسع.

عشنا في الفواصل بين قصّة وأخرى.

يتناهى إليّ في الأعلى، من فناء السيارات، صوت مُحرّك يُدار. نحن في حَيّ هادئ، حركة المرور خفيفة، ولذلك يمكن بوضوح سماع دوران محرّك، أو آلة تشذيب العشب، أو قصقصة أشجار السّياج، أو انطباق باب. يمكن سماع صرخةٍ ما صافية، أو طلقة نارية، إن كان لتلك الضوضاء أن تحدث أبدًا هنا. تتناهى إلينا أحيانًا صفّارات إنذار بعيدة.

أخفّ إلى النافذة وأقتعد كرسيّها، ضيّق للغاية، لا يُريح جالسَه. إنّ له وسادة مُحاكة تحمل كلمة «إيمان» في إطار مربع مُحاط بالزنابق. حيكَت «إيمان» بالأزرق الباهت، أمّا وُريقات الزنابق فبالأخضر الداكن. استُخدمت الوسادة في مكان آخر، فهي بالية لكن دون الرّثاثة لكي يُلقى بها في المهملات. لقد أُهمل وجودها، بطريقة ما.

أمضي الدقائق، عشراتٍ منها، مُجريةً عينيّ على «إيمان». إنّها الشيء الوحيد الذي أعطوه لي كي أقرأه. إذا عُثِرَ عليّ أقرأ الكلمة، فهل سيحاسبونني على ذلك؟ لستُ مَن جلب الوسادة هنا.

محرّك السيّارة يدور. أميل إلى الأمام لأطلّ من النافذة، جاذبة الستارة البيضاء إلى وجهي كأنّها الحجاب. إنّها شبه شفافة، أستطيع الرؤية من خلالها. وإذا ضغطت جبهتي على الزجاج ونظرت إلى أسفل فإن مؤخّر سيارة الزّوبعة هو كلّ ما أراه منها. لا أحد هناك. وأثناء ذلك، رأيت نِك يقترب من باب السيّارة الخلفي ويفتحه، ثمّ ينتصب متأهّبًا جواره. قبّعته موضوعة باستقامة الآن وكُمّاه مفرودان ومزرّران. لا أستطيع رؤية وجهه، فأنا أنظر إليه من فوق.

الرّئيس يخرج الآن. ألمحه خطفًا يسير إلى السيارة. لا يعتمر قبّعته، ولذلك فإنها ليست مناسَبة رسميّة تلك التي يتّجه إليها. شعره رمادي. ويمكنك القول إنّه فضّي إذا أردت أن تتلطّف قليلًا. لكنّني لا أريد أن أتلطّف وإيّاه. إنّ وليّي قبل هذا كان أجْرَد الرّأس، وليس هذا سوى نسخة مُحسّنة عن ذاك.

لو أمكنني البصق من النافذة، أو إلقاء غرَضٍ ما، الوسادة مثلًا، لأصبته.

أنا وموبرا معنا أكياس مُلئت ماءً. كانت تُسمى قنابل مائيّة في ذلك الوقت. نُطلّ من نافذة غرفة سكني الجامعيّ ونرميها على رؤوس بعض الأولاد في الأسفل. تلك فكرتها. إذ ما الذي كانوا يحاولون فعله؟ يتسلّقون سُلَّمًا من أجل ماذا؟ ملابسنا الداخلية.

ذلك السّكن الجامعي كان يومًا ما مختلطًا. ثمّة مبوَلات ما تزال موجودة في دورة المياه الخاصة بطابقنا. لكن بحلول وقت وصولي الجامعة أعادوا الرجال والنساء منفصلين كما كانوا دومًا.

ينحني الرّئيس، ينفذ إلى السيارة مختفيًا داخلها. يُطبق نك الباب وراءه. تعود السيارة إلى الخلف بعد لحظات، تعبر الفناء، تدخل الشارع، تختفي وراء السياج. ينبغي عليّ أن أشعر بالكراهيّة نحو هذا الرجل. أدرك أنه ينبغي عليّ ذلك، لكن

ما أشعر به نحوه ليس الكراهية. إنّه أكثر تعقيدًا. لا أدري ما أسميه. لكنه ليس الحب.

صباح الأمس ذهبت إلى الطبيب. اصطحبني إلى هناك أحد الأوصياء، فثمّة مجموعة منهم يضعون شرائط حمراء على أذرعتهم، يتولون تلك المهام. استقللنا سيارة حمراء. هو في الأمام، وأنا في الخلف. لم ترافقني امرأة ثانية، توأمَتي. في تلك المناسبات أكون مُنفردة.

يُرسلونني إلى الطبيب مرة كلّ شهر لإجراء فحوصات: بول، وهرمونات، وسرطان عنق الرّحم، ودم. الفحوصات نفسها كما كانت دومًا، لكنّها الآن إجباريّة.

تقع عيادة الطبيب في مبنى حديث. نرتاد المصعد في صمت. الوصيّ قبالتي. أستطيع رؤية ظهره منعكسًا على مرآة المصعد السوداء. أدخل العيادة بينما ينتظرني خارجها في ردهة المبنى، مع غيره من الأوصياء، يجلسون في مقاعد موضوعة للانتظار.

داخل العيادة، في غرفة الانتظار، ثمّة نسوة غيري. بينهن ثلاثة في أردية حمراء. هذا الطبيب أخصّائي. بعضنا ينظر إلى بعض خِفية، تحاول الواحدة منّا تقدير حجم بطون الأخريات: هل بيننا من ابتسم لها الحظّ؟ تُدخل الممرضة أسماءنا وأرقامنا من تصاريحنا في جهاز الفاحوص الطبّي[50]، لتتأكّد من أننا النساء المطلوب الكشف عليهن، لا مُنتحلات. يبلغ طول الطبيب ستة أقدام، ويقارب عمره الأربعين عامًا. ثمّة ندبة قُطريّة مائلة عبر وجنته. يجلس منهمكًا في الطباعة، كفّاه كبيرتان على لوحة المفاتيح. ما زال يعلّق مسدّسه في جراب الكتف.

عندما يُنادى باسمي، أعبر المدخل إلى الغرفة الداخلية. بيضاء دون أيّ ملمح مميّز، مثل غرفة المدخل، ما عدا السّاتر الخشبيّ في مدخلها: يحوي إطاره قماشة حمراء، رُسمت عليها عيْن ذهبيّة، تحتها سيف ذو ثعبانين يلتفّان حوله كأنّ رأسيهما يشكّلان مقبض النّصل. الثعبانان والسيف نُتَفٌ من رموز بادَت[51].

بعد أن ملأت العلبة الصغيرة التي تُركت جاهزة لي في دورة المياه الصغيرة، خلعت

ملابسي خلف السّاتر الخشبي، وتركتها مطوية على كرسيّ في الجوار. عندما صرتُ عارية، تمدّدتُ على سرير الفحص فوق برودة ملاءة الفحص الورقيّة وخشخشتها. أجذب الملاءة الثانية، القماشيّة، أغطّي بها جسدي كاملًا. ثمّة ملاءة ثالثة تتدلّى من السّقف وينتهي طرفها عند عنقي. إنها تقسمني بحيث لا يتمكن الطبيب من رؤية وجهي أبدًا. إنّه يعمل مع جذعي فقط.

فورَ أن أتمم استعداداتي، أمدّ يدي باحثةً عن مقبض جانب سرير الفحص، فأجذبه. يُقرَع جرسٌ في مكان آخر، لا أسمعه. وبعد دقيقة يُفتح الباب، تتقدّم خُطىً منّي، أشعر بأنفاسه. لا يُفترض به توجيه أيّ حديث إليّ إلاّ عند الضرورة القصوى. لكن هذا الطبيب مهذار.

"كيف تسير أمورنا، هل مِن تقدّم؟" تراكيب لفظيّة سادَت فيما مضى. تُرفع الملاءة عن جسدي. تيّار هوائيّ يُرعشني. يدْخُلني مُنزلقًا إصبعٌ بارد في قفّاز مطّاطي، ومدهون بمزلّق. يندسني، ينخسني. يتقهقر قليلًا ثمّ يندفع في اتجاه آخر. يخرج تمامًا.

"لا شيء يستدعي القلق" يقول الطبيب كأنّه يحدّث نفسه، "هل تشعرين بأيّ ألم، يا عسل؟" يناديني عسلًا!

"لا" أقول.

يتحسّس نهديّ أيضًا بحثًا عن أيّ كُتلة صُلبة، خبيثة. تقترب أنفاسه منّي فأشم دخانًا عتيقًا وعطر حلاقة الذّقن، رائحة نثار التبغ العالق في شعره. ثمّ أسمع صوتًا رقيقًا عند رأسي مباشرة: إنه هو. يُبعد ملاءة السّقف عن وجهي.

"يمكنني مساعدتك،" يقول هامسا.

"ماذا تقول؟" أقول له.

"صَه" يقول، "يمكنني مساعدتك، لقد ساعدت أخريات".

"مساعدتي؟" أقول له بنبرة منخفضة مثله، "لكن كيف؟" هل يعرف أمرًا ما، هل قابل لوقا؟ هل عثر على...؟ هل يمكنه إعادة...؟

"كيف أساعدك في رأيك؟" قال هامسًا ما وسعه الهمس. هل تلك كفّه تدبّ على

ساقي؟ لقد نزع القفاز عن أصابعه.

"الباب موصد القفل، لن يفاجئنا أحد. لن يعرفوا أبدًا أنّه ليس ابنه".

يرفع الملاءة. نصف وجهه السفليّ مُغطى بقناع شاشِيّ أبيض، مُحكَم. أرى عينين بنيّتين، وأنفًا، ورأسًا بنّي الشّعر أيضًا. يده بين ساقَيّ.

"أغلب أولئك الرّجال بلغوا عمرًا يصعُب عنده إنجاز المهمّة" يقول، "أو أنّهم عقيمون".

كدتُ أشهق. لقد فاه بكلمة محرّمة. «عُقم». ما عاد يُطلق ذلك على الرّجال، ليس بشكلّ رسميّ. ثمّة نسوة مثمرات وأُخَرٌ مُجدبات، هذا هو القانون.

"معظم النساء يُقدِمن على ذلك" يقول، "تريدين طفلًا، أليس كذلك؟"

"أجل" أقول له. وتلك حقيقة، ولا أسأل لماذا، لأنني أعرف. هب لي بنين، وإلا فأنا أموت. ثمّة أكثر من معنى لهذه الآية[52].

"إنّك طريّة" يقول، "وهذا وقت مناسب. اليوم أو غدًا سوف تعزمين على فعلها، فلمَ تضيعين الفرصة الآن؟ لن يستغرق ذلك سوى دقيقة، يا عسل". هل كان ينادي زوجته يا عسل؟ ربما لا يزال يناديها كذلك. لكنها في الحقيقة كلمة شاملة. فكلّ امرأةٍ عسل.

أتردّد. إنه يعرض نفسه علي. يعرض خدماته. معرّضًا نفسه للخطر.

"أكره رؤية ما يفعلونه بك" يهمهم. إنه صادق، تعاطفه صادق، لكنه يستمتع بالأمر، التعاطف وغيره. عيناه بلّلتهما الشّفقة. كفّه تجري على جسدي، متوتّرة نافدة الصّبر.

"إنّه أمر خطير جدًّا" أقول له، "لا. لا أستطيع". حَدّ ذلك هو الموت. لكن ينبغي أن يقبضوا عليك في معمعة الفعل، مع شاهدين. ما هي احتمالات حدوث ذلك، هل الغرفة مراقبة؟ هل ثمّة مَن ينتظر في الخارج؟

تكفّ يده عن الحركة. "فكّري في هذا الأمر" يقول لي، "لقد اطّلعتُ على الرّسم البيانيّ لتقدّمك. لم يعُد أمامك وقت طويل. لكنّها حياتك أنت في النهاية"

"شكرًا" أقول له. لابدّ أن أترك انطباعًا أنني لستُ مستاءة، ومنفتحة لاقتراحات

أخرى. يسحب كفّه عن جسدي، بتكاسل، مترويًّا. فلن يكون الرّفض كلمتي الأخيرة كما يظن. يمكنه تزوير النتائج، مدّعيًا أنّي مصابة بالسرطان، غير قادرة على الإنجاب. حينئذ سوف أُرسَل إلى المستعمرات مع أشباه النساء. لا شيء من ذلك قيل، لكن معرفة القوّة التي بين يديه تهوّم في الهواء فوقنا، بينما يربِّت على فخذي، ويتقهقر خلف ستارة السّقف.

"الشهر القادم" يقول.

أرتدي ملابسي خلف السّاتر الخشبيّ. يداي ترتعشان. لماذا أنا خائفة؟ لم أتجاوز أيّ حدود: لم أثق في أحد، ولم أخاطر. جرى كل شيء آمنًا. إنّه الاختيار ما أرعبني: طريق الخروج، الخلاص.

يقع الحمّام جوار غرفة النوم. جدرانه مغلّفة بورق مزيّن بزُهيرات «لا تنسيني[53]» مع ستائر تلائمها. ثمّة سجّادة زرقاء على الأرض، وواقٍ أزرق من الفرو الصّناعي على مقعد المرحاض؛ إنّ كل ما يفتقده هذا الحمّام من العهد السّالف هو تلك الدّمية التي تخفي تحت تنّورتها لُفافة محارم إضافيّة. ما عدا، أيضًا، أن مرآة حوض الغسيل قد أُزيلَت وحلّ مكانها مستطيل قصديريّ، وأزيل قفل الباب. وبالطبع، لا شفرات حلاقة هناك. في البدء، تواترت الحوادث في الحمّام: قطْع عروق، وغرق. ذلك قبل أن يسدّوا كلّ المنافذ المتاحة. تجلس كورا على مقعد في الرّدهة لتتأكّد أن أحدًا آخر لن يدخل الحمّام المشغول. "في الحمّام، في المغطس، تُمسين ضعيفات" دون أن توضح أمام ماذا.

الحمّام ضرورة كما أنّه ترف. ترف لمجرّد رفع القلنسوة البيضاء الثقيلة والحجاب، لمجرّد تحسّس شعري بيدَي. تلك رفاهية. بات شعري طويلًا دون تشذيب. "ينبغي أن يكون الشعر طويلا لكن مغطى" قالت الخالة ليديا، "قال القديس بول إمّا كذلك وإمّا أن يُحلق بموسى" ثمّ ضحكت ضحكتها المكتومة تلك الأشبه بالصّهيل، كما لو أنّها قد ألقت نكتة.

أجرت كورا الماء في المغطس، فغدا مثل طاسة حساء. أنزع ملابسي: الرّداء، وقميصًا داخليًا أبيض، وتنّورة، وجوربين حمراوين، وسروالًا قطنيًّا فضفاضًا. "السروال الضيّق يقيّح ما بين الفخذين" لطالما قالت مويرا ذلك. لم تكن الخالة ليديا لتقول أبدًا كلمة مثل «قيح». بل «غير صحيّ» هو تعبيرها. فقد أرادت لكلّ شيء أن يكون صحيًّا ما أمكن.

أمسى عُريِيْ غريبًا عليّ. كأنّ جسدي قد عفا عليه الزمن. هل ارتديتُ فعلًا ملابس السّباحة عند الشاطئ؟ بلى، فعلتُ دون تردد، على مرأى من الرجال: ساقاي وذراعاي وفخذاي وظهري معروضين لمن أراد أن يرى. يا للعار، يا للبذاءة. أتجنّب

النزول بنظري إلى جسدي، لا لأنه عار وبذيء، بل لا أريد أن أراه. لا أريد النظر إلى شيء يحدّد هويّتي تمامًا.

أخطو في الماء، أستلقي، يضمّني. ناعمٌ هو الماء، كالأيدي. أغلق عينيّ فإذا بها بغتةً هنا، معي، دون مقدّمات، لابدّ أنّها رائحة الصابون. أسند وجهي إلى شعرها الناعم خلف عنقها، وأستنشقها. أشمّ مسحوق النظافة الطفوليّ، لحمَ الصّغيرةِ المغسول، غسول الشّعر، وخيط رائحة باهتة لبولها. تأتي في عُمرها هذا دومًا عندما أدخل مغطس الاستحمام. فهي تعود إليّ في أعمار مختلفة. هكذا أوقن أنها ليست في الحقيقة شبحًا. فلو كانت كذلك لأتت دائمًا وهي تبلغ عمرًا لا يتغيّر. ذات يوم، عندما كانت تبلغ من العمر أحد عشر شهرًا، على وشك السّير، سرقتها امرأة من عربة التسوّق. حدث ذلك خلال يوم سبت، وهو اليوم الذي نُنجز خلاله أنا ولوقا مهمّة التسوّق الأسبوعية؛ فكلينا موثوق بوظيفة يؤديها وسط الأسبوع. كانت تجلس في مقعد الأطفال الذي تحويه عربات التسوّق آنئذ، بفُتحتين لمدّ السّاقين. كانت مسرورة ولاهية، فالتفتُّ نحو قسم أطعمة القطط، كما أظنّ. لوقا كان بعيدًا في الجهة الأخرى من المحلّ، خارج مجال رؤيتي، في قسم اللحوم. لطالما أحبّ انتقاء اللحوم التي سنتناولها خلال الأسبوع. يقول إن الرّجال يحتاجون إلى تناول اللحوم أكثر من النساء، وإن ذلك ليس معتقدًا خرافيًّا وإنّه لا يحاول أن يكون مستفزًّا، بل أُجريت الأبحاث حول هذا الشأن. "ثمّة بعض الفوارق" قال. كان شغوفًا بقول ذلك، وكأنني أحاول برهنة العكس. غالبًا ما يردّد ذلك عندما تزورنا والدتي. راقَ له تهييجها.

سمعتها عندما شرعت تجهش. فاستدرت وإذا بها على وشك الاختفاء في آخر الممرّ، محمولة بين ذراعي امرأة لم يسبق أن رأيتها. فصرختُ، وأُوقفَت المرأة. كانت في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها. بكَت قائلة إن الطفلة طفلتها، إن الربّ منحها الطفلة، فقد أراها العلامة. أسِفتُ لتلك المرأة. اعتذر منّي مدير المحلّ، وأُوقفَت هناك حتى وصول الشرطة.

"إنها مجنونة" قال لوقا.

ظننتُ أن تلك الحادثة نادرة الوقوع وقتئذ.

إنها تتلاشى. لا أستطيع إبقاءها هنا معي. اختفت تمامًا الآن. ربما اعتقدت حقًّا أنها شبح. شبح طفلة ميتة. طفلة ضئيلة ماتت في الخامسة من عمرها. أتذكّر صورنا التي كانت عندي ذات يوم، أمسكها، في حركات تصويريّة متعارف عليها، صورة أُمّ وابنتها، مؤطّرة في سلام. بعينين مغلقتين أستطيع رؤية نفسي، كما أفعل الآن، جالسة جوار دُرج مفتوح، أو صندوق، في القبو، حيث ملابس الطفلة القديمة مطوية ومخزّنة، مع خصلة قُصت من رأسها عندما بلغت العامين وحُفظَت في مغلّف. كانت شُقرتها بيضاء. ازداد شعرها دُكنةً لاحقًا.
لستُ أملك تلك الأشياء الآن، الملابس وخصلة الشعر. أتساءل ماذا حدث لأشيائنا كلّها؟ سُلبَت، رُميَت، أُخذَت بعيدًا. صودرَت.
اعتدتُ التخلّي عن أشياء كثيرة. "إذا كنت تملكين أشياء كثيرة" قالت الخالة ليديا، "فإنّك تُمسين أكثر ارتباطًا بهذا العالم الماديّ، مُهملةً القيم الروحيّة؛ لابدّ من سقاية الرّوح الفقيرة. طوبى للودعاء". لكنها لا تُكمل، لا تقول أيّ شيء عن وراثة الأرض[54].
أستلقي، الماء في حضني، ودُرج مفتوح جواري لا وجود له، وأفكّر في فتاة لم تمت عندما بلغت الخامسة من عمرها؛ فتاة ما زالت تعيش، كما آمل، لكن هل تعيش من أجلي؟ هل أعيش أنا من أجلها؟ هل أنا صورة في الظلام، بعيدًا هناك في أعماق ذهنها؟
لقد قالوا لها حتمًا إنني مُتّ، فهذا ما سيخطر إليهم، معتقدين أنّ ذلك يسهّل عليها أن تتأقلم.

لابدّ أنّها في الثامنة من عمرها الآن. لقد ملأتُ الزّمن الذي ضاع، أُدرك كم مضى من الوقت. إنّهم محقّون: الاعتقاد بأنها ميتة يسهّل هذه المعيشة، فلن آمل بشيء بعدها ولن أبذل أيّ جهد سُدى. "لمَ" قالت الخالة ليديا، "تنطحين جدارًا؟" تتمتّع

أحيانًا بقُدرة فائقة على إيضاح الأمور بتصويرها بدقّة.

"ليس أمامي اليوم بأكمله" تقول كورا من وراء الباب. وذلك صحيح، ليس لها اليوم بأكمله، ليس لها أي شيء بأكمله. يجب ألّا أحرمها من وقتها. أغسل نفسي بالصابون، أحكّ جلدي بفرشاة خشنة وأسحجه بحجر الخفاف مُزيلةً الطبقات الميتة. أدوات الطهارة تلك مُتاحة لنا. أريد أن أصبح تامّة النظافة، دون جراثيم، دون بكتيريا، مثل سطح القمر. فلن يُتاح لي الاغتسال في المساء، ولا منتصف الليل، ليس قبل مرور يوم كامل. لسوف أقاطع أوقات الآخرين إن فعلت، ولِمَ المخاطرة؟

الآن، لا يمكنني تجنب النّظر إلى وشم صغير في كاحلي: أربع خانات رقميّة وعيْن، إنّه جواز سفر بمهمّة عكسيّة، فالمفترض به أن يضمن استحالة أن أتلاشى، في النهاية، لأظهر في أرض أخرى. فأنا مُهمّة جدًّا، وشديدة النّدرة، لأُترَك هكذا. أنا أحد الموارد الطبيعيّة[55].

أجذب سُدادة المغطس، أتجفّف، ثم أرتدي معطف الاستحمام الأحمر منفوش الخيوط. أترك فستان اليوم هنا، حيث تلتقطه كورا لاحقًا لتغسله. أعود إلى الغرفة لأرتدي ثيابًا أخرى. القلنسوة البيضاء ليست ضرورية هذا المساء؛ فلن أخرج. وأهل البيت كلّهم على معرفة بوجهي. لكن الحجاب الأحمر يبقى، يغطي شعري المبلّل، ورأسي الذي لم يُحلَق. أين شاهدت ذلك الفيلم الذي تظهر فيه نساء راكعات في ساحة مدينة، أيادٍ تقبض عليهن بينما تسّاقط خصل شعورهن إلى الأرض؟ ماذا فعلن؟ لابدّ أنّني شاهدته منذ فترة طويلة؛ فلست أتذكّر.

تجلب كورا عشائي، مغطّى، في صحَفة. تطرق الباب قبل الدخول. لذلك تُعجبني. فما زالت تظنّ أنّ ثمّة بقايا ممّا كان يسمّى خصوصيّة.

"شكراً" أقول لها، وآخذ الصّحَفة منها. تبتسم لي، فعلًا، لكنّها تستدير مبتعدة دون إجابة. عندما ننفرد ببعضنا فإنّها تخجل مني.

أضع الصّحَفة فوق منضدة بيضاء الطلاء، وأجذب مقعدًا إليها. أرفع الغطاء.

فخذ دجاجة طُهيَ مُدّة طويلة. ذلك أفضل من أن أجد بقايا دماء فيها، فهذه طريقتها الأخرى في الطهي. تملك ريتا أكثر من وسيلة لإظهار امتعاضها. ثمّة أيضًا بطاطس مسلوقة، وفاصوليا خضراء، وسلطة. وبعض شرائح كمثرى معلّبة للتحلية. الطعام كافٍ، لكنّ توليفته لا ذَوق فيها. طعام صحي. "ينبغي أن تحصلن على فيتاميناتكنّ ومعادنكن" قالت الخالة ليديا خَجِلة قليلًا، "ينبغي أن تكُنّ أوعيةً مؤهّلة. لا قهوة أو شاي، رغم ذلك، ولا كحول. فقد أُجريت الدراسات حول تأثيرها الضار". ثمّة في الصّحَفة أيضًا منديل ورقيّ، كما وجبات المقصف. أفكّر في الأخريات اللواتي لا يحظين بخدمات مشابهة. فهنا قلب البلاد، هنا، أعيش مدلّلة. «فليجعلنا الربّ شاكرين بعمق[56]» قالت الخالة ليديا، أم "ممْنونين"؟ وأشرع في تناول الطعام. لستُ جائعة الليلة. بل أشعر باضطراب في معدتي. لكن ليس يتوفّر مكان لرمي الطعام. لا أصص نباتات، ولن أجرّب الحمّام. أنا جدّ قلقة، هذا هو كل شيء.

هل يمكنني ترك الطعام في الصّحون، وسؤال كورا ألّا تُبلّغ الأمر؟ أمضغ وأبتلع، وأمضغ وأبتلع، شاعرة بجسدي يتفصّد عرقًا. يتكوّر الطعام داخل معدتي، مثل حفنة وُريقات مبلّلة، تعصرها كفّ.

غرفة الطعام في الأسفل تحوي طاولة طعام واسعة من خشب ماهوغاني، تحمل شموعًا، ومفرشًا أبيض، وفضيات، وزهورًا، وكؤوس نبيذ فيها نبيذ. سترتفع أصوات قرع السّكاكين بالأطباق الصينية، وصليل شوكتها عندما تضعها من يدها بتنهُّدة بالكاد تُسمع، تاركة نصف طعام طبقها غير ملموس. ربما تقول إنها لا تشعر بشهيّة لتناول الطعام. وربما لن تقول أيّ شيء. ولو قالت شيئًا فهل سيعلّق؟ وإذا لم تقل فهل سيلاحظ؟ أتساءل ما الذي تفعله لتجعله يلاحظها؟ أعتقد أن ذلك صعب للغاية.

ثمّة قطعة زبدة صغيرة في جانب الطبق. أشقّ زاوية المنديل الورقي وألفّ بها الزبدة. آخذها إلى خزانتي وأدسّها في إصبع قدم فردة حذائي اليمنى من زوج

الأحذية الإضافيّ، كما فعلتُ سابقًا. ثمّ أجعّد بقيّة المنديل؛ لن يأخذ أحد عناء فَرد منديل مجعّد كي يتأكّد من أن أجزاءه كاملة. سوف أستخدم الزّبدة في الليل المتأخّر. فليس ملائمًا هذا المساء أن تفوح مني رائحة زبدة.

أنتظر. أجمع ذاتي. ذاتي هي ما ينبغي عليّ الاهتمام بضمّ بعضه إلى بعض. وكما يُحبّر امرء خطابًا، فإنّ ما عليّ عرضه عليهم هو شيء مصطنع، لا مولود.

٧

غفوة

وقت فراغي طويل. لم أحسب حساب ذلك – وقتٌ عاطلٌ، مثل قوسَين بينهما سطر طويل فارغ. الزّمن بوصفه صوتًا أبيض. لو أستطيع فقط التطريز. أحيك، أخيط، أيّ شيء يُشغل يدَيّ. أريد سيجارة. أتذكر زيارتي معارضة فنيّة لفنون القرن التاسع عشر: كم كانوا مهووسين بالحريم. عشرات اللوحات التشكيلية عن الحريم: نسوة بدينات برؤوس مرتخية فوق أرائك. يشتملن بعمائم أو قطائف مخمليّة. مراوح من ذيول الطواويس تهفّ عليهن، بينما يقف في خلفية اللوحة خَصِيٌّ للحراسة. إنها أقرب إلى دراسات منها إلى لوحات، عن لحوم تقضي وقتها قاعدة، رسمها رجال لم يسبق لهم أن رأوها حقيقةً ألبتّة. يُفترض أن تُستقبَل تلك اللوحات كفنٍّ إيروتيكيّ، ولقد ظننتها كذلك في تلك الفترة. لكنني أدرك الآن الموضوع الذي دارت حوله. إنها لوحات عن الحركة المتوقفة، عن الانتظار، والأشياء التي يُهمَل استخدامها. إنها لوحات عن السّأم.

لكن، ربما يبدو السّأم إيروتيكيًا في عيون الرّجال، عندما تُبديه تجاههم النساء.

أنتظر: مغسولة، مفروكة، مُغذّاة، مثل خنزيرة مسمّنة. ابتكروا في الثمانينيّات كرات من أجل الخنازير التي تُسمّن في الحظائر. إنّها كرات ملوّنة تدحرجها الخنازير في الأرجاء بخطمها. قال المسوّقون الكبار إن ذلك يشدّ عضلاتها؛ فالخنازير حيوانات فضوليّة، تُريد أمرًا ما تفكّر فيه.

قرأت ذلك في كتاب «مقدّمة علم النفس»، ذلك الفصل، وأيضًا فصل الفئران السّجينة، التي تحثّ نفسها بصدمات كهربائيّة كي تُقدم على أمرٍ ما. قرأت أيضًا فصل الحمام الذي دُرّبَ أن ينقر زرًّا كلّما أراد حبّة قمح. قُسم الحمام إلى ثلاث مجموعات: الأولى تحصل على حبة واحدة كلّ نقرة، والثانية كلّ نقرتين، والثالثة عشوائية. عندما أمسك الباحثُ حبوب القمح عن الحمام، يئسَت المجموعة الأولى من ظهور القمح سريعًا، وأخذت المجموعة الثانية وقتًا أطول قليلًا قبل

الكفّ عن المحاولة. أمّا المجموعة الثالثة فلم تيأس قط. ولو تُركت لتابعت النقر حتى الموت دون ذلك. فمن يعرف متى ينجح الأمر؟
أتمنى لو كان لديّ كُرة.

أستلقي على بساطٍ مجدول الخيوط. "تستطعن دومًا التريّض" قالت الخالة ليديا، "عدة جلسات يوميًا بما يُوائم روتينكنّ: الذراعان إلى الجانبين. الركبتان مثنيّتان. ارفعن أحواضكن. مِلنَ بأعجازكن إلى أسفل. اثنينَ. مرّة أخرى. استنشقن الهواء بينما أعدّ إلى الخمسة. اكتُمنَه. أطلقنَه". نقوم بذلك في غرفة اعتدنا أن نُطلق عليها فيما مضى غرفة التدبير المنزليّ، وقد أُخليَت من آلات التطريز وغسيل الملابس وتجفيفها. بانسجام نستلقي على بُسُط يابانية، بينما يُدار شريط كاسيت. باليه أرواح الهواء[57]. وهي تتردّد الآن في رأسي بينما أرتفع، وأتنفّس. أغمض عينيّ فأرى راقصين نحيلين يتخلّلون أشجارًا، بينما سيقانهم ترفّ مثل أجنحة طيور ممسوكة.

اعتدنا الاستلقاء في أسرّتنا ساعةً في القاعة الرياضيّة، بين الثالثة والرابعة عصرًا. قالوا إنها فترة استرخاء وتأمّل. حينئذ اعتقدتُ أنّهم قرّروا علينا ذلك لأنهم أرادوا ساعة راحة من تدريسنا، وكنت أعرف أن الخالات اللائي ى يُدرّسن في أيّ ساعة يذهبن إلى غرفة المعلّمين، من أجل تناول بعض القهوة، أو ما كانوا يسمونه بذلك الاسم. لكنني أظنّ الآن أن ساعة الرّاحة تلك كانت تدريبًا لنا أيضًا. لقد أُعطينا فرصة التعوّد على الوقت الشاغر.
غفوة القطّة، هذا ما تُطلقه الخالة ليديا على تلك الساعة، بطريقتها الخجِلة المعهودة.
الأغرب من ذلك هو أننا كنا في حاجة إلى الراحة حقًّا. معظمنا نِمنَ. يطول بنا الوقت هنا بينما نشعر بالإرهاق. كنا تحت تأثير أقراص أو مخدرات، كما أظنّ، يضعونها في طعامنا، لكي يُبقين علينا هادئات. قد يكون ذلك غير صحيح. قد

يعود السّبب إلى المكان نفسه. فبعد الصّدمة الأولى، وبعد استيضاح كلّ شيء، يغدو من الأفضل أن تتبلّدي. وقد تواسين نفسك بالقول إنّك تحفظينَ قوّتك. لابدّ أنني أمضيت هناك ثلاثة أسابيع قبل مجيء مويرا. جلبتها خالتان إلى القاعة الرياضيّة، كالمُعتاد، أثناء غفوتنا. كانت لا تزال ترتدي ثيابها الأخرى: بنطال جينز وكنزة زرقاء. شعرها قصير كما هي عادتها في تحدّي السّائد. عرفتُ أنها مويرا فورًا. عرفتني هي أيضًا لكنها ابتعدت عني. لقد عرفت الآمنَ من الأفعال. تحمل وجنتها اليُسرى كدمة آخذة في التلوّن بالقرمزي. اقتادتها الخالتان إلى سرير شاغر حيث أعدّ سابقًا لها فستان أحمر. أبدلت ملابسها في صمت، بينما الخالتان واقفتان عند رأس السرير، وبقيّتنا يرقبن الموقف من خلل الأجفان المطبقة النائمة. عندما انحنت، رأيت نتوءات عمودها الفقري.

لم أستطع التحدث إليها أيامًا. اكتفينا بتبادل النظرات، نظرات خاطفة مثل رشفات. فالصداقات هناك مدعاة للشكّ، نعرف ذلك، ولهذا تجنّبنا التجاور في طوابير تحصيل الوجبات في المقصف، وفي الرّدهات بين الفصول. لكنها، في اليوم الرابع، جاورتني أثناء سَيْرنا اثنتين اثنتين حول ملعب كرة القدم. لا نُعطى القلنسوة البيضاء حتى نتخرّج؛ لذلك لم نكن نرتدي سوى الحجاب وقتئذ، ونستطيع تبادل الحديث طالما أبقيناه هادئًا دون أن تلتفت إحدانا نحو الأخرى. الخالات واقفات في أوّل الطابور وآخره. ولذلك فإن الخطر الوحيد يمكن أن يجيء من الأخريات، فبعضهن مؤمنات وقد يَشِيْنَ بنا.

"هذه حظيرة معاتيه" قالت مويرا.

"أنا مسرورة لرؤيتك" قلتُ.

"أين يمكننا الحديث؟" قالت مويرا.

"في دورة المياه" قلت، "راقبي ساعة الجدار. في آخر القاعة، عند الثانية والنصف".

هذا كلّ ما قلناه.

يجعلني أشعر بالأمان، وجود مويرا هنا. يمكن لنا الذهاب إلى دورة المياه إذا رفعنا

أيدينا، لكن ثمّة حدّ أقصى يوميّ لعدد مرّات الذهاب إلى هناك، فهم يسجلون ذلك في جدول. أراقب ساعة الجدار، كهربائية مستديرة في مقدّم القاعة أعلى السبورة الخضراء المسودة. تحلّ الساعة الثانية والنصف أثناء الاعتراف[58]. الخالة هيلينا تتواجد فيه وكذلك الخالة ليديا؛ فالاعتراف طقس مميّز. الخالة هيلينا بدينة، رغم أنها رأست ذات يوم فرعًا لشركة أغذية صحيّة في ولاية آيوا. أداؤها جيّد خلال طقس الاعتراف.

إنها جانين. تروي كيف اغتصبتها عصابة عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وكيف أجهضت بعدها. القصّة نفسها اعترفت بها قبل أسبوع. بدا وكأنها، أثناء سردها، فخورة بما جرى عليها. قد لا تكون هذه القصة حقيقية. فتلفيق الأحداث أثناء الاعتراف أأمن من القول إنه ليس عندك ما تكشفينه. لكن، طالما أن المُعترفة هي جانين، فإن قصّتها تحمل نسبةً من الصّدق، قليلة كانت أو كثيرة.

"لكن ذلك خطأ مَن؟" تقول الخالة هيلينا، رافعة إصبعًا لَحيمًا.

"خطأها. خطأها. خطأها"، نردّد معًا.

"مَن قادهم إليها؟" تقول الخالة هيلينا مُشرقة الوجه، راضية عنّا.

"هي. هي. هي".

"ولماذا سمح الله بوقوع أمر مروّع كهذا؟".

"ليؤدّبها. ليؤدّبها. ليؤدّبها ".

انفجرت جانين باكية خلال اعتراف الأسبوع الفائت. فقد أركعتها الخالة هيلينا الفصل كلّه، واضعة يديها خلف ظهرها، لكي نستطيع جميعًا رؤيتها، وجهها المحتقن وأنفها الذي يقطر بالدّمع. شعرها داكن الشُّقرة، وتحمل رموشًا بلغت من الخفّة أنها تكاد لا تُرى، كما رموش ذهبَت في اللهب بينما صاحبها يحترق. عينان محروقتان. بدَت مقزّزة: واهنة، منطوية على نفسها، مبقّعة، ورديّة مثل فأرٍ وليد. لم ترغب واحدة منّا أن تبدو كذلك. وللحظة، رغم معرفتنا ما مرّت به، احتقرناها.

"طفلة بكّاءة. طفلة بكّاءة. طفلة بكّاءة".

هذه المرّة كنّا نعني تمامًا ما ردّدناه، وذلك أسوأ.
لطالما أُعجبتُ بنفسي. لكنني لم أفعل ساعتئذ.
حدث ذلك قبل أسبوع. لكن لم تنتظر جانين هذا الأسبوع تهكّمنا العدائيّ نحوها. "ذاك خطأي. خطأي أنا. أنا من قادهم إليّ. أستحقّ الألم".
"أحسنتِ يا جانين" تقول الخالة ليديا، "أنتِ الآن عِبْرة".
اضطررت للانتظار حتى ينتهي ذلك كلّه قبل أن أرفع يدي. أحيانًا، عندما تطلبين شيئًا في وقت غير ملائم، فإنهم يقولون "لا". وإذا كان عليك الذهاب حقًّا، فسوف تمرّين بوقت عصيب. لقد بلّلت دولورس الأرض أمس. رفعتها خالتان إلى الخارج، ذراع واحدتهما تحت كلّ إبط. لم نرها خلال نزهة العصر، لكنها في الليل عادت إلى سريرها. وأنصتنا طوال الليل إلى أنين بكاءها، لا يختفي إلا ليظهر.
"ماذا فعلوا بها؟" تهامسنا، سريرًا لسرير.
"لا أعرف".
الجهل يزيد الأمور سوءًا.
أرفع يدي، فتومئ لي الخالة ليديا. أنهض، أسير خارجة دون أن ألفت الأنظار قدر الإمكان. تقف الخالة إليزابث للحراسة خارج دورة المياه. تومئ سامحة لي بالدخول.
دورة المياه هذه كانت مخصصة للذّكور سابقًا. استُبدلت المرايا هنا أيضًا. ثمّة مكانها مستطيلات قصديرية رماديّة، لكن المبولات ما زالت مثبّتة إلى جدار أبيض يحمل بقعًا صفراء. إنّها تشبه، على نحو مُريب، توابيت الأطفال الموتى. أتعجب مجدّدًا من العُري المكشوف في حياة الرّجال: صنابير الاستحمام مكشوفة، مفتوحة مساحاتها بعضها على بعض. الجسد الذكوريّ عُرضة للتفحّص والمقارنة، وانكشاف الأعضاء الحميمة للعلن. ما سبب ذلك؟ ما الغاية التي تريد تأكيدها؟ الأمر أشبه بإشهار بطاقة هويّة، ينظُر إليهم جميعًا شاهرين بطاقاتهم، "ليس سوى نحن، الأمور على ما يرام، إنّي أنتمي إلى هذا المكان". لكن لمَ لا يُبرهن النساء بعضهن لبعض أنهن نساء؟ أيّ عادةٍ ممكنة، مثل حلّ أزرار الصّدر، أو صُنع شَقٍّ

مكان ملابس الفرَج. أو تشمّم كَلبيّ ربما.
مبنى المدرسة الثانوية قديم جدًّا. فمقصورات المراحيض في دورات المياه خشبيّة، رقائق مضغوطة. أدخل المقصورة قبل الأخيرة. أدفع الباب لذلك. بالطبع لم تعد هناك أقفال. ثمّة في كلّ لوح خشب فاصل بين مقصورتَين، ثقب في مستوى الخصر أقرب إلى الجدار منه إلى الباب. ذكرى لروح التخريب البائدة واستراق النّظر. كل مَن في المركز على عِلم بأمر هذه الثقوب، الكلّ، ما عدا الخالات.
أخشى أنّني تأخّرت كثيرًا، أمسكني اعتراف جانين أطول من اللازم. ربما جاءت مويرا إلى هنا فعلًا لكنّها اضطرّت إلى العودة. فهم لا يُتيحون لنا أيّ وقت كاف لأيّ شيء. أنخفضُ لأنظر بحذر تحت الفاصل الخشبيّ، خطفًا. ثمّة حذاء أحمر، لكن كيف لي معرفة من هي؟
أضع فمي على الثقب. "مويرا؟" أهمس.
"هل هذه أنتِ؟" تُجيب.
"أجل" أقول، ويتخلّل الارتياح أوصالي.
"ربّي، كم أريد سيجارة".
"أنا أيضًا" أقول.
تجتاحني سعادة بشكل سخيف.
أغوص في جسدي، كما لو أنني أتنزّل في بركة موحلة، مستنقع، حيث القاع الرّطب الذي لا أشعر بقدميّ راسختين إلّا فوقه. أرض غادرة، تلك التي لي. يصبح جسدي الأرضَ التي أضع أذني عليها متلصّصة الشّائعات حول مستقبلي. كل وخزة، كلّ هسيس لوجع خفيف، كلّ موجة ألم يتخلّص بها جسدي من قِطَع ما، كلّ انتفاخ أو ضمور لنسيجٍ داخليّ، كلّ ما يتخلّص منه لحمي. تلك إشارات، تلك أمور عليّ التلصّص عليها ومعرفتها. أترقّب حَيضي شهريًّا في ذعر، فحدوثه يعني فشلي في إنجاز المهمّة. فشلتُ مرّة أخرى في تحقيق آمال الآخرين، التي باتت آمالي.
صرتُ أفكّر في جسدي بوصفه جهازًا، للمتعة، للتنقّل، يساعدني في تحقيق إرادتي. أستطيع استخدامه للركض، أدفع أزراره أيًّا كانت فأحقّق ما أريد. ثمّة حدود بالطبع، لكن جسدي مطواع، فريد، متماسك، ودائمًا معي.

يُعيد لحمي تكوين نفسه الآن. أنا سحابة تنعقد حول جسم يتوسّطها، له شكل الكمثرى، وهو صلب ويفوقني واقعيّة، ويتوهّج مُحمرًّا داخل غلافه الشّفيف. ثمّة فضاء في الدّاخل، واسع كسماء الليل، مُظلم ومُقبّب مثلها، لكن ظُلمته تميل إلى السواد المحمرّ، لا السواد الفاحم. وثمّة أشعّة مثل رؤوس الدبابيس، تتورّم، تتلألأ، تتفجّر ثم تضمر، ولا حصْر لها كما النجوم. يطلع القمر هناك كلّ شهر، عملاقًا مستديرًا ثقيلًا، حاملًا الأخبار. يعبر متقلّبًا في منازله، يتوقف، ثم يعاود عبوره حتى يُمسي خارج مجال الرؤية، فأشهد اليأس يتقدّم نحوي كأنّه مُقبل على مجاعة. أشعر بذاك الفضاء الخاوي مرة تلو أخرى. أنصت إلى قلبي، موجات نبضٍ تتبعها موجات، مالحة حمراء، تتواصل أيضًا وأيضًا، تقيس الزمن.

أنا الآن في شقتنا الأولى، في غرفة النوم. أقف أمام خزانة ذات أبواب قابلة للطيّ خشبيّة. أدرك أن الغرفة حولي فارغة. قطع الأثاث كلّها قد ذهبت. الأرضية عارية، دون سجادة واحدة. لكن، رغم ذلك، فإن الخزانة تملؤها الملابس. أعتقد أنها ملابسي. لكن لا يبدو أنها لي، فأنا لم أرها قط. ربما هي ملابس تعود إلى زوجة لوقا الأولى، التي لم أرها قط أيضًا، سوى بعض الصّور ورسالة صوتيّة على الهاتف ليلًا، عندما كانت تهاتفنا، باكية مُتّهمة، قبل الطلاق. لكن لا، إنها ملابسي، لا بأس من ذلك. أحتاج فستانًا، أحتاجُ إلى ما أرتديه. أجذب بعض الفساتين: زرقاء، حمراء، قرمزيّة، معاطف وتنانير. لا نفع يُرجى منها، وهي على ذلك لا تناسب أبعاد جسدي. إنّها إمّا فضفاضة للغاية، أو ضيّقة جدًّا.
لوقا خلفي. أستدير لأراه. لكنه لا ينظر إليّ، بل إلى الأرضية حيث تتمسّح القطة بساقيه وتموء وتموء بكثرة. تريد طعامًا، لكن من أين الطعام والشّقة خالية على هذا النحو؟
"لوقا" أنادي، لكنه لا يجيبني. ربما هو لا يسمعني. يخطُر لي أنّه ربما لا يكون على قيد الحياة.

أعدو، معها، قابضة على يدها، أسحبها، أجرّها، عبر آجام وأشجار. إنّها نصف مستيقظة، فقد أعطيتها قُرصًا مهدّئًا كي لا تبكي أو تصيح بأيّ كلام يكشف مكاننا، فهي لا تعرف أين نحن. الأرض غير مستوية، ثمّة صخور وأغصان ميتة، ورائحة أرض مبلولة، ووريقات شجر عتيقة. لا يمكنها العدو بسرعة كافية، أستطيع ذلك لو كنتُ وحدي، فأنا عدّاءة ممتازة. إنها تبكي الآن؛ فهي خائفة. أودّ حملها لكنها ستثقلني كثيرًا. أرتدي حذاء الحركلة، سأرميه ما إن نصل النهر. هل ستكون المياه باردة؟ هل ستتمكن من سباحة تلك المسافة الطويلة؟ وماذا عن شدّة التيّار؟ لم نتوقّع هذا. "اهدئي" آمُرُها غاضبة. أفكّر في احتمال غرقها، فيُبطئني هذا الخاطر. بغتة تنطلق طلقات نارية خلفنا، صوتها ليس عاليًا، لا كما الألعاب الناريّة، بل حادًّا ومختصرًا مثل انكسار غصن يابس. أصواتها تلك مُريبة، دائمًا أصوات الأشياء لا تتناهى إليك كما توقعتها، ثم أسمع صوتًا آمرًا "انبطحي". هل هو حقيقي أم أنّه يتردّد فقط في ذهني، هل هو صوتي، عاليًا هكذا؟

أجذبها إلى الأرض فنستلقي، ألمّها بجسدي كلّه، أغطيها، أنا درعها. "اهدئي" أقول لها مرة أخرى، بينما وجهي مبلّل، يتصبّب عرقًا ودمعًا، أشعر بالاطمئنان، أشعر أنّني طافية، كأنني لم أعد داخل جسدي؛ ثمّة قُرب عيني وُريقة حمراء، هوَت باكرًا، أستطيع رؤية عروقها الشبكيّة، كلّ واحدة منها. ذاك أجمل ما رأيته في حياتي. أكفّ عن التوتّر قليلًا. لا أريد أن أمسح على رأسها، فكوّرت جسدي حولها مُبقيةً كفّي على فمها. ثمّة أنفاس، وقرْع قلبي الأشبه بطَرْق عنيف على باب بيت ليلاً، بيتٍ ظننْتَ أنّك ستكون في مأمن داخله. "لا بأس، أنا هنا" أقول لها هامسة، "أرجوك اهدئي". لكن كيف يمكنها ذلك؟ إنها صغيرة جدًّا، وقد فات الأوان. لقد فُرّقْنا، يداي مقبوض عليها، وتضمحل حدود الرؤية في ظلام، ولا يتبقى سوى نافذة صغيرة، صغيرة جدًّا مثل ما ينتهي إليه المِقراب إذا وُجّه وُجهةً خاطئة؛ مثل نافذة في بطاقة عيد ميلاد، قديمة، الليل والثلج خارجها، وفي الداخل شمعة وشجرة تتلألأ، وأُسرة، حتى أنني أستطيع سماع أجراس الميلاد، تلك القرقعة في كُوَر نحاسيّة صغيرة، ومن الراديو موسيقى قديمة، لكن من خلال هذه النافذة

أستطيع أن أرى، في رؤية ضيّقة لكن واضحة، أراها تذهب بعيداً بين الأشجار الآخذة في التلوّن، محمرّة مصفرّة، وقد مدَّت ذراعيها نحوي، بينما تُحمَل بعيدًا عنّي.

يوقظني قرع الجرس، يتلوه طرْق كورا الباب. أستقيم جالسة على البساط، أمسح وجهي المبلل بكُمّي. من بين أحلامي كلّها، هذا هو الأسوأ.

٧١

أهل البيت

عندما سكنَ الجرس عن القرع نزلتُ الدرج، بائسةً ضعيفةً في عيون الزجاجيّات المعلّقة على الجدار السّفليّ. وفيما بندول دولاب السّاعة يتكّ مُحصيًا الوقت، قدماي في حذائيهما الأنيقين الحمراوين يُحصيان درجات النزول.

باب غرفة الجلوس مُشرع على مصراعيه. أدخل: لا أحد هنا حتى الآن. لا أجلس، وإنما أتخذ مكاني جاثيةً قرب المقعد ذي القدمين، الذي ستتوج سيرينا جوي نفسها عليه بعد وهلة، متوكّئة عصاها، ثانية جسدها للجلوس. من المحتمل أن تضع يدًا على كتفي، لتُقيمَ نفسها، كما لو كنتُ قطعة الأثاث. لقد فعلت ذلك قبلًا.

ربما كانت غرفة الجلوس هذه، فيما مضى، غرفة رسم، ثم حوّلت إلى غرفة معيشة. أو ربما كانت مجرّد حُجرة مهملة، تحوي عنكبوتًا وبعض الذباب. لكنها أصبحت الآن، رسميًّا، غرفة جلوس؛ فذلك ما يفعله الداخلون إليها، أو بعضهم، فقد يعتبرها البعض الآخر غرفة وقوف. هيئة الجسد مهمّة، هنا والآن: فالهيئات التي تُقلق الرّاحة، تكون أحيانًا مأمورًا باتّخاذها.

غرفة الجلوس تغمرها الشّمس، ومتساوقة. إنها صورة المال عندما يتجسّد في أثاث ومتعلّقات. لقد تجسّدت الأموال في هذه الغرفة على مدى سنوات وسنوات، لكأنّه ينبع من مغارة جوفيّة. يكتسي بقشرة ويتجسّم رويدًا رويدًا مثل الكلس المتدلّي من أسقف المغاور، متّخذًا هذه الأشكال. بصمت، تقدّم لي التجسّدات نفسها: الستائر المُسدلة لها مخملٌ ورديّ شفقيّ؛ ورونق المقاعد المتماثلة بطراز القرن الثامن عشر؛ والسجّادة الصينية المعنْقدة ذات الألسن البقَريّة على الأرض، وأشكال زهور الفاوانيا ذات اللون الورديّ الخوخيّ؛ وكرسي الرئيس الجلديّ الصّقيل، ولمعة نحاس الصندوق جواره.

هذه السجادة أصليّة. بعض القطع في هذه الغرفة أصليّة، وبعضها لا. مثال ذلك

لوحتان تشكيليّتان، كلتاهما لامرأة، وكلتاهما على جانبٍ من موقد الحطب. كلتاهما ترتدي فستانًا، كما لوحات النساء في تلك الكنيسة القديمة، لكنّهما تنتميان إلى حقبة لاحقة. ربما تكون اللوحتان أصليّتان. منذ حصلت عليهما سيرينا جوي بعد أن أصبح واضحا لها أنه لابدّ من تطويع طاقاتها داخل البيت، بتّ أشكّ أنها تنوي الادّعاء أنهما من بين أسلافها. لكن ربما كانت في البيت فعلًا عندما ابتاعه الرّئيس. لا سبيل إلى تأكيد تلك الاحتمالات. على أيّ حال، ها هما معلّقتان هناك. كلتا السيّدتين لها فم متيبّس واستقامة ظهر متصلّبة، ونهدان محصوران، ووجه مقبوض، وقبّعة منشّاة، وبشرة رماديّة مبيضّة. تحرسان الغرفة بعيونهن المزمومة.

بينهما، فوق رفّ الموقد، ثمّة مرآة بيضويّة. يجاورها على كل جانب شمعدان فضيّ، يتوسّطهما إناء صينيّ أبيض لكيوبيد عاقدًا ذراعه حول رقبة حَمَل. ذائقة سيرينا جوي مزيج غريب: بحث دؤوب عن المتانة، لقطع ناعمة عاطفيّة. ثمّة باقات ورود مجفّفة على جانبَي الموقد، ومزهريّة نرجس طبيعيّ فوق منضدة العاج المصقولة جوار الأريكة.

تضوع في الغرفة روائح زيت الليمون، والأقمشة السّميكة، والنرجس الآخذ في الذبول، وأثر من الطعام المطبوخ وقد شقّ طريقه من المطبخ أو غرفة المائدة إلى هنا، وكذلك عطر سيرينان جوي: سَوسَن الأودية[59]. العطر دليل الترف، لابدّ أنّ لها مصدرها السريّ. أستنشقها، وفي ظنّي أنّني يجب أن أقدّر مثولها حولي. فهي تشبه روائح الفتيات الصغيرات قبل مراهَقتهن تمامًا، وهدايا الأطفال لأمهاتهم في عيد الأم، والجوارب القطنية البيضاء قصيرها وطويلها، وتنانير البنات الداخليّة، ومثبّتات مساحيق التجميل، وبشرة البنات البريئات التي لم يبزغ الشّعر منها بعد ولم تُشحِبها دماء الحيض. هذا المزيج يدفعني إلى الغثيان قليلًا، كما لو كنت في سيارة مرفوعة النوافذ ومغلقة الأبواب خلال يوم حار رطب مع امرأة مسنّة تضع على وجهها كمية كبيرة من مساحيق التجميل. هذه هي حقيقة غرفة الجلوس، رغم أناقتها.

أودّ أن أسرق شيئًا ما، من هذه الغرفة، أيّ غرَضٍ صغير: منفضة أسطوانيّة، أو علبة حبوب الدواء الفضيّة من رفّ الموقد، أو حتى وردة مجفّفة. سأخفي مسروقاتي تحت طيّات فستاني، أو في كُمِّي ذي السحّاب، وأبقيها إلى أن تنتهي فترة العمل المسائيّة، ثم أخبّئها آمنةً في غرفتي: تحت السرير، أو في تجويف حذائي، أو أصنع شقًّا في وسادة «إيمان» وأدسّها فيها. ثمّ أخرجها من حِين لآخر وأستمتع بتفحّصها. سوف يُشعرني ذلك بأنني قويّة، ولو قليلًا.

لكن ذاك الشعور وهمٌ محض، وخطِر. بقيت يداي في مكانهما، مطويّتين في حجري. فخذاي مضمومتان، وقدماي مثنيّتان تحتي، تدفعان جسدي إلى أعلى قليلًا. رأسي مُنكّس. في فمي مذاق معجون أسنان: نعناع اصطناعيّ وجصّ.

أنتظر أهل البيت أن يجتمعوا. أهل البيت: ذلك نحن. الرّئيس هو رأس أهل البيت. فهو من يضمّ الأهل في البيت. ينالنا ويحملنا حتى يفرّق الموت ما بيننا[60].

عنبر السفينة. خواء[61].

تدخل كورا أوّلًا، ثمّ تلحقها ريتا ماسحةً كفّيها بمريلتها. قرع الجرس يستدعيهما أيضًا. بدتا مستاءتين، فثمّة مَهامّ أخرى لإنجازها، غسيل الأطباق مثلًا. لكن لابدّ أن تتواجدا هنا الآن. لابدّ أن يجتمع أهل البيت، الطّقس يتطلّب ذلك. نحن مُجْبرات أن نخوض ذلك معًا، منذ بدايته إلى نهايته.

تعبس ريتا في وجهي قبل أن تنسل داخلةً لتقف ورائي. إنّه خطأي، ضياع وقتها هذا. لكن الخطأ خطأ جسدي، لا أنا، لو كان هناك فرْق بيننا، فحتى الرّئيس نفسه قد يشتهيه جسدي.

يدخل نِك الحجرة، ويومئ برأسه نحو ثلاثتنا. يُدير نظره في الغرفة، ويتّخذ مكانه واقفًا خلفي أيضًا. إنّه قريب للغاية مني حتى أن رأس حذائه يلامس قدمي. هل يقصد ذلك؟ أكان كذلك أم لا، فنحن الآن نتلامس، عبر جلود الأحذية. ثمّة ليونة تدبّ في حذائي، وتتدفّق فيه الدماء، فيغدو دافئًا، ويصير جلده بشرة آدميّة. أُبعد قدمي قليلًا.

"ليته يعجّل" تقول كورا

"يُعجّل إلى هنا ثم يسوّف" يقول نك ويضحك. يقرّب قدمه لتعاود لمس قدمي. لا يستطيع أحد رؤية ما يحدث تحت أطراف ردائي المنتشرة على الأرض. أزيح نفسي، حرارة المكان هنا، مع رائحة العطر المبتذل، تدفعان بي إلى الغثيان. أزيح قدمي بعيدًا.

يتناهى إلينا وقع سيرينا تنزل الدرج، ثمّ عبر الرّدهة طرق عكّازها المكتوم على السجّاد، ووقع قدمها السّليمة. تعرج في مشيتها عبْر المدخل، ثم تنظر إلينا بطرف عينها، تُحصي عددنا دون أن ترانا فعلًا. تومئ نحو نِك، تحيّيه دون كلام. إنها ترتدي أحد أفضل فساتينها، زُرقته سماويّة، بحجاب أبيض التطريز: ورود ونقوش شبكيّة. رغم سنّها المتقدّمة، فإنّها تشعر دائمًا برغبة تحثّها على لفّ نفسها بالورود. «لن ينفعك ذلك» أقول لها في داخلي، بوجهٍ لا تند عنه أيّ حركة، «لا فائدة منها، فأنت ذابلة». الأزهار هي الأعضاء التناسلية للنباتات. قرأتُ ذلك في مكان ما.

تشقّ طريقها إلى مقعدها ومسند الأقدام، تستدير، تُخفض جسدها، ثم تهبط بغلاظة. تُريح قدمها اليسرى فوق المسند، وتتحسّس جيب كُمّها. أسمع صوت تنقيبها، وطقّة القدّاحة، ثم أشتمّ لفعة أوّل الدّخان، فأتنفّسه.

"متأخّر كعادته". لا نعلّق. نسمع خشخشة بينما تتلمّس منضدة المصباح، ثم طقّة، فنرى التلفاز قد أضاء.

تتصاعد جوقة ذكوريّة، يظهرون مخضرّين محمرّين. تحتاج الشاشة إلى ضبط ألوانها. إنهم يُنشدون «تعالوا إلى الكنيسة التي في الأحراش[62]» فتكرّر أصوات طبقة القرار "تعالوا، تعالوا، تعالوا، تعالوا".

تدفع سيرينا زرّ تبديل القنوات، فتظهر تموّجات، والتواءات ملوّنة، ويصعد صوت مشوّش «هذه قناة مونتريال الفضائيّة» وقد حُظرَت. ثمّ يبزغ علينا واعظ، جادّ، ذو عينين سوداوين برّاقتين، يميل نحونا مستندا إلى مكتب أمامه. الوعّاظ، هذه الأيام يشبهون إلى حدٍّ بعيد رجال الأعمال. تُمهله سيرينا بضع ثوان، ثمّ تواصل التقليب.

عدّة قنوات شاغرة تعبر، ثمّ نشرة الأخبار. هذا ما كانت تبحث عنه. تستند إلى الوراء وتعبّ نفسًا عميقا. بينما أنا، عكس ذلك، أنحني إلى الأمام، أشبه بطفلة سُمح لها البقاء حتى وقت متأخر من الليل مع الكبار. إن ذاك هو أفضل ما يحدث خلال هذه الأمسيات، أمسيات الطّقس. يُسمح لي الآن بمتابعة نشرة الأخبار. كأنّ هناك قاعدة يتواطأ على تطبيقها أهل هذا البيت جميعًا: نحن نحضر في الوقت المحدد، بينما هو يأتي متأخّرًا دومًا، فتدعنا سيرينا نتابع نشرة الأخبار. الأوضاع هي هي، فمَن يؤكّد صدقَ أيٍّ ممّا يُبَثّ؟ قد تكون مقاطع قديمة، وربما مزيّفة. ورغم ذلك فإنني أشاهدها على أيّ حال، آملةً أن أقرأ ما بين السطور. أيّ خبر يُعرَض، الآن، هو أجدى من انعدامه.

أوّلًا، الخطوط الأماميّة. إنها في الواقع ليست خطوطًا أماميّة، إذ يبدو أنّ للحرب أكثر من جبهة محتدمة في آن.

لقطة عُلويّة لغابات جبليّة، الأشجار صفراء كأنها مريضة، ليتها تضبط ألوان الشاشة. "أراضي جبال الأبالاش" يقول المعلّق، "حيث ملائكة القيامة، من الفِرقة الرابعة، ينشرون الغاز ليُخرجوا الفدائيّين المعمّدين من بين الأشجار، مسنودين بغطاء جويّ من السِرب الحادي والعشرين لملائكة الضّوء". تُعرض علينا مروحيّتان سوداوان، ذات أجنحة فضيّة الطلاء، بينما أجمات أشجار تتطاير منفجرة أسفلهما[63].

الآن تُعرض لقطة مقرّبة لأسير، بوجه مجذوم وسخ، رفقة ملاكَين بزيّهما الرّسمي الأسود المتّسق. يقبَل الأسير سيجارة قدّمها إليه أحد الملاكَين، وبيدين مقيّدتين يدسّها في فمه بحركة غريبة. تند عنه تكشيرة جانبيّة صغيرة. يقول المعلّق كلامًا لكنني لا أتمكن من سماعه: أتفرّس عينَي هذا الرّجل، محاولة سبْر ما يدور في عقله. إنه يدرك أن آلة التصوير مُسلَّطة عليه: هل تكشيرته نوعٌ من التحدّي، أم الخنوع؟ أم الخجل لوقوعه أسيرًا؟

إنهم لا يعرضون لنا سوى الانتصارات، لا الهزائم أبدًا. مَن يُريد أخبارًا سيّئة؟ وربما كان مجرّد ممثّل.

يُطلّ الآن المُذيع. هيئته لطيفة، أبويّة. يُرسل نظراته إلينا من الشّاشة، ينظر، بشرة مسمرّة، وشعر أبيض، وعينين صادقتين تُحيط بهما تجاعيد الحكمة، باديًا كالصّورة المُثلى لأيّ جدّ قد يتمناه المرء. ما يُعلنه علينا، كما تُنبئ ابتسامته الوقورة، هو لصالحنا. "ستنتهي الأمور على خير قريبًا. أعدكم بذلك. سيحلّ السلام. يجب أن تثقوا في ذلك". ويجب أن ننام بعدها أطفالًا مؤدّبين.

إنه يقول لنا ما نتوق إلى تصديقه. إنه مُقنِع للغاية.

أصدّه. إنّه أشبه بنجم سينمائيّ عجوز، أقول لنفسي، بأسنان اصطناعية ووجه نحتتْه عمليّات التجمل. لكنني، في الوقت نفسه، أميل إليه كأنني منوّمَة مغناطيسيًّا. لو أن ما يقول حقيقيّ حقًّا، لو أنني أستطيع تصديقه حقًّا.

يقول لنا الآن إنّ حلقة تجسّس سريّة قد كشفها فريق من العيون كان على اتّصال مع عميل مدسوس. هرّبت هذه الحلقة موارد طبيعيّة ثمينة عبر الحدود إلى كندا.

"ألقي القبض على خمسة من أعضاء طائفة الصاحبيّين المهرطقة[64]" قال بابتسامة متملّقة، "ويُتوقّع القبض على مزيد منهم".

يُعرض على الشاشة اثنان من الصاحبيّين، رجل وامرأة. يبدوان مرتعبين، لكنهما يحاولان الحفاظ على شيء من كرامتهما أمام آلة التصوير. تحمل جبهة الرّجل أثرًا أسود واسعًا. أما المرأة فحجابها قد مُزّق فانثالت خصلات شعرها على وجهها. كلاهما يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا.

والآن نُشاهد مدينة، لقطة علويّة مرة أخرى. كانت هذه مدينة ديترويت. وخلف صوت المذيع يتناهى إلينا قصف المدافع. أعمدة دخان تصّاعد فوق المباني.

"إن إعادة توطين بني حام تجري وفق المخطّط[65]" يقول الوجه الواثق المحمرّ، وقد عاود ظهوره على الشاشة، " ثلاثة آلاف منهم وصلوا خلال هذا الأسبوع إلى المنطقة القوميّة الأولى، وألفان ما زالوا يُنقَلون". كيف ينقلون تلك الأعداد الهائلة من البشر في آن؟ القطارات، حافلات؟ لا تُعرض علينا أيّ صور توضح ذلك. تقع المنطقة القوميّة الأولى في ولاية داكوتا الشماليّة. يعلم الله ما المفترض بهم فعله

عند وصولهم هناك. نظريًّا: الزّراعة.
اكتفَت سيرينا جوي من الأخبار. وبنفاد صبر، دفعت زرّ تقليب القنوات، وبصوت ذي طبقة أوبراليّة منخفضة أسنّها العمر، يظهر مُترنّمٌ بوجنتين مثل ضَرْعَين جافّين. «الأمل الهامس» هي ما يترنّم بها، فتُطفئ سيرينا التلفاز.
ننتظر جميعًا، ساعة الرّدهة تدقّ، تُشعل سيرينا سيجارة أخرى، أدخل السيارة. صباح سبت. سبتمبر. ما زلنا نمتلك سيارة. اضطرّ الآخرون لبيع سياراتهم. أوفرِد ليس اسمي، أحمل اسمًا آخر لا يجري على الألسن الآن، فهو محرّم. أقول لنفسي لا يهمّ، اسم المرء مثل رقم هاتفه، مفيد للآخرين فقط. لكن ما أقوله لنفسي خاطئ: الاسم مهمّ. أخبّئ معرفتي به سرًّا، مثل كنز سأحفر لانتشاله ذات يوم. أفكّر فيه بوصفه دَفينة. ثمّة هالة تُحيط هذا الاسم، مثل تميمة، سحر نجى من ماضٍ بلغ من البُعد أنّه لا يوصَف. أستلقي في سريري الضيّق ليلًا، عيناي مطبقتان، والاسم يطفو خلفهما لكنه ليس في مطال يدي، يشعّ في الظلام.
إنه صباح سبت في سبتمبر، وأنا مُرتديةً اسمي المشعّ، بينما الفتاة الصغيرة، التي ربما هي ميتة الآن، تجلس في المقعد الخلفي، مع أفضل لعبتَيها: أرنبها المحشوّ، وقد أبلاه القِدَم والحُبّ. أتذكّر التفاصيل كلّها. تفاصيل تثير الوجدان، لكن ليس في يدي كبحها. ينبغي ألّا أطيل التفكير في الأرنب، ينبغي ألّا أبكي، هنا فوق هذه السجادة الصينية، متنفّسةً الدخان الذي كان داخل جسد سيرينا. ليس هنا، ليس الآن. يمكنني فعل ذلك لاحقًا.
ظنّت حينئذ أننا ذاهبون للتنزّه. في الحقيقة، كانت هناك سلّة على المقعد جوارها، تحوي طعامًا: بيضًا مسلوقًا، وأوعية تحفظ الحرارة، وكل شيء. لم نُرِد أن نخبرها إلى أين نحن ذاهبون فعلًا. لم نُرِد أن تُفشي السرّ، خطأً، وتُفْصح عن كل شيء، لو حدث وأُوْقِفنا. لم نُرِد أن نحمّلها عبء حقيقتنا.
أرتدي حذاء الحركلة. ترتدي هي حذاءً رياضيًّا له رباط مبقّع بقلوب صغيرة، حمراء وبنفسجيّة وورديّة وصفراء. الجو حارّ في هذا الوقت من السنة، وشرعت وُريقات الأشجار تسّاقط مبكّرًا. لوقا يقود السيارة، أجلس جواره. شعّت الشمس،

والسماء زرقاء، وبدا للبيوت التي عبرنا جوارها منظر مُريح، كما اعتدناها. بقي كل بيت كما تُرك، يتوارى في زمن مضى، ثم خلال لحظة يتقوّض كأنّه لم يكُن قط، فلن أراه مرّة أخرى أبدًا، أو هكذا ظننت حينئذ.

لا نحمل معنا أي شيء تقريبًا، لا نريد أن يبدو علينا أننا راحلون إلى مكان بعيد دائم. في حوزتنا جوازات سفر مزوّرة، مضمونة، تستحق ثمنها. بالطبع لم نستطع أن ندفع مقابلها مالًا، ولا أن نودعه في أرصدة الفاحوص الإتمانيّ[66]. بل دفعنا ببعض مجوهراتٍ ورثتُها عن جدّتي، ومجموعة طوابع بريديّة ورثها لوقا عن عمّه. فتلك أشياء يمكن أن يُستبدل بها نقودًا في دول أخرى. عندما نصل الحدود سندّعي أننا خارجون في نزهة ليوم واحد. فصلاحيّة تأشيرات الدخول المزورة تدوم يومًا واحدًا فقط. قبل ذلك، سأُلقمها قرصا مُنوّمًا لكي تصير نائمة أثناء عبور الحدود. وهكذا لن تخوننا. فلا يمكن أن تتوقع من طفلة كذبًا مُتقنًا. ولستُ أريدها أن تخاف، أن تشعر بالذّعر الذي يقلّص الآن عضلاتي، ويوتّر عمودي الفقري، متيبّسة حتى أنني قد أتشظى لو لُمست. كل إشارة للوقوف بلاء. سوف ننام ليلًا في نُزُل رخيص. أو أفضل من ذلك، ننام في السيارة على جانب الطريق، هكذا لدفع الشّكوك عنّا. سوف نعبر الحدود صباحًا، نقود فوق الجسر الواصل بين الدولتين، بانسياب، كأننا ذاهبون إلى بقالة.

ننعطف لندخل الشارع الرئيس متجهين شمالًا، ننساب دون أيّ ازدحام. فمنذ اشتعلت الحرب، ارتفعت أسعار الوقود، ونقُصَت إمداداته. خارج المدينة، نعبر أوّل نقطة للتفتيش. كل ما يريدونه هو إلقاء نظرة على الرخصة. أجادَ لوقا التصرّف. الرخصة توافق جواز السفر؛ لقد فكّرنا في ذلك مسبقًا.

عائدين إلى الطريق، يعتصر لوقا كفّي، ويُرسل بضع نظرات نحوي.

"أنتِ بيضاء مثل ورقة".

ذلك ما أشعر به فعلًا: بيضاء، مستوية، رفيعة. أشعر أنّي أشفّ. حتمًا سيتمكنون من النظر خلالي. الأسوأ هو أنني كيف سأتمكن من الصمود مع لوقا ومعها فيما أنا بيضاء جدًّا، مستوية جدًّا[67]؟ أشعر أنّه لم يتبقّ منّي شيء. سوف ينفذون من بين يديّ كأنني خُلقتُ من دخان، كما لو كنت سرابا يتبدّد أمام

أعينهم. «لا تفكري على ذلك النحو» كانت مويرا لتقول ذلك لي، «فكّري هكذا وسوف يتحقّق ما تخشينه».

"ابتهجي!" يقول لوقا، إنّه يقود الآن بسُرعة مُفرطة قليلًا. وصل الأدرنالينُ رأسَه. وهو الآن يغني. "أوه يا للصباح الجميل" راح يغنّي.

حتى غناؤه يُقلقني. لقد حُذّرنا ألّا نبدو سعداء.

يطرق الرئيس الباب. الطّرق واجب، فيُفترض أن غرفة الجلوس أرض تابعة لسيرينا جوي، ويُفترض به طلب الإذن لدخولها. يحلو لها أن تبقيه منتظرا. وهذا أمر بسيط. لكن الأمور البسيطة في هذا البيت تعني كثيرًا. الليلة، خلاف العادة، لم يُسعف الوقت سيرينا جوي حتى للنطق بأيّ شيء، فقد خطا داخلًا الغرفة. ربما نسي المراسم المتّبعة، وربما فعل ذلك عن قصد. فمن يعرف ما قالته له عبْر طاولة العشاء ذات السطح الفضيّ، أو ما لم تقله.

الرّئيس في زيّه الرسميّ الأسود، بدا مثل حارس متحف. رجل على وشك التقاعد، وَدود بتحفّظ. إنّه يقتل الوقت. ذاك كلّه انطباع النظرة الأولى، لكنّه بعدها يبدو مثل رئيس بنك غرب أوسطيّ، بشعره الفضيّ النّاعم المرجّل بتناسق، وهيئته الرّزينة، وانحناءة كتفيه الخفيفة. بعدها شاربه الفضيّ أيضًا، وبعدها ذقنه الذي لا يمكنك حقًّا تجاهله. فعندما تُخفض نظرك إلى مستوى ذقنه فإنّه يبدو كما لو أنّه في إعلان فودكا في مجلّة لامعة من الأوقات السالفة.

سلوكه معتدل. كفّاه ضخمتان، بأصابع ثخينة وإبهامَين تمرّسا عدّ المال. عيناه الزرقاوان لا تكشفانه، وتحملان براءة خادعة. ينظر إلينا متمعّنًا كأنّه يجْرُد محتويات الغرفة. امرأة جاثية برداء أحمر، وامرأة جالسة برداء أزرق، وامرأتان واقفتان برداءين خضراوين، ورجل وحيد نحيل الوجه في الخلف. ينجح في ادّعاء حَيرته، كأنّه لا يتذكّر لمَ اجتمعنا هنا. كأنّه ورِثنا، مثل أرغن من العصر الفيكتوري، ولم يقرّر بعد ما يفعل بنا، أو كم نبلغ ثمنًا.

يومئ جهة سيرينا جوي التي لا تُجيب بأيّ صوت. يسير إلى المقعد الجلديّ الواسع المخصّص له، ويُخرج مفتاحًا من جيبه، يتحسّس تنميقات الصندوق المؤطّر بالنحاس المغلّف بالجلد فوق المنضدة جوار كرسيّه. يقحم المفتاح، يشرع الصندوق، يرفع منه الكتاب المقدّس، نسخة عادية غلافها أسود وحدود

صفحاتها مذهّبة. يُقفَل على الكتاب، كما كان يُقفَل على أوراق الشّاي لألّا يسرق منها الخدم. إنّه أداةٌ مُحرِقَة: مَنْ يعرف ما سنفعله لو وقعت أيدينا عليه؟ قد يُقرَأ منه علينا، هو فقط يقرأ منه، لا نحن. تستدير رؤوسنا نحوه، نترقّبه، حكاية ما قبل النوم[68].

يجلس الرئيس واضعًا ساقا على ساق بينما ننظر إليه. فواصل القراءة في مكانها من الكتاب. يفتحه، يتنحنح قليلًا، كما لو أنّه يشعر بالخجل.

"هل لي بشربة ماء؟" يقول دون توجيه الكلام إلى أحد معيّن، "إذا سمحتم".

ومن اللوحة التي نشكّلها معًا، تترك إحداهما مكانها خلفي، كورا أو ريتا، وتخفّ إلى المطبخ. يجلس الرّئيس مُخفضًا عينيه. يتنهّد. يُخرج نظارة القراءة من جيب معطفه، إطارها ذهبيّ. يرتديها. يبدو الآن مثل إسكافيّ في كتاب حكايات خرافية قديم. أليس من نهاية لأقنعته؟ أما من نهاية لصِدْقه؟

نراقبه: كلّ جزء، كلّ رفّة.

أن تكون رجلًا تراقبه عدّة نساء. لابُدّ أن التجربة غريبة برمّتها. أن يدفعهن لمراقبته طوال الوقت. أن يتساءلن دومًا، ما الذي سيفعله بعد ذلك؟ أن يجفلْن فور أن يتحرك، ولو كانت حركة خفيفة لا يمكن أن تؤذي أحدًا، كأن يمد يده لجذب المنفضة مثلًا. أن يتركهنّ يتنبّأن به ويقدّرن دومًا أفعاله، أن يفكّرن، لا يستطيع فعلها، لن يفعلها، لابدّ أن يؤدّي عمله. هذا الاحتمال الأخير يوحي إلى أنّه أشبه بقطعة ملابس، انتهى طرازها، أو رديئة النّسج، لكن يجب في كلّ الأحوال ارتداؤها، فلا بديل عنها مُتاح.

أن يلبسْنه، يجرّبنه، يخلعنه، فيما هو نفسه يرتديهن، مثل جَوْرَب حول قدم، حول نتوءه ذاك، إصبعه الحسّاس، مِجَسّه، ساقه البصريّة الرّقيقة المتتبّعة التي تنبثق، تتّسع، تجفل، ثمّ تتغضّن متقهقرةً إلى جوف نفسها، وذلك عندما تُندَس خطأً، ثمّ تتضخّم من جديد، تنتفخ قمّتها أكثر قليلًا، تمتدّ إلى الأمام كما لو أنها تمتدّ على وُريقة، تمتدّ في جوفهن، نهمة للرؤية[69]. أن يرى بهذه الطريقة،

بهذه الرحلة إلى ظُلمة تتشكّل من عدّة نساء، من امرأة واحدة، تستطيع الرؤية في الظلام بينما هو يندفع في عَمَاء.

إنها تراقبه من داخله، جميعنا يفعل. ذاك من بين الأمور التي نستطيع فعلًا القيام بها، وهي ليست دون هدف: إذ لو تداعى، عجزَ أو مات، فما الذي سيحدث لنا؟ لا عجب إذًا أنه يشبه الحذاء، صلب من الخارج، واهبًا تلك الهيئة للقدم الناعمة، لُبّه. هذه الأخيرة هي مجرّد أمنية. فلقد بقيت أراقبه بعض الوقت، ولم يُبدي أيّ دليل على لُطفه.

«لكن احترس، أيّها الرئيس» أقول له بيني وبين نفسي، «عيناي عليك. حركة غادرة واحدة وسوف أموت[70]».

رغم ذلك، إنّها حياة في الجحيم، أن تكون رجلًا مثل ذاك.

إنّها حياة لا بأس بها.

إنّها حياة في الجحيم.

إنّها حياة خرساء.

يصل الماء، يشربه الرئيس. "شكرا لك" يقول. تعود كورا في حفيف إلى مكانها.

يتريّث الرئيس قليلا، مُخفضًا عينيه، يتفحّص الصفحة. يتروّى كأنه لا يُدرك وجودنا. كأنه رجل يماطل في تناول شريحة لحمه خلف نافذة مطعم، مدّعيًا أنه لا يرى العيون التي ترقبه من الظلام الجائع على مسافة لا تتجاوز ثلاثة أقدام من كوعه. نميل نحوه قليلًا، بُرادة حديد نحو مغناطيسه. إنّ لديه ما ليس لدينا. الكلمة. كيف بدّدناها ذات يوم.

راح الرئيس، وكأنّه مُكره، يقرأ. لا يجيد ذلك. ربما لأنّه قد سأم واكتفى.

إنها القصّة المعتادة، القصص المعتادة، قال الرّب لآدم، قال الرّب لنوح. «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ[71]». ثم يأتي الكلام الفاسد عن راحيل العجوز وليئة الذي يتردّد داخلنا مثل طبل لكثرة ما سمعناه في الدّار الحمراء. «هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلاَّ فَأَنَا أَمُوتُ. أَلَعَلِّي مَكَانَ اللهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكِ ثَمْرَةَ الْبَطْنِ؟ هُوَذَا جَارِيَتِي بِلْهَةُ، ادْخُلْ

عَلَيْهَا فَتَلِدَ عَلَى رُكْبَتَيَّ، وَأُرْزَقُ أَنَا أَيْضًا مِنْهَا بَنِينَ[72]». وهكذا إلى آخره. لقد قُرأت علينا كلّ صباح أثناء تناولنا الإفطار في مقصف المدرسة الثانوية، الثَّريد بالقشدة والسُّكر البُني. "أنتُنّ تحصلن على الأفضل، تعرفن ذلك" قالت الخالة ليديا، «فثمّة حرب مشتعلة، وهناك حصص للطعام. أنتن مدلَّلات»، وبرقَت عيناها، كأنّها توبخ قطّة صغيرة. هِرّة داعرة.

أمّا الغداء فكانت التطويبات هي ما يُتلى علينا. طوبى لهذا وطوبى لذاك. كانوا يديرون شريطها في مسجّلة، فحتى الخالات ليس لهن أن يرتكبن معصية القراءة. صوت رجل. «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ». «طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ». «طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ». «طوبى للطّائعين». هذه الأخيرة قد لفّقوها، أعرف أنها محرّفة، وأعرف أنّهم أهملوا الكثير ولم يقرأوه، لكن لا سبيل للتأكّد. «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ[73]». لكن لم يقل أحد متى.

أنظر إلى الساعة خلال تناول الكمثرى المُعلَّبة بالقرفة، تحلية الغداء الدائمة، وأتطلّع إلى مكان مويرا على بُعد منضدتين. لقد استأذنَت فعلًا وسبقَتني. أرفع يدي، يؤذَن لي. لا نكرّر ذلك كثيرًا، ونعمَد إلى الاستئذان في أوقات مختلفة من اليوم.

في دورة المياه، أذهب إلى المقصورة قبل الأخيرة كالعادة.

"أنتِ هناك؟" أهمس.

"أكبر من الحياة وأقبح منها مرّتين" تهمس مُجيبة.

"ماذا سمعت؟" أسألها.

"ليس كثيرًا. ينبغي عليَّ الخروج من هنا. سوف أُجَنّ"

يجتاحني الذّعر. "لا، لا، مويرا" أقول، "لا تحاولي ذلك، ليس وحدك"

"سأدّعي المرض، وسيرسلون سيارة إسعاف. رأيت ذلك يحدث"

"لن تصلي أبعد من المشفى"

"إنّه تغيير مكان على الأقل. لن أضطرّ يومئذ إلى سماع تلك العاهرة العجوز".

" سيكشفون أمرك".

"لا شيء يدعو للقلق. لقد تمرّستُ الأمر. عندما كنت فتاة مدرسة ثانوية، كنت أنقطع عن تناول فيتامين ج فتظهر عليّ علامات نقصه، مرض الاسقربوط. لا يُدركون ذلك فورًا. لكنني بعدئذ أتزوّد به فأصير بخير. سوف أُخفي أقراص فيتاميناتي"

"لا تفعلي يا مويرا".

لم أحتمل فكرة ألّا تكون هنا، معي، من أجلي.

"إنهم يُرسلون شابّين معك، في سيارة الإسعاف. أمعني النظر في الأمر. لابدّ أنّهما يتضوّران جوعًا إليه، اللعنة، فهنا لا يُسمح لهما حتى إيلاج أيديهما في جيوبهما. لذا فاحتمالات أن..."

"أنتما هناك. انتهى الوقت". صوت الخالة إليزابث، قادمًا من المدخل. نهضتُ، وأجريتُ الماء في المرحاض. إصبعا مويرا بزغا من الثقب. بالكاد يتّسع مُحيطه لإصبعين. لامستهما بأصابعي، تشبّثت بهما، ثمّ سريعًا تركتهما.

«فَقَالَتْ لَيْئَةُ: قَدْ أَعْطَانِي اللهُ أُجْرَتِي، لأَنِّي أَعْطَيْتُ جَارِيَتِي لِرَجُلِي[74]»، قرأ الرّئيس، ثم ترك الكتاب ينغلق وحده، فندّ عنه صوت أشبه بتنهيدة المُنهَك، كما صوت باب خفيف انطبق وحدَه على مَبعَدة: نفخة هواء. أوحى ذاك الصوت إلينا بنعومة الصّفحات الرّفيعة البصَليّة اللون، وما هو ملمسها بين الأصابع. ناعمة جافّة، أشبه بمسحوق الطبقة الأولى للوجه، ورديّ مرذّذ، ذاك الذي تحصل عليه فيما مضى منثورًا على وُريقات مخصّصة لإزالة الزيت اللامع عن أنفك، توفّره متاجر تبيع شموعًا وقطع صابون على شكل أصداف بحريّة ونباتات فِطر. مثل ورق سجائر. مثل بتلات زهور.

يجلس الرّئيس بعينين مغمضتين لحظة، كأنّه مُرهَق. إنه يعمل ساعات طويلة. يتجشّم مسؤوليات كبيرة.

سيرينا شرعت في البكاء. أستطيع سماعها خلفي. ليست هذه المرّة الأولى. لطالما

فعلت ذلك، ليالي الطّقس. تحاول ألاّ تثير أدنى ضجّة. تحاول حفظَ كرامتها أمامنا. قطع الأثاث المنجّدة والسجّاد تموّه حدّة صوتها، لكننا نسمعها بوضوح. التوتّر الناجم عن فقدانها السّيطرة على نفسها ومحاولة استعادتها في الوقت ذاته وصل إلى درجة مُريعة. إنه أشبه بإطلاق ضرطة في كنيسة. أشعر دومًا حينئذ بحاثٍّ يحثّني على الضحك، لكن ليس لظنّي أن الموقف يدعو إلى الضحك، بل لأنّ رائحة بكائها تنتشر بيننا فيما ندّعي تجاهلها.

يفتح الرّئيس عينيه. يلاحظ ما يحدث، يعبس، ثم لا يُلقي إليها بالًا. "الآن سنصلي صلاة صامتة للحظات" يقول، "سوف نسأل البركة، والنجاح في مجازفاتنا كلّها".

أحني رأسي وأُغلق عينيّ. أصغي إلى الأنفاس الكتيمة، والشهقات التي تكاد تكون غير مسموعة، والرّجفة الحاصلة خلفي. «يا للكره الذي تُكنّه لي» أقول لنفسي.

أصلّي في صمت «نوليته تّي باستاردس كاربوروندوروم». لا أعرف معناها، لكنها تقول صوابًا، يجب أن تكون كذلك، فلستُ أعرف ما أقوله للرّب غيرها. ليس الآن على الأقل – كما اعتدنا القول – ليس في هذه المرحلة. العبارة المخدوشة في رُكن دولابي الأقصى تطفو أمامي. كتبتها امرأة مجهولة لها وجه مويرا. رأيتها تخرج، إلى عربة الإسعاف، محمولة على نقّالة يُمسكها ملاكان.

"ماذا حدث؟" سؤالٌ فُهتُه إلى جارَتي. وهو سؤال آمنٌ طرحُه إلّا على المتعصّبات.

"حُمَّى" شكّلت الكلمة بشفتيها دون نُطق، "يقولون التهاب الزّائدة".

كنتُ أتناول العشاء ذلك المساء، كريّات لحم وبطاطس مهروسة. منضدتي قُرب النافذة وقتئذ وأمكنني الرؤية خارجًا حتى البوابات الأمامية. شاهدتُ عربة الإسعاف عائدة دون أن تشعل صافرة إنذارها. قفز من العربة ملاك وتحدث مع وصيّ، ثمّ دخل الوصيّ المبنى وبقيَت سيارة الإسعاف واقفة. كان الملاك واقفًا وظهره إلينا، كما أُمروا. خرجت خالتان مع الوصيّ. التفّوا حول الإسعاف إلى مؤخّرها. أخرجتا مويرا، جرّتاها إلى الداخل عبر البوابة صعودًا الدرج الأماميّ، ذراع واحدتهما تحت كلّ إبط. كانت تواجه متاعب في المشي. كففتُ عن الأكل،

لم أستطع الأكل، وخلال ذلك باتت الجالسات على المناضد في صفّي ينظرن خارج النافذة. النافذة مخضرّة، داخلها شبَكة من الأسلاك الرفيعة، تلك التي اعتادوا وضعها داخل الزجاج. قالت الخالة ليديا "تناولن عشاءكن" ثم تقدّمت وأنزلت السّتار.

أخذوها إلى غرفة كانت فيما مضى معمل العلوم. إنها غرفة لم تذهب إليها أحدنا بإرادتها. بعدئذ، لم تستطع السير أسبوعًا، وما عادت قدماها تدخلان حذاءها، فقد تورّمتا بشدّة. إنّها الأقدام ما يتعرّضون إليه عند أوّل إساءة. يستخدمون سِلكًا معدنيًّا مكشوف النّهايتَين. يتعرّضون إلى الأكفّ بعد ذلك. لا يهمّهم الأثر الذي يتركونه على الأكفّ والأقدام، حتى لو بات دائمًا. «تذكّرن» قالت الخالة ليديا «إن أقدامكن وأكفّكن ليس لهنّ أيّ دور في الغاية المراد تحقيقها بكنّ».

مويرا مستلقية على سريرها، أمثولة لنا. "ما كان ينبغي لها المحاولة مع الملائكة"، قالت آلما من السرير المجاور. اضطررنا إلى حملها إلى الفصول. نسرق لها أكياس سكّر ورقيّة إضافية، من المقصف أثناء تناول الوجبات، ثمّ نتناقلها من يدٍ إلى يد ليلاً حتى تصل إليها. ربما لم تكن في حاجة إلى السكّر، لكنّه الشيء الوحيد الذي أمْكَننا سرقته. وَهبه.

ما زلت أصلي في صمت، لكنني أرى قدمَي مويرا أيضًا كما كانتا عندما أعادوها. قدماها لم تكونا شبيهتان بالأقدام أبدًا، بل مثل أقدامٍ غَريقة: متورمة ودون عظام، باستثناء لونهما. كانتا بلون الرئتين.

"آه، يا ربّي" أصلّي، "نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم".

هل هذا هو كلّ ما يحويه رأسك؟

يتنحنح الرّئيس. هذا ما يفعله ليُعلمنا، في رأيه، أنّه حان وقت إنهاء الصلاة. «لأَنَّ عَيْنَيِ الرَّبِّ تَجُولاَنِ فِي كُلِّ الأَرْضِ لِيَتَشَدَّدَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَامِلَةٌ نَحْوَهُ[75]» يقول. تلك إشارة النهاية. ينهض واقفًا. يصرِفنا.

يمضي الطّقس كالمعتاد.
أستلقي على ظهري بثيابي كلّها ما عدا الملابس الداخلية، القطنية البيضاء الصحيّة. من بين ما سأراه، لو أن لي فتح عينيّ، هو سرداق قماشيّ أبيض عريض، يتدلّى من أربعة أعمدة في أركان سرير سيرينا جوي الهائل ذي الطراز الاستعماريّ، يتدلّى فوقنا مثل سحابة واسعة. سحابة تمتدّ فيها غصونُ قطرات مطر ضئيلة فضيّة، والتي – لو أمعنت النظر إليها – ستتكشّف عن أزهار رباعيّة البتلات. لا أرى السجّادة البيضاء، ولا الستائر المشجّرة، ولا التسريحة المزوّقة بمشطها ذي الظّهر الفضّي، ومراياها. ليس سوى السّرداق، الذي يوحي – بشفافيّته وقوس انثياله – بالأثيريّة والماديّة في الوقت نفسه.
أو مثل شِراع. أشرعة منفوخة البطون، كما اعتادوا القول في القصائد. بطن منتفخة. تندفع ببطنٍ منتفخة[76].
رذاذٌ من سوسَن الأودية يُحيط بنا، بارد، يموج بنا إلى حدٍّ ما. ليس الهواء دافئًا هنا في الغرفة.
أعلايَ، عند ظهر السرير، تقعد سيرينا جوي، مستعدّة ومنبسطة الأطراف. ساقاها متباعدتان، أستلقي بينهما، رأسي على بطنها، عظمة عانتها تحت قاع جمجمتي. فخذاها كلّ على جانب منّي. وهي أيضًا بثيابها كلّها.
يداي مرفوعتان ورائي: هي تمسكهما، كلّ يد في كلّ كفّ لها. يُفترض أن ذلك يمثّل كوننا جسدًا واحدًا، كائنًا واحدًا. لكن ما يعنيه حقًّا هو أنّها تقبض على زمام السّيطرة، على ما يجري، وبالتالي على ما سينتُج. خواتم أصابعها اليسرى تجرح أصابعي. ربما انتقامًا، وربما لا.
رُفعَت تنّورتي إلى مستوى خصري، لا أعلى من ذلك. وأسفل منها ثمّة الرّئيس، يدخُلني. إنّه يدخل الجزء الأدنى من جسدي. لا أقول إنه يمارس الحبّ، لأنه لا

يفعل ذلك. يُجامِع أيضًا ليست دقيقة؛ فالجِماع يُقرّ بوجود شخص ثانٍ، لكن والحالة هذه ثمّة شخص واحد. حتى الاغتصاب لن يَفي الغرض؛ فلا شيء يحدث هنا لم أشارك بدءًا في حدوثه. لم تكن إرادتي طليقة بالطّبع، لكنني ملكتُ قليلًا منها، وهذا ما اختارَته.

لذلك أستلقي ساكنة وأتصوّر السّرداق غير المرئي. أتذكر نصيحة الملكة فكتوريا لابنتها «أغمضي وفكّري في إنجلترا». لكن هذه ليست إنجلترا. أتمنى أن يستعجل النهاية.

ربما كنت مجنونة وهذا علاج جديد.

أتمنى لو أن ذلك صحيح؛ فحينئذ سأتعافى، ويتوقّف ما يحدث إلى الأبد.

تقبض سيرينا جوي على ذراعيّ كما لو كانت هي، لا أنا، مَن يُدخَل فيها، كما لو كانت تجد في الأمر لذّة أو ألمًا. فيما الرّئيس يدخُل، بتتابع مشية عسكريّة، ثنائيّة رباعيّة، يتابع ويتابع مثل صنبور يقطُر. وهو مستغرق في ذلك، مثل رجل يهمهم لنفسه أثناء الاستحمام. يهمهم كرجُل مشغول الذهن بأمور أخرى. كأنّه في مكان آخر، ينتظر نفسه أن تأتي، يقرع بأصابعه الطاولة منتظرًا[77]. يظهر في إيقاعه الآن نفاد صبره. لكن أليس هذا هو الحلم الرّطب الذي يراود الكلّ، امرأتان في آن؟ لطالما قالوا ذلك. مُثير، لطالما قالوا.

ما يحدث في هذه الغرفة، سرداق سيرينا جوي الفضيّ، ليس مُثيرًا. ليس له أدنى علاقة بالرّغبة، أو الرومانسيّة، أو الحبّ، أو أيّ من تلك الخواطر الأخرى التي اعتدنا دغدغة أنفسنا بها. ليس له علاقة بالشّبق، بالنسبة إليّ على الأقل، وإلى سيرينا جوي حتمًا؛ فما عادا ضروريًّا الاشتهاء والارتعاش وأمثالهما. لن يُنظَر إليها سوى أنّها لهوٌ وحسب، مثل سيور الخصر، أو شامات الحُسن، مجرّد تشتيتات غير مُجدية للعقول النيّرة. عفا عليها الزّمن. ويغدو من المستغرب أن النساء ذات يوم بدّدنَ طاقتهن ووقتهن في قراءتها، التفكيّر فيها، القلق حولها، وفي الكتابة عنها. إنّها، بكلّ وضوح، مجرّد لعب.

لكن هذا ليس لعبًا، حتى بالنسبة إلى الرئيس. هذا عمل جادّ. فالرّئيس أيضًا

يقوم بواجبه.

لو أن لي فتح عينيّ، لو باعَدتُ أجفاني قليلًا، لتمكّنتُ من رؤيته، وجهه غير البغيض، يُطلّ فوق جذعي، ربما مع بضع خصلات من شعره الفضيّ ساقطة على جبهته، منهمكًا في رحلته الداخلية، نحو مكان يسارع إليه لكنّه يبتعد عنه بالسّرعة نفسها، كما في حُلم. لرأيت عينيه مفتوحتين.

لو كان وسيمًا حقًّا، هل كنتُ سأستمتع بهذا؟

هو، على الأقل، صورة مُحسّنة عن وليّي السّابق، الذي يفوح برائحة غرفة تعليق الثياب في كنيسة خلال يوم ماطر، مثل فمك عندما يروح الطبيب يخلّل أسنانه، مثل منخَر. الرّئيس، في المقابل، له رائحة كرات العثّ، أم أنها عطر حارق لحلاقة الذّقن؟ لمَ عليه ارتداء بزّته الرسميّة السّخيفة؟ لكن، هل سأعجب أكثر بجسده الأبيض المشدود الأشْعَر؟

تبادل القُبَل محرّم بيننا، ما يجعل الأمر محتملًا قليلًا.

واحدٌ ينتزع نفسه. ويروح يصفها.

وأخيرا يبلغ الذّروة. وبتأوّه مكبوت أشبه بالارتياح، سيرينا جوي التي كانت تحبس أنفاسها طوال الوقت، أطلقتها. والرّئيس الذي اتّكأ على مرفقيه، بعيدًا عن جسدينا الملتحمين، لا يترك نفسه ليرتمي علينا. يرتاح لحظة، يجذبه، يتراجع، يغلق السّحاب. يومئ، ثم يستدير مغادرًا الغرفة، مُطبقًا الباب وراءه بحرص مبالغ، كما لو كنّا معًا أمّه المريضة. ثمّة أمر مَرِح بشأن ما حدث كلّه، لكنّي لا أجرؤ على الضحك.

تطلق سيرنا جوي ذراعيّ. "تستطيعين النهوض الآن" تقول، "انهضي واخرجي". يُفترَض بها أن تتركني أرتاح، عشر دقائق، بينما ساقاي مرفوعتان على وسادة، لزيادة فرص الحمل، وتروح هي تتأمّل في صمت بعض الوقت، لكنّها ليست في مزاج مناسب. صوتها يحمل اشمئزازًا، كأنّ ملمس بشرتي يُمرضها ويلوّثها. أفصل جسدي عنها، أنهض، عصير الرّئيس ينساب بين ساقيّ. وقبل أن أستدير مبتعدة أراها تسوّي تنّورتها الزرقاء، وتضمّ ساقيها، فيما تستمرّ في الاستلقاء على السرير،

ناظرةً إلى السّرداق فوقها، متصلّبة مشدودة مثل دُمية.

مَن منّا يسوءه الأمر أكثر: هي، أم أنا؟

هذا ما أفعله عندما أعود إلى غرفتي:

أخلع ملابسي، وأرتدي ثياب النوم.

أنبش قطعة الزبدة من إصبع قدم فردة حذائي اليمنى حيث أخفيتها بعد العشاء. كان الدولاب دافئا جدًّا، الزّبدة شبه ذائبة تمامًا. كميّة كبيرة منها تشرّبتها ورقة المنديل التي تغلّفها. والآن ثمّة زبدة في حذائي. هذه ليست أوّل مرّة، فكلّما توفّرت لي زبدة طبيعيّة أو مُصنّعة، فإنني أحتفظ ببعضها بتلك الطريقة. أستطيع استخراج مُعظم الزبدة من حوافّ الحذاء بقطعة قماش أو منديل ورقي من الحمّام، غدًا.

بالزّبدة أدعك وجهي، وأضع بعضها على بشرة يدَيّ. لم تعد تتوفّر مرطّبات اليدين والوجه، ليس لنا. فهي تُعتبر تجميليّة. فنحن أوعية، دواخل أجسادنا هي المهمّة وحسب. قد يصير خارجنا جافًّا متجعّدًا، أقلّ ما يهمّهم، مثل قشرة جوزة. إنّه قرار الزوجات، غياب مرطّبات اليدين. لا يريدوننا أن نبدو مُثيرات. فالأمور بالنسبة إليهن رديئة بما في الكفاية فعلًا.

الزّبدة حِيلة تعلّمتها في دار راحيل وليئة، أو الدّار الحمراء كما أسميناها، فاللون الأحمر يطغى هناك. سَلَفي في هذه الغرفة، صديقتي ذات النّمش والضحكة الطيّبة، لابدّ أنها فعلت ذلك أيضًا، دهن الزّبدة. جميعنا قد فعلْن.

طالما بقينا نفعل ذلك، ندهن بشرتنا بالزّبدة لنُبقيها ناعمة، فإنّنا نبقى نصدّق أننا يومًا ما سوف نخرج، أننا سوف نُلمَس حُبًّا أو رغبة. إن عندنا طقوسنا، الخاصّة بنا.

أمست الزبدة أقرب إلى الشّحم منها إلى الدّهن، ولسوف تبيت مُنتنة فأفوح برائحة جبنة قديمة، لكنّها على الأقل رائحة عُضويّة[78]، كما اعتادوا القول. فبسبب تلك الأعضاء أنزلنا[79].

متدهّنة، أستلقي في سريري الضيّق، منبسطة، مثل شريحة خبز محمّصة. لا أستطيع النوم. في شِبه الظّلمة أنظر إلى أعلى، نحو العين الجصيّة الكفيفة التي تتوسّط السّقف، بينما تُرسل نظرها هي أيضًا إليّ، رغم عماءها. لا نسمة هواء، ستائري البيضاء أشبه بضُمادة شفيفة، تتدلّى مترهّلة، تلمع من هالة أضواء الكشّافات التي تضيء هذا البيت ليلاً، أم أن هناك قمرًا في السماء؟

أزيح الملاءة، أنهض متمهّلة بقدمين عاريتين كتيمتَي الوقع، وبرداء نومي أخفّ إلى النافذة، مثل طفلة، أريد أن أرى. يستلقي القمر على صدر الثّلج المتساقط توًّا. السماء صافية لكن يصعب رؤية أعماقها بسبب أضواء الكشّافات. لكن، أجل: راح القمر توًّا يطفو في السماء الغامضة، حقًّا. قمر أَمَليّ، فضّة صخرة عتيقة، إلهة، غمزة. القمر صخرة فيما السماء تزدحم بخردوات ميتة، لكن، إلهي، يا لجماله في كلّ الأحوال.

أودّ لو أنّ لوقا جواري بشدّة. أريد أن أُعانَق، أن أُنادى باسمي. أريد أن أشعر بقيمتي في أمور أستحقها ولا أستحقها، أريد أن أكون أعلى من أيّ قَدْر. أكرّر اسمي السابق، أذكّر نفسي بما كان يمكنني فعله مرّة، وكيف نظرَ إليّ الآخرون. أودّ أن أسرق شيئًا ما.

أضواء الليل مشتعلة في الرّدهة. المسافة في البُعد وهّاجة بلونورديّ ناعم: أسير، أُتبِع قدمًا حذرةً بقدمٍ حذرة على الأرض، دون إصدار أدنى صرير، طول السجّادة الطوليّة، كما لو أنني أعبر حرشَ غابة، أنسلّ بقلبٍ ضارب، عبر بيت الليل. أخرج عن حدود مكاني، وذلك ممنوع.

أنزل الدرج، فأجاور مرآة الجدار المحدّبة، عين السّمكة، وأرى قامَتي البيضاء، جسدي في خيمته، فيما شعري ينسدل على ظهري مثل عُرف الفرَس، وعيناي متّقدتان. أعجبني الأمر. إنني أُقدِم على أمرٍ بإرادتي. الحركة، هل هي زمن؟ توتّري مُزمِن. أودّ سرقة سكّين من المطبخ، لكنني لست متأهّبة لذلك.

أصل غرفة الجلوس. بابها موارَب. أنساب داخلها دون إغلاق الباب. خشب

الأرضيّة يصرّ، لكن هل في القُرب أحد ليسمعه؟ أنتصف الغرفة، تاركة حدقتَيّ تتّسعان مثل قطّة، أو بومة. عطر عتيق، غبار الأقمشة يملأ منخريّ. ثمّة سديم ضوء آت من خلَلْ الستائر المُطبقة، من الكشّافات خارجًا، حيث رجلان يخفران المكان دون شك. لقد رأيتهما مِن أعلى، من وراء ستائري: قامتان غامقتان، ظلّان مقطوعان. الآن أستطيع رؤية ملامح ولُمَع: من المرايا، وقواعد المصابيح، والمزهريّات، فيما الأريكة تنبلج مثل سحابة في الغسق.

آخذ ماذا؟ شيئا لن يفتقده أحد. من الغابة، منتصفَ الليل، آخذ زهرةً سحريّة. نرجسة ذابلة، لا من باقات الورود المجفّفة. سوف يُرمى النرجس قريبًا، بدأت رائحة ذبوله تنتشر، مع أبخرة سيرينا جوي البائتة، وذَفَرها أثناء الحياكة.

أتلمّس طريقي، أعثر على زاوية منضدة، أتحسّس. صوت قعقعة. لابُدّ أنني أوقعت شيئا. أعثر على النّرجس، أطرافه هشّة حيث راحت تجفّ. أرتخي ببطء لأتلمّس سيقانه، وبأصابعي أنشُلُ واحدة. سوف أحتفظ بها مكبوسة في مكان ما. تحت الفراش. سأتركها هناك لمَن ستخلفني في الغرفة كي تعثر عليها.

لكن ثمّة أحد في الغرفة، ورائي.

أسمع خَطْوَه. هادئ مثلي. يصرّ خشب الأرضيّة كما صرّ لي. ينطبق الباب خلفي مُصدرًا طقّة خفيفة. ينقطع ضوء المدخَل. أتجمّد: قامتي البيضاء كانت خطأً بارزًا في المكان. أنا ندفة ثلج في ضوء القمر، رغم الظلام.

همسة "لا تصرخي. كل شيء على ما يرام".

وكأنني سوف أصرخ، وكأن الأمور فعلًا على ما يرام، أستدير: ثمّة قامَة ما، فقط، ولألأةٌ باهتة لعظمة وَجْنَة، دون لون.

يخطو نحوي. نِك.

"ما الذي تفعلينه هنا؟"

لا أجيبه. وجوده هنا ممنوع أيضًا، معي. لا يمكنه الوشاية بي، ولا يمكنني ذلك أيضًا. الآن نحن مرآتان متقابلتان. يمسك ذراعي، يجذبني لِصقَه، يعانقني، يضع فمه على فمي. ما الذي يفعله الكَبت غير ذلك؟ لم نتبادل أيّ كلمة. كلانا يرتعد،

كيف أريد أن يتمّ الأمر؟ في غرفة جلوس سيرينا، بين الأزهار المجفّفة، فيما جسده النحيل على السجادة الصينية. هذا رجل أجهله تمامًا. قد يفضحني كما قد يفضحني الصّراخ، أو إطلاق النار على أحد. يدي تتحسّس طريقها نزولًا. هل يروقك ذلك؟ أستطيع حلّ الأزرار. ثمّ... لكن الأمر خطرٌ للغاية، هو يدرك ذلك، يدفع كل منا الآخر عن نفسه، ليس بعيدًا. ثقة كبيرة، خطَر كبير، وليس ينقصنا خطَر أكبر ممّا نحن فيه فعلًا.

"جئت بحثًا عنك" يقول، متنفّسًا في أذني. أودّ الاقتراب منه، تذوّق بشرَته، إنه يجوّعني. أصابعه تتحرك. تتحسّس يدي تحت كُمّ رداء نومي، كأن يده لا تُعير نداء العقل بالًا. شعور لذيذ، أن يلمسك أحد ما، أن تُجَسّ برغبة نهمة. لوقا، سوف تُدرك، سوف تتفهّم، إنه أنت، هنا، في جسد آخر.

هراء.

"لمَ؟" أقول. هل فاضَ به الأمر إلى درجة يخاطر عندها بالقدوم إلى غرفتي ليلا؟ أتذكّر الرجال المشنوقين على الحائط. قدماي بالكاد تحملانني. يجب أن أخرج سريعًا، عائدة إلى الدرج، قبل أن أنحلّ تماما. كفّه الآن على كتفي، تمسكه في سكون، ثقيلة، تضغط مثل رصاص ساخن. هل هذا ما أودّ الموت في سبيله؟ إنني جبانة. أكره فكرة الألم.

"أمرني بمراقبتك" يقول نِك، "يريد أن يقابلك، في مكتبه".

"ماذا تقصد؟" أقول له. الرّئيس، يقصده هو حتمًا. أن يقابلني؟ ماذا يقصد بكلمة مقابلة؟ ألم يقابلني بما يكفي؟

"غدًا" يقول بصوت بالكاد يُسمع. في ظلام غرفة الجلوس نتحرّك مبتعدَين عن بعضنا، ببطء، كأننا منجذبين نحو بعضنا بقوّة ما، تيّار مغناطيسيّ ما، ونُبعَد عن بعضنا في الوقت نفسه بقوّة مماثلة.

أعثر على الباب. أدير المقبض، أصابعي تتحسّس خزَفَه البارد. أفتح. وذاك كلّ ما أستطيع فعله.

VII

ليل

18

أستلقي في السرير، لم أفتأ مرتعدة. تستطيع تبليل عنق زجاجة، ثمّ تُجري إصبعك عليها، وسيصدر عنها صوت. هذا ما أشعر أنني مثله: صوت زجاج. أشعر أنني مثل كلمة «هَشيم». أودّ لو أنني رفقةَ شخص ما.

مستلقية في السرير، مع لوقا، يده على بطني المتكورة. ثلاثتنا، في السرير، فيما هي تركل وتتقلّب داخلي. تنهض وراء النافذة عاصفة رعديّة، ولذلك هي مستيقظة. من داخلنا، يُمكنهم السّماع، والنّوم، وحتى الاندهاش، رغم قُربهم من القلب ونبضه المهدّئ، مثل موجات شاطئ يُحيط بهم. ومضة برْق، قريبة، تبيضّ لها عينا لوقا لحظة.
لا تخيفني الأجواء. نحن في تمام اليقظة. المطر ينثال غزيرًا. سوف نجرّب الأمر ببطء وحذَر.
لو ظننتُ حينئذ أن ذلك لن يحدث مرّة أخرى، لمُتّ فورًا.
لكنّه ظنّ خاطئ. فلا أحد يموت بسبب قلّة ممارسة الجنس. بل نموت لافتقارنا الحبّ. لا أحد هنا يمكنني أن أحبه. كلّ من كان في إمكاني حبّهم ماتوا، أو أُخذوا بعيدًا. من يعرف أين هم الآن، وما أسماؤهم المستحدثة؟ قد يكونون في لا مكان، كما أنا بالنسبة إليهم. أنا أيضًا في عِداد المفقودين.
أستطيع، من حينٍ لآخر، رؤية وجوههم في العتمة، ترفرف مثل صور القدّيسين في كاتدرائيات الآخرين القديمة، في ضوء شموع تهزّها الرّيح. شموع توقدها لكي تصلي جوارها راكعًا، فيما جبينك لصقَ الحاجز الخشبي آملًا إجابة صلاتك. أستطيع مناشدتهم في العتمة، لكنهم سراب. لا يدومون. هل أبيتُ محطّ لَوْمٍ لأنني أريد جسدا حقيقيا، ألفّ ذراعيّ حوله؟ فدون ذلك أغدو أنا أيضًا دونَ جسد. أستطيع سماع قرعَ قلبي يرتدّ عن نوابض السّرير، أستطيع مداعبة

نفسي تحت الملاءات الجافة البيضاء، في العتمة، لكنني أنا أيضًا جافّة وبيضاء، متصلّبة، ومُبرغلة، كأنني أجري كفّي على طبق أرزّ جاف. كأنّني أُثلِجُ. في المداعبة شعور بالموات، بالهجران. أنا مثل غرفة جرت فيها أمور كثيرة فيما مضى، والآن لا يحدث شيء، باستثناء حشائش تنمو إزاء النافذة وتُراكم غُبار طلعها، الذي يُنفَخ إلى الداخل وينتثر غبارًا على الأرضية.

هذا ما أؤمن به.

أؤمن أن لوقا مكبوب على وجهه في حَرَشٍ من أُجُمات سرخس متشابكة، فوق خُوصٍ بُنّي سقط خلال العام المنصرم وتحت خُوص راح يخضرّ ويتمدّد توًّا. أو تحت شجرة توت، رغم أنّ الوقت مبكّر على ثمار التّوت الأحمر. ما الذي تبقّى منه: شعره، عظامه، قميصه الصوفيّ المنقوش بالأخضر والأسود، وحزامه الجلديّ، وجزمة العمل. أعرف تمامًا ما كان يرتديه. أرى ملابسه في ذهني مشعّة مثل صورة ليثوغرافية ضوئيّة[80]، أو إعلان ملوّن في مجلة قديمة، وإن كان الوجه ليس وجهه تمامًا. فملامح وجهه آخذة في التلاشي. ربما لأنها لم تكن ثابتة قط: فلوجهه تعابير متبدّلة، في حين أن ملابسه واحدة.

أصلّي أن يكون الثّقب، أو الثّقبان، أو الثلاثة – فقد تتابعت طلقات الرّصاص– قريبة بعضها من بعض. أصلّي أن رصاصة واحدة على الأقل كانت دقيقة، سريعة، ثقبت جمجمته أخيرًا، مخترقة المكان الذي تُختزن فيه الصور كلّها، حتى لا يبقى لحظتئذ سوى ومضة واحدة، من ظُلمة أو ألم، باهتة كما آمل، مثل كلمة «ارتطام»: وقعة واحدة، ثمّ الصّمت.

أؤمن بذلك.

أؤمن أيضًا أن لوقا جالس، في مستطيلِ مكانٍ ما إسمنتيّ رماديّ، على حَرْف شيء أو حافّته، سرير، أو كرسي. يعلم الرّب ما يرتدي من ملابس. يعلم الرّب ما عرّضوه إليه. ليس الربّ وحده من يعرف تلك المعلومات، لابدّ من طريقة لتقصّيها. لم يحلق شعر ذقنه منذ عام، لكنّهم حرصوا على تقصير شعر رأسه، متى ما خطر على بالهم، مدّعين أن ذلك بسبب القمل. ينبغي أن أراجع منطقي هذا: فلو حلقوا

شعر رأسه بسبب القمل، فإنّهم سيحلقون لحيته أيضًا، كما قد تظنّ.
على أيّ حال، لن يقوموا بذلك جيّدًا. فشعره أشعث، وظهر عنقه جرّحته الحلاقة، وذلك ليس أسوأ ما في الأمر. يبدو أنّه قد كَهَل عشر سنوات، أو عشرين، منحنٍ مثل عجوز، أجفانه متورّمة. وقد انبثقت في وجنتيه عروق بنفسجيّة صغيرة. وثمّة نُدبة، لا، إنّه جُرح لم يلتئم بعد، بلون الزنابق، عند التحام وجهه برقبته، أسفل الجانب الأيسر من وجهه، حيث انشقّ اللحم حديثًا. ما أسهل إتلاف الجسد، ما أسهل التخلّص منه، فهو مجرّد ماء وحمضيّات، كما قنديل البحر، يجفّ سريعًا فوق الرّمال.
يؤلمه تحريك يديه، تؤلمه الحركة. لا يعرف التّهمة الموجّهة إليه. مشكلة. لابدّ أن هناك جُرمًا، تُهمةً ما. وإلّا لماذا يحتجزونه؟ لماذا لم يمُت حتى الآن؟ لابدّ أنه يعرف أمرًا يريدون معرفته. لا أستطيع تصوّر ما هو. ولا أستطيع تصوّر أنّه لم يُقرّ به حتى الآن مهما كان. لكُنت فعلت.
إنه مُحاط برائحة ما، رائحته، رائحة حيوان محشور في قفص قذر. أتصوّره نائمًا؛ لأنني لا أستطيع تصوّره في أيّ وقت آخر، مثلما لا أستطيع تصوّر أي شيء بين ياقته وأغلال عنقه. لا أريد التفكير في ما فعلوه بجسده. هل يرتدي حذاء؟ لا، والأرضيّة رطبة باردة. هل يعرف أنني هنا، حيّةً، أنني أفكّر فيه؟ لابدّ أن أعتقد ذلك. ففي ظروف المعيشة القاسية ينبغي أن تعتقد الأمور بكافّة أشكالها. الآن صرتُ أؤمن بالتّخاطُر الذهنيّ، مُوَيْجات في الأثير، تلك الأفكار السّخيفة. لم أؤمن بذلك قط.
أؤمن أيضًا أنّهم لم يقبضوا عليه ولم يتمكّنوا من اللحاق به في النهاية، أنّه نجح، وصل الضفّة، وسبح خلال النهر، وقطع الحدود، ثمّ جذب نفسه خارجًا عند الضفّة الأخرى البعيدة، في جزيرة، بينما أسنانه تصطكّ، ثمّ عثر على طريقه إلى بيت ريفيّ في الجوار، فأُدخل بشيء من الرّيبة في البدء، لكنّهم حين عرفوا من هو، أظهروا له لُطفَهم، وأنّهم ليسوا من أولئك الذين يشون بالهاربين. وربما كانوا صاحبيّين، فيسعون إلى تهريبه إلى عمق البلاد من بيت إلى بيت، ولربما أعدّت له المرأة قهوة ساخنة وأعطته بعض ثياب زوجها. أتصوّر تلك الثياب. يُريحني أن

أُلبسه إيّاها بدفء.

لقد أجرى اتصالاته بالآخرين أمثاله، إذ لابُدّ أن هناك مقاومة، حكومة منفى. لابدّ أن أحدًا هناك يقوم بذلك. إنّني أؤمن بالمقاومة إيماني بأنّه لا ضوء دون ظلال؛ أو الأحرى، لا ظلال حتى يكون هناك ضوء أيضًا. لابدّ أنّ ثمّة مُقاومة، وإلّا من أين يأتي أولئك المجرمون كلّهم الذين تعرضهم قنوات التلفاز؟

الآن قد تصل منه رسالة في أيّ يوم. ولسوف تصل بطريقة غير متوقّعة ألبتّة، مع شخص لم أشكّ فيه قط. مع شخص لم يخطر لي أبدًا أن يفعل ذلك. يدسّ الرسالة تحت طبق طعامي في صحَفَة العشاء؟ أو يدفع بها داخل كُمّي عندما أمد يدي بقسائم الشراء عبر طاولة الحساب في دكّان ذوات الأجساد؟

ستقول الرّسالة إنّه ينبغي عليّ التحلّي بالصّبر، فعاجلًا أم آجلًا سيأتي ليُخرجني، وسوف نعثر عليها أينما وضعوها، وسوف تتذكّرنا ويجتمع شملنا مجددًا نحن الثلاثة. لكن في هذه الأثناء ينبغي أن أتجلّد وأحفَظ نفسي سالِمَة إلى حينه. ما حدث لي، وما أمرّ به الآن، لن يغيّر مشاعره تجاهي، فهو يحبني على أيّ حال، ويعرف أنّه ليس خطأي. ستقول الرسالة ذلك أيضًا. إنّها هذه الرسالة التي قد لا تصل إليّ أبدًا ما يُبقيني على قيد الحياة. إنّني أؤمن بالرسالة.

تلك الأمور التي أؤمن بها لا يمكن أن تكون كلّها صائبة، لكن لابدّ أن أحدها كذلك. لكنني أؤمن بها كلّها: مصائر لوقا الثلاثة، في آن. هذا الإيمان بالمتناقضات، يبدو لي الآن أنّه الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها الإيمان بأي أمر. أيًّا كانت الحقيقة، فإنني مستعدّة لها.

هذا أيضًا إيماني أنا. وهذا أيضًا قد يكون خاطئًا.

ثمّة شاهِد قَبْر في فناء الكنيسة العتيقة في الجوار، يحمل نقش مرساة، وساعة رمليّة، وعبارة: تذرّع بالأمل.

تذرّع بالأمل. لماذا يعلّقون عبارةً كتلك فوق شخص ميت؟ هل كانت الجثة هي من تأمَل، أم أنّهم الأحياء؟

هل يأمل لوقا؟

VIII

يوم ميلاد[81]

أحلم أنّني مستيقظة.

أحلم أنّني أنهض من السرير وأذرع الغرفة. ليست هذه الغرفة. أخرج من الباب. ليس هذا الباب. أنا في بيتي، أحد بيوتي. وهي تخفّ لملاقاتي في قميص نومها الضيّق الأخضر الذي ترتسم فيه زهرة عبّاد شمس، حافية القدمين، ألتقطها وأرفعها عاليًا، شاعرةً بذراعيها وساقيها تلتفّ حولي، وأروح أبكي؛ لأنني أدرك في تلك اللحظة أنني لستُ مستيقظة. أعود إلى هذا السرير مجدّدًا وأحاول أن أستيقظ، فأستيقظ فعلًا وأجلس على حافة السرير، فتدخل والدتي حاملة صحَفَة وتسألني هل أشعر بتحسّن. عندما أمرض في طفولتي كانت تتغيّب عن عملها وتبقى جواري في البيت. لكنني لستُ مستيقظة هذه المرّة أيضًا.

وبعد تواتر تلك الأحلام أستيقظ فعلًا، أنا الآن مستيقظة؛ أعرف ذلك لأنّ هناك زخرفة جصيّة بالحفْر البارز المدوّر على هيئة إكليل زهر في السّقف، وستائري مُنسابة مثل شعر أبيض غارق تحت الماء. أشعر أنّني مُخدرة. وأفكّر في هذا: ربما يقومون بتخديري، ربما تكون الحياة التي أظنّ نفسي تحياها هي مجرّد جنون ارتياب.

لا أمل. أعرف أين أنا، ومن أنا، وأيّ يوم ذا. هذه هي الاختبارات، وأنا عاقلة. سلامة العقل من الممتلكات بالغة الأهميّة. إنني أدّخرها كما ادّخر الناس سابقًا أموالهم. إنني أوفّرها لكي أعثر على ما يكفي منها إذا حانت السّاعة.

ظِلالٌ رماديّة تنفذ من خلال السّتائر، ضبابيّة مشعّة، فليس هناك كثير من الشّمس اليوم. أنهض من السرير، أذهب إلى النافذة، أركع على مقعدها، على يباس وسادتها المُحاكة «إيمان»، وأنظر إلى الخارج. لا شيء جديد بالمشاهدة. أتساءل عمّا حدث للوسادتين الأخريين، فحتمًا كانت توجد ثلاث وسائد يومًا ما.

أين احتفظوا بوسادتَي «أمل» و«إحسان»؟ تلتزم سيرينا جوي نَسَقًا منظّمًا، لا تتخلّص وفقه من أيّ شيء إلّا إذا بَلَا. واحدة لريتا، وواحدة لكورا؟
يُقرَع الجرس، وأنا نهضتُ من النوم قبله، مبكّرًا. أرتدي ملابسي، دون النظر إلى أسفل.

أجلس في المقعد. وأفكر في كلمة «مقعد». قد تعني مقعد الرئاسة. وقد تعني أيضًا مقعد الإعدام. إنّ حروفها الأولى جزء من كلمة «إحسان» أيضًا. وهي الكلمة الفرنسية التي تعني اللحم. وليس لهذه الحقائق أيّ علاقة بالحقائق الأخرى[82].
تلك هي الابتهالات التي أُطلقها دومًا كي أستوعب نفسي.
أمامي صحَفة. تحمل كأس عصير تفّاح، وقُرص فيتامين، وملعقة، وطبقًا فيه ثلاثة أرغفة محمّصة، وطبق عسل صغير، وفنجان بيضة، فنجانًا يشبه قوام امرأة ترتدي تنّورة. وتحت التنّورة تكمن البيضة الثانية، دافئة. فنجان البيضة من خزَف صينيّ أبيض مُسَطّرة بخطوط زُرق.
البيضة الأولى بيضاء. أُحرّك فنجان البيضة قليلًا، ولذا فهي الآن تحت الشّمس وأشعّتها المائيّة التي تنفذ من خلال النافذة وتسقط، مشعّة، منحسرة، ومشعّة من جديد، على الصّحَفة. قشرة البيضة ملساء وفي الوقت نفسه تحمل نتوءًا. تكشف أشعّة الشمس في تلك القِشرة عن فقاقيع صغيرة من الكالسيوم تشبه فوّهات بركانيّة فوق سطح القمر. إنها أرضٌ قاحلة، لكنّها تبلغ الكمال رغم ذلك. إنها من ذلك النوع من القِفار التي يلجأ إليها القدّيسون لكي لا تُشتّت أذهانَهم وفْرةُ الحياة. أعتقد لذلك أن الرّب ينبغي أن يبدو كذلك: بيضة. قد لا تكون الحياة على القمر بادية على سطْحِه، بل كامنة في جوفة.
تشعّ البيضة الآن، كأنّها تحمل طاقة ذاتيّة. النّظر إليها يُشعرني بمُتعة غامرة.
تتوارى الشّمس وتبهت البيضة. ألتقطها من فنجانها وأتحسّسها بأصابعي بعض الوقت. إنها دافئة. اعتادت النّساء حمل بعض البيض بين أثداءهن حتى تفقس.
ربما كان ذلك الإحساس ممتعًا.

حياة تبسيطيّة. البهجة ممثّلة في بيضة. نِعَمٌ يمكن إحصاءها بأصابع يد واحدة. ربما كان متوقّعًا منّي التّفاعل على ذلك النحو. إذا كان عندي بيضة، فما الذي أريده أكثر.
خلال ظروف المعيشة القاسية، نجد أنّ التّوق إلى الحياة يرتبط بأشياء غريبة. أودّ لو أنّ رفقتي حيوانًا أليفًا: طائرًا مثلًا، أو هرّة. رفيق مألوف. أي شيء مألوف إطلاقًا. حتى لو كان فأرًا، ألتقطه. لكن فرصة كتلك ليست متاحة. فهذا البيت نظيف جدًّا.
أزيلُ قشرة رأس البيضة بالملعقة، وألتهم ما تحتها.

أثناء تناولي البيضة الثانية، تناهى إليّ صوت أبواق عربة، من مسافة بعيدة في البدء، يعصف قادمًا نحوي بين بيوت كبيرة ومُرُوج مشَذّبة، صوت رفيع مثل طنين حشرة. يقترب أكثر متفتّحًا، كأنّه زهرة صوتيّة تتفتّح حتى تصير صوت بوق مُدوٍّ. هذه العربة تُنذر بوقوع حدَث مهمّ. أضع ملعقتي ويروح قلبي يقرع بقوّة، وأُسرع إلى النافذة مرة أخرى: هل ستكون العربة زرقاء وليست قادمة من أجلي؟ لكنّني أشاهدها تنعطف، تسير طول الشارع، وتقف أمام البيت، فيما بوقها ما زال يصدح. إنها حمراء. بهجة للعالم، وما أندرها هذه الأيام. أترك نصف البيضة الثانية دون التهام، أُسارع إلى الدولاب، آخذ معطفي، فيما أسمع فعلًا وقع أقدام على الدّرج وأصواتًا تنادي.
"أسرعي" تقول كورا، "لن تنتظرك طوال اليوم". شرعت تساعدني على ارتداء معطفي، فيما هي، حقيقةً، تبتسم.
لابدّ أنّني هبطتُ إلى الطابق السّفلي ركضًا، قطعتُ الدّرج زحلقة. الباب الأمامي مفتوح على مصراعيه. يمكنني اليوم عبوره، فيما الوصيّ يُحيّيني. إنّها تُمطر، رذاذًا، ورائحةُ حَبَلٍ من التراب والعشب تملأ الهواء.
عربة الولّادة المتنقّلة الحمراء واقفة أمام فناء السيّارات. بابها الخلفي مفتوح. أرتقيها وأدخل. سجّادة أرضيّتها حمراء، وكذلك ستائرها المسدولة على النوافذ.

وجدت ثلاث جاريات هنا قبلي، يقتعدن مقعدين خشبيّين يمتدان طولَ جانبي العربة. يُطبق الوَصيّ بابها الخلفيّ المزدوج، يقفلها، ثمّ يصعد جوار السّائق. من خلال الزجاج الفاصل المبطّن بشبكة أسلاك، نستطيع رؤية قفا كلّ منهما فقط. تنعطف السيّارة فورًا وتشرع في السّير، فيما أبواقها ترتفع أعلى رؤوسنا: أفسحوا طريقًا، أفسحوا طريقًا!

"من هي؟" أقول للمرأة الجالسة جواري، لأذنها، أو لمكان أذنها المفترض تحت قلنسوّتها البيضاء. كان لابدّ أن أصرخ تقريبًا، فالضجيج عالٍ.

"أوفوارن" صرخت. وبتهوّر جذبت كفّي إليها واعتصرتها فيما كنا ننعطف حول ناصية الشارع. تلتفت إليّ فأرى وجهها. أرى دموعًا تنساب على خدّيها. لكنّها دموع ماذا؟ حسد، إحباط؟ لكن لا، إنها تضحك، تُشرع ذراعيها لي، لم أرها قط، تعانقني، ثدياها كبيران تحت معطفها الأحمر. تمرّر كُمّيهما على خدّيها. هذا اليوم نستطيع فعل ما نريد.

أصحّح جملتي الأخيرة: فعل ما نريد بحدود معيّنة.

في المقعد المقابل امرأة تصلّي، عيناها مطبقتان وكفّاها على فمها. قد لا تكون تصلي. ربما تقضم أظفُرَي إبهامَيها. يُحتمَل أنها تحاول تهدئة روْعها. أمّا المرأة الثالثة فهادئة فعلًا، تجلس بذراعين مكتّفتين وابتسامة خفيفة. البوق يدوي ويدوي، كان ذلك صوت الموت، ينبعث من سيارات الإسعاف أو الإطفاء. ربما يعود اليوم ليكون صوت الموت مجدّدًا. سوف نعرف بعد قليل. ما الذي ستلده أوفوارن؟ أَطِفلًا كما نأمل جميعا؟ أم كائنًا آخر. طفلًا فاسدًا، له رأس مفلطح، أو أنف مخطّم مثل كلب، أو جسدان، أو ثقب في القلب، أو أنّه دون ذراعين، أو أنّ ذراعاه وقدماه مُلتحمة بعضها ببعض؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك. كنّا نستطيع معرفة ذلك فيما مضى باستخدام آلات الكشف في المستشفيات، تلك الآلات المحرّمة الآن. لكن ما غاية معرفة ذلك، في كلّ الأحوال؟ فأنت لا تستطيع استخراج تلك الكائنات من أرحامها، إذ لابدّ أن تُكمل أشهُرَها.

نسبة النجاح هي طفل سليم مقابل ثلاثة فاسدين، هذا ما تعلمناه في الدّار

الحمراء. فقد فسَدَ الهواء مرّةً وامتلأ بكيماويّات وأشعّة وإشعاعات، والمياه أيضًا عجّت بالسّموم، ويلْزَم سنوات لتنقيتها، وإلى حينه، فإنّها تنسلّ إلى جسدك وتُخيّم في خلاياك الدهنيّة، ومَنْ يعرف، فقد يكون لحمك نفسه قد فسَد، وسخًا مثل شاطئ ملوّث ببقع زيتيّة، أيْ هلاكٌ مؤكّد لطيور البحر، وللأجنّة أيضًا. النّسر الذي يحاول أكل جيفتك قد يموت. ولربما كنت تشعّ في الظّلام، مثل تلك السّاعة القديمة. ساعة الموت. هذا اسمٌ لفصيلة من الخنافس[83]، تدفن لحمَ الجيف.
لا يمكنني التفكير في نفسي، وجسدي أحيانًا، دون تخيّل هيكلي العظميّ. كيف أبدو للكُهَيْرِب[84]. أبدو له حاضنةً للحياة، مصنوعة من عظام، لكنّني من الداخل سُمّيّة: بروتينات مشوّهة، ومتبلْوَرات بعضها ملتصق ببعض مثل قطع زجاج. تعاطت النساء أدوية، أقراصًا، ورشّ الرّجال الأشجار بالمبيدات، والأبقار تناولت الأعشاب، وعُصارة البول تلك كلّها تدفّقت إلى الأنهار. وهل من داع لذكر انفجارات المعامل النووية، مع فالق سان أندرياس، خطأ لا أحد[85]، الذي حدث جرّاء الزلزال. والطّفرة الناجمة عن مرض السّفلس، السلالة الممسوخة التي ليس بمُستطاع التعقّن نفسه أن يهزمها. البعض فعلوا ذلك بأنفسهم. لقد سمحوا أن تُخاط جراحهم بخيوط مصنوعة من أمعاء المواشي، وأن تُرسَم عليهم الوُشوم بموادّ كيماويّة. "كيف لهن!" قالت الخالة ليديا، "كيف استطعن فعل ذلك؟ إيزابليّات[86]! يُهملن هدايا الرّب" وتعتصر كفّيها.
"أنتُنّ تُخاطرن" قالت الخالة ليديا، "لكنكن قوّات الصّاعقة، سوف تتقدّمن الصّفوف نحو منطقة الخطر. وكلّما زاد الخطَر تعاظم المجد أكثر". وشبكت كفّيها، مُستبشرة بعلامات شجاعتنا الزائفة. أخفضنا أنظارنا إلى أسطح طاولاتنا. أن تتكبّدي كل ذلك لتُنجبي في النهاية خِرقة: ليست بالفكرة السارّة. لم نكن نعرف تمامًا ما مصير المواليد الرّاسبين في الفحص، فيُعلَن أنّهم فاسدون. لكننا نعلم أنهم يوضعون في مكان ما، بعيدًا، على وجه السرعة.

"لم يكن السّبب واحدًا" تقول الخالة ليديا، واقفة في صدر غرفة الفصل، بثوبها

الكاكيّ، وفي يدها مُؤشّر. ويتدلى على السّبورة قبالتنا، مكان الخرائط سابقًا، رسم بيانيّ، يعرض مُعدّلات الولادة لكلّ ألف نسمة، على مدى سنوات وسنوات. المؤشّر ينحدر إلى ما تحت خطّ صِفر نسبة الاستعاضة، وإلى أسفل فأسفل.

"بالطبع اعتقدَت بعض النساء أنّ الحياة ليس أمامها أيّ مستقبل. اعتقدن أن العالم سوف ينفجر. ذاك كان مبرّرهن" تقول الخالة ليديا، "قُلْن إنه لا جدوى من التناسل،" ضاق منخارا الخالة ليديا: بدَت خبيثة. "كنّ كسولات" تقول، "كنّ عاهرات".

يحمل سطح طاولتي حروفًا أولى لأسماء لا أعرفها، محفورة في الخشب، مع تواريخ. أحيانًا تنقسم تلك الحروف إلى مجموعتين، تربطها كلمة «يحبّ». «ج.هـ يحبّ ب.ب 1954»، «و.ر يحبّ ل.ت». بدت لي مثل النقوش التي كنّا نتعلّم قراءتها محفورة على جدران الكهوف، أو مرسومة هناك بمزيج من السّخام والشحوم الحيوانية. بدت لي قديمة على نحو لا يصدّق. خشب الطاولة أشقر، مائل قليلًا إلى الأسفل، ومزوّد بمُسنَد للذراع كي تُريحها أثناء الكتابة، على ورق، بقلم. تستطيع أن تُبقي في جوفها أشياءك: كتبًا، دفاتر. عادات الأزمنة البائدة هذه تبدو لي الآن بَذَخًا، انحلالًا نوعًا ما: ليست أخلاقيّة شأنها شأن طقوس العربدة عند الأنظمة البربريّة. «م يحبّ ج 1972». هذا النّقش حُفر بقلم رصاص مرّات عدّة في طلاء الطاولة البالي، يُثير الحنين إلى الحضارات البائدة كلّها. إنّه أشبه بطبعة كفّ على حجر. أيًّا كان من قام بذلك، فلقد كان حيًّا يومًا ما.

لا توجد نقوش لتواريخ تتجاوز منتصف الثمانينيات. لابدّ أنّ هذه المدرسة هي إحدى المدارس التي أغلقت حينئذ لنقص عدد التلاميذ.

"لقد وقعوا في أخطاء" تقول الخالة ليديا، "ولسنا ننوي تكرار ذلك". في صوتها من التقوى ما فيه من التعالي، صوت أولئك الموكّل إليهم إطلاعنا على الأمور السيّئة من أجل مصلحتنا. أودّ أن أخنقها. لكنني أطرد هذا الخاطر سريعًا بمجرّد التفكير فيه.

"منزلة الشيء" تقول الخالة ليديا "تعلو فقط إذا ندرَ وصعُبَ العثور عليه.

نُريد أن تكُنّ ذوات منزلة. يا فتيات". إنها غنيّة بالوقفات في منتصف أحاديثها، كأنّها تتذوّقها داخل فمها. "انظرن إلى أنفسكن كلآلئ" فيما نحن نجلس في صفوفنا بعيون منخفضة، نُسِيل لعابها للأخلاقيّات. نحن لها كي تشكّلنا، وعلينا مقاساة طِباعها.

أُفكر في اللآلئ. اللآلئ هي بُصاق محار متجمّد. هذا ما سأقوله لمويرا، لاحقًا، إذا أمكنني ذلك.

"جميعنا هنا سوف نؤهّلكن من جديد" تقول الخالية ليديا، ببهجة واسعة راضية.

تتوقف العربة ويُفتح الباب الخلفيّ المزدوج. يَسوقُنا الوصيّ نازلات. وعند الباب الأمامي يقف وصيّ آخر وقد علّق على كتفه أحد تلك الأسلحة الرّشاشة غير المبالية. نصطفّ قبالة الباب الأماميّ، تحت الرّذاذ، يحيّينا الأوصياء. عربة السَّعفة الكبيرة[87]، تحمل المعدّات الطبيّة والأطباء المتنقلين، واقفة بعيدًا عند فناء دوّار السيّارات. أشاهد طبيبًا يطلّ من نافذة العربة. أتساءل كيف يقضون وقتهم هناك؟ ربما يلعبون بورق اللعب، أو يقرأون، أيّ نشاطٍ ذكوريّ. فغالبًا لا حاجة إليهم. إذ لا يُسمح لهم بالدخول إلّا إذا استعصت الأمور جدًّا.

كان الأمر مختلفًا، لقد كانوا مسؤولين. "يا له من عار" قالت الخالة ليديا، "عار"، فيما تعرض علينا فيلمًا صُوّر داخل مشفى في الأيّام الخوالي: امرأة حامل تعلو آلة مثبّتة إليها، وأقطاب كهربائيّة مثبّتة على كافة نواحي جسدها، فبدت أشبه بإنسان آليّ محطّم. بينما المغذّي الوريدي يقطُرُ في ذراعها. وثمّة رجل يسلّط ضوءً كاشفًا بين ساقيها، حيث أزالوا الشّعر، فتاة ملساء، وصحَفة تحمل مشارط معقّمة لامعة، ويرتدون كمّامات واقية. مريضة متعاونة. كانوا فيما مضى يخدّرون المرأة الحامل، يحثّونها على الولادة، ويشقّون بطنها، ثمّ يخيطون الشقّ. ليس بعد الآن، ولا حتى التّخدير. قالت الخالة إليزابث إن ذلك أفضل للطفل. لكن، رغم ذلك: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا»[88]. وفي الغداء حصلنا على

ذلك فعلًا، رغيفًا بُنيًّا ولفائف خسّ.

أرتقي الدرج، درجات عريضة مع جرّة حجريّة في كلّ جانب. لابدّ أنّ رئيس أوفوارن أرفع مقامًا من رئيسنا. أسمع صوت بوقٍ آخر. إنّها الولّادة المتنقّلة الزّرقاء، الخاصّة بالزّوجات. لابدّ أنها سيرينا جوي، تصل إلينا بكُلّ أبّهتها. لا مقاعد طُوليّة داخل عربتهن، بل مقاعد حقيقية، منجدة. لا يواجه بعضهن بعضًا، بل صُفّت المقاعد لتستقبل الطّريق، فيما السّتائر مُشرعة فلسن معزولات عن مُحيطهن، ويعرفن إلى أين هنّ ذاهبات.

ربما جاءت سيرنا جوي إلى هذا البيت قبْلًا لتناول الشاي. وربما كانت أوفوارن –التي تُسمّى فيما مضى جانين واعتادت كثرة الشكوى والبكاء– قد عُرضت أمامها وأمام غيرها من الزوجات لكي يشاهدن بطنها، وربما يتحسّسنه، ويُباركن للزوجة. "فتاة قويّة، عضلاتها جيّدة. العامل البرتقالي[89] لا يجري في عائلتها، لقد دقّقنا سجلّاتها بحِرصٍ لا يمكنكنّ تصوّره". وربما قالت الزّوجة الأكثر لُطفًا بينهن "هل تودّين تناول رُقاقة محلاّة، عزيزتي؟"

"أوه، لا. تُريدين إفسادها. الإكثار من السكّريات يسبّب لهن الضّرر".

"واحدة لن تضرّها حتمًا، رُقاقة واحدة فقط يا ميلدريد"

فتقول جانين المشاغبة "أوه، أجل، هل لي بذلك، سيّدتي؟ رجاءً؟"

"يا لأدبها، إنّها تُحسن التصرّف، ليست مثل بعض زميلاتها حتمًا، يقُمن بأعمالهن وذلك كلّ شيء". "إنها بمثابة ابنةٍ لك". "فردٌ من الأسرة". تعلو ضحكات وقورة مرتاحة. "هذا كل شيء، عزيزتي، يمكنك العودة إلى غرفتك".

وبعد أن تغادر: "عاهرات صغيرات، جميعهن، لكن لا يمكنك اختيار إحداهنّ تمامًا على هواك. فأنت تأخذين ما يعطونك. أليس كذلك، يا بنات؟" زوجة الرئيس هي من قالت ذلك.

"أوه، لكنّك محظوظة للغاية. بعضهن، لا أعرف لماذا، لسنَ حتى نظيفات. لا يعطينك شيئًا حتى ابتسامة واحدة، يقضين أوقاتهن مكتئبات في غرفهن، لا يغسلن شعورهن، تنبعث منهن روائح زنخة. ينبغي عليّ الاستعانة بالمَرْثيّات

لتنظيفهن، إحداهن أكاد أضطر إلى إمساكها وتثبيتها في حوض الاستحمام فترة طويلة، أنت مجبورة عمليًّا على رشوتها لكي تتحمّم، وأحيانًا ألوح لها مهدّدة".

"لقد دفعتني جاريتي إلى وضع تدابير صارمة معها، فأمست الآن لا تتناول عشاءها كما يجب، أمَّا ذلك الأمر الآخر فلا تُبدي نحوه أقلّ شغف، ولا حتى قضمة شهوة، رغم أننا انتظمنا في الطّقس. لكنّ فتاتك، تُحسَب لك. في أيّ يوم الآن، أوه، لابدّ أنك جدّ متحمّسة. إنّها منتفخة مثل منزل، أراهن أنك بالكاد تقوَين على الانتظار".

"مزيدًا من الشاي؟" بلباقة، تغيّر موضوع الحديث.

"أعرف نوع الفتاة الجيّدة التي يدوم عطاءها".

وجانين، في غرفتها في الأعلى، ماذا تفعل؟ تجلس مع مذاق السكّر الباقي في فمها، تلعق شفتيها. تحملق إلى خارج النافذة. شهيق، زفير. تُلاطف ثديها المنتفخين. لا تفكر في شيء.

الدّرج الرئيس وسط البيت أعرض من درجنا، يحدّه سياجان ينحنيان معه. أسمع ترانيم النساء في الأعلى، اللواتي سبقننا. نرتقي الدّرج في طابور، حَذِرات ألّا تطأ أحدنا ذيل رداء الأخرى الذي ينسحب على الأرض. أرى إلى يسارنا بابًا مزدوجًا لغرفة طعام، مُشرعة درفتاه إلى الداخل. وهناك تمتدّ طاولة الطعام، طويلة ومكسوّة بقماش أبيض يحمل شرائح لحم، وجُبنًا وبرتقالًا – لديهم برتقال! – ورغيفًا طازجًا وكعكًا. أمّا نحن فسنحصل على حليب ولفائف تقدَّم لنا في صحَفة، لاحقًا. لكن للزّوجات ترمس معدنيّ للقهوة، وزجاجات نبيذ، فلمَ لا يسكرن قليلًا في يومٍ مَجيد كهذا؟ سوف ينتظرن أوّلًا النتيجة، ثمّ لن يُبقين على شيء من الطعام. إنّهن في غرفة الجلوس على الجانب الآخر من الدّرج، يُحطنَ الزّوجة المعنيّة ويُهلّلن لها، زوجة وارن. امرأة نحيلة ضئيلة، تستلقي أرضًا في قميص نومها القطنيّ الأبيض، بينما شعرها الآخذ في التفضّض مثل عَفَنٍ يسري في السجّادة تحته. يُدلّكن بطنها الضامر كما لو أنّها على وشك أن تضع مولودًا فعلًا.

الرّئيس، حتمًا، لا يُرى في أيّ مكان حولنا. لقد ذهب إلى حيث يذهب الرجال في المناسبات المماثلة، إلى مخبأ. ربما يفكّر متى سيُعلن عن نَيْله ترقيةً إذا سارت الأمور على خير ما يرام. لطالما كان واثقًا من حصوله على واحدة، وغدا أكثر ثقة الآن.

أوفوارن في غرفة النوم الرئيسة. إنّها تسمية ملائمة لهذه الغرفة: فهي حيث يلتقي الرئيس بزوجته للنوم ليلاً. تجلس في سريرهما الضخم، مدعّمة بالوسائد: جانين، مُنَفّخة وفي الوقت نفسه مُفرّغة، فقد جُزّ منها اسمها السابق. إنها ترتدي قميصًا نسائيًّا داخليًا من القطن الأبيض، رُفع أعلى فخذيها، بينما شعرها الطويل الذي بلون القشّ مرجّل إلى الوراء ومشدود، بعيدًا عنها. عيناها

معصورتان في انطباقهما، وحالها هذا أكاد أرِقّ لها، فهي واحدة منّا في النهاية، وما الذي أرادته طوال حياتها سوى أن تعيش حياة متناغمة قدر المستطاع؟ ماذا تريد أيّ منّا خلاف ذلك؟ المُمْكن هو ما نريد الإمساك به. وهي لا تُسيء التصرّف وفقًا لهذه الظروف.

هناك امرأتان لا أعرفهما تقفان على جانبيها. كلتاهما تُمسك يدًا، أو هي تتشبّث بأيديهما. وامرأة ثالثة ترفع قميص نومها، وتسكب زيت أطفال على مرتفَع بطنها، وتدلّك إلى أسفل. وعند قدميها تقف الخالة إليزابث في ردائها الكاكي ذي الجيوب العسكرية المخيطة على الصّدر. هي مدرّبةُ شؤون النساء. كل ما يمكنني أن أراه هو مقطع رأسها جانبيًّا، لكنني واثقة أنها هي؛ أنفها البارز وذقنها الجميل، القارس. وُضع إلى جانبها كرسيّ الوِلادة مزدوج المقاعد، يرتفع مقعده الأوّل خلف الآخر مثل عرش. لن يدفعن جانين لاقتعاده حتى تحين السّاعة. الألحفة مُعدّة، وحوض الاستحمام الصّغير، وجفنة من ثلج لتمصّه جانين.

تجلس بقيّة النساء أرضًا على السجّادة بسيقان متقاطعة. كثيرات. يُفترض أن تتواجد هنا كلّ جارية في الجوار. ينبغي أن تحضُر خمسة وعشرون منهن، أو ربما ثلاثون. لا يتمتّع كلّ رئيس بجارية: فبعض زوجاتهم حضينَ بأطفال. «من كلّ واحدة حسب قُدرتها» يقول الشّعار، «إلى كُلّ واحد حسب حاجته». نتلوه ثلاث مرّات بعد تناول تحلية كلّ وجبة. إنّه اقتباس من الكتاب المقدّس، أو هكذا قالوا. القدّيس بول مرّة أخرى، في سفر أعمال الرّسل[90].

"أنتن جِيْلٌ انتقاليّ" قالت الخالة ليديا، "وهذا هو أصعب ما في الأمر. أنتن تُدركن التضحيات المتوقّع منكن تقديمها. إنه أمر صعب، أن يلعنكنّ الرّجال. الفتيات اللاتي سيجئن بعدكن، سيجدن الأمر أسهل: سيتقبَّلن واجباتهن بقلوب راضية".

لم تقل لنا: لأنّهن لا يحملن ذكريات عن تجارب سابقة مختلفة.

وإنما قالت "لأنهن لن يطمعن في أشياء لن يحصلن عليها".

مرّة في الأسبوع، تُعرض علينا الأفلام بعد غداءنا وقبل ساعة راحتنا. كنا نجلس على الأرض في غرفة التدبير المنزليّ، على بُسُطنا الرماديّة الصّغيرة، ننتظر فيما

تكافح الخالة هيلينا والخالية ليديا مع أجهزة العرض. إذا واتانا الحظّ، فسوف تعرضان الفيلم مقلوبًا رأسًا على عقب، ممّا يذكرني بما يحدث في فصول الجغرافيا، في مدرستي الثانوية، قبل سنين طويلة، حيث يعرضون علينا أفلامًا عن بقيّة أرجاء العالم. نساء في تنانير طويلة، أو أردية قطنيّة رخيصة ذات طوابع، يحملن حزَم حطب أو سلالًا أو دلاءً بلاستيكيّة مملوءة بماء اغترفنه من نهر أو أيّ مصدر طبيعيّ آخر، يتدلى أطفالهن الرضّع من شالاتهن أو حمّالاتهن الشبكيّة، فيما الأطفال ينظرون إلينا من الشاشة بعيون حولاء، أو مرتعبة، مُدركين أنّ هناك أمْرًا يُفعَل بهم بواسطة آلة لها عين واحدة زجاجيّة، لكن لا يعرفون ماذا. تلك الأفلام كانت ترفّهنا، لكن بقليل من الملل، فقد دفعتني إلى النعاس أحيانًا، حتى عندما يظهر الرجال على الشاشة، بعضلات عارية، يجرفون بعيدًا نفايات صلبة، بجواريف ومعاول بدائية، ويحملون الصّخور. فضّلتُ الأفلام التي تعرض المشاهد الراقصة والغناء وأقنعة طقوسيّة دينيّة، وأدوات نحتها الإنسان بيديه لإصدار الموسيقى: رِيَش، أزرار نحاسيّة، قواقع صدفيّة، طبول. أحببت مشاهدة أولئك البشر في أفراحهم، لا أتراحهم، لا مجاعاتهم، وهزالهم، وإنهاك أنفسهم حتى الموت لتأدية عملٍ بسيط، كأن يحفروا بئرًا أو يسقوا أرضًا، تلك المعضلات التي وجدت لها الأمم المتحضرة حلولًا ناجعة منذ فترة طويلة. ظننْت أنّ أحدًا ما لابدّ أن يقدّم لهم التكنولوجيا اللازمة ثم يدعهم يتصرّفون.

لم تعرض علينا الخالة ليديا ذلك النوع من الأفلام.

بل كانت تعرض أحيانًا أفلامًا إباحيّة صوّرت في السبعينيّات أو الثمانينيّات. نساء راكعات يمصصْن قضبانًا ذكريّة، أو مسدّسات. نساء مقيّدات بسوارَين، أو مغلولات بسلاسل، أو مرتديات أطواقًا حول أعناقهن مثل تلك التي للكلاب. نساء متدليات من أشجار، ونساء مقلوبات رأسًا على عقب وعاريات فيما سيقانهن متباعدة. نساء يُغتصبن، يُضرَبن، يُقتلن. أجبرنا مرّة على مشاهدة امرأة تُقَطّع في بطء: تُبتر أصابعها وثدياها بمقصّ تقليم حدائق، بطنها وأمعاؤها شُلعَت خارجًا. "فلتتأمّلن البدائل" قالت الخالة ليديا، "هل تدركن الآن كيف كانت عليه الأمور

حقًّا؟ هكذا فكّروا في النساء وقتئذ"، وارتعش صوتها في سخَط.
لاحقًّا قالت مويرا إنّ تلك الأفلام مزيّفة، وإنّهم صنعوها باستخدام مجسّمات اصطناعيّة. لكن من الصّعب التأكّد من ذلك.
أحيانًا يعرضون فيلمًا من الصّنف الذي تسمّيه الخالة ليديا: وثائقيّ أشباه النساء. "تصوّرن،" قالت الخالة ليديا "أنّهن يزجين وقتهن على ذلك النحو، بينما كان ينبغي عليهن القيام بأعمال مفيدة. في ذلك الوقت، أشباه النساء كنّ دائمًا يضِعْن وقتهن. وكُنّ يشجَّعْن على ذلك. أعطتهن الحكومة المال ليقُمن بتلك المهمّة إيّاها. وأستميحكن، لكن بعض أفكارهن كانت عالية بما لا يدع مجالًا لتفنيدها" تابعَت قائلة، بصوتٍ يمتلئ نبرةً متعالية سُلطويّة لمن هم في موقع يخوّلهم الحكم على الآخرين. "علينا تبنّي بعضها، حتى يومنا هذا. بعضها فقط، أستميحكنّ في ذلك" قالت بطريقتها الخجولة، رافعة إصبعها وتهزّه نحونا. "لكنهن كنّ ملحدات، وهذا يصنع فارقًا كبيرًا، هل توافقْنَني؟"
أجلس على بساطي، طاوية اليدين، وتُزيح الخالة ليديا نفسها خطوة جانبًا، بعيدًا عن الشاشة، فتُطفأ الأنوار. وأتساءل هل أستطيع، في الظلام، الانحناء بعيدًا إلى اليمين دون أن يراني أحد، لأتكلّم همْسًا مع المرأة الجالسة إلى جواري. بماذا سأهمس لها؟ سأقول لها «هل شاهدت مويرا؟» لأن أحدًا لم يشاهدها، ولم تظهر في وجبة الإفطار. رغم أنّ غرفة الفصل معتمة فإنّها ليست مظلمة بالقدر الكافي. لذلك أثبّت تفكيري على ما أرى من لافتة تحذيريّة تطلب من المشاهد الانتباه. لا يُدِرْن الصّوت في هذه الأفلام التي يعرضْنها، ما عدا الأفلام الإباحية. يُرِدْنَ لنا الاستماع إلى الصّراخ والنّخر والتباريح التي إمّا أن تدلّ على ألم مضنى أو لذّة قصوى، أو كليهما معًا، لكنهن لا يرِدْنَ لنا أن نسمع ما تقوله أشباه النساء.
في البدء تظهر شارَة الفيلم، عنوانه والأسماء المشاركة فيه مشطوبة لكي لا نتمكن من قراءتها، ثمّ تظهر أمّي. أمّي الصبيّة، أصغر ممّا تحفظه ذاكرتي لها، فتيّة كما يجدُر بها أن تكون قبل أن تنجبني. ترتدي الملابس نفسها التي تصمها الخالة ليديا بملابس أشباه النساء في تلك الأوقات: مِشمَل[91] جينز مع قميص ذي تقاطعات

خضراء وليلكيّة، وحذاءً رياضيًا. الملابس نفسها التي ارتدتها مويرا مرّة، وهي الملابس إيّاها التي أذكر أنني ارتديتها أيضًا، قبل وقت طويل. شَعرها معقود برباط ليلكيّ ومشدود خلف رأسها. وجهها في أوْج يفاعه، جِديّ، وحتى أنّه فاتن. لقد نسيتُ أن والدتي كانت جميلة هكذا وجادّة. إنها بين مجموعة نساء، يرتدين الطّراز نفسه من الملابس. تمسك عصًا، لا، إنه جزء من لافتة، مقبضها. ترتفع بؤرة التصوير، فتظهر كلمات كُتبت بطلاء فوق ما يبدو أنّه قطعة من ملاءة سرير: استعيدوا الليل[92]. لم تُشطَب هذه العبارة رغم أنه لا يُفترض بنا أن نقرأها. شهقت الفتيات حولي، ثمّة انشداه في الغرفة، مثل عشبٍ مشّطته الرّيح. هل كان ذلك سهوًا، هل اختلسنا شيئًا؟ أم أنّه مقصود لكي نتذكر دومًا أن تلك الأيام لم تكن آمنة؟

وراء هذه اللافتة لافتات أخرى، تنتبه إليها آلة التصوير باختصار: حريّة القرار؛ كلّ طفلٍ ثروة؛ استردّوا أجسادنا؛ هل تعتقد أن مكان المرأة خلف منضدة المطبخ؟ وتحت هذه اللافتة الأخيرة ثمّة خطوط تشكّل جسد امرأة تستلقي على منضدة والدماء تقطُر منها.

والآن تتحرك والدتي، تتقدّم، ضاحكة مستبشرة، جميعهن يندفعن متقدّمات، والآن يرفعن قبضاتهن في الهواء. ترتفع آلة التصوير أكثر، إلى السماء، لتظهر مئات البالونات التي تجرّها خيوطها: بالونات حمراء، طُلِيَت على كلّ منها دائرة، دائرة لها ساق مثل ساق تفاحة، لكنّه على شكل صليب. وعندما عادت آلة التصوير إلى الأرض، صارت والدتي جزءًا من الحشد، فلم أعد أراها.

"أنجبتك عندما كنت في السابعة والثلاثين من عمري" قالت لي أمّي، "وتلك مخاطرة. كان محتملًا أن تولدي مشوّهة أو مصابة بعاهة ما. كنتِ نِعمةً أرادها الجميع. وهل انصبّت عليّ الخَبَاثات من بعض عديمي القيمة؟ اتّهمتني رفيقتي الأقدم، تريشيا فورمان، بأنني أؤيّد التكاثر[93]، العاهرة. إنّها الغيرة، هذا ما أعيد اتّهامها إليه. الأخريات كُنّ حسنات معي. لكن ما إن بلغت شهري السّادس حتى أرسلت إليّ بعضهن تلك المقالات التي تقول إنّ معدّل تشوّه المواليد يقفز مرتفعًا

بعد سن الخامسة والثلاثين. كأنّ ذلك ما ينقصني معرفته. أيضًا مقالات عن صعوبة تربية طفل في غياب أبيه الدّائم. اللعنة على ذلك الكلام الفارغ، قلتُ لهن. لقد اتخذت قراري وأنا سائرة فيه حتى النهاية. في المشفى شرعوا في كتابة ملاحظة عليّ: خَروسٌ مُسنّة[94]، لكنّني قبضتُ عليهم بالْجرم المشهود. ذاك ما يطلقون عليك عندما تكونين في أوّل ولادة لك وقد جاوز عمرك ثلاثين عامًا. إنّها مجرّد ثلاثين عامًا بالله! هذا هراء، قلت لهم، فعمري البايولوجيّ هو اثنان وعشرون عامًا، أستطيع قطع مضامير كاملة جرْيًا حولكم في أيّ يوم أريد، أستطيع وضع ثلاثة توائم وأنهض خارجة من المشفى فيما كلّ واحدة منكن ما تزال تحاول النهوض من سرير نومها".

عندما قالت ذلك كانت قد رفعت ذقنها. أتذكّرها على ذلك النحو: ذقنها مرفوع، وشرابها قبالتها على منضدة المطبخ، لا فتيّة وجادّة وفاتنة كما بدت في الفيلم، بل نحيلة العود يابسه، وشرسة، من ذلك النوع من المسنّات اللواتي لا يسمحن لأحد بالاصطفاف أمامهن في طابور البقالة. أحبّت المجيء إلى بيتي لاحتساء الشّراب فيما أُعِدُّ مع لوقا العشاء، شاكيةً لنا مصاعب حياتها حتى تنقلب الأدوار فنشرع نحن في الشّكوى ممّا يواجهنا. استحال شعرها رماديًّا ذلك الوقت، بالطبع. لكنها لم تكن لتصبغه أبدًا. "ولمَ التظاهر؟" كانت لتقول، "وفي كلّ الأحوال ما الذي سأحتاجه إليه؟ لا أريد رجلًا يعيش حولي، إذ ما فائدة الرّجال سوى تلك العشر ثوانٍ التي يقذفون خلالها المنيّ؟ الرجل هو استراتيجية المرأة لخلق نساء أخريات. لا أقول إنّ والدك لم يكن لطيفًا وما إلى ذلك، لكنّه لم يكن أهلًا لتحمّل مهامّ الأبوّة الحقّة. ولا أقول إنني توقّعت منه الكثير. فقط أنْجِز مهمّتك ثمّ انقلع بعيدًا، قلت له، إنّني أجني أجْرًا شهريًّا حسَنًا، وأستطيع توفير رعاية نهاريّة للمولودة. فرحل إلى السّاحل، واستمرّ يرسل بطاقات معايدة. عيناه زرقاوان جميلتان، لكن ثمّة ما ينقصهما. إذ تبدوان دومًا شاردتين كأنهما لا تعرفان تمامًا هويّتهما. تُطيل عيناه النّظر إلى السماء، تفقدان صلتهما بالأرض. ليستا بجمال عيون النّساء طبعًا، لكنهما أفضل في إصلاح السيارات ولعب كرة القدم، وذلك ما نحتاجه

لتطوير الجنس البشري. أجل؟".

تلك طريقتها في الحديث، حتى أثناء وجود لوقا، وهو لم يمانع حديثها قط، بل يضايقها بادّعاء الذكوريّة القصوى، فيقول إن النساء عاجزات عن التفكير المجرّد، فتتناول كأس شراب أخرى وتكشّر في وجهه.

"خنزيرٌ متعصّب" تقول له.

"ألم يعفُ عليها الزّمن؟"، يقول لوقا لي، فيبدو على أمّي الخبث، كأنّها ستسرق شيئًا.

"أستحقّ ذلك" تقول، "فأنا مسنّة. وسدّدتُ متأخّراتي، لقد حان الوقت ليعفُ عنّي الزّمن. أمّا أنت فما زلتَ صغيرًا دون تجربة، بيغلت، هذا هو[95]".

"أما أنتِ" موجّهة الكلام إليّ، "فلست سوى ردّ فِعْلٍ عكسيّ سلبيّ على ما يحدث حولي. أنتِ لُمعة سراب. سيصفح التّاريخ عنّي خطيئة إنجابي".

لكنها لا تقول كلامًا مثل ذلك إلّا بعد تجرّعها الكأس الثالثة.

"أنتم الشّباب لا تقدّرون ما تعيشونه،" لأكملت قائلة، "ولا تعرفون أو يهمّكم ما تكبّدناه لنصل بكم إلى هذا الحال. انظري إليه وهو يقطّع الجزر إلى شرائح. هل تُدركون العدد الرهيب من النساء اللائي دعستْهُنّ الدبابات فقط لقطع هذه المسافة إلى هذا؟"

"الطّهو هوايتي" لأجابها لوقا، "أستمتع بها".

"هواية، فِشْتاية![96]" لردّت عليه، "لا تقدّم لي الأعذار. كان يا ما كان، في يوم من الأيام لم يكن ليُسمح لك بالاستمتاع بهذه الهواية؛ لأنهم سيتهمونك بالشذوذ الجنسيّ".

"والآن يا أمي" لقُلت حينئذ، "لا داعي للجدل حول لا شيء".

"لا شيء!" لأجابت في مرارة، "هل تسمّين ذاك كلّه لا شيء!؟ أنت لا تعرفين، صحيح؟ لا تعرفين أبدًا ما أتحدث عنه".

ولشَرَعت في البكاء كما تفعل أحيانًا. "أنا وحيدة" لقالت، "لا يمكنكما تصوّر كم كنت وحيدة. حظيتُ بأصدقاء، أجل، كنتُ محظوظة، لكنني وحيدة على أيّ حال".

لكنني مُعجبة بوالدتي بشكلٍ أو بآخر، رغم أنّنا لم نكن على وفاق دومًا. فقد توقّعت مني الكثير، شعرتُ بذلك. أرادت منّي أن أثبت لها دومًا جدوى حياتها وصحّة خياراتها. لكنني لم أرغب في عيش حياتي وفقًا لها، أن أكون أنموذج الجيل الجديد، أو تجسيدًا لأفكارها. لطالما تشاجرنا حول ذلك. "لستُ مُبرّرك للوجود"، قلتُ لها مرّة.

أرغب أن تعود. أرغب أن تعود الأشياء كلّها، وكما كانت عليه. لكن لا جدوى منها، هذه الرّغبة.

الهواء حارّ هنا، والضوضاء عالية. أصوات النساء تتصاعد حولي، ترانيم هادئة لكنّها عالية بالنسبة إليّ، بعد مرور أيام وأيام من الصّمت. في ركن الغرفة ملاءة ملطخة بدماء، مكوّمة وملقاة هناك منذ أن انبثقت المياه من رحمها. لم أنتبه لذلك حينئذ.

تنتشر في الغرفة رائحة كريهة، والهواء كتيم. ينبغي أن يُشرعوا نافذة ما. تنبعث الرائحة من أجسادنا نحن، لحومنا، رائحة عضوية، عرَق ولذعة معدنيّة من دماء الملاءة. ورائحة أخرى حيوانيّة نوعًا ما تنبعث حتمًا من جانين: رائحة أَوْكَار، وكهوف مسكونة، رائحة لحاف الصّوف المفروش على سرير ولدت عليه هِرّة، قبل أن تُنَظّف وتُبَيّض. رائحة كيس الرّحم.

"تنفّسي، تنفّسي" نترنّم بما تعلّمناه، "اكتمي، اكتمي، ازفُري، ازفُري، ازفُري". نكرّر الكلمة حتى ينتهي العدّ إلى خمسة. خمسة للتنفّس، وخمسة للكتم، وخمسة للزّفير. تحاول جانين مطبقة العينين الإبطاء من تنفّسها. والخالة ليديا تترقّب نوْبات الطّلق.

والآن باتت جانين قلقة، وتُريد أن تسير قليلًا. تُعينها المرأتان اللتان على جانبيها لتنهض من الفراش، تُسْندانها من كلّ جانب فيما تخطو وئيدة. تصعقها نوبَة طلْق، تضربها التقلّصات فتنثني ألمًا. تنحني عليها إحدى المرأتين وتفرك ظهرها. جميعنا نُجيد ذلك، لقد دُرّبنا. أنتبه إلى أوفغلن، رفيقتي في شراء الحاجيّات، تجلس على بُعد امرأتين منّي. الترانيم الخافتة تُغلّفنا مثل غشاء رقيق.

تدخل علينا مَرْثيّة تحمل صحَفة: عليها دَوْرَق عصير فاكهة، بدا من النوع المُعَدّ بالمساحيق، وبدا أيضًا أنّه عصير عنب، مع أكواب ورقية كثيرة. تضع الصّحَفة أرضًا على السجادة أمام النسوة المترنّمات. تملأ أوفغلن الأكواب، دون أن تغفل عن نغمة واحدة، وتمرّرها إليهن.

آخذ كوبًا وأميل جانبًا لتمريره، وعندئذ تقول لي المرأة الجالسة إلى جواري بصوت خفيض في أذني: "هل تبحثين عن أحد؟"

"مويرا" أجيبها بمثل صوتها، "شعرٌ فاحم وبشرة منمّشة"

"لا" تُجيب المرأة، "لا أعرف هذه المرأة. لم تكن معي في دارنا الحمراء، لكنّني رأيتها، أثناء شراء الحاجيّات".

"سأبحث عنها من أجلك"

"حقًّا؟!"

"اسمي آلما" تقول لي، "وما اسمك أنتِ الحقيقيّ؟"

أردتُ أن أخبرها عن فتاة اسمها آلما أيضًا معي في الدّار. وأردتُ أن أخبرها باسمي لكن الخالة إليزابث رفعت رأسها وراحت تحملق في أرجاء الغرفة. لابدّ أنها انتبهت إلى وجود ما يشوّش نغمة التّرنيمة. لذلك لم نحظَ بمتّسع من الوقت. أحيانًا تستطيعين تسقّط الأخبار أثناء أيّام الولادة. لكن لا جدوى هناك من السؤال عن لوقا. فلن يتواجد في أيّ مكان يُحتمل أن تراه فيه إحدى هاته النساء.

تستمرّ الترانيم. بدأت تعلّقني بها. "إنّه جهد شاق. يُفترض بكنّ التركيز، أن تُناغمن أجسادكنّ مع الحدَث أمامكن" قالت الخالة إليزابث. صرت فعلًا أشعر بآلام طفيفة في بطني، وثقلٍ في ثديّ. تصرخ جانين، صرخة واهنة، صوتًا بين الصّراخ والتأوّه.

"إنها في المرحلة الانتقاليّة" تقول الخالة إليزابث.

تمسح إحدى المساعدات جبين جانين بقطعة قماش بَليلة. باتت جانين تتصبّب عرقًا، وتُفلت خصلات من شعرها خارج عُقدة الشّريط المطاطي، تلتصق بعضها بجبينها، والأخرى برقبتها. صار لحمها رطبًا، منقوعًا، برّاقًا.

نترنّم "الْهِي، الْهِي، الْهِي".

"أخرجوني من هنا" تقول جانين، "أريد السّير قليلًا، أشعر أنني بخير. يجب أن أذهب إلى الصّفيحة المعدنيّة".

ندرك جميعا أنها في مرحلة الانتقال، أي أنها لا تُدرك تمامًا ما تقوله. فما هو

الحقيقيّ من بين ما قالته؟ ربما قوْلها الأخير. تُطلق الخالة إليزابث إشارة. فتقف امرأتان جوار المرحاض المتنقّل، وتُنْزِل جانين في رفق على المرحاض. تنبعث رائحة أخرى مع الروائح المنتشرة في الغرفة. تتأوّه جانين مجدّدًا، تُحني رأسها فلا يظهر ما يمكن رؤيته من وجهها سوى شعرها. مُنحنيةً على ذلك النحو، صارت مثل دُمية، دُمية عتيقة سُرقَت ثمّ رُميَت في رُكنٍ ما، متخصّرة.

جانين تنهض مجدّدًا وتسير. "أريد أن أجلس" تقول. كم مضى علينا من الوقت هنا؟ دقائق أم ساعات؟ رُحتُ أتصبّب عرقًا. ابتلّ ردائي تحت إبطيّ. طعم الملح أتذوّقه على شفتي العليا. آلامٌ متوهّمة تنتابني وتُراود الأخريات. أعرف ذلك من تأرجحهن في أماكنهن. تمتصّ جانين مكعّبَ ثلج. وبعد ذلك، أكان الجَنين على بعُد إنشات أو أميال، "لا" تصيح، "أوه، لا، أوه لا، أوه لا". إنها تضع مولودها الثاني. لقد أنْجَبَت طفلًا قبلًا، أعرف ذلك من الدّار. لطالما بكَت ابنها ليلًا مثلنا جميعًا سوى أنّ صوتها أعلى. لذلك لابدّ أنّها قادرة على تذكّر ما حدث، وأن تتوقّع ما هي مُقبلة عليه. لكن مَن يتذكر الألم إذا انتهى؟ إنّ كلّ ما يتبقّى منه هو ظلٌّ وحسب، لا في الذّهن، بل في الجسد. الألم يَشِمُك، لكن عميقًا داخلك فلا يُرى. خارج مجال الرؤية، خارج مجال التفكير.

سكبَت إحداهن في عصير الليمون نبيذًا، حتمًا استلّت قنّينةً من الطابق السّفلي. تحدُث هذه الأمور عادة في مثل هذا الحشد الكبير، لكنهم سيغضّون الطّرف عن ذلك كلّه؛ فنحن أيضًا نحتاج أن نعربد أحيانًا.

"أخفضوا الأضواء"، تقول الخالة إليزابث، "قولوا لها حانت السّاعة".

تنهض إحداهن وتخفّ إلى الجدار، فيُمسي الضوء غسقيًّا، وتنخفض أصواتنا أيضًا لتغدو جوقة صَرِيف وهمسات مبحوحة، أشبه بجنادب الليل. تغادر امرأتان الغرفة، وأُخريان تقتادان جانين إلى كرسيّ الوِلادة، وتجلسانها على المقعد المنخفض الأماميّ. باتت أكثر هدوءًا، ينساب الهواء إلى رئتيها في وَتيرة واحدة، بينما نحن منحنيات، متوتّرات، عضلات ظهورنا وبطوننا تؤلمنا، فقد أُجهِدنا. إنّه قادم. إنه قادم مثل بوق، مثل دعوة لحمل السّلاح، مثل سقوط جدار، نشعر

به مثل حجر ثقيل يتحرك هابطًا، مجذوبًا إلى أسفل داخلنا، فيُخيّل إلينا أننا سننفجر. تتشابك أكفّنا بعضها ببعض، لم نعد فُرادى.

تسارع الزّوجة إلى دخول غرفة، بقميص نومها القطني الأبيض المثير للسخرية، فيما ساقاها الأنبوبيّتان طافرتان منه. زوجتان، كُلٌّ في رداءها وحجابها الأزرق تُمسك ذراعًا لها، كما لو كانت تحتاج ذلك. ترتسم على شفتيها ابتسامة خفيفة مزمومة، مثل مُضيفة حفْلٍ لم تكن ترغب في إقامته. إنها تعرف حتمًا رأيَنا فيها. ترفع نفسها فوق كرسيّ الوِلادة وتجلس على المقعد المرتفع الخلفيّ، فصارت جانين مؤطّرةً بها: ساقاها النحيلتان تتدليان، كلّ من جانب، مثل ذراعي كرسيّ غرائبيّ التّصميم. وما يُثير الاستغراب أكثر أنها ترتدي جورب قطن أبيض وخُفّين منزليّين، زرقاوين صُنعا بخيوط منفوشة، مثل غطاء قاعدة كرسيّ مرحاض. لكننا لا نعير الزوجة بالًا، ونكاد لا نراها، فأنظارنا مسلطة على جانين. في ضوء الغرفة الغسقيّ، في ثوبها الأبيض، تتألّق مثل قمر في حُضن سحابة.

تتأوّه الآن وتنخر أكثر كلّما زاد جهدها. "ادفعي، ادفعي، ادفعي" نهمس، "استرخي، الْهثي، ادفعي، ادفعي، ادفعي". إننّا معها، مثلها، ثمِلات. تركع الخالة إليزابث ناشرة فوطة بين يديها لكي تُمسك المولود، وها هو التتويج، المجد، الرّأس أرجوانيّ ملطّخ بالزّبَد. دفعة أخرى وينزلق خارجًا، زلِجًا بالسوائل والدماء، إلى انتظارنا. أوه مجّدوا الرّب.

نحبس أنفاسنا بينما تفحص الخالة إليزابث المولود: إنها بنت، للأسف، لكنها على ما يرام كما يبدو، فلا عاهة ظاهرة يمكن مشاهدتها. يدان، قدمان، عينان، نُحصي في صمت، فنجد كل عضوٍ في مكانه. تُمسك الخالة إليزابث بالطفلة وترفع نظرها نحونا مبتسمة. نبتسم لها في المقابل. نغدو جميعا ابتسامة واحدة هائلة. تنهمر الدموع على خدودنا. تغمرنا السّعادة.

السّعادة هي إحدى ذكرياتنا. ما أذكره هو لوقا، معي في المشفى، يقف جوار رأسي ممسكا يديّ، مرتديًا ما أعطوه: معطفًا طبّيًا أخضر وقناعًا واقيًا أبيض.

"أوه" قال، "أوه، يا ربّي. أنفاسها تنزلق خارجةً بأعجوبة". تلك الليلة لم يستطع

النوم أبدًا، أخبرني بذلك، فقد شعر أنه يطير عاليًا.
تغسل الخالة إليزابث المولودة برفق. إنها لا تبكي كثيرًا، تتوقف عن البكاء تمامًا. ومن أجل ألّا نُقلق المولودة ننهض جميعًا في هدوء تامّ، نتزاحم حول جانين، نعانقها، نُربّت عليها. فيما هي منخرطة في بكاء مستمر. الزّوجتان ذاتا الرّداءين الأزرقين تساعدان الزوجةَ الثالثة، زوجة هذا البيت، على النهوض من كرسيّ الوِلادة، وتصحبانها إلى السرير، تُضجعانها هناك وتسحبان اللحاف فوقها. الآن وقد غُسلت الطفلة وهدأت، أُخذَت لتوضع بطقوسيّة بين ذراعَي الزوجة الثالثة.
الآن تزاحمت الزوجات الصّاعدات من الطابق الأول داخل الغرفة، يدفعننا، يُبعدْننا جانبًا. يتحدثن بأصوات عالية، بعضهن ما زلن يحملن أطباقهن وفناجين القهوة أو كؤوس النبيذ، وبعضهن الآخر لم يتوقفن عن مضغ الطعام. يتحلّقن حول السرير، حول الأم والطفلة، يهْدِلنَ ويُهنّئن. يشعُّ منهن الحسد، أستطيع اشتمامه، خيوطًا حِمضيّة لاذعة تختلط بعطورهن. الزّوجة تنظر إلى أسفل نحو المولودة كأنّها باقة ورد: شيءٌ فازَت به، رمز انتصار.
الزوجات ما زلن هنا كي يشهدن مراسم تسمية المولودة. فهُنّ من يُسمّين المواليد هنا.
"آنجلا" تقول زوجة الرئيس.
"آنجلا، آنجلا" تكرّر الزوجات، يغرّدنَ "يا له من اسم جميل. أوه، يا لكمالها! أوه، يا لروعتها!"
نقف بين جانين وبين سرير الزّوجة من أجل ألّا تضطرّ جانين لرؤية ما يحدث. قدّمت لها عصير العنب، آمل أنّها صبّت من الدّورق الممزوج بالنبيذ، فما زالت تعاني من آلام الولادة، وتبكي يائسة، تذرف دمعًا بائسًا احترقَ سلَفًا. ومع ذلك فإنّنا بشوشات فرحات، فهذا إنجاز، لنا جميعًا، لقد نجحنا.
سيُسمح لها بإرضاع الطفلة، شهورًا قليلة، فهم يؤمنون بحليب الأم. وبعد ذلك سوف تُنْقَل جانين إلى مقرٍّ آخر كي تكرّر إنجازها مع وَلِيٍّ آخر يقف في طابور خدماتها. لكنها لن تُرسَل أبدًا إلى المستعمرات، ولن يُعلن أبدًا أنها من أشباه

النساء، تلك هي مكافأتها.

الولّادة المتنقّلة تنتظرنا في الخارج لكي تُقِلّنا عَوْدةً إلى بيوتنا. الأطباء ما زالوا في عربتهم، تظهر وجوههم وراء نوافذها مثل بُقَع بيضاء، كأنها وجوه أطفال مرضى عليهم التزام بيوتهم. أحدهم يفتح الباب ويتّجه نحونا.

"هل كل شيء على ما يرام؟" يسأل في قلق.

"أجل" قلت له. بحلول تلك الساعة كنت قد عُصِرتُ تمامًا، مرهقةً جدًّا. يدبّ الوجع في ثدْيَيّ، وتنساب منهما سوائل قليلة. حليبٌ كاذب. يحدث ذلك لبعضنا. نجلس على المقعدين الخشبيين بعضنا تواجه بعضًا، فيما نُنْقَل. الآن نحن فارغات من العواطف، نكاد لا نحسّ شيئًا، قد نكون مجرّد أكوام من قماش أحمر. نتوجّع. تثبّتُ كلّ منّا في حجرها طيْفًا، شبح طفل. ما يواجهنا الآن، وقد انتهت الإثارة، هو فشلنا الذاتيّ. يا أمّي، أقول في ذهني، حيثما كنتِ، هل تسمعينني؟ كُنتِ تنشدين نشْرَ ثقافة نسويّة حَقّة. حسنٌ، ثمّة واحدة الآن. لكنّها ليست ما تبغينها. فلتكوني شَكورة لتوافر تلك النّعَم الصّغيرة لك ولجيلك.

عندما وصلت الولّادة المتنقّلة إلى البيت كان النهار في نهايته. تتبدّى الشّمس ضعيفة وراء السّحب، ورائحة العشب المبلّل الدافئ تنتشر في الهواء. أمضيتُ جُلّ اليوم في الولادة، قد يفقد المرء أحيانًا تتابع الزمن. لابدّ أن كورا قد أنجزت مهمّة التبضّع، فأنا مُعفاة اليوم من واجباتي كلّها. أرتقي الدّرج. أنقُل قدميّ بتثاقل من درجة إلى أخرى قابضة على السّياج. أشعر أنني كنت مستيقظة أيامًا متواصلة أركض، صدري يؤلمني، وعضلاتي تتقلص كأنّ السُّكّر قد نفد منها. ولأوّل مرّة، أرحّب بالعُزلة.

أستلقي على السرير. أريد الراحة، الاستغراق في النوم، لكنني مُتعبة جدًّا، وفي الوقت نفسه مُستثارة جدًّا، عيناي لا تُغمضان. أحدّق إلى السقف، أتتبّع وُريقات الإكليل الجصّي. يدفعني هذا الإكليل الآن إلى التفكير في القبّعات، تلك القبّعات عريضة الحوافّ التي اعتادت النساء ارتداءها في أيّامٍ مضَت: قبعات أشبه بهالاتٍ واسعة، تحمل فصوصَ ورودٍ وأشكال فواكه، ومطعّمة بأرياش طيور عجيبة. قُبّعات مثل فكرةٍ عن الجنّة، تطفو قريبةً فوق الرّأس، فكرةٌ تجسّدَت.

سيتلوّن الإكليل خلال دقيقة، فأبدأ برؤية أشياء. إلى هذا الحدّ أنا متعبة: كما قد تقود عربةً طوال اليوم، إلى الفجر، لسبب ما لن أفكّر فيه الآن، يُبقي أحدنا الآخر مستيقظًا بقصص ونتبادل مقعد القيادة، وما إن تنهض الشمس حتى ترى أشياء تتحرّك حول حوافّ رؤيتك: حيوانات بنفسجيّة في الأحراش جوار الشارع، وخطوط قامات رجال يختفون إذا أمعنت النّظر إليهم.

أنا مُتعبة جدًّا لأمضي في هذه القصّة. مُنهكة التفكير في المكان الذي أنا فيه. خذوا قصّة مختلفة، أفضل. هذه قصّة مويرا وما حدث لها.

جزء منه أستطيع سدّه بنفسي، وجزءٌ آخر سمعتُه من آلما، وآخر سمعتُه من

دولورس التي سمعَته من جانين. وجانين سمعَته من الخالة ليديا. تتشكّل التحالفات حتى في مثل هذه الأماكن، وتحت مثل هذه الظروف. ثِق في ذلك تمامًا: ثمّة دائمًا تحالفات، بشكل أو بآخر.

استدعت الخالة ليديا جانين إلى مكتبها.

"مُباركةٌ هي الثّمرة" ربما بادرتها الخالة ليديا بالتحيّة، دون أن ترفع عينيها عن مكتبها حيث كانت تكتب. لكلّ قاعدة استثناء: ثقّ في هذا أيضًا، فالخالات مسموح لهن القراءة والكتابة.

"فليفتح الله علينا" حتمًا أجابتها جانين كذلك، بنبرة خاوية، بصوتها الشّفيف، الأشبه ببياض البيض الطازج.

"يراودني شعور أنّه يمكنني الاعتماد عليك يا جانين" ربما قالت الخالة ليديا ذلك، فيما ترفع عينيها عن الصفحة أخيرًا، مثبّتةً جانين بنظرتها الفاحصة تلك، خلال نظّارتها، نظرة تُوازِن التهديد والالتماس في آن. "ساعديني..." تقول تلك النظرة، "نحن في هذا الحال معًا، وأنت فتاة يمكن الوثوق بها، لستِ كالأخريات".

ظنّت شهقات جانين الباكية وإعلانات توبتها كلّها تحمل معنىً حقيقيًّا، ظنّت جانين مكسورة، ظنّت جانين مؤمنة بصدق. لكن بحلول ذلك الوقت غدَت جانين مثل كلبة رُكلت كثيرًا، ركلها أناس كثيرون، بعشوائيّة: ولذلك سوف تفيء إلى أيّ أحد، ستقول أيّ شيء، فقط لنَيل الرّضا ولو لحظة.

لذا لابدّ أنّ جانين قالت "آمل ذلك يا خالة ليديا، آمل أنّني جديرة بثقتك" أو شيئًا من هذا القبيل.

"جانين" قالت الخالة ليديا، "حدث أمرٌ رهيب".

أخفضت جانين نظراتها إلى الأرض. مهما كان الذي حدث، فإنها تعرف أنّها لن تُلام. رُفع عنها الملام. لكن بمَ فادها ذلك في الماضي، أن يُرفع عنها الملام؟ لذا فإنها في الآن ذاته شعرت أنها مذنبة، كما لو أنها على وشك أن تُعاقَب.

"هل تعرفين شيئا عمّا حدث، يا جانين؟" قالت الخالة ليديا في لُطف.

"لا يا خالة ليديا" قالت جانين. وعرفَت في تلك اللحظة أنّه من الضروري أن ترفع

نظرها إليها، إلى الخالة ليديا، أن تنظر إلى عينيها مباشرة. وقد استغرقت بضع لحظات لتفعل.

" إذا كنت تعرفين شيئًا مسبقًا فسوف أستاء منكِ" قالت الخالة ليديا.

" شَاهِدٌ الرَّبُّ[97]" قالت جانين مُظهرةً حمَاسة مُدّعاة.

صمتت الخالة ليديا صمتًا تتعمّده عادةً. راحت تعبث بقلمها. "مويرا لم تعد معنا" قالت أخيرًا.

"أوه" قالت جانين. كانت مُحايدة إزاء هذه المسألة، فلم تكن مويرا صديقة لها.

"هل ماتت؟" سألت بعد لحظة.

ثمّ روَت الخالة ليديا على مسامعها القصة. رفعت مويرا يدها لكي يُسمح لها بالذهاب إلى دورة المياه أثناء حصّة التمرينات. فذهبت، فيما الخالة إليزابث تقوم بواجبها في المراقبة. التزمت الخالة إليزابث مكانها خارج دورة المياه جوار الباب. دخلت مويرا. وبعد وهلة نادت مويرا على الخالة إليزابث: المرحاض طافح، هل يمكن للخالة إليزابث المجيء لإصلاحه؟ في الحقيقة دورات المياه تطفح من حين لآخر. ثمّة مجهولون يحشرون قطعًا كثيرة من ورق التجفيف في المراحيض ليحدث هذا الأمر. عملت الخالات على اصطناع أدوات لمنع حدوث ذلك، لكن المخصصات المالية محدودة، وبات عليهن تدبّر الأمر بما هو مُتاح، ولم يبتكروا طريقةً بعد لحجز ورق التجفيف عن الاستخدام المفرد. ربما الأجدى لهن أن يضعنه على منضدة وراء الباب ويناولن الدّاخلة قطعة أو عدّة قطع. حينئذ، كان هذا الحل سيطبق مستقبلاً. الوصول إلى حلّ للمشاكل يستغرق بعض الوقت، لا سيما إذا كانت جديدة.

الخالة إليزابث، بنيّة سليمة، دخلت دورة المياه. اضطرّت الخالة ليديا إلى التّصريح بأن هذا التصرّف غبيّ. لكن سبق لها الذهاب لإصلاح دورة المياه عدّة مرّات دون وقوع أيّ شر.

لم تكذب مويرا عليها. فالمياه تطفو متدفقة فوق الأرضية حاملةً بعض القطع الصّلبة المتفككة. مشهدٌ لا يسُرّ، ضايَق الخالة إليزابث. انتصبت مويرا جانبًا في

أدب. سارعت الخالة إليزابث إلى المقصورة التي أشارت إليها مويرا، وانحنت إلى ظَهر كرسيّ المرحاض. كانت تنوي رفع غطاء خزّان الماء الخزفيّ، لتحرّك كرة العوّامة وذراعها. يداها كلتاهما تمسكان الغطاء حين شعرت بشيء صُلب وحاد، وربما معدنيّ، يخز ضلوعها. "لا تتحركي" قالت مويرا، "وإلا غرزتها كاملةً فيكِ، أعرف أين، سأثقب رئتك".

واكتشفوا لاحقًا أنها فكّكت خزّان مياه أحد المراحيض، واستلّت عمودًا طويلًا رفيعًا مدبّبًا. إنّه ذراع رفع العوّامة، له جانب مثبّت بمقبضٍ خارجيّ وجانب آخر معقودة إليه سلسلة. لا يصعب فكّ هذا الذراع إذا كان الإنسان يعرف كيف، وتمتّعت مويرا بمهارة ميكانيكيّة فقد اعتادت إصلاح أعطال سيّارتها، البسيطة منها. وبعد الحادثة بزمن قليل ثُبّتت الأغطية في مكانها بسلاسل. وعندما تطفح المراحيض فإنّ فتحها بات يستغرق وقتا طويلا. عانينا من حوادث طفح على ذلك النحو.

"لم يكن في استطاعة الخالة إليزابث رؤية ذلك الشيء الذي ينخسها،" قالت الخالة ليديا، "إنها امرأة شجاعة..."

"أوه، أجل" علّقت جانين.

"لكنها ليست مُجازِفة" قال الخالة ليديا عابسةً قليلًا. بلغت الحماسة في جانين مبلغها الذي تتحوّل عنده أحيانًا إلى الإنكار. "فعلت ما قالته مويرا" تابعَت الخالة ليديا، "أمسكت مويرا بعصاها وصفّارتها، آمرةً الخالة إليزابث أن تفكّهما من حزامها. ثم اقتادتها نزولًا الدّرج إلى القبو. كانتا في الطابق الثاني، لا الثالث، ما يعني أن العقبة الوحيدة هي مسافة طابقَين من الدّرج، فالحصص الدراسية منعقدة ولذلك لا أحد في القاعة. ولقد شاهدا بالفعل خالة أخرى، لكنها في أبعد ركن من الرّدهة، ولا تنظر في اتجاههما. بمستطاع الخالة إليزابث أن تصرخ حينئذ، لكنها أدركت أن مويرا تعني ما قالته، فسُمعة مويرا سيئة."

"أوه، أجل" علّقت جانين.

"اقتادت مويرا الخالة إليزابث طول ردهة من خزانات شاغرة، تجاوزتا باب

القاعة الرياضيّة، ثمّ دخلتا غرفة آلات التدفئة، وأمرت الخالة إليزابث أن تخلع ملابسها كافّة..."

"أوه" قالت جانين في وهْن، كأنها ضدّ انتهاك المحرّمات هذا.

"...وخلعت مويرا أيضًا ما ترتديه لكي ترتدي ملابس الخالة إليزابث، ورغم أنّ المقاس كان واسعًا عليها، فإنّ الملابس بدت معقولة عليها. لم تقسُ مويرا على الخالة إليزابث فقد سمحت لها بارتداء ثوبها الأحمر، أمّا الحجاب فقد مزّقته إلى شرائط عقدت بها الخالة إليزابث وأوثقتها خلف آلة التدفئة. حشرت فمها بقطَع قماش وكمّمت فمها بشريط آخر. ثمّ أجرَت حول رقبة الخالة إليزابث شريطًا آخر ومدّته من خلفها لتعقده بقدميها. إنها امرأة ماكرة خطيرة..." قالت الخالة ليديا.

قالت جانين "هل لي أن أجلس؟" كأن ما سمعته أثقلها. عندها ما تُبادل به أيّ شيء، مقابل قسيمة شراء على الأقل.

" أجل يا جانين" ردّت الخالة ليديا متفاجئة، لكن مُدركة أنّها لا تستطيع الرّفض الآن. كانت تسعى إلى جذب اهتمام جانين، والحصول على مساعدتها أيضًا. فأشارت إلى مقعد في الرّكن، جذبته جانين إلى الأمام نحوها.

"أستطيع قتلك، تعرفين ذلك،" قالت لها مويرا، عندما باتت الخالة إليزابث آمنة ومخفيّة عن الأنظار خلف آلة التدفئة. "أستطيع جرحكِ جروحًا تبلغ من الحدّة أن تعاني منها طوال حياتك، أستطيع صعقك بذاك، أو أفقأ عينك بهذا. تذكّري فقط أنني لم أفعل إذا رُحتِ تذكُرين ما حدث".

لم تُعِد الخالة ليديا رواية هذا الجزء على مسامع جانين، لكنني أتوقع أن مويرا قالت أشياء كتلك. على أيّ حال، هي لم تقتل الخالة إليزابث أو تشوّهها، فبعد أيام قلائل، بعد استعادتها نشاطها إثر مكوثها سبع ساعات خلف آلة التدفئة، واستجوابها لاحقًا، عادت إلى عملها في الدار الحمراء.

نصبَت مويرا ظهرها واستقامت، ونظرت في حزم أمامها. ألقت كتفيها إلى الوراء، شدّت عمودها الفقري، زمّت شفتيها. ليست هذه هيئتنا عادة. فنحن نسير

منكسات الرأس ونظراتنا تجري على أيدينا أو عبر الأرض. لم تكن مويرا لتشبه الخالة إليزابث على أيّ حال، رغم ارتداءها الخِمارَ البنيّ. لكن يبدو أن ظهرها المشدود كان كافيًا للملائكة الموكلين بالحراسة، فلم يكونوا يمعنون النّظر إلينا أبدًا، حتى إلى الخالات، وربما خصوصًا إليهن. سارت مويرا في ثبات خارجة من الباب الأمامي، بهيئة شخص يعرف إلى أين هو ذاهب. حيّوها، أبرزَت تصريح مرور الخالة إليزابث الذي لم يتأكّدوا منه، فمن يجرؤ على اعتراض سبيل خالة تتقدّم في سَيرها على ذلك النحو؟ ثم اختفت.

"أوه، أجل" علَّقت جانين. فمَن يعرف حقًّا ما تشعر به؟ ربما أرادت أن تبتهج. إذا كانت كذلك، فقد نجحت في إخفاء الأمر تمامًا.

"ولذا يا جانين" قالت الخالة ليديا، "هذا ما أريدك أن تفعليه".

حملقت جانين محاولةً أن تبدو عليها البراءة والانتباه.

"أصغي جيّدًا لما يُقال حولك، ربما هناك أخرى ضالعة في الأمر".

"حسنًا يا خالة ليديا" قالت جانين.

"وتعالي وأخبريني فورًا، حسنٌ، عزيزتي؟ إذا سمعت أيّ شيء"

"حسنًا يا خالة ليديا" قالت جانين. وأدركت أنها لن تُرغَم على الجُثُوّ أرضًا مجدّدًا أمام الفصل، لسماع صراخنا عليها أنّ ما حدث لها كان خطأها. سوف تغدو إنسانة أخرى بعض الوقت. ستغدو، مؤقّتًا، خارج أيّ مأزق.

حقيقة أنها أخبرت دولورس كلّ ما قيل لها في مكتب الخالة ليديا لا تعني شيئًا. لا تعني أنها لن تشهد ضدّنا، أيّنا، إذا أتيحت لها الفرصة. أدركنا ذلك. بحلول ذلك الوقت كنّا نعاملها كما يعامل الناس أولئك الذين لا سيقان لهم، الذين يبيعون أقلام الرصاص عند نواصي الشوارع. تجنّبناها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. وأحسَنّا إليها عندما لا يكون هناك مفر من ذلك. شكّلت خطرًا علينا، أدركنا ذلك.

ربما ربّتت دولورس على ظهرها وقالت لها إنها تتمتّع بروح رياضية لأنها أخبرتنا. أين تبادلنا الحديث؟ في قاعة الرياضة عندما كنا نتهيأ للذهاب للنوم. سرير

دولورس يلي سرير جانين مباشرة.

مُرّرَت القصة بيننا تلك الليلة، في ظلام خافت، في همس من سرير إلى آخر.

مويرا هناك، في مكان ما في الخارج. إمّا في سِعَة الأرض أو ميّتة. ما الذي تفعله لو كانت طليقة؟ هذه الفكرة اتّسعت حتى ملأت الغرفة. قد ينطلق في أيّ لحظة انفجار يُشَظّظ زجاج النوافذ ساقطة إلى الداخل، وإذا بالأبواب تُشرع على مصاريعها... مويرا تملك القوّة الآن. فقد حُلّت قيودها ولسوف تُطلق العنان لنفسها. أصبحت الآن امرأة طليقة.

وجدنا ذلك مُخيفًا.

صارت مويرا أشبه بمصعد دون جدران، دفعتنا للشعور بالدوار. كنا قد بدأنا ننسى طعم الحريّة فعلًا. بتنا نجد الأسوار حولنا مصدر أمان. في طبقات الجوّ العُليا ستتفتّت، تتبخّر، فلا ضغطَ يُبقي أجزاءك متماسكة.

رغم ذلك كلّه، فإنّ مويرا صارت نزوتنا الخياليّة. نضمّها إلينا، نتضاحك، إنّها مثل حِمَمٍ تحت قشرة حياتنا اليوميّة. تحت ضوء مويرا تغدو الخالات أقلّ رُعبًا لنا وأكثر سخافة. تضاءل نفوذهن جرّاء ذلك؛ صار في الإمكان خطفهنّ في دورات المياه. تلك البسالة أعجبتنا.

توقّعنا أيضًا أن تدخل الدّار مجرورةً أيّ لحظة، كما حدث سابقًا. لم نستطع تخيّل ما قد يفعلونه بها هذه المرّة. العقاب، إذا عثروا عليها، سيكون حتمًا شديد القسوة.

لكن لم يحدث شيء. لم تُعاود مويرا الظهور، حتى الآن.

أُعيدُ بناء حياتي. هذا كلّه إعادة بناء. أُعيدهُ ذهنيًّا بينما أستلقي في سريري الضيّق، وأُعيد ما كان ينبغي عليّ قوله وما لم يكن، ما كان ينبغي عليّ فعله وما لم يكن، كيف لَزِمَني أن أتحرّك في اللعبة، لو خرجتُ أبدًا من هنا.
لنقف عند تلك النقطة، نيّتي الخروج من هنا. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر إلى الأبد. لقد ظنّ آخرون كُثُر ذاك الظنّ في أصعب أوقاتهم قبل وقتنا هذا، وكانوا على حقّ، فقد استطاعوا الخروج بشكل أو بآخر، فلم يكن وضعهم ذاك ليستمرّ إلى الأبد، رغم أنّه ربما استمرّ إلى أبدهم هم.
عندما أخرج من هنا، إذا كان لي أن أضع كلّ ما حدث على الورق، بأيّ شكل، حتى لو مُشافهَةً معك، فذلك إعادة بناء أيضًا، لكنّه في الوقت نفسه إزالة. يستحيل أن تحكي حدثًا كما جرى تمامًا، فما تقوله لا يمكن له أن يكون تامًّا، عليك دومًا أن تُهمل ذكرَ بعض الأمور، فثمّة أجزاء لا يُحصى عددها، جوانب كثيرة، تيارات متعاكسة، ظِلالُ فوارق دقيقة، إيماءات لا حصر لها قد تعني هذا أو ذاك، وأشكال تبلغ من الكثرة حدّ ألّا توصَف وصفًا وافيًا، نكهات جمّة في الهواء أو فوق اللسان، وأنصاف ألوانٍ ما أكثرها. لكن إذا حدث ذلك مستقبلًا وكنتَ أنت رجُلًا، وقد عشتَ لتقرأ هذا، أرجو أن تتذكّر: لن تتعرّض أبدًا لإغواء شعورٍ داخليّ يجتاحك لأن تغفر، كرجُل، كما يحدث مع المرأة. من الصّعب جدًّا مقاومة ذلك، صدّقني. لكن تذكّر أن الغفران قوّة أيضًا، أن تُسْتَعطف لمنحه هو قوّة، وأن تُمسكها أو تهبها قوّة أيضًا، ربما أعظم القوى قاطبة.
ربما لا يدور هذا الوضع القائم حول السُّلطة. ربما لا يدور حقًّا حول مَن يُسيّر مَن، أو من يستطيع فعل أمرٍ ما لمن والإفلات من العقوبة حتى لو كانت الموت. ربما لا يدور حول من له أن يقتعد الكرسيّ، ومَن عليه الرّكوع، أو البقاء واقفًا، أو الاستلقاء فاتحًا ساقيه. ربما يدور حول من يستطيع فعل أيّ شيء لأيّ أحد،

وينال المغفرة. لا تقل لي إنّ المحصّلة واحدة.

"أريدك أن تقبليني" قال لي الرّئيس.
حسنًا. حتمًا حدثت أمورٌ قبل ذلك. فمثل تلك الطلبات لا تأتي وحدها من فراغ، محلّقةً مع هواء النافذة.

أخيرًا نمتُ. حلُمت أنني أرتدي قُرْطَين أحدهما مكسور. لا يعني ذلك شيئًا، إنّه الذّهن يفتح ملفّاته القديمة، وقد أيقظتني كورا عندما أتت بصحَفة العشاء، فعاد الزّمن إلى مجراه.
"الطفل في صحّة جيّدة؟" سألت كورا بينما تضع الصّحَفة. لابدّ أنها تعرف الجواب. فقد أنشأن شبكة تلغرافات من-فمٍ-لآخر، بين البيوت، يتناقلن الأخبار، لكن يسرّها أن تسمع أكثر، كأنّ كلماتي ستُثبت صدقَ ما حدث.
"بخير. أصيلة. فتاة".
تبتسم كورا لي، ابتسامةً حاضِنَة. هذه هي اللحظات التي تُشعرها أنّ ما تفعله ذو جدوى.
"ذلك جيّد" تقول. كاد صوتها أن يشي بتَوْقٍ ما. وأفكّر: حتمًا. لأحبّت أن تكون هناك. فالمراسم أشبه بحفلة لم تستطع الذهاب إليها.
"قد نحظى بواحدة، قريبًا" قالت، في خجل. وبقولها "نحظى" قصدتني أنا "أحظى". فقد أُنيط بي إعادة تسديد ما قدّمه الفريق لي، تبرير طعامي وإقامتي، مثل ملكة النّحل ذات البيوض. قد تكون ريتا مُستنكرةً قيامي بهذا الدور، لكن كورا لا، بل تعتمد عليّ. إنها تأمل، وأنا وسيلة تحقيق أملها.
ما أبسط أملها. تريد أن تُقيم مراسم يوم ولادة، هنا، مع وجود ضيوف وطعام وتقْدِمات. تريد طفلة صغيرة تعبث في المطبخ وتُفْسد الأمور، تكوي ملابسها، وتمرّر لها قطع بسكويت حين لا يكون في الجوار مَن يراها. أنا من سيوفّر تلكم المباهج لها. أفضّل استنكار ريتا على أمل كورا، أشعر أنّني جديرة به أكثر.

العشاء قطع لحم مطهوّة. لا أستطيع إنهاءها؛ فما إن تناولت نصف الطّبق حتى تذكّرتُ ما محاه اليوم من رأسي. إن ما قُلْنَه حقّ، تلك حالة انتقاليّة، الولادة أو مجرّد مشاهدتها، تفقدين مجرى حياتك الباقية، ينصبّ تركيزك في تلك اللحظة وحسب. الآن تعاود حياتي مجراها، لكنني لستُ مستعدّة بعد.

تقرع ساعة جدار الرّدهة في الأسفل مُعلنةً حلول التّاسعة. أضغط بيديَّ على جانبَي فخذَيّ، آخذ نفَسًا عميقًا، أنطلق عبر الرّدهة العُلويّة ثم أنزل الدرج بنعومة. ربما ما زالت سيرينا جوي في بيت الولادة، إنّه محظوظ، لابدّ أنّه لم يتوقّع ذلك. تمكث الزوجات في مثل هذه الأيام في بيت الولادة، يفتحن التّقدمات، يتبادلن النمائم، يثملن. لابدّ من فعل شيء يُبدّد حسدهن. أتتبّع الرّواق الداخليّ، متجاوزة باب المطبخ، إلى الباب الذي يليه، بابه. أقف قبالته، شاعرةً أنني مثل طفلة مُعاقبة، في مدرسة، استُدعَيت إلى مكتب المديرة. ما هو خطأي؟
وجودي هنا غير قانوني. يُحرّم علين الاختلاء بالرؤساء. الغرَض منّا هو الإنجاب: لسنا محظيّات، بنات غيشا[98]، مومسات. بل اتُّخذَت الإجراءات لإبعادنا عنهن. ويُفترض ألّا شيء فينا يبعث على المُتعة، ولا غُرفة متاحة لازدهار الشّهوات السريّة، لا أُعطيات خاصّة مُتاحة لتملّقهم أو تملّقنا، لا مَوْطئ قدمٍ للحُبّ. الواحدة منّا رَحِمٌ بساقَين، وهذا كلّ شيء: أوعية ربّانيّة، طاسةٌ مقدّسة دوّارة.
لماذا إذن يرغب أن يراني، يخلو بي، ليلًا؟
لو عُثرَ عليّ هنا فسوف أكون رهنَ رحمة سيرينا جوي الواسعة. وليس من المتوقّع منه أيضًا العبث بنظام البيت، فذاك شأن النساء. وقد أتعرّض بعدها إلى إعادة تصنيف، أصير من أشباه النساء.
لكن رفضي لقاءه قد يزيد الأمور سوءًا. فلا شكّ في مَن يقبض على السُّلطة الحقيقيّة.
لكن، حتمًا، ثمّة ما يريده، منّي. أن تريد شيئًا ما يعني ضعفك أمام فقده. وهذا الضعف، مهما كان سببه، هو ما يغويني. إنّه أشبه بصدع ضئيل في جدار كان

قبلًا ضدّ الاختراق. لو وضعتُ عيني على ذلك الضعف، الصّدع، لربما أتمكّن من رؤية طريق الخروج بوضوح.
أرفع يدي. أطرق باب الغرفة المحرّمة. لم أدخلها قط، فهي غرفة لا تدخلها النساء، ولا حتى سيرينا جوي. الأوصياء يهتمّون بتنظيفها. ما الأسرار، ما الطواطم الذكوريّة المتوارية في الداخل؟
يُطلب منّي الدخول. أفتح الباب، أخطو إلى الدّاخل.

عثرتُ في الجانب الآخر على حياة عاديّة. ينبغي أن أقول: عثرتُ في الجانب الآخر على حياة تشبه الحياة العادية. مكتب، حتمًا، عليه فاحوص اتّصاليّ[99]، خلفه مقعد جلديّ أسود، ويحمل مزهريّة وحاملة أقلام وأوراقًا. سجادة شرقية مفروشة على الأرض، وموقد دون نار، وأريكة صغيرة مغطاة بقطيفة بُنيّة، مُلحقة بها منضدة، وهناك تلفاز وبعض المقاعد.
تجري طول الجُدران أرفف ملآنة كتبًا. كتب وكتب وكتب، مُشْهَرَة للعيان، لا أقفال ولا صناديق. لا عجب انّه يُمنع علينا دخول الغرفة. إنّها واحَة المحروم. أحاول ألّا أُحملق.
الرّئيس واقف أمام الموقِد غير المُوقَد، ظهره إليه، مُسندًا مرفقًا إلى رفّه العلويّ الخشبيّ المحفور، داسًّا يدًا في جيبه. تلك هيئة مدروسة. هيئة زير نساء ريفيّ. هيئة هيّا-بنا، وَقْفَة عارِضٍ في مجلّة رجاليّة قديمة من ذوات الأغلفة اللامعة. ربما قرّر مسبقًا أن يتّخذ هذه الهيئة عندما آتيه. وربما سارع عند طرقي الباب إلى الموقد وأعدّ نفسه على ذلك النحو. كان ينبغي له أن يضع قطعةً سوداء على إحدى عينيه ويرتدي رباط عنق مرقّش بطبعات حدوات حصان.
طابَ لي أن تراودني تلك الأفكار، سريعةً مثل النّوتات العالية التي تقطع تدفّق قطعة موسيقيّة ما، انبعاثات ذهنيّة مقلقلة. سخرية داخليّة. هلع. الحقيقة هي أنني مرتعبة.
لا أبتدره الحديث.

"أغلقي الباب وراءك" يقول مبتهجًا. فأغلق الباب ثمّ أستدير إليه.
"مرحبًا" يقول.
إنها التحيّة القديمة. لم تطرق أذني منذ أمَد طويل، سنين. بدت تلك التحيّة نظرًا إلى الحال في غير محلّها، بدت هزليّة، شقلبة زمنيّة إلى الوراء، حركة بهلوانيّة، لا يرد إلى ذهني ما أجيبه به.
يراودني شعورٌ للبكاء.
لابدّ أنه لاحظ ذلك؛ ينظر إليّ محتارًا ويرتسم العبوس على ملامحه. أُفضِّل أن أحمل ذاك التعبير محملَ القلق اهتمامًا، وقد لا يكون سوى محض توتّر. "هنا، يمكنك الجلوس هنا" يقول، ويُقرّب مقعدًا لي أمام مكتبه. وبعدئذ يدور ويذهب إلى خلف المكتب ويجلس في بطء ويبدو لي أنه يجلس بشكل مدروس ومعقَّد. ثمّ يلتفّ حول المكتب، ويجلس بأناةٍ كشفَت لي بعض الأمور. هل طلب مجيئي إلى هنا ليلمسني بأيّ شكل، ضدّ رغبتي. يبتسم. ليست ابتسامة شرّيرة أو جارحة. مجرّد ابتسامة، رسميّة، ودودة لكنها بعيدة قليلًا، كأنّني هِرّة تربض وراء نافذة عرض، هرّة ينظر إليها ولا ينوي شراءها.
أجلسُ معتدلة القامة على المقعد، فيما يداي مطويّتان في حجري. أشعر أنّ قدميّ في حذائهما الأحمر ذي القاعدة المستوية لا تشعران بالأرض تحتهما، لكنّهما عليها بالفعل.
"لابدّ أنّك تستغربين الوضع" يقول.
أكتفي بالنظر إليه. السّنون لا تظهر عليه على حقيقتها. تلك عبارة تستخدمها أمّي. استخدمتها. أشعر أنّني حلوى شعْر البنات: سُكّر وهواء. اعصُرني فأتحوَّل إلى حَشْوة صغيرة، سقيمة، رطبة، تتذاوَب ورديّةً مُحْمرّة.
"أعتقد أن الأمر غريب قليلًا" يقول، كما لو أنّني أجبتُه سابقًا.
أظنّ أنّه لابدّ لي من اعتمار قُبّعة واسعة الأطراف، تلفّها شريطة معقودة أسفل ذقني لتثبّتها.
"أريد..." يقول.

أحاول كبح جماحي ألّا أنحني إلى الأمام. أجل؟ أجل؟ أجل؟ ماذا؟ ماذا بعدها؟ ماذا يريد؟ لكنّني لن أُطلقه له، هذا الفضول. إنها جلسة مساومات، سنتبادل أشياء قريبًا. إنّها التي لا تتردّد من تضيع[100]. لن أهبَ شيئًا دون مقابل: أبيع وحسب.

"أودُّ..." يقول، "سيبدو الأمر سخيفًا". ثمّ تبدو عليه البلاهة، ما أرخص هذه الكلمة الأخيرة، لقد بات يبدو كما كان الرّجال يبدون سابقًا. بلغت سنوات عمره حدًّا يتذكّر عنده كيف يرتسم على ذلك النحو، وتذكّر كيف أرْضى ذلك التعبير النساء فيما مضى. أمَّا فتيان جلعاد فلا يعرفون تلك الحيل. فلم يُضطرّوا مرّة لاستخدامها.

"أريد أن تلعبي معي الأحرف اللوحيّة[101]" يقول.

أتمالك نفسي مُتجمّدة. لا يند عن وجهي أقلّ تعبير. ذلك إذن ما هو مخبّأ في الغرفة المحرّمة! أحرف لوحيّة! أريد أن أضحك، أزْعَقُ ضحكًا حتى أسقط عن المقعد وأستلقي على قفاي. تلك كانت لعبة العجائز، والمسنّين، خلال مواسم الصيف في بيوت التقاعد، يلعبونها حين لا يعود من شيء يُثيرهم على شاشة التلفاز. لَعِبها أيضًا المراهقون، مرّة، في أيّام غابرة. كان لوالدتي واحدة منها، موضوعة في آخر خزانة غرفة المعيشة، جوار زينة شجرة الميلاد في صناديقها الورقيّة. حاولَت مرّة أن تُثير اهتمامي للعبها، عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري وتافهةً ودون شخصيّة.

الأمر مختلف الآن حتمًا. فهذه اللعبة محرّمة، علينا. تُعتبر الآن خطرة، ومبتذلة، فهو لا يستطيع مشاركتها زوجته. ولذا باتت مرغوبة. إنّه يكشف لي عن مساوئه، كأنه يقدّم لي مخدِّرات.

"ليكُن" أقول له، كأنّ سيّان عندي لعبتها أم لا. الحقيقة هي أنني بالكاد أنبس حرفًا.

لا يُفصِح لمَ يريد أن يلعب الأحرف اللوحيّة معي، ولا أسأله. بل يكتفي بإخراج صندوق من دُرج مكتبه، ويفتحه. وها هي، قِطَع مربّعات الأحرف الخشبيّة اللّدنة،

ولوح اللّعب المُقسّم إلى مربّعات بالحجم نفسه، ومُثَبِّتات المربّعات. يكُبّ القِطَع على الطاولة، ويشرع في قلبها على وجهها. وبعد لحظة أنضمّ إليه.

"هل تعرفين كيف تلعبين؟" يقول.

أومئ برأسي مُجيبة.

لعبنا دورَتين. «حنجرة» أتهجّى. «بُردة». «سفرجل». «بُوَيْضة». أمسك القِطَع اللامعة ذات الأطراف الناعمة، أُنَقّرها بأصابعي. يا للشعور الشّبقيّ. هذه هي الحريّة، لمحة عيْن منها. "رخو" أتهجّى. "بُلعوم". يا له من ترف. القِطَع تُشبه حلويات بنكهة النعناع، وهي باردة مثلها. كانت تُسمّى حلويات مَصّ. أودّ وضعها في فمي. سأذوق فيها أيضًا طعمَ ليمون. الحرف "ل"، لاذع؛ مذَاقٌ حمضيّ في اللسان، لذيذ.

ربحت الدّورة الأولى. ثمّ تركته يربح الثانية. فلم أكن أعرف بعد الشروط التي وضعها. لم أعرف ما أستطيع المطالبة به مقابل هذا.

وأخيرًا يخبرني أنّه حان وقت عودتي إلى بيتي. هذه هي الكلمات التي يستخدمها: اذهبي إلى بيتك. يقصد أن أذهب إلى غرفتي. ويسألني هل سأبيت على ما يرام، كما لو أنّ الدّرج شارع خلفيّ مظلم. أقول "أجل". نفتح باب مكتبه، فُتحة ضئيلة، ثمّ نتسقّط أصوات الرّواق.

الأمر أشبه أن تكون في موعد غراميّ، مثل التسلّل عودةً إلى السّكن الطلابيّ بعد ساعات الإغلاق.

هذه مؤامرة.

"شكرًا لك" يقول لي، "لِلَعبك معي". ثمّ يُضيف "أريدك أن تقبليني".

أتخيّل كيف أخلع غطاء خزّان مياه المرحاض، في حمّامي الخاصّ، أثناء استحمامٍ ليليّ، بسرعة وهدوء، دون أن تنتبه إليّ كورا الجالسة في الخارج. أستطيع استلال عمود الحديد الداخليّ الموصول بالمقبض الخارجيّ، أُخفيه داخل كُمّي، وأهرّبه إلى غرفة الرئيس في المرّة القادمة، لأنه بعد طَلَبٍ مثل ذاك فإن هناك دائمًا مرّة قادمة، سواء قلت نعم أم لا. أتخيّل كيف أقترب منه لتقبيله هنا، في خلوتنا، وأخلع عنه

معطفه كما لـو كنت أسمح له أو أدعـوه لأفعـالٍ أخـرى، لممارسـة الحُبّ، أضمّه بين ذراعيّ ثم أستلّ العمود من كُمّي وأقـود طرفَه المُدبّب إلى داخل جسـده فجأة، بين ضلوعه. وأتخيل انفجار الدماء منه، سـاخنة مثل حسـاء، شهوانيّة، على يدَيّ.

الحقيقة هي أنني لا أتخيّل شيئًا كذلك. لقد أقحمتها في مسـيرة الأحداث لاحقًا، عُنوَة. ربما كان ينبغي عليّ أن أتخيّل كذلك وقتَ وقـوع الحدَث المعنيّ، لكنني لم أفعل. فحكايتي هذه، كما قلت سابقًا، إعادة بناء.

"ليكُن" أقـول لـه. أقترب منه وأضع شـفتيّ، مزمومتين، على شـفتيه. أشمّ عطر حلاقة الذّقن، وخيطًا واهنًا من رائحة كرات العثّ، وهي مألوفة لي. لكنه بدا شخصًا آخر ألتقيه أوّل مرّة.

يتراجع بعيدًا، وينظر إلى أسفل، نحوي. وها هي الابتسامة مجدّدًا، تلك البلهاء، يا للصراحة. "ليس على ذلك النحو" يُعقّب، "بل كأنّك تعنينها".

بدا الحُزن عليه.

ذلك، أيضًا، إعادة بناء.

XI

ليل

أعود، عبر الرّواق المعتم والدّرج ذي الدرجات الكتيمة التي لا تردّد الخطو، مُتسلّلة إلى غرفتي. وهناك أجلس على المقعد، في الظلام، بردائي الأحمر، مُنحنية ومزرّرة القميص. لا تستطيع التفكير بوضوح إلّا إذا كنت مرتديًا ملابسك.
ما أحتاجه هو اتّخاذ زاوية للنّظَر؛ هو وهْم العُمق، البُعد الثالث الذي يعزّزه وجود إطارٍ ما لكي ترى؛ هو ترتيب أشكال مختلفة على سطح مستو كي تظهر بأبعادها كلّها. زاوية النّظر مهمّة، وإلّا لما بقيَ هناك سوى بُعْدَين؛ وإلّا سوف تعيش بوجهٍ مسحوق إلى جدار، فكلّ ما تراه هو واجهات أماميّة ضخمة، البُعد الأماميّ، من تفاصيل دقيقة ولقطات قريبة جدًّا: شَعر، طيّة ملاءة، جزيئات وجه: بشرتك أشبه بخريطة، رسم بيانيّ للعبث، تتقاطع فيها طُرُق لا تقود إلى مكان؛ وإلاّ فسوف تعيش اللحظة الراهنة، ولست راغبة في العيش فيها.
لكن الرّاهن هو حيث أنا، لا أستطيع الفرار منه. الزمن مصيدة، وأنا واقعة فيها. يجب أن أنسى اسمي السرّي وكل الطُّرُق الماضية. اسمي الآن هو أوفرِد، وأعيش هنا.
عِشْ الرّاهن، استنفد إمكانيّاته إلى أقصاه، فهو كلّ ما تملك.
حانت ساعة تقييم الموقف.
عمري الآن ثلاثةٌ وثلاثون عامًا. شعري بُنّي. طولي مئة وأربعة وسبعون سنتيمترًا دون حذاء. أعاني مشكلة في تذكّر كيف كنت أبدو سابقًا. أحمل مبايض حيويّة. وأمامي فُرصة أخيرة لأحمل.
لكن شيئا تغيّر، الآن، الليلة. الظروف تبدّلت.
أستطيع أن أطلب أمْرًا ما، ليس بالشيء الكبير ربما، لكنه شيء على الأقل.
"الرّجال آلاتٌ جنسيّة" قالت الخالة ليديا، "لا شيء أكثر. طموحهم ينصبّ في الوصول إلى شيء واحد. ولذا ينبغي أن تتعلّمن كيف تتلاعبن بهم، لمصلحتكن.

ينبغي عليكن اقتيادهم من أنوفهم. هذا تعبير مجازي. لكنّه مجرى الطبيعة. لكنّها آلاتُ الرّب. الأشياء لِمَا خُلقَت له".
لم تقُل الخالة ليديا هذا الكلام حرفيًّا، لكنّه مُوحًى به في كلّ ما قالته، يحلّق فوق رأسها كما تحلّق الهالات الذهبيّة فوق رؤوس القديسين، في العصور السالفة المُظلمة. ومثلهم أيضًا، ناتئة العظام دون لحم.
لكن كيف أعلّق الرئيس بذاك الأسلوب؟ وهو في مكتبه، مع أحرف اللوحيّة، ورغباته، في ماذا؟ أن يُلعَب معه، أن يُقَبّل، قُبلةً كما لو كنت أعنيها؟
أُدرك وجوب أنْ آخذها على محمل الجدّ، رغبته تلك. فقد تكون مهمّة، قد تكون جواز سفري، أو سقوطي المروّع. لا بدّ أن أغدو جادّة بشأنها، أن أقلّبها بالتفكير. لكن أيًّا كان ما سأُقْدم عليه، في جلوسي هنا في الظلام، فيما الأضواء الكاشفة تضيء مستطيل نافذتي من الخارج وتنفذ خلال الستائر المضبّبة كفستان عروس، كما الهيولى، بينما كفّاي تتقابض بعضها ببعض وجسدي يتأرجح على المقعد للأمام والخلف، أيًّا كان ما سأُقْدم عليه، فإنّ ما حدث الليلة يحمل من الجديّة ما يحمله من الهَزْل والسّرور العارم.
أرادني أن ألعب معه الأحرف اللوحيّة، وأن أقبّله كما لو كنت أعني ذلك.
إنّه أكثر المواقف شذوذًا ممّا تعرّضتُ له خلال حياتي، قاطبة.
لكنّ أهميّته تنبُع من سِياقه، فالسّياق هو المهمّ.

أتذكّر برنامجًا تلفازيًّا شاهدته مرّة، إعادة بثّ، فقد أُنتج وعُرض قبل سنوات طويلة. عمري آنئذ بلغ سبع سنوات أو ثمان، أصغر من أن أفهم البرنامج. إنّه من النوع الذي تفضّله أمّي: تاريخيّ تعليميّ. حاولَت أن تشرح لي لاحقًا أن ما يعرضه البرنامج من أحداث قد وقعَت فعلًا. لكنّها بالنسبة إليّ مجرّد قصة. ظننْتُ أنها من صُنع أحدٍ ما. الأطفال جميعهم يظنّون ذلك أيضًا إذا كانت الوقائع قد جرَت قبلهم. إذ لو صارت مجرّد قصّة، فستغدو أقلّ رُعبًا.
البرنامج وثائقيّ عن حرب ما. عرضوا بعض اللقاءات مع النّاس ولقطات من

أفلام ذلك الوقت، بالأبيض والأسود، وصورًا ثابتة. لا أتذكّر كثيرًا عن البرنامج، لكنّي أتذكر جودة الصّور تلك، وكيف أنّ كلّ شيء فيها بدا كأنّه مغلّف بمزيج من ضوء الشمس والتراب، كيف كانت الظلال قاتمة تحت حواجب الناس وعظام وجناتهم.

لقاءات الناس الذين كانوا على قيد الحياة وقتئذ عُرضَت ملوّنة. واللقاء الذي أتذكّره جيًّدا أُجريَ مع امرأة هي عشيقة مُشرِف مخيّم احتجزوا فيه يهودًا قبل قتلهم. "في أفران" قالت أمّي. لكن لم تُعرَض أيّ صور عن تلك الأفران، لذا تشكّلت عندي فكرة مشوّشة أنّ ذلك القتل حدث في مطابخ. وتلك فكرة مُرعبة خصوصًا في رأس طفلة. فالأفران تعني الطهو، والطهو يجري قبل تناول الطعام. ولذلك اعتقدت أن أولئك الناس قد أُكلوا. وهو ما أعتقد، بشكل ما، أنّه حدث لهم.

من خلال ما قالوه، نعرف أنّ ذاك الرّجُل المُشرف على المخيّم كان متوحّشًا قاسيًا. أمّا عشيقته – شرحت لي أمي معنى «عشيقة»؛ فلم تكن تؤمن بالتّعميم، لقد كان لديّ كتاب تطفر منه أشكال الأعضاء التناسلية عند فتحه، منذ سنّ الرّابعة – عشيقته كانت فيما مضى جميلة. عُرضَت صورة لها بالأبيض والأسود مع امرأة أخرى، بملابس سباحة من قطعتين، وحذاء بلاتفورم، وقبعة التّصوير ذات الورود والحواف العريضة، ونظارة شمسيّة بعدسات تشبه عيون القطط، تجلسان على كرسيَّي استلقاء عند بركة سباحة جوار بيتها الذي كان قريبًا من مخيّم الأفران. قالت إنها لم تلاحظ أمورًا مُريبة كثيرة. وأنكرت معرفتها بشأن الأفران.

وقت اللقاء، بعد مرور أحداث الأفران بأربعين عامًا أو خمسين، كانت العشيقة تحتضر بسبب إصابتها بمرض النُّفاخ الرئويّ، تسْعُل كثيرًا وجسدها نحيلة للغاية، عجفاء. لكنها رغم ذلك مهتمّة بمظهرها ("انظُري إليها" قالت أمّي، بقليل من التذمّر والتفهّم معًا، "لا تزال تهتمّ بمظهرها أمام الناس"). وُضعَت عليها المساحيق بأناة، مُجَمّل رموشها كثيف للغاية، وحُمرة عظمتَي وجنتيها بالمثل،

مساحيق تجميل فوق بشرة شُدّت تمامًا كأنّها قفاز مطّاطي مُحْكَم، وارتدت حِلْيَة من لآلئ.
"لم يكن وحشًا" قالت، "الناس يقولون إنه وحش، لكنه لم يكن كذلك".
ما الذي كانت تفكّر فيه؟ لا شيء، أعتقد، لم تفكّر في شيء ساعتئذ، وقت اللقاء. تفكّر ألّا تفكّر. كان عصْرُها عاديًّا. اهتمّت بمظهرها. لم تصدّق أنه كان وحشًا. لم يكن وحشًا بالنسبة إليها، ربما تمتّع بصفات بَديلة حسَنة: يُصفّر أثناء الاستحمام ودون أن يغلق الباب، وتوّاق دومًا لتناول الكمَأ، ويُنادي كلبَه لايبتشن[102]، ودرّبه على الجلوس مُغويًا إيّاه بقطع لحم نيء. ما أسهل اختراع صفة الإنسانيّة لأيّ أحد على الأطلاق. يا للأهواء المُباحة. طفل كبير، ربما قالت ذلك لنفسها. ربما ذاب قلبها تعاطفًا معه، وربما أزاحت الشعر عن جبهته بيدها في رفق وقبّلت أذنه، لا لمجرّد الحصول على أيّ شيء منه؛ بل هي نزْعَة تلطيف الوضع، جعله يبدو أفضل. «هنا، أنا هنا...» ربما تقول له ذلك عند فزعه من كابوس، «يا للأمور الصّعبة التي تنوء بها». ربما آمنت بكلّ ذلك، وإلّا كيف كان لتُمضي حياتها؟ لقد بدَت امرأة عاديّة، في جمالها ذاك. آمَنَت بالشّرَف، كانت دمثة مع خادمتها اليهوديّة، بما يكفي، أو أكثر دماثة مما ينبغي عليها.
بعد أيام قليلة على تصوير ذلك اللقاء معها، قتلت نفسها. أعلنوا ذلك في التلفاز.
لم يسألها أحد هل أحبّته أم لا.
ما أتذكّره الآن، أكثر من أي شيء آخر، مساحيق تجميلها.

أنهض في الظلام، أشرع في حلّ أزراري. ثمّ أسمع صوتًا، داخل جسدي. لقد انكسرتُ، انصدعَ شيء ما، لابدّ أن ذلك ما حدث. ضوضاء تتصاعد، خارجة من الصّدع، إلى وجهي. هكذا دون إنذار: لم أكن أفكر في أمور هنا أو هناك أو أي شيء. لو تركتُ للضوضاء الخروج إلى الهواء ستتشكّل في ضحكة مدوية، ممتدّة، وحتمًا سيسمعها شخص ما، ثم سيتتابع وقع أقدام مسرعة وأوامر ومَن يعرف؟ الحكم:

انفعال لا يتلاءم والمناسبة. الرّحم المتنقّل[103]، لطالما اعتقدوا بذلك. هستيريا. ثمّ حُقنة. وقُرص. فقد يكون مَرَضي مُهلكًا.

أكوّر كفّيّ على فمي كأنني على وشك التقيّؤ، ثم أجثو على ركبتي، فيما الضحك يغلي مثل الحمم البركانية داخل حلقي. أحبو إلى داخل الخزانة، ثمّ أجلس ضامّة ركبتيّ إليّ. سوف أختنق بها. آلمتني أضلاعي جرّاء كبحها، أرتعد، أختلج، زلزاليّ، بُركانيّ، على وشك الانفجار. الأحمر يلوّن الخزانة كلّها، إيقاعات بهيجة لولادةٍ ما، أوه، لكنتُ مُتّ ضحكًا.

أكتم ضحكتي بطيّات معطف معلّق، وأُطبقُ عينيّ بشدّة، عينيّ اللتين تنعصر منهما الدموع. حاولي أن تتمالكي نفسك.

بعد وهْلة ترحل الضّحكة مثل نوبة صرَع. ها أنا في الخزانة. «نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم». لا أستطيع رؤيتها في الظلام لكنني أتتبّع الكتابة المحفورة بأطراف أصابعي. كما لو كانت شفرة برايل للاستغاثة. إنها تتصادى داخل رأسي الآن لا كصلاة، بل أوامر؛ لكن للقيام بماذا؟ إنها عديمة النّفع بالنسبة إليّ على أيّ حال، حروفٌ هيروغليفيّة ضاعت مفاتيحها. لمَ كتبتها، لمَ اهتمّت بذلك أصلًا؟ فلا سبيل للخروج من هنا.

أستلقي أرضًا، أتنفس بسرعة، ثمّ أُبطئ، أوازن أنفاسي، كما في تمارين الولادة. كل ما أستطيع سماعه الآن هو وقع قلبي، ينبسط وينقبض، وينبسط وينقبض، وينبسط.

X

لفائف الرّوح

25

أوّل ما طرق أذني صباح اليوم التالي كانت صرخةً وصوت تحطّم أشياء ما. صَحَفة طعام الإفطار هوَت من بين يدَي كورا. أيقظني صوت التحطّم. كان نصف جسدي ما زال في غرفة الخزانة فيما رأسي فوق معطف مكوّم. لابدّ أنني انتزعته من المشجب وخلدتُ إلى النوم هكذا. لم أستطع تذكّر المكان الذي أنا فيه، وبقيتُ هكذا لحظات. وجدتُ كوار جاثيةً جواري. شعرتُ بيدها تلمس ظهْري. وصرخَت مرّة أخرى عندما تحرّكت.

"ما الخطْب؟" قلت لها، وانقلبتُ على ظهري، دافعةً جسدي إلى أعلى.

"أوه،" قالت، "ظننتُ..."

ما الذي ظنّته؟

"كأنّك..." قالت.

البيض مفتّت على الأرض، وانساب عصير البرتقال وانتشرت شظايا زجاج.

"ينبغي أن أعدّ لك فطورًا آخر" قالت، "ذهبَ الأوّل سُدا. ماذا كنت تفعلين على الأرض على ذلك النحو؟" وراحت تجذبني لأنهض مُستعيدة هيئتي المحترمة.

لم أرغب في مصارحتها أنني لم أكن في السّرير أصلًا. فلا سبيل لشرح ذلك. قلتُ لها إنني حتمًا تعرّضتُ للإغماء. وهذا سبب أسوأ، فقد تشبّثَت به.

"إنها إحدى العلامات الأولى..." قالت، مسرورة، "الإغماء وكذلك التقيّؤ". كان ينبغي لها أن تُدرك أنّه لم يمضِ وقت كافٍ ليحدث ذلك، لكنّ أمَلها غلبها.

"لا، ليس ذلك" قُلت، جالسةً على المقعد. "أنا واثقة أنه ليس ذلك. شعرتُ بدوار. ثمّ وقفتُ هنا وأظلمت الدنيا".

"لابدّ أنّه تعب" قالت، " تعب الأمس وكل ما جرى فيه، جسدك يتخلّص منه".

قصَدَت مراسم الولادة، وقلت إنّه كذلك. عندئذ جثَت أرضًا تلتقط شظايا الزجاج وتلمّ فتات البيض، ترفعها إلى الصّحَفة. وجفّفت بعض عصير البرتقال

بمناديل ورقيّة.
"سأضطرّ إلى إحضار خِرقة للتنظيف" قالت، "ولسوف يتساءلون لمَ البيض الإضافي، إلّا إذا عفتِ الإفطار كلّه" ونظرَت إلى أعلى نحوي نظرة جانبيّة، بخُبث. فارتأيتُ أنه من الأفضل لكلينا أن ندعّي تناولي البيض. فلو قالت إنّها وجدتني على الأرض، لتعرّضت لمُساءلة طويلة. كما أنها ستُطالَب بتبرير الكأس المكسورة على أيّ حال، لكن ريتا ستتأكّد تمامًا ما إذا كان يجب عليها طهو بيضة أخرى أم لا.
"لا أريد إفطارًا" قلتُ، "لستُ جائعة جدًّا". هذا حسَن، فهو يلائم شعوري المفترَض بعد الإغماء. "لكن يمكنني تناول رغيف محمّص" قلتُ، لم أرغب في التخلّي عن الإفطار تمامًا.
"لكنّ الرغيف كان على الأرض" قالت.
"لا يهمّ" قلتُ. وجلستُ هنالك أتناول رغيفًا محمّصًا بُنيًّا، فيما هي ذهبت إلى الحمّام، وأجرت ماء المرحاض على ملء كفّها فُتات بيض لم تتمكّن من إنابته! وعادت.
"سأقول إنّني أسقطت الصّحَفة عندما تناولتها منكِ بعد فراغَك" قالت.
سرّني أنها مستعدّة للكذب في صالحي، حتى لو في أمر بسيط كهذا، وحتى لو الكذب يصبّ في مصلحتها أيضًا. الكذب صار رابطًا جمعنا.
"آمل أنّ أحدًا لم يسمع ما حدث" ابتسمتُ قائلة لها.
"لقد دارَ رأسي" قالت وهي واقفة عند الباب وفي يدها الصّحَفة. "في البدء ظننْتُ أنها ثيابك متكوّمة على الأرض. ثمّ قلت لنفسي ما الذي تفعله ملابسك على الأرض؟ ظنّنت أنّك ربما..."
"هربت؟" قلت.
"أجل، لكن، لكنّك كنت فيها، هناك" قالت.
"أجل" قلتُ، "كنتُ فيها".
وانصرفت بالصّحَفة، ثمّ عادت ومعها خرقة تجفّف بها بقيّة عصير البرتقال. وأطلقت ريتا ذلك النهار تعليقات متبرّمة عن أناسٍ شاردين. "تزدحم أذهانهم

بالأفكار ولا ينظُرون حيث يخطُون" قالت، ثمّ واصلنا يومنا كأنّ شيئا لم يحدث.

حدث ذلك في شهر مايو. الرّبيع الآن انقضى. عاشت الزنابق لحظتها وانتهت، وراحت تطرح عنها بتلاتها واحدة تلو أخرى، مثل أسنان نَخِرَة. عثرتُ على سيرينا جوي مرّة، جاثية فوق وسادة في الحديقة، وعكّازها مُلقىً جوارها على العشب، تقصّ مبايض الأزهار من أجل البذار. رمقتها شزْرًا أثناء تجاوُزها حاملةً سلّتي المليئة بالبرتقال وشرائح لحوم الحِملان. كانت تُصوّب نصْلَي المقصّ، تضعهما في مكانهما الصّحيح، ثمّ تقصّ بيدين متشنّجتين. هل سبب ذلك أنّ التهاب المفاصل راح يجتاحها؟ أم أنّه هجوم كاميكازي[104]، بيلتزكريغي[105]، على أعضاء الأزهار التناسلية المنتفخة؟ على الجسد المُثمِر. فقَصّ مبايض الأزهار يُعين بُصيلاتها على حفظ طاقتها.

القديسة سيرينا، جاثية، تكفّر عن خطاياها.

كثيرا ما كنت أستأنس مع نفسي بخيالات هازئة كتلك، نكات ذهنيّة وقحة مريرة عنها، لكن لا أُطيل ذلك؛ فلا يبعث على الاسترخاء، النّظر إلى سيرينا جوي، من الخلف.

ما أهلك للحصول عليه، هو المقصّ.

حسنٌ. ثمّ نبتت عندنا السّواسن، تتباسَق جميلة حسَنَة القوام وذات سويقات طويلة، وبدَت في تناثرها هنا وهناك مثل زجاجة قد تشظّت، مثل ألوان مائيّة جُمّدَت مؤقّتًا أثناء ترْشاشها: أزرق فاتح، وبنفسجيّ زاهٍ، وغمقاواهما، ومخمليّات وأرجوانيّات، ولها شكل أذُنَي قطّة سوداء في الشّمس بظلال زرقاء نيليّة، وقُلوب مُدماة، أشكال أنثويّة من المُدهش أنّها لم تُقطَف إلّا مؤخّرًا. رغم ذلك، فإن حديقة سيرينا جوي هذه تبعث على شعور بالدّمار، شعور بأن ثمّة دفائن تحاول البزوغ فوق الأرض، دون كلمات، إلى الضوء، كأنّها فقط تُشير، تقول: كلّ كلام مكبوت سوف يصْخَب كي يُسمَع، لكن في صمت. أشبه بحديقة تنيسون[106]،

مثقلة بالأريج. أقولُ كلمة: خاملة، عائدةً عن قول كلمة: إغماء. تنسكب أشعّة الشّمس عليها وتتخلّلها، أشعّة ملآنة، لكنّها ترفع الحرارة أيضًا، من الأزهار نفسها، تشعر بها: كأن تُثبّت يدك قريبةً جدًّا من ذراع أحدٍ ما، أو كتفه. إنها تتنفّس، في الدفء، تتنفّس أنفاسها. العُبور خلالها هذه الأيام، خلال زهور الفاوانيا، خلال الورديّات والقرنفليّات، يُدير رأسي.

الصّفصاف في أوْج تفتّحه، لكنّه لا يساعد في تخفيف الحرارة، مع همساته المتسلّلة، كأنّه يهسهس: أسرار أسرار؛ كأنّه يهسهس: لمسة لمسة[107]. هذا الصّفيُر الهامسُ يدبّ صاعدًا عمودي الفقري، فأرتعش كأنّني محمومة. حفيفٌ يعلو من بين لحم فخذيّ إثر احتكاك ردائي الصّيفي بهما، ينمو العشب تحت أقدامي، وهناك تحرّكات حول مجال رؤيتي، أطرافِ عينَي، في الأغصان: رِيش، رفرفة، وُريقات تتكلّم، شجرة تهفو إلى طائر. مجازاتٌ طليقة في العراء. ظهور إلاهات الجمال واردٌ الآن، والهواء يحتشد بالرغبة. حتى طُوب البيت راح يلين، ينتظرُ أن يُلمَس. لو استندتُ إليه لزادت حرارته وصار مطواعًا بين يديّ. مُدهشٌ ما يؤدي إليه إنكار الرغبات الذاتيّة. هل رؤيته كاحلي أخفَّ عقله أو أغماه، أمس عند نقطة التفتيش، حين سقط منّي تصريحي وتركته يلتقطه لي؟ لا منديل عندي ولا مروحة لإيقاظه، سوى ما كان في متناول اليد.

ليس الشتاء خطيرًا للغاية. أحتاج الصّلابة، البرد، التماسك، لا هذا الثِّقَل من الحرارة، كأنّني ساقٌ ضعيفة برأس بطيخة، بل نُضج السّائلِ حتى الخشونة.

بين الرئيس وبيني اتفاق. ليس كأنّه لم يتكرّر في التاريخ قط، لكنّه اتّخذ شكلًا غير معتاد.

أزور الرئيس ليلتين كلّ أسبوع، أحيانًا ثلاثة، ودائمًا بعد العشاء، لكن فقط حين تأتيني الإشارة. الإشارة هي نِك. فإذا كان يلمّع السيارة أثناء خروجي للتبضّع، أو حين عودتي، ووجدت قُبّعته مائلة أو أنّه لا يعتمرها، إذن أذهب الليلة إليه. أمّا إذا لم أجده يعمل، أو رأيت قبّعته مستوية على رأسه، فإذن أبقى في غرفتي كالمعتاد.

أمّا ليلة الطّقس، فلقاؤنا محتوم رسميًّا، ولا حاجة بنا إلى تلك الإشارة.
الصّعوبة تكمن في تواجد الزّوجة ليلة تلقّي الإشارة، كما هو الحال في كلّ زمَن. فبعد العشاء تذهب إلى غرفة نومها، حيث من المُمكن سماعي أنسلّ عبر الرّواق، رغم حرصي الشّديد على الهدوء. أو أنّها تمكث في غرفة الجلوس، مُنهمكة في حياكة أوشحة لا تنتهي للملائكة، فاردةً أمتارًا أكثر فأكثر لأشكال آدميّة من الصّوف متشابكة دون نفع: تصوّرها عن التكاثُر، حتمًا. يُترَك باب غرفة الجلوس مواربًا عندما تكون هناك، ولذا لا أجرؤ على العبور جواره. عندما أرى الإشارة ولا ألتزم بالاتفاق، حين لا أستطيع نزول الدّرج في أمان أو عبور الرّواق متجاوزة غرفة الجلوس، فإنّ الرّئيس يتفهّم ذلك. إنّه يعرف وضعي، الأكثر فهمًا له. ويعرف القوانين كلّها.
رغم ذلك، فإن سيرينا جوي تخرج أحيانًا، تزور بيت زوجة رئيس آخر، زوجة مريضة؛ فبيت المريضة هو المكان الوحيد الذي يُمكنها الخروج إليه، وحدها، مساءً. تأخذ معها بعض الطعام: كعكة، أو فطيرة، أو رغيفًا خبزَته ريتا، أو جرّة حلوى هُلاميّة طُهيَت من وُريقات نعناع حديقتها. يمرضون كثيرًا، زوجات الرؤساء. يُضفي ذلك إلى حياتهم بعض الأهميّة. أمّا نحن، الجاريات، وحتى المَرْثيّات، فإننا نتجنّب المرض. لا تُريد المَرْثيّات أن يُجبَرن على التقاعد، فمن يعرف أين يؤخذنَ حينها؟ فأنت لم تعُد ترى ذلك العدد المهول من العجائز حولك كما في الأيّام السالفة. أمّا بالنسبة إلينا، نحن الجاريّات، فإن كلّ مرض حقيقي، وأيّ تباطؤ، أو وَهن، أو فقدان وزن أو شهيّة طعام، أو تساقط شعر، أو فشل في وظائف الغدد، فإنّه يؤدّي إلى إلغاء خدماتنا. أتذكر كورا، في وقت مبكر من الربيع، تؤدّي أعمالها مترنّحة هنا وهناك، رغم إصابتها بالإنفلونزا، وكانت تتشبّث بأُطُر الأبواب حين تظنّ أن أحدًا لا يراها، وتحرص على كتم سعالها. "بردٌ خفيف" قالت عندما سألتها سيرينا جوي.
سيرينا تُعفي نفسها أحيانًا من واجباتها بضعة أيّام، وتلزَم سريرها ملتحفة. حينها هي من تزورها الزّوجات للرّفقة. حفيفهنّ صاعدات الدرج، باشّاتٍ مبتهجات. هي

من يحصل الآن على الكعك، والفطائر، والحلوى الهلاميّة، وباقات ورد حدائقهن. إنّهن يتناوَبن ذلك، كأن هناك قائمة يتّبعنها، خفيّة، ولا يُفصَح عنها. تحرص كلّ واحدة منهن ألاّ تستأثر بأكثر من نصيبها من الاهتمام.
المساءات التي ينبغي على سيرينا الخروج فيها، فإنّ استدعائي خلالها محتوم.

ارتبكتُ أوّل الأمر. حملَت مطالبه معاني مُضمرة كثيرة، وما استطعت فهمه منها بدت لي سخيفة ومدعاة للضّحك، كأنْ تسعى إلى نَيل تعويذة من أجل أن تعقد رباط حذاءك بشكل جيّد!
خابَ أملي أيضًا، كثيرًا. فما الذي كنت أتخيّله سيحدث خلف ذلك الباب الموصَد، أوّل الأمر؟ أمرٌ لا يُقال، أن أجثو على أربع، سلوكيّات انحراف جنسيّ ما، سِياط، تشويه؟ على الأقل بعض التعديلات على الحياة الجنسيّة الحاليّة، نزوات عتيقة باتت ممنوعة عليه، حرّمها القانون، وعقوبتها الإنابة. لكنّه سألني أن ألعب معه الأحرَف اللوحيّة، كما لو كُنّا زوجين أمضيا سنوات طويلة معًا، أو كأنّنا طفلان. بدا طلبًا في غاية الغرابة، بدا انتهاكًا أيضًا للعالم الذي يأتي منه. طلبٌ أكْمَد لا يُرى من خلاله شيء.
هكذا، عندما غادرتُ مكتبه، لم تزل الأمور غامضة في ذهني، فلم أعرف ماذا يريد، ولماذا يريده، أو ما إذا كنت سأتمكن من تحقيق الذي يريد. وإذا كان ما يريده يستدعي عقدَ صفقة ما، فإن شروط التبادل ينبغي أن تُحدّد فورًا. وهذا ما لم يفعله. اعتقدتُ أنه يلهو ويعبث من أجل اللهو، كالعبث المتكرر بين قطة وبين فأر، لكنني الآن أعتقد أن دوافعه ورغباته لم تكن واضحة حتى بالنسبة إلى نفسه. فهي لم تكن قد وصلت بعد إلى مستوى الكلمات.
مساؤنا الثاني معًا جرى كما الأوّل. تسلّلتُ لأقف عند بابه، وجدته مغلقًا، طرقتُ، ثمّ طُلب مني الدخول. وأعقب ذلك دورتان من اللعب، نفسهما، بقطع الأحرف الملساء الصّفراء: مُسْهِب؛ مَرْو؛ مَأْزِق؛ حُوْر؛ نَظْم. الحِيَل القديمة كلّها، حِيَل الحروف السّاكنة، ما تذكّرته منها وما تخيّلته، طبّقتها. أثْقَل لساني جهد تهجّيها.

كأنني أستخدم لغة عرفتُها يومًا لكنني نسيتها تقريبًا، لغة لها علاقة بعادات اندثرت من العالم منذ زمن: كوفي لاتَيه، على طاولة خارجية، مع رغيف بريوش الفرنسيّ، وشرابَ أفسَنتين باليانسون في كأس طويلة العُنُق؛ أو رُبيان في كُوْزٍ من ورق جرائد؛ أشياء قرأت عنها ولم أرها قط. بدا الأمر مثل محاولة المشي دون عكازين، أو أشبه بتلك المشاهد المتصنّعة في أفلام التليفزيون القديمة. «يمكنك فعل ذلك. أعرف أنّك تقدرين» كذا يقول لي عقلي، مترنّحًا في عبوره بين أحرف الرّاء والميم السّاكنات، منزلقًا فوق الأحرف ذوات الدوائر كأنّها حصى ملساء.

كان الرئيس صبورًا حين أتردّد، أو أسأله عن التهجئة الصّحيح لكلمة ما. "نستطيع دومًا اللجوء إلى القاموس" يقول. "نستطيع" قال، معًا. في دورة اللعب الأولى، لاحظت أنّه تركني أفوز.

توقّعت أن تسير الأمور، ذلك المساء، كما سبق، مع قُبلة النوم. لكننا عندما أنهينا دورة اللعب الثانية، عاد بظهره إلى الوراء في الكرسيّ، وأقام مرْفقَيه على ذراعَي الكرسيّ، ورؤوس أصابع كفّه اليُمنى تُلامس ما يقابلها في كفّه الأخرى، وراح ينظر إليّ.

"عندي ما أقدّمه لك، صغير" قال.

بقيَ مبتسمًا وهلة، ثمّ فتح دُرْج مكتبه العلويّ وأخرج شيئًا. ظلّ ممسكًا به لحظات، باعتياديّة، بين إصبع وإبهام، كأنّه لم يقرّر بعد هل يقدّمه إليّ أم لا. ورغم أنّه أمسك ذلك الشيء مقلوبًا، من مكاني، فإنني ميّزته. إنّه من أكثر الأشياء رواجًا ذات يوم. مجلّة. مجلّة نسائيّة كما هو واضح من صورة الغلاف الصّقيل: عارِضة أزياء، شعر متطاير، رقبة لُفّت بوشاح، شفاه حمراء. إنها أزياء الخريف. ظننت أن تلك المجلات قد أُتلفت تمامًا، لكن ها هي نسخة منها، تُركت في دُرج مكتب رئيس، المكان الذي لن تتوقّع أبدًا أن تجد فيه شيئًا كذلك. نظر إلى أسفل، نحو عارضة الأزياء التي بدت مقلوبة من جهتي. ما زال مبتسمًا، ابتسامة حُزنه المتلهّف تلك. نظرته هي نفسها التي ستنظر بها إلى حيوان على وشك الانقراض في حديقة حيوان.

يحملق في المجلة فيما هو يؤرجحها أمامي مثل طُعم السمك. أردتُها. أردتُها بقوّة آلَمت أطراف أصابعي. في الوقت نفسه وجدتُ أن هذا الشّوق العارم مبتذل وسخيف، فقد سبق لي أن نظرت في استخفاف إلى مثل تلك المجلات ذات يوم. قرأتها فقط في عيادات أطباء الأسنان، وأحياناً في الطائرات، واشتريتها لآخذها معي إلى غرف الفنادق، مجرّد وسيلة لملء فراغ الوقت حتى يصل لوقا. وبعد تصفّحها كنت أتخلّص منها إلى الأبد، وبعد يوم أو يومين لن أتذكّر أبدًا ما الذي حوَته.

لكنّني أتذكّر الآن. إنّ كلّ ما حوَته هو الوعد. إنّ كلّ ما تناولوه هو التغيير، سلسلة لا نهائية من الاحتمالات المتّسعة أبدًا مثل صورة تتعاكس في مرآتين مُتناظرَتين، تتمدّد، نسخة طبق الأصل بعد أخرى وبعد أخرى حتى نقطة التلاشي. أوْحوا بمغامرات، مغامرة تلو أخرى؛ ثياب تملأ الخزانات، خزانة تلو أخرى؛ تحسينٌ تلو آخر؛ تحضُّر إنسانيّ تلو آخر. أوحوا بالتشبُّبْ، بالتغلّب على الألم، والحُبّ السّامي الأبديّ. وعدهم الحقيقيّ هو لا نهائيّة كل شيء.

ذاك ما كان يمسكه دون أن يدري. راح يتصفح المجلة عابثًا. لم أنتبه إلى نفسي عندما مِلْتُ إلى الأمام.

"إنها مجلة قديمة" قال، "مجرّد تحفة للزينة بطريقة ما. تعود إلى السبعينيّات كما أظن. مجرد موضة شائعة في ذلك الوقت. عددٌ من مجلّة فوغ[108]. إنّه اسم ربما اقترحه ذوّاقة نبيذ. ظننتُ أنك قد تودين تصفّحها".

أنكمش عائدة في الكرسيّ. ربما أراد اختباري، ليرَ كم بلغت من العُمق تلك المعتقدات التي لقّنوني إيّاها. "ليس مسموحًا بذلك" قلتُ.

"هنا، مسموحٌ بها" قال في هدوء. وإنني أرى ما يرمي إليه. فإذا كنت قد حطّمتُ أكبر المحرّمات حُرمة، فلِمَ أتردّد في تحطيم محرَّم آخر، أدنى منه؟ أو آخر، وآخر، مَن يستطيع القول أين سيقف الأمر؟ فخلف هذا الباب، تتحلّل المحرّمات.

أخذتُ المجلة منه وأدرتها يمينًا إلى وضعها الصّحيح. وها هي مجدّدًا، صور طفولتي: جريئة، مُجتاحة، واثقة، أيادٍ مُلقاة في الهواء كأنّها تدّعي امتلاك الفضاء،

والسّيقان منفرجة، والأقدام راسخة على الأرض. كان هناك شيء نهضَويّ في وقْفَة العارِضة، لكنّ صور أُمَراء الجمال هي ما أمعنتُ النّظر إليها، لا العذارى بشعورهن المصفوفة المعقّصة. تلك العيون الجريئة، المظلّلة بالمساحيق، أجل، لكن كما عيون القطط، مثبّتة على ما ستنقضّ عليه، لا تردّد فيها، ولا توقَ أيضًا؛ ليس في تلك الحرملة بصوفها البارد الخشن، ولا الحذاء طويل العنق حتى الرّكبة. إنّهن قرصانات، تلكم النسوة، بحقائب أيديهن الأنيقة من أجل الاقتناص، وأسنانهنّ الأشبه بأسنان حصان، متملّكة.

شعرتُ بالرئيس يراقبني بينما أتصفح المجلة. أدرك أنني أفعل أمرًا ما كان ينبغي عليّ فعله. وأنّ رؤيتي كذلك أسعدته. شعرتُ ولابدّ أنّني شرّيرة. تحت ضوء الخالة ليديا، أنا شرّيرة. لكنني لم أشعر بذلك، بل شعرت أنني بطاقة بريد تحمل صورة لتنزّه الناس جوار البحر في العهد الإدواردي. شقيّة. وماذا كان سيعطيني بعدها، مشدّ خصر[109]؟

"لمَ تحتفظ بها؟" قلتُ.

"بعضنا" قال، "ما زال يحمل تقديرًا للأشياء القديمة".

"لكن من المفترض أنّ هذه وغيرها قد أُحرقَت" قلتُ، "أتذكّر دورية التفتيش التي دارت بيتًا بيتًا، أتذكّر الحرائق في الهواء الطّلق..."

"ما هو خطير في أيدي العامّة" قال، "هو ليس كذلك في أيدي أولئك الذين يحملون غايات..."

"لا تُزْرى..." قلتُ.

أومأ برأسه في رزانة. تستحيل معرفة هل كان يعني ما قُلتُه أم لا.

"لكن لمَ تعرضها عليّ؟" قلتُ، وعندئذ شعرت أنني غبية. فماذا يمكنه أن يقول؟ هل سيقول إنه يُسلّي نفسه، على حسابي؟ إنّه يعرف تمامًا كم لابدّ أن يؤلمني، للغاية، تذكيري بالأوقات السّالفة.

لم أكن مستعدة لجوابه عليّ فعلًا. "ومَن عساني أريها غيرك؟" وبزغ مجدّدًا، حُزنه ذاك.

هل عليّ الذّهاب إلى أبعد؟ فكّرتُ. لا أريد الضّغط عليه أكثر، أسرع، فأنا مُدركة أنني قد أُصْرَف أيّ لحظة. مع ذلك قلت له بنعومة "وماذا عن زوجتك؟"
بدا أنه يتأمّل ذلك قليلًا. "لا" قال، "لن تفهم. وعلى أيّ حال، فهي ما عادت تتحدث إليّ كثيرًا، يبدو أننا لا نتشارك الاهتمامات هذه الأيام".
إذن ها هو الأمر، صريحًا في العَلَن: زوجته لا تفهمه.
ذاك ما أنا هنا بسببه، إذن. الحال القديمة نفسها. وجدتُ ذلك تافهًا بما يدعو إلى تكذيبه.

مساءنا الثّالث معًا، طلبتُ منه مرطّب بَشَرة، لليدَين. لم أرغب أن أبدو وكأنّي أرجوه، لكنني رغبتُ فيما يمكنني الحصول عليه.
"مرطّب ماذا؟" قال، بدماثته الأبديّة. كان خلف مكتبه عنّي. ولم نتلامس كثيرًا، ما عدا تلك القبلة الإجباريّة. لا نبْشَ ولا أنفاس عميقة، لا شيء من ذلك. تلك أمور ستكون خارج سياقها لو حدثت، بالنسبة إليه، وإليّ.
"مرطّب بشَرة" قلتُ، "للأيدي أو للوجه. بشَرَتنا تتعرض لجفافٍ قاس". لسبب ما قلت «نا» الجماعة لا «تي» المُفرَد. رغبتُ أيضًا في طلب زيوت استحمام، تلك التي تُعبّأ في كُريّات ملونة صغيرة وفي مُستطاعك الحصول عليها متى أردت. كنت أُسْحَر بها حين أراها في ذلك الوعاء المدوّر الزجاجيّ في حمّام أمي، في بيتنا. لكنني ظننتُه لن يعرف تلك الكُريّات. وربما لم تعُد تُصَنّع على أيّ حال.
"بشرة جافّة؟" قال الرئيس، كأنّ ذلك لم يخطُر له قط. "وماذا تفعلن الآن إزاء ذلك؟"
"نستخدم الزبدة" قلتُ، "عندما نحصل على بعضها. أو الزّبدة المصنّعة. غالبًا هذه الأخيرة".
"زبدة" قال متأمّلًا، "يا للذكاء الحاد. زبدة!" وانفجر ضاحكًا.
كدتُ أصفعه.
"أعتقد أنّه يمكنني الحصول على ذلك" قال، كأنّه يحقّق أمنية طفلة في الحصول

على العِلكة القابلة للنّفخ. "لكنها قد تشتَمّه فيكِ".

أتساءل إذا كان هذا الخوف نابعًا من تجربة سابقة؟ تجربة في ماضٍ بعيد: أحمر شفاه على ياقة قميص؛ عطرٌ في الأكمام؛ مشهد حميم في وقت متأخر من اللّيل في مطبخ أو غرفة نوم. الرّجل الخالي من مثل تلك التجارب لن يفكّر في هذا الأمر أبدًا. إلاّ إذا كان أمْكَرَ ممّا يبدو عليه.

"سأحذر" قلتُ، "ثمّ إنها لا تقترب مني أبدًا".

"لكنها أحيانًا تفعل" قال.

فأخفضتُ عينَيّ. لقد نسيتُ ذلك الأمر. أشعر بالخجل ينتشر فيّ. "لن أستخدمه تلك الليالي" قلتُ.

مساءنا الرّابع معًا، أعطاني مرطّب الأيدي، في علبة بلاستيكيّة لا تحمل أيّ شِعار أو كتابة. لم يكن من نوعٍ جيّد. فيه رائحة زيت خضروات خفيفة، ومرطّب سوسَن الأودية ليس لي. ربما ما جلبه إليّ هو مرهم يُستخدم في المستشفيات، يوضع على القُرُوح. لكنني شكرته على أيّ حال.

"لا مكان عندي لحفظ هذه العُلبة، تلك هي المشكلة" قلتُ.

"في غرفتك" قال، كما لو أنّ الأمر في غاية الوضوح.

"سيعثرون عليه. قد يعثر عليه شخص ما" قلتُ.

"لماذا؟" قال، كأنّه لا يعرف حقًّا. ربما لم يكن يعرف. هذه ليست أوّل مرّة يقدّم فيها دليلا على جهله الحقيقي بالأوضاع التي نعيشها.

"إنّهن يفتّشن" قلتُ، "يفتّشن غرفنا دومًا"

"عمّ يبحثن؟" قال.

أعتقد أنني عندئذ فقدتُ السيطرة على نفسي. "شفرات حلاقة" قلتُ، "كتب، كتابة، أشياء من السّوق السوداء. كلّ ما لا يُفترض به أن يكون معنا. يا ربّي، كان لابدّ أن تعرف ذلك قبل الآن". بدت نبرة الغضب في صوتي أشدّ ممّا أردته، لكنّه لم يجفل حتى.

"إذن عليك أن تُبقيه عندي، هنا" قال.

وذلك ما فعلته.

بينما أمسّد يديّ ووجهي بالمرطّب، راح يتأمّلني بتلك النّظرة إيّاها، كأنّه ينظر من وراء قضبان. أردتُ أن أدير له ظهري كي يمسّده لي - كما قد يحدث لو أنه رافقني أثناء الاستحمام - لكنني لم أجرؤ.

بالنسبة إليه، يجب أن أتذكّر دومًا، أنا مُجرّد نزوة.

عندما حلّت ليلة الطّقس مجدّدًا، بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة، وجدتُ أن الأمور تغيّرت. اجتاحنا حَرَجٌ لم نشعر به سابقًا. كنت أمارس الطّقس كعمل، مهمّة غير ممتعة ينبغي إنجازها في أسرع وقت لكي ننتهي منها. «تصلّبي» اعتادت أمّي القول، قبل دخولي الامتحانات، أو خَوضي مياهًا باردة. لم أفكّر كثيرًا وقتئذ في معنى عبارتها. إنّ فيها ما يتعلّق بالمعادن، بالدّروع، وهذا ما عليّ فعله، وذاك ما سأفعله، سأتصلّب. سأدّعي أنني لستُ هنا، ليس في هذا الجسد.

هذه الحالة من الغياب، من الوجود الانفصاليّ عن الجسد، كان الرّئيس يعيشها أيضًا، أُدرك ذلك الآن. ربما يفكّر في أمور أخرى طوال وقته معي، أو معنا؛ فسَيرينا جوي موجودة حتمًا تلك الليالي. ربما فكّر في الأمور التي فعلها أثناء النهار، أو مباراة غولف، أو حتى طعام العشاء. أداؤه الجنسيّ، رغم آلِيّته وفُتُورة، فإنّه أدّاهُ أيضًا دون وعي، كما لو أنّه يحُكّ تهيُّجًا جلديًّا.

لكنّه تلك الليلة، الأولى منذ أن قامَ بيننا ما قام من اتفاق – لا أعرف ما أسمّيه به – خجلتُ منه. السّبب الأكبر في شعوري ذاك هو أنّه، لأوّل مرّة، راح ينظُر إليّ فعلًا، ولم يعجبني ذلك. الأضواء مشتعلة كالعادة، فسيرينا جوي تتجنب دومًا كلّ ما من شأنه أن يُذيع هالة رومانسيّة أو شهوانيّة، مهما كان خفيفًا: أضواء مُسلّطة فوق رؤوسنا، شديدة تخترق السّرادق. كأنّني مستلقية فوق طاولة عمليّات جراحية، في الوَهج التام، أو في بُقعة ضوء على خشبة مسرح. كنت واعيةً أن ساقيّ أشعَرَتا، شعثاوان كما قد تكونان حين تُحْلَقان سابقًا ثم ينمو شعرهما من جديد. وواعيةً أيضًا لشعر إبطيّ، رغم أنه لن يراه حتمًا. شعرت بالجلافة. أداءُ المضاجعة هذا، أو ربما التلقيح، كان ينبغي ألّا يعني بالنسبة إليّ أكثر مما تعنيه النّحلةُ لزهرة، لكنّه بات غير مُحتشم، خرْقًا مخجلًا لحدود الذّات، وهو ما لم أشعر به سابقًا.

لم يعُد نَكِرةً بالنسبة إليّ. تلك هي المشكلة. أدركتُها تلك الليلة، وظلّ هذا الإدراك يرافقني. لقد عقّدَ المسألة.

تغيّرت سيرينا جوي في نظري أيضًا. لم أشعر نحوها، فيما مضى، سوى بالكراهية: بسبب دَوْرها فيما أتعرّض إليه، ولأنها كرهَتني واستاءت من وجودي، ولأنها مَن سيُربّي مولودي إذا أنجبتُ على أيّ حال. رغم بقاء كُرهي لها، خاصّة بسبب قبضها على يدَيّ بقسوة غارسةً خواتمها في لحمي، جاذبةً يدَيّ إلى الخلف، وذاك ما تفعله حتمًا عن قصد لكي تُقلق أيّ راحة يُمكن أن أشعر بها قَدْرَ قلقها، فإنّ كراهيتي لها لم تعُد نقيّة بسيطة. جزء من ذلك أنّني صرتُ أغار منها، لكن كيف أغار من امرأة جافّة مثل تلك، وتعِسة بكلّ وضوح؟ أنت تغار من امرئ إذا امتلك شيئا تعتقد أنّك أحقّ به منه. رغم ذلك، غِرتُ.

لكنني أيضًا أذنبتُ في حقّها. شعرتُ أنّني متطفّلة في ملْكيّة يجب أن تكون لها وحدها. الآن، بما أنّني أقابل الرئيس خُبثًا، ولو كان للّعب وتبادل الأحاديث، فما عاد دَوْري ودَوْرها منفصلَين كما يُفترض بنا نظريًّا. إنّني آخذ شيئًا لها بعيدًا عنها، دون علمها. إنّني أنشُلُها. ولا يهم أنّ ما نشلْته منها هو شيء لا تريده أو لا يعود عليها بفائدة، أو حتى رفضته، فما زال ملكها، حتى لو أخذته بعيدًا، وضمير المُكيّة الذي تمثّله تلك الـ «هـ» لا أعرف إلى ماذا تُشير تمامًا، فالرّئيس ليس واقعًا في حُبّي، أرفض تصديق أنه يشعر نحوي بأيّ شعور عميق على ذلك النّحو، فماذا يتبقى لها؟

ولمَ أهتمّ؟ سألتُ نفسي. إنها لا شيء بالنسبة إليّ، إنها تكرهني، وإنّها مستعدّة دومًا لطردي من البيت خلال دقيقة، أو أسوأ من ذلك، لو عثرت على أتفه سببٍ تتعلّل به. لو أنّها عرفت ما يحدث، مثلًا. لن يتمكن هو من التدخّل، من إنقاذي. إنّ آثام نسوة البيت، أكُنّ جاريات أم مَرْثيّات، تُعرَض على محكمة الزّوجات فقط. إنّها حقودة انتقاميّة، أعرف ذلك. لكنني لم أستطع نفْضَه بعيدًا، تأنيب ضميري نحوها.

وأيضًا: لديّ الآن نفوذ عليها بشكلٍ ما، وإن كانت لا تُدرك ذلك. ولقد أمتعني هذا الأمر. ولمَ التظاهر؟ أمتعني ذلك كثيرًا.

لكن الرئيس يستطيع التخلّي عنّي ببساطة، إنْ هي إلّا نظرة واحدة، أو إيماءة، أيّ هفْوة صغيرة قد تكشف لأيّ أحد أنّ هناك أمْرًا يجري بيننا. كاد يفضحنا ليلة الطّقس. فقد مدّ يده كأنّه يريد لمس وجهي، فأزحت وجهي جانبًا لكي أحذّره، آملةً أنّ سيرينا جوي لم تلاحظ ذلك. ثم سحب يده إليه، وانسحب هو كلّه داخل كيانه في رحلة معزولة.

"لا تفعل ذلك مرة أخرى" قلتُ له عندما اختلينا ببعضنا مجدّدًا.

"أفعل ماذا؟" قال.

"أن تلمسني كما فعلت، عندما كنّا... فيما هي هناك".

"هل فعلت؟" قال.

"سوف تتسبّب في نقلي" قلتُ، "إلى المستعمرات. أنت تعرف ذلك. أو أسوأ". اعتقدتُ أنه ينبغي أن يستمرّ في معاملَتي علَنًا أمامهم كما لو أنّني مزهريّة كبيرة، أو نافذة: جزء من خلفيّة المشهد، دون حياة، لا تُرى.

"أعتذر. لم أقصد. لكنّني أجد ذلك..." قال.

"تجده ماذا؟" قلت عندما لم يُكمل.

"ليس شخصيًا" قال.

"كم استغرقت من الوقت لتكتشف ذلك؟" قلتُ، ويمكنك أن تدرك من خلال طريقة حديثي معه أننا مختلفَين.

"بالنسبة إلى الأجيال القادمة بعدكن" قالت الخالة ليديا، "فإنّ الأمور سوف تتحسّن كثيرا. ستعيش النساء في انسجام بعضهن مع بعض، مُشَكّلاتٍ أُسرة واحدة: سوف تصبحن أشبه بيناتهن، وعندما يرتفع تعداد السكّان حتى يخمش سقف التوقّعات، فلستن مُجبرات بعدئذ على التنقّل من بيت إلى آخر، فثمّة قدْر كبير منكن يفي الحاجة. ولسوف تنشأ بينكن روابط انجذاب حقيقيّة" قالت وهي ترمش نحونا في تملّق، "تحت تلك الظروف المختلفة، النساء يتَّحدن من أجل تحقيق هدف مشترك! بعضهن يساعد بعضًا في الأعمال اليومية فيما يسرْن في

طريق الحياة معًا، تؤدّي كلّ واحدة منهن العمل المنوط بها. لماذا يُتَوقّع من امرأة واحدة أن تقوم بإنجاز المهام البيتيّة بأكملها وحدها في هدوء؟ ذلك ضد المنطق، والإنسانيّة أيضًا. ستتمتّع بناتكنّ بحُريّة أوسع. نسعى إلى تحقيق هَدَف أنْ تحصل كلّ واحدة، كلّ واحدة منكنّ، على حديقتها» ثم تُشابك أصابعها كالمعتاد، وتتنفّس عميقًا، «وهذا مجرّد هدف واحد للتمثيل لا الحصْر». ثم إصبعها المرتفع، يلوح نحونا مهدّدًا «لكن يجب ألّا نكون خنزيرات طمّاعة ونطالب بالكثير قبل أن يحين الوقت المناسب، صحيح؟»

الحقيقة هي أنني صرتُ عشيقته. لطالما حظيَ رجال المناصب الكبيرة بعشيقات. لمَ أظنّ أنّ على الأمور أن تختلف الآن عمّا كانت عليه؟ الترتيبات فقط ليست هي هي. كان يُخصّص للعشيقة سكنٌ لها، بيت صغير أو شقة، لكنهم الآن دمجوا كل شيء. لكن تحت ذلك الغطاء، فسِيّان قبلًا والآن. امرأةٌ برّانيّة[110] هذا ما تُسمىّ به العشيقة، في بعض الدول. أنا امرأة برّانيّة، وإنّها لمهمّتي أن أسُدّ النواقص، حتى في لعبة الأحرُف اللوحيّة. إنّه رُتْبَةٌ دونيّة كما هي مُذلّة.

أعتقد أحيانًا أنها على عِلم بما يجري. أعتقد أحيانًا أنهما متواطئان في ذلك، بل أعتقد أحيانًا أنها حرّضته على ذلك، وأنها تسخر منّي خفيةً، كما أتهكّم عليها من حِين لآخر. «دعها تحمل العبء» تقول لنفسها. ربما تخلّت عنه، تمامًا، ربما كانت تلك فكرتها عن الحريّة.

لكن رغم ذلك، وبغباء كبير، فإنني أشعر بسعادة أكثر من ذي قبل. إنّه أمر تفعله من أجل شيء واحد. تملأ به الوقت، ليلًا، عوضًا عن جلوسي وحيدة في غرفتي. إنه أمر لأفكّر فيه على الأقل. لستُ واقعةً في حُبّ الرئيس، لا شيء من ذاك القبيل، لكنه نالَ اهتمامي، إنّه يحتلّ فراغًا ما، إنّه أكثر من ظِلال.

وأنا بالنسبة إليه. أنا لم أعد مجرّد جسد يُستخدَم. لست محضَ قارب دون حمولة، ولا طاسة مقدّسة دون نبيذ، لستُ فُرنًا – لكي أعبّر بفظاظة – دون كعكة. بالنسبة إليه، لم أعد محضَ فراغ.

أسير مع أوفغلن في شارع الصيف. الجو حارّ رطب. كان الصّيف مرّةً فصْل الملابس الخفيفة وانتعال الصّنادل. كلتانا تحمل في سلّتها فراولة – إنّه موسمها، ولذا سوف نبقى نأكلها ونأكلها حتى نسأم – وبعض السّمك المغلّف. حصلنا على السمك من دكّان الأرغفة والأسماك، لافتَتُه الخشبيّة تحمل رسمَ سمكة مبتسمة وعينها ذات رموش[111]. لا يبيع هذا الدكّان سوى السّمك، فالبيوت تخبز أرغفتها غالبًا، لكنّك تستطيع الحصول على لفائفَ جافّة وكعك ذاوٍ من دكّان خُبز يومِنا[112]، وذلك إذا اضطررت. نادرًا ما يفتح دكّان الأرغفة والأسماك أبوابه. لمَ يفتح إذا كان ليس عنده ما يبيعه؟ فمِهنة السّماكة اندثرت منذ أعوام خلَت. والسّمك القليل المتوفّر يأتون به من مزارع الأسماك، له طعم الأوحال. تقول الأخبار إن المناطق الساحليّة تُركت لكي "ترتاح". سمك موسى، أتذكّر، والحَدوق، وسيّاف البحر، والمحار، والتّونة، والسّلطعون المحشوّ المحمّص، والسلمون، ورديّ ممتلئ، يُشوى مُشَرّحًا. هل انقرضَت كلّها، كما حدث للحيتان؟ سمعتُ تلك الشائعة، انتقلت إليّ في كلماتٍ لا صوت لها، بشفاه بالكاد تتحرّك، أثناء اصطفافنا في الطابور خارجًا، ننتظر الدكّان أن يفتح أبوابه، وقد أغوتنا صورة شرائح السمك النّضرة البيضاء المعروضة على النافذة. يضعونها هناك حين تتوفّر عندهم الأسماك، ويزيلونها عندما لا تتوفّر. لغة الإشارة.

أنا وأوفغلن نسير اليوم في بطء، نشعر بالحرارة تحت أرديتنا الطويلة، آباطانا تنزّ عرقًا، مُتعبتان. على الأقلّ، في هذا الحر، نرتدي قفازات. هناك دُكّان يبيع البوظة، في وقتٍ مضى، قريبًا من هنا في المربع السّكنيّ. لا أتذكّر اسمه. يمكن للأشياء أن تتغيّر بسرعة كبيرة، أبنية تقوّض أو تُحَوّل إلى شيء آخر، يصعب أن تجدها كما كانت في ذاكرتك منذ وقت طويل. كنت تستطيع حينئذ الحصول

على كوز بوظة ذي غرْفتَين، ويرشّون عليها شوكولاتة إذا أردت. خلطة البوظة هذه تحمل اسم رجل: جونيز؟ جاكيز؟ لا أتذكّر.
لطالما ذهبنا معًا إلى هناك، في صِغَرها، أرفعها لكي تُطلّ من زجاجة طاولة المحاسبة الجانبيّة، على براميل البوظة المعروضة، ملوّنة ومشكّلة: برتقاليّ فاتح، أخضر فاتح ووردي مثله، وكنت أقرأ لها الأسماء كي تختار. لكنها لم تكن تقرّر وفقًا للاسم، بل اللون. فساتينها ومشامِلها كلّها لها الألوان نفسها التي تختار وفقها البوظة. ألوان البوظة باستيليّة.
جيميز، ذاك هو اسم الخلْطة.

نشعر بارتياحٍ يكبُر بيننا، أنا وأوفغلن. لقد اعتدنا بعضنا، مثل توْأم سياميّ. لم نعد نهتم كثيرا بالرّسميّات حين نتبادل التحايا، بل نبتسم ونمضِي معًا، متجاورَتين، نسير بسلاسة في طريقنا اليوميّ المعتاد. ومن حين لآخر نغير الطّريق الذي نسلكه، فلا أوامر ضدّ ذلك، ما دمنا داخل الأسوار. الفأر حُرٌّ في متاهَته أن يذهب أين يريد، ما دام يبقى داخلها، أي في المصيدة.
انتهينا من الدّكاكين بالفعل، والكنيسة أيضًا، نحن الآن جوار الحائط. اليوم لا شيء يتدلّى منه. لا يتركون الجثث مُدلاة وقتًا طويلًا في الصّيف كما يفعلون في الشتاء، فقد يتجمّع الذّباب وتنبعث الروائح الكريهة. كانت هذه أرضَ مُلطّفات الجوّ، روائح الصبّار والأزهار المُنعشة، ولذلك ما زال الناس متشبّثين بها، خاصّة الرؤساء الذين يسعون إلى الطّهارة في كلّ شيء.
"هل نِلتِ كلّ الحاجيّات في قائمتك؟" تقول أوفغلن لي الآن، رغم معرفتها أنّني أحضرتُ كلّ شيء. فقوائم حاجيّاتنا ليست طويلة أبدًا. لقد تخفّفت من سلبيّتها مؤخّرًا، من كآبتها. غالبًا ما تبادر هي بالحديث.
"أجل" أقول.
"لنأخذ الطّريقَ الملتفّة" تقول، قاصدةً النزول للسّير حذاءَ النهر، الطريق المُعتزلة. فنحن لم نفعل ذلك منذ مُدّة.

"حسنٌ" أقول، لكنني لا أستدير فورًا، بل أبقى مُلقيةً نظرة أخيرة إلى الحائط: الطُّوب الأحمر الباهت، والكشافات الضوئية، والأسلاك الشائكة، والخطاطيف. بدا لي الحائط أكثر إنذارًا بالشرّ في فراغه هذا. فعندما ترى شخصًا مُعلّقًا عليه، فإنك ترى أسوأ ما قد يحدث على الأقل. لكنه في فراغه يُنذر بالاحتمالات كافّة، مثل اقتراب عاصفة. وعندما أرى الجثث، أراها حقيقةً، وأُقدّر من خلال أحجامها وأشكالها أنّ جثّة لوقا ليست بينها، أستطيع أن أؤمن حينها أنّه ما زال حيّا.

لا أعرف لمَ أتوقّع دومًا رؤيته معلّقًا على هذا الحائط تحديدًا. ثمّة مئات من الأماكن الأخرى التي يمكن أن يقتلوه فيها. لكنني لا أستطيع نفْض فكرة أنّه هناك، في هذه اللحظة، خلف الطّوب الأحمر الفارغ.

أحاول تخيُّل المبنى الذي وضعوه فيه. أستطيع أن أتذّكر المباني التي يُسوّرها الحائط. فلطالما تجوّلنا في حريّة هناك عندما كانت مبانٍ جامعيّة، بل ما زلنا نذهب إليها بين وقت وآخر لحضور مراسم إنابة النّساء. معظم المباني من الطّوب الأحمر أيضًا، ولبعضها مداخل مقوّسة على الطراز المعماريّ الرومانيّ الذي سادَ في القرن التاسع عشر. لم يعد يُسمح لنا بدخولها، لكن مَن يريد ذلك حقًّا؟ فهذه المباني أضحت خاصّة بالعيون.

ربما كان في المكتبة، مرميًّا في سردابها، محبوسًا بين أكوام كتبها.

المكتبة أشبه بمَعْبد: يقودك إليها درَج طويل أبيض، ينتهي بصفّ أبواب. ثمّ، في الداخل، هناك درَج أبيض صاعد آخر، على جانبيه، إلى الجدران، يقف ملائكة. هناك أيضًا رجال يتعاركون، أو يكادون، تبدو عليهم النّظافة والاتّسام بالنُّبل، لا وسخين ومُلطّخين بالدماء وكريهي الرائحة كما يُفترَض بهم. دربُ النّصر يمتدّ على جانبٍ من ردهة الأبواب الداخليّة، يسلكه أولئك الرّجال، ودربُ الموت على جانبٍ آخر. تلك لوحتان جداريّتان، تُخلّد ذكرى حربٍ ما. الرّجال في جداريّة درب الموت ما زالوا أحياء. إنّهم ذاهبون إلى الجنّة. الموت امرأة فاتنة، لها جناحان وأحد نهدَيها يكاد يتعرّى تمامًا، أم كانت تلك جداريّة درب النّصر؟ لا أتذكّر.

لم يكونوا ليدمّروا تلكما الجداريّتين من بين كلّ ما دمّروا.

نُدير ظهْرَينا إلى الحائط، وننعطف يسارًا. هنا محلّات عدّة بواجهات شاغرة، نوافذ العرض الزجاجية ملطّخة بالصابون. أحاول أن أتذكر ما كانت تبيع ذات يوم. مستحضرات تجميل؟ مجوهرات؟ معظم الدكاكين التي كانت تبيع حاجيّات الرجال ما زالت مفتوحة، فلم تُغلق سوى المحلّات التي كانت تبيع الأباطيل[113]، كما يسمّونها.

عند الناصية دُكّان عُرِفَ باسم لفائف الرّوح، وهو ينتمي إلى مؤسسة تجارية ضخمة: فثمّة دكّان لفائف الرّوح في كلّ مركز مدينة، وكلّ ضاحية، أو هذا ما قالوه. لابدّ أنها تجني أرباحًا طائلة.

نافذة عرْض لفائف الرّوح الزجاجية ضد الكسر. وراءها آلات طباعة، صفّ بعد آخر، وهي البَكَرات المقدّسة، وهو اسم شائع بيننا فقط، فهو لا يوحي لها بأيّ احترام. ما تطبعه تلك الآلات هي الصّلوات، لفافة بعد لفافة، صلواتٌ تُطبَع دون انتهاء. تُطلب من خلال الفاحوص الاتّصالي، سمعت مصادفةً الزوجة تفعل ذلك. يُفترَض بطلب الصّلوات من لفائف الرّوح أن يكون علامة تقوى وإخلاص للنّظام الحاكم. ولذا فإن الزّوجات يُكثرنَ من طلبها، فذاك يساعد أزواجهن على الترقّع في مناصبهم.

يقدّمون خمس صلوات مختلفة: للصحّة، والغِنى، والموت، والولادة، والخطيئة، تختار أحدها، تُدخل رقمها، ثمّ رقمك لكي يُخصّم الثّمن من حسابك، ثمّ عدد نسَخ الصلاة المختارة.

يصدُر عن الآلات صوتٌ قارئ للصّلوات أثناء طباعتها، ويمكنك إذا أحببت أن تذهب إلى الداخل وتصغي إليها، إلى الأصوات المعدنيّة الخالية من التنغيم، مُكرّرةً الصلوات نفسها مرّة بعد مرّة. وما إن تنتهي الآلات من طباعة الصّلوات وقراءتها كاملة، فإن لفائف الورق تلك تُدخَل في فُتحة أخرى حيث تذهب إلى التّدوير فتصبح ورقًا جديدًا. ليس هناك من بَشَرٍ داخل المبنى، الآلات تعمل وحدها. لا تستطيع سماع أصواتها من الخارج، دمدمة فقط، همهمة، كما جمْعٌ مؤمنٌ يجثو مُصليًا على ركبتيه. تحمل كلّ آلة عينًا ذهبيّة رُسمت على جانبها، مُجنّحة

بجناحين ذهبيّين صغيرين.

أحاول أن أتذكر ما الذي كان يبيعه هذا المكان عندما كان متْجرًا، قبل تحويله إلى دكّان لفائف الرّوح. ربما يبيع ملابس داخليّة نسائيّة. صناديق ورديّة وفضيّة، وجوارب طويلة ملوّنة، وحمّالات صدر بعُقَد، وأوشحة حريريّة؟ عالمٌ بأكمله قد ذهب إلى زوال.

أقف مع أوفغلن خارج الدكّان، ناظرات خلال نافذة العرض المضادّة للكسر، إلى الصلوات تُطبَع خارجة من الآلات، ثم مُختفيةً في فُتحة ضيّقة عائدةً إلى مملكة ما لم يُقَل. والآن أحوّل نظري، ما عُدتُ أرى الآلات، بل انعكاس أوفغلن على زجاج النافذة.

نستطيع النّظر كُلٌّ في عينَي الأخرى. إنها أوّل مرّة أرى فيها عيني أوفغلن مباشرة وفي ثبات، لا جانبيًّا. وجهها بيضَويّ، ووردي، وممتلئ دون سُمنة. أما عيناها فشبه مستديرتين.

تلتقي أعيننا فيما أحدّق إليها في الزجاج. كانت تحديقتي ثابتة دون رعشة. فصار من الصعب أن أشيح بهما بعيدًا. هناك صدمة في هذه الرؤية. إنها أشبه برؤية شخص ما عاريا أوّل مرّة. ثمّة خَطَر يرتفع فجأة في الهواء بيننا، لم يكن هناك قبلًا. حتى التقاء الأعين هذا يشكّل خطرًا، رغم أنّه لا أحد في الجوار.

أخيرا تتحدث أوفغلن "هل تعتقدين أن الربّ يصغي" تقول، "إلى تلك الآلات؟"

إنها تهمس، عادتنا التي التقطناها من الدّار الحمراء.

في الأوقات السالفة، مثل هذا القول قد يُعتبر تعليقًا دون أهميّة، أو تفكيرًا عِلميًّا. أمّا الآن فهو خيانة.

لاستطعتُ الصّراخ، أو ألوذ بالفرار بعيدًا، لاستطعتُ أن أشيح بوجهي عنها في صمت، لأوضح لها أنني لن أتساهل مع هذا النوع من الكلام في حضوري. فذاك تخريب، وتحريض، وتجديف، وهرطقة، كلّها تندرج في ذاك القول.

أتصلّب. "لا" أقول. تُطلق نَفَسَها، تنهيدة طويلة من الارتياح. لقد عبرنا الحدود الخفيّة معًا. "ولا أنا" تقول.

"لكنّه دليل إيمان بشكلٍ ما" أقول، "مثل أسطوانات الصّلاة التّبْتيّة".

"وما تلك؟" تسأل.

"قرأتُ عنها فقط" أقول، "تُنحت الصّلوات على سطحها وتوضع في مجرى الرّياح لكي تُديرها. اختفت الآن".

"اختفت مثل كل شيء" تقول. الآن وحسب توقّفنا عن التّحديق إلى بعضنا.

"هل المكان آمن؟" أهمس.

"أظنّه أأمَن الأماكن،" تقول، "نبدو كأننا نصلّي، هذا كلّ شيء".

"وماذا عنهم؟"

"هم؟" تقول، ما زالت هامسة "أنت دائمًا في مأمن خارج البيت. لا أجهزة تنصّت مزروعة هنا، لمَ قد يضعون واحدًا؟ إنهم يعتقدون أنّ أحدًا لن يجرؤ على شيء. لكننا قضينا وقتًا طويلًا هنا، وما من سبب يبرّر تأخّرنا في العودة". نستدير معًا مبتعدتين. "نكّسي رأسك أثناء سيرنا" تقول، "ومِيلي قليلًا نحوي. هكذا أستطيع سماعك بشكل أفضل. ولا تتحدثي إذا شاهدت أحدًا مُقبلًا نحونا ".

نسير معًا، رأسانا منحنيان كالعادة. أشعر بحماسة بالغة حتى أنني بالكاد أتنفّس، لكنني أحافظ على خُطايَ منتظمة. الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، ينبغي عليّ ألّا أُثير الانتباه إليّ».

"اعتقدتُ أنك مؤمنة حقّا" تقول أوفغلن.

"اعتقدتُ ذلك فيك أيضًا" قلتُ.

"لطالما بدوتِ تقيّةً نتِنَة" تقول.

"وأنتِ كذلك" أقول، وأردتُ أن أضحك، أصرخ، أعانقها.

"انضمّي إلينا إذا أردتِ" تقول.

"إلينا؟" أقول. هناك إذن "نا" جماعة أخرى هنا، ثمّة "نحن" إذن. عرفتُ ذلك!

"لا تظنّي أنني وحدي" تقول.

لم أظن ذلك. بل خطر إليّ أنها جاسوسة، نبتة زُرعَت كي توقع بي، كذلك هي التُّربة التي ننمو منها. لكنني لا أستطيع تصديق ذلك، فالأمل يصّاعد داخلي، مثل النّسغ

في نبتة، الدماء في الجُرح. لقد فتحنا ثغرة.
أريد أن أسألها هل رأت مويرا، وهل هناك من يستطيع معرفة ما حدث، للوفا، ولطفلتي، ولأمّي حتى. لكن لا يسع الوقت لكلّ ذلك، فقريبًا نصل ناصية الشارع العام، قبل الحاجز الأول. سيتواجد هناك كثير من الناس.
"لا تُفضي بكلمة واحدة" تحذّرني أوفغلن، لكن لا حاجة لذلك، "ولا بأيّ شكل كان".
"بالطّبع، لن أفعل" أقول لها. فلمن أُفضي؟

نعبُر الشارع العام في صمت، نتجاوز دكّان زنابق الحقل، ودكّان ذوات الأجساد. أعداد الناس على الأرصفة هذا النّهار أكثر من المعتاد: الأجواء الدّافئة لابدّ دفعتهم إلى الخروج. نساء في أردية طويلة بعضها خضراء، وبعضها زرقاء، وبعضها حمراء. الرّجال كذلك، بعضهم في زيّهم الرسميّ وبعضهم في ملابس مدنيّة. الشّمس حُرّة، ما زالت هنالك كي نستمتع بها. رغم أنّه لا أحد يتشمّس الآن، ليس في العلَن. مزيد من السيارات أيضًا. سيارات الزّوبعة بسائقيها وراكبيها الغارقين في وسائد ليّنة. السيارات الأقل فخامة يقودها رجال ذوو مناصب أقلّ.

أمرٌ ما يجري: هناك اضطراب، فورة بين أسراب السيارات. بعضها تحاول أن تجنَح جانبًا، كأنها تُفسح الطريق. أُلقي نظرة سريعة أمامي: إنها عربة نقل صغيرة سوداء، وشعار العين المجنّحة مطليّ بالأبيض على أحد جانبيها. لا تحمل أيّ صفّارة إنذار، لكن السيارات الأخرى تتفاداها. تعبر الشّارع في بطء، كأنها تبحث عن شيء ما. قرشٌ ينشُد فريسة.
أتجمّد. تزحف البرودة في أرجاء جسدي حتى أخمص قدميّ. حتمًا زُرعَت هناك أجهزة تنصّت. لقد سمعوا ما قُلناه رغم كل شيء.
أوفغلن، تحت غطاء كمّها، تُمسك مرفقي، "لا تتوقّفي" تهمس، "تظاهري أنّك لا ترين شيئًا". لكنني لا أستطيع كبح جماحي عن النظر. فأمامنا مباشرة وقفت

عربة النّقل الصغيرة. قفز من بابها المزدوَج الخلفيّ رجلان من العيون المُراقِبة، في بدلتيهما الرماديتين، وقبضا على رجل يعبر الشارع، شكله لا يُثير الرّيبة، يحمل حقيبة يد. ثمّ دفعاه في عُنف ليلتطم بالجانب الأسود من العربة. بقي هناك لحظة، باسطًا أطرافه على المعدن كأنها التصقَت به. أحد العينَين تقدّم إليه، وفعل به أمرًا عنيفًا وحادًّا حتى أنه التوى وسقط أرضًا مثل صُرّة قماشيّة رخوة. ثمّ رفعاه وألقياه في مؤخّر السيّارة مثل كيس رسائل بريديّة. وإذا بهما في الداخل، الأبواب مغلقة، وعربة تتحرّك.

حدث ذلك كلّه خلال ثوان. استأنف المرور حركته كأن شيئا لم يحدث.

ما شعرت به هو الرّاحة. لم يكن المقبوض عليه هو أنا.

لا أشعر برغبة في القيلولة هذه الظهيرة، فلا يزال الأدرينالين مندفعًا فيّ. أجلس على مقعد النافذة ناظرةً خلال الستائر شبه الشفافة. قميص نومي أبيض. النافذة مُشرعة إلى أقصاها. يلفحني الهواء تحت أشعة الشمس، فيما قماش الستائر الأبيض يتمسّح بوجهي. لابدّ أنني أبدو من الخارج شرنقةً، شبحًا، فوجه مُكفّن على هذا النحو لا تظهر منه سوى خطوط ملامحه: خطوط الأنف، والفم المكمّم، والعينين الكفيفتين. غير أني أجلس هنا لمحبّتي إحساس القماش الناعم يمسّ بشرتي في رِفق، كأنني في سحابة.

جلبوا لي مروحة كهربائية صغيرة، قد تساعد قليلًا في هذا الجو الرّطب. يتردّد أزيزها على الأرض وفي الزّاوية. شفراتها مغلّفة بقفص قضبان متصالبة. لو كنتُ مويرا لعرفت كيف أفكّكها، وآخذ منها شفراتها. ليس عندي مفك. لكن لو كنتُ مويرا لفعلت ذلك دون مفكّ. أنا لستُ مويرا.

ماذا كانت ستقول لي عن الرئيس لو كانت هنا معي. لسوف تستنكرّ الأمر. لقد استنكرت لوقا وقتئذ. لا لوقا نفسه، بل حقيقة أنّه متزوّج. قالت إنني أصطاد في مكان امرأة أخرى وأنتهك حُرمتها. قلت إنّ لوقا ليس سمكة أصطادها، ولا وسخًا أحمله، بل إنّه إنسان يستطيع اتّخاذ قراراته بنفسه. قالت إنني أحاول عقلنة المسألة بأيّ طريقة. فقلت إنني أحبّه. فقالت إنّ ذلك لا يبرّر ما أفعله. لطالما كانت مويرا منطقيّةً أكثر مني.

قلت لها إنها لا تواجه تلك المشكلة، منذ قرّرت أن تصبّ اهتمامها على النساء، لا الرجال، وعلى حدّ علمي فهي لا تتورّع عن سرقتهن من علاقاتهن أو حتى استعارتهن عندما تشعر أنها تريدهن. فقالت إن الأمر مختلف في حالتها؛ فميزان القوى متوازٍ بين النساء في علاقاتهن بعضهن ببعض، حتى إن الجنس تبادُل حُرّ دون التزام. قلت إن ذلك يبدو مُغويًا، وهي تريد أن تبدو مُغوية دومًا، وعلى أيّ

حال فإن هذا الجدال تأخر كثيرًا. فقالت إنني بذلك أُهَوّن المشكلة، وإذا ظننتُ أنني تأخّرت عن اتّخاذ أي قرار فأنا أدفن رأسي في الرّمال وحسب.
قلنا ذلك كلّه في مطبخي بينما نحتسي القهوة، جالستين إلى المنضدة، وتصدر عنّا تلك الأصوات الخفيضة، الحادّة، التي نستخدمها حين نناقش أمرًا في العشرينيّات المبكّرة من عُمْرَينا، تعلّمناها من الجامعة. يقع المطبخ في شقة متهالكة في بيت قديم قُرب النهر، يحوي ثلاثة طوابق، ودرجًا كسيحًا في الخلف. كنتُ أشغل الطابق الثاني، وهذا معناه أنني أستقبل الضوضاء من أعلى ومن أسفل، مُشغّلا أقراص ليسا مرغوبَين، يدوران طوال الليل. كنت أعرف أنّهما طلَبَة، أعلاي وأسفلي.
ما زلت وقتئذ أشغل عملي الأوّل، بأجره الزّهيد، حيث أعمل على الحاسوب في شركة تأمين. ولذلك فإن غرف الفنادق التي أذهب إليها مع لوقا لم تكن تعني بالنسبة إليّ مجرّد حب، أو جنس، بل مهربًا من الصراصير، والصّنبور الذي يقطّر دومًا، وطلاء شمع الأرضية الذي ينسلخ كلّ يوم قطعةً قطعة، ومن حتى محاولاتي لتلميع المكان بلصق ملصقات على الجدار وتعليق مَوْشُوراتٍ عاكسة في النوافذ. لدي نباتات، أيضًا، لكن تعشّش فيها العناكب دومًا أو تموت من الجفاف. كنت أخرج إلى لوقا، وأُهملها.
قلت إنّ هناك أكثر من طريقة واحدة للعيش بينما تدفن رأسك في الرّمال، وإنه إذا كانت مويرا تعتقد أن في إمكانها أن تعيش في المدينة الفاضلة إذا حجزت نفسها في مُقاطعةٍ من العلاقات النسائيّة-النسائيّة فإنها وقعت في خطأ مؤسف. "لن يختفي الرّجال هكذا" قلتُ لها، "لا يمكنك تجاهلهم بتلك البساطة".
"كأنك تقولين إنه يجب على المرء الخروج والتعرّض للإصابة بمرض الزُّهري فقط لأنّ المرض موجود فعلًا!" قالت مويرا.
"هل تقولين إنّ لوقا عِبارة عن مرَض اجتماعيّ؟" قلتُ.
ضحكت مويرا. "أنصِتي إلينا" قالت، "نتحدث مثل أمّك".
ضحكنا معًا حينها. وعندما همّت بالمغادرة تعانقنا كالمعتاد. مرّت أوقات توقّفتُ فيها عن معانقتها، عندما أخبرتني أنّها تحبّ النساء. لكنها قالت لاحقًا إنّني لا

أُثيرها أبدًا، وأكّدت لي ذلك مرارًا، فعُدنا إلى سابق عهدنا. كنّا نتعارك ونتصارع ونتقاذف الشتائم ونعيّر بعضنا، لكن ذلك لم يغيّر شيئًا في عُمق علاقتنا. كانت صديقتي الأقدم.

وما تزال.

شغَلتُ بعد ذلك شقّة أفضل لعامين، الفترة التي استغرقها لوقا ليُحرّر نفسه. دفعتُ إيجارها من أجْر عملي الجديد أيضًا. عملتُ حينئذ في مكتبة. ليس تلك المكتبة الضخمة التي تحوي جداريّتَي الموت والنصر، بل أخرى صغيرة.

عملي كان أن أصوّر الكتب لأنقلها إلى أقراص حاسوبيّة صلبة، نوفّر بذلك مساحة التخزين وتكاليف الاستبدال، كما قالوا. «القرّاصون»، أسمينا أنفسنا. وأطلقنا على المكتبة اسم «ملْهى القُرص»، كانت نكتة تدور بيننا حصْرًا. بعد تصوير الكتب ونقلها، يُفترض بها أن تؤخذ إلى قطّاعة الأوراق، لكنني أحيانًا آخذها معي إلى البيت. أحببْت ملمسها وشكلها. قال لوقا إن لي عقل علماء آثار. أحبّ فيّ ذلك، فهو نفسه أَحَبّ الأشياء القديمة.

من المستغرب الآن التفكير في الحصول على عمل. عمل، إنّها كلمة مُضحكة. أضحت مقصورة على الرّجال وحسب. لطلما قُلنا للأطفال «اعملها هناك» عندما ندرّبهم على استخدام الحمّام مثلًا. والتعبير نفسه مع الكلاب أيضًا مثلا «لقد عملها على السجادة». «يُفترض بك ضربها بجرائد ملفوفة» تقول أمي حينها. أتذكّر أيام الجرائد رغم أنّي لم أربّي كلابًا ألبتّة، بل قططًا وحسب.

سفر أيّوب[114].

النساء أُولاءِ لديهن أعمال، أمرٌ يصعب تخيّله الآن، لكن الآلاف منهن، بل ملايين، كُلّ لها عملها. اعتُبر ذلك عاديًّا. لكنه الآن أشبه بتذكّر العملة النّقدية الورقيّة، عندما كانوا ما زالوا يتبادلون المال أوراقًا. احتفظت أمّي ببعضها، ألصقتها في دفتر صور مع صور قديمة. لم تعد صالحة بحلول ذلك الوقت، لا يمكن للمرء شراء شيء بها. قطَعٌ ورقيّة وحسب، ثخينة، ملساء، خضراء، تحمل رسومات على

الجانبين: رجل عجوز بشعر مستعار على جانب، وعلى الجانب الآخر صورة هرم تعلوه عين. طُبعت عليها عبارة «على الله توكّلنا[115]». قالت أميّ إن الدكاكين اعتادت، على سبيل المزاح، أن تضع لافتة جوار طاولة المحاسبة، تقول: على الله توكّلنا، أمّا غيره فعليهم الدّفع حالًا! يُعتبر ذاك تجديفًا الآن.

كان لابدّ لك من حمل تلك الأموال الورقيّة عندما تذهب للتبضّع، رغم أن معظم الناس راحوا يستخدمون بطاقات بلاستيكيّة عندما بلغتُ من العمر تسع سنوات أو عشر. لا للشراء من البقالة، هذا حدث لاحقًا. يبدو ذلك الآن بدائيًّا للغاية، بل طوطميّ الطابع، مثل الوَدَع الأصفر[116]. لابدّ أنني استخدمتُ ذاك المال، وقتًا ما، قبل أن يتحوّل كل شيء إلى الفاحوص المصرفيّ[117].

أظنّهم نجحوا في إنفاذ ذلك، كما فعلوا، بفرض كل شيء مرّة واحدة، دون أن يعرف أيّ أحد عن ذلك مسبقًا. فلو بقي هناك بعض المال الذي يُمكن أن يُتداوَل، لبات تنفيذ الخطّة أصعب.

حدث ذلك بعد الكارثة، عندما أطلقوا النار على الرئيس، واحتلّوا الكونغرس بقوّة السّلاح، وأعلن الجيش حالة الطوارئ. لقد اتّهموا المسلمين المتعصّبين آنذاك بالقيام بتلك الأعمال.

"الزموا الهدوء" قالوا عبر التلفاز، "كل شيء تحت السيطرة".

انذهلت، الجميع انذهل، أعرف ذلك. يصعب تصديق ما حدث. الحكومة كلها انتهت، هكذا. كيف دخلوا؟ كيف حدث ما حدث؟

حدث ذلك عندما عطّلوا الدستور، قائلين إنّها حالة مؤقّتة. لم تجري أعمال شغب في الشوارع. لَزِم الناس بيوتهم لمشاهدة التلفاز باحثين عن شيء يدلهم. فليس هناك عدُوّ يُمكن أن تضع إصبعك عليه.

"احذري" قالت لي مويرا، عبر الهاتف، "ها هو يُقبل علينا".

"وما الذي يُقبل علينا؟" قُلت.

"انتظري" قالت، "لقد كانوا يستعدون لهذه اللحظة. إنّه أنا وأنتِ من سنقف ووجهينا إلى الجدار، يا حبيبتي". كانت تقتبس عبارة لأمّي، لكنها لم تكن تمازحني بها.

بقي الوضع على ذلك الحال من تأجيل الحياة لأسابيع، رغم أنّ بعض الأحداث قد جرَت فعلًا، فقد فُرضت الرقابة على بعض الصحف، ومُنع بعضها عن الصّدور، لأسباب أمنيّة كما قالوا. حواجز الشوارع ارتفعت، وتصاريح العبور وفقًا للهويّة صدرَت. الجميع دعمَ تلك الخطوات، الأمور أوضح من أن يحذروها بشدّة. قالوا إن انتخابات جديدة سوف تُقام، لكن ذلك يتطلب وقتًا للإعداد. "ما عليكم فعله" قالوا، "أن تسيّروا حياتكم كالمعتاد".

متاجر الألعاب الجنسيّة ومصوّراتها أغلقت، ومُنعت عربات «اللمسات على عجلات»، و «حُزمة المجانين» من الدوران في الساحة العامة، لكنني لم أحزن لاختفاءها. فجميعنا يعرف كيف انزعجنا منها للغاية[118].

"إنّه الوقت المناسب لأحدهم كي يفعل شيئًا ما إزاء الوضع" قالت المرأة خلف طاولة المحاسبة في متجرٍ اعتدتُ شراء سجائري منه. إنّه كُشك لبيع الصّحف على ناصية الشارع: مطبوعات، وحلوى، وسجائر. كانت المرأة كبيرة مسنّة قليلًا، لها شعر رماديّ، تنتمي إلى جيل أمّي نفسه.

"هل حقًّا أغلقوا تلك المحلات، أم ماذا؟" سألت.

هزّت كتفيها دون مبالاة "من يعرف؟ ومن يهتمّ؟" قالت، "ربما نقلوها إلى مكان آخر، فمحاولة التخلّص منها نهائيًّا هو أمرٌ يشبه في استحالته محاولة القضاء على الفئران تمامًا. أليس كذلك؟" ثمّ أدخلت رقمي الفاحوصيّ في جهازها دون أن تنظُر إليه، فحينها كنت قد داومتُ وقتًا طويلًا على شراء سجائري منها. "الناس يتذمّرون" قالت.

صباح اليوم التالي، أثناء طريقي إلى المكتبة لتأدية عملي اليومي، توقفتُ عند الكشك نفسه للحصول على علبة سجائر أخرى، فقد نفدت سجائري. صرتُ أدخّن بشراهة تلك الأيام بسبب التوتّر الذي يمكن للمرء أن يشعر به مثل همهمة تسري تحت سطح الأرض، رغم أنّ الحياة بدت ظاهريًّا هادئة. ورُحتُ أحتسي القهوة كثيرًا أيضًا، ما أرّقَ نومي وأقلقه. أعصاب الجميع مهتاجة، حتى أن المذياع داومَ على إذاعة مقطوعات موسيقى أكثر من المعتاد، مقلّلًا من الكلام.

بحلول ذلك الوقت، كنّا قد تزوّجنا منذ سنين، كما يبدو. عمر ابنتي حينئذ ثلاث سنوات أو أربع، أضعها في دار رعاية الأطفال النهاريّة.

كنّا نستيقظ معًا كالمعتاد، ونتناول الإفطار، حبوب الشّوفان المقرمشة، أتذكّر، وكان لوقا يوصلها إلى المدرسة مُرتديةً زيّها الذي ابتعته لها قبل أسابيع: شِمَلٌ مخطّطة وقميص أزرق. أيّ شهر كان؟ لابُدّ سبتمبر. مجموعة أطفال كانوا يسيرون معًا إلى المدرسة، اعتادوا المرور بها لتذهب معهم وتعود. لكنّني لسبب ما أردت من لوقا القيام بهذه المهمة، لقد اشتدّ قلقي من كلّ شيء حتى تلكم المجموعات. فما عاد كثيرٌ من الأطفال يذهبون إلى المدرسة سيْرًا، لقد تكرّرت حالات اختفاء بعضهم.

وصلتُ كشك سجائري، لم تكن المرأة التي اعتدتُها هناك، بل وجدتُ رجلًا، شابًّا، لا يزيد عمره عن عشرين عامًا.

"هل هي مريضة؟" قلتُ فيما أناوله بطاقتي.

"من؟" قال، في عدائيّة كما أظن.

"المرأة التي تبيع هنا عادةً" قُلت.

"وكيف لي أن أعرف؟" قال. ثمّ راح يُدخل رقمي الفاحوصيّ، مدقّقًا كلّ رقم، بإصبع واحد. من الواضح أنه لم يقم بهذا العمل من قبل. رُحت أطرق أصابعي فوق المنضدة، بنفاد صبر، لأحصل على السجائر، وأُفكّر هل نصحَه أحد ما بعلاجَ تلك البثور في رقبته؟ أتذكر في وضوح شديد شكل ذلك الشاب: طويل، أحدب قليلًا، شعره قصير أسود، وعيناه بُنيّتان حوْلاوان، وبُثور الشباب تلك. أظنّ أنني أتذكره بوضوح شديد بسبب ما قاله بعدها.

"آسف" قال، "هذا الرقم غير ساري المفعول".

"ما هذا السُّخف" قلتُ، "إنّه سارٍ حتمًا، لي آلافٌ في حسابي هذا. حصلتُ على كشف الحساب منذ يومين فقط. حاول من جديد".

"إنه ليس ساريًا" قال في عناد، "هل تشاهدين هذا الضوء الأحمر، إنّه يدل على أن رقمك غير ساري المفعول".

"لابدّ أنّك أخطأت المحاولة" قلتُ، "حاول مرّة أخرى".

هزّ كتفيه وسدّد لي ابتسامة مَن ضاق ذرْعًا بي. لكنه حاول مجدّدًا. هذه المرّة راقبت أصابعَه وهي تُدخل الأرقام، ثم تفحّصتها عندما ظهرت على الشاشة. إنّه رقمي الفاحوصي فعلاً، الضوء الأحمر انطلق مرة أخرى.

"هل ترين؟" قال، بينما ابتسامة الضّيق نفسها بادية على وجهه، كما لو أن نكتة سريّة تجول داخله ولا يريد قولها لي.

"سأهاتفهم من مكتب عملي" قلت، "لطالما عانى نظامهم من القصور من حينٍ لآخر، لكن بعض المكالمات تُصلح الأمر". رغم ذلك، ما زلت غاضبة، كأنّني اتُّهِمتُ ظُلمًا بارتكاب ما لا أعرف. كأنني أنا من أخطأ.

"قومي بذلك" قال دون مبالاة. تركتُ السجائر على المنضدة، طالما أنني لم أدفع ثمنها. فكّرت أنّه يمكنني استعارة بعضها من زملاء العمل.

وفعلًا هاتفتُهم من المكتب، لكن لم أجد سوى المُجيب الآليّ. "خطوط الخدمة جميعها مشغولة" يقول التسجيل، "فضلًا هاتفنا لاحقًا".

بقيت الخطوط مشغولة طوال الصباح. هاتفتهم مرات عدّة بعدها لكن لا فائدة. فحتى ذلك الإقبال على الاتصال بهم لم أعهده قط.

الساعة الثانية بعد تناول الغداء، جاء المدير إلى غرفة الأقراص الصّلبة.

"أحمل أنباء أريد إيصالها إليكن" قال، وكان مظهره مُفزعًا: شعره محلول وغير مرجّل، بعينين حمراوين متذبذبتَين، كأنّه قضى وقتًا طويلًا يحتسي الشّراب.

نظرنا إليه جميعًا، وأطفأنا آلاتنا. عدَدُنا في تلك الغرفة كان ثماني سيّدات تقريبًا، أو عشر.

"آسف" قال، "لكنه القانون. إنني حقًّا آسف"

"تأسف على ماذا؟" قالت إحدانا.

"أنا مضطر إلى صرفكن من العمل" قال، "إنه القانون. أنا مضطر. أنا مضطر إلى صرفكن جميعًا" قال ذلك بهدوء جمّ كأننا حيوانات بريّة، ضفادع حبسها في جرّة، لكن إنسانيّته تدفعه إلى إطلاقنا.

"هل طُردنا من العمل؟" قلتُ، ثم نهضت، "لكن ما السبب؟"
"لستن مطرودات" قال، "بل مسرّحات، لا يمكنكن العمل هنا بعد اليوم. إنه القانون". وخلّل شعره بأصابعه، واعتقدتُ أنّه جُنّ. ضغوط العمل أثقلته حتّى فصلَت أسلاكه.
"لا يمكنك فعل ذلك هكذا ببساطة" قالت المرأة الجالسة جواري. "إنّ كلامك دون منطق، لا يصحّ قوله، أشبه بما قد يقوله أحدهم في برنامج تلفازيّ".
"ليس أنا من قال" أجاب، "أنتن لا تفهمن ما يحدث. انصرفن أرجوكن، حالًا" ارتفعت نبرة صوته، "لا أريد أيّ متاعب، فلو حدثت ستضيع بعض الكتب وتتحطم بعض الأشياء..." ثمّ نظر وراءه. "إنّهم يقفون في الخارج" قال، "في مكتبي. إذا لم تنصرفن حالًا سيأتون إلى هنا بأنفسهم. لقد أمهلوني عشر دقائق"، وبقوله ذلك بدا كلامه لنا في مُنتهى الجنون.
"إنّه معتوه" صاحت إحدانا. وهو ما كان يدور في أذهاننا جميعا.
لكنني استطعتُ من مكاني أن أرى الرّواق، ثمّة رجلان واقفان في زِيّ رسميّ، مسلّحان. المشهد مسرحيّ بما يدعو إلى تكذيب حقيقته، لكنّهما هناك: خيالان، مرّيخيّان. كانا يحملان صِفةً حُلميّة بشكلٍ ما: ساطعَين جدًّا، ويتناقضان تمامًا مع محيطهما.
"فقط اتركن الآلات" قال، فيما كنا نجمع أشياءنا الخاصّة، ونصطفّ خارجات. كأنّ في استطاعتنا حملها معنا.
وقفنا مُجتمعات على درَج المكتبة الخارجيّ. لم نعرف ما نقوله لبعضنا. فلا واحدة منّا فهمت ما يحدث. تبادلنا النظرات بعضنا إلى وجوه بعض، فرأينا الفزع، ورأينا خزيًا صريحًا، كأنّه عُثر علينا نقوم بأمرٍ لا ينبغي فعله.
"هذا مُشين" قالت امرأة، لكنّها لم تكن تؤمن بما قالته. ما ذلك الشعور الذي اجتاحنا ساعتئذ، أننا نستحق ما حدث لنا؟

عندما عُدت إلى البيت لم أجد أحدًا هناك. لوقا ما زال في عمله، وابنتي في مدرستها.

شعرتُ بالتّعب حتى العظام. لكنني عندما جلستُ، نهضت من جديد. لم أستطع السّكون. رحتُ أجول البيت غرفةً غرفة. أتذكّر أنني رُحت ألمس الأشياء، دون وعْي، بل مجرّد أن تحُطّ أصابعي على الأشياء: محمصة خبز كهربائية، جفنة السكّر، منفضة سجائر في غرفة الجلوس. وبعد وهلة حملتُ القطة معي أثناء تجوالي. أردتُ أن يعود لوقا إلى البيت حالًا. اعتقدتُ أنه ينبغي عليّ القيام بأمر ما، أن أتخذ إجراءً ما. لكن لم أعرف ما يُمكنني فعله.

حاولتُ مهاتفة المصرف مرة أخرى. الرسالة المسجّلة نفسها. سكبتُ لنفسي كوبَ حليب – قلتُ لنفسي إنني أكثر توتّرًا من أحتاج إلى قهوة – ثم ذهبتُ إلى غرفة المعيشة، وجلستُ على الأريكة واضعةً الكوب على المنضدة، في حِرص، لكن دون أشرب منه شيئًا. رفعتُ القطة إلى صدري كي أشعر بهزْهرة أنفاسها تجري في حلقي. وبعد بعض الوقت، هاتفت أمّي في شقّتها، لكن أحدًا لم يُجب. استقرّت أمي وقتئذ، فقد كفّت عن الانتقال بين الشّقق من سنة إلى أُخرى. باتت تعيش في ما وراء النهر، في بوسطن. انتظرتُ بعض الوقت ثم هاتفتُ مويرا. لكنها لم تُجب أيضًا. لكنني عندما عاودتُ مهاتفتها بعد نصف ساعة أجابتني. قضيتُ الوقت بين المهاتفتَين جالسة على الأريكة، وكلّ ما فكّرت فيه هو وجبة الغداء المدرسيّة التي ستتناولها ابنتي. قلت لنفسي إنني ربما أكثرتُ من إعطاءها لُفافات الفول السوداني لتأكلها كلّ يوم

"لقد طُردتُ" قلتُ لمويرا فور رفعها السماعة. فقالت إنها آتية فورًا. كانت تعمل حينها في منظمة تعاونية نسويّة، قسم النشر، حيث يُصدرون كتبًا عن تنظيم الأُسرة، والاغتصاب، وأمور أخرى مُشابهة، رغم أن الإقبال على هذه الكتب ضعيف جدًّا، كما كان الحال دومًا.

"آتية فورًا" قالت. لابُدّ أنها عرفت من نبرة صوتي أنّ ذلك ما كنت أريده منها.

جاءت بعد لأْي. ألقت معطفها وبسطَت أطرافها في المقعد الكبير. "أخبريني" قالت، "أننا سنحتسي الشّراب أوّلًا".

ثمّ هبّت واقفة وذهبت إلى المطبخ. سكبَت ويسكي في كأسين، ثمّ عادت إلى

الجلوس. حاولتُ أن أقصّ عليها ما حدث. وعندما انتهيتُ قالت "هل حاولتِ اليوم الحصول على أي شيء باستخدام بطاقتك الفاحوصيّة[119]؟"

"أجل" قلت لها، وأخبرتها ما حدث أيضًا.

"لقد جمّدوا تلك البطاقات" قالت، "حتى بطاقتي، وكل العاملات في المنظمة التعاونية. إنّ أيّ حساب يحمل حرف أ "أنثى" بدلاً من ذ "ذكر" قد جُمّد. لم يكلّفهم ذلك سوى الضغط على بضعة أزرار. لقد قطعونا".

"لكن في حسابي ألفا دولار" قلتُ، كأن حسابي المصرفيّ هو ما يهمّني وحسب.

"لم يعد مسموحًا للنساء بامتلاك أيّ شيء" قالت، "قانون جديد. شاهدتِ التلفاز اليوم؟".

"لا" قلت.

"لقد أُذيعَ الخبر" قالت، "انتشر في كلّ مكان". لم تكن منذهلة، كما كنتُ. بل بشكل ما كانت جذلانة، كأنّها تنبأت بذلك قبْلًا والآن أثبتت صدقها. بل إنها بدت أكثر حيوية، وتصميمًا. "يمكن للوقا أن يستخدم بطاقة فاحوصك الإتماني، سوف يحولون حسابك إليّه، أو ذاك ما قالوه، الزّوج أو ما يليه من الذكور قرابةً..."

"لكن ماذا عنك؟" قلتُ، فلم يكن لها أحد.

"سألجأ إلى الطّريق السريّة" قالت، "يمكن لبعض المثليّين أخذ أرقامنا وشراء حاجيّاتنا لنا".

"لكن لمَ؟" قلتُ، "لمَ قد يفعلون ذلك؟"

"ليس لنا التساؤل" قالت مويرا "فقد وجب عليهم تطبيق الأمرين معًا كما فعلوا، إلغاء بطاقات الفاحوص الإتمانيّ وفُرَص العمل معًا. هل تتخيّلين حال المطارات إذن! لسوف يمنعوننا من السّفر إلى أي مكان. راهني على صحّة كلامي"

ذهبتُ لأقلّ ابنتي من مدرستها. قُدْتُ في حِرص بالغ. عندما عاد لوقا إلى البيت وجدني جالسة إلى منضدة المطبخ، فيما هي ترسم بالألوان المائيّة على منضدتها

الصغيرة في الركن، حيث علّقنا رسوماتها جوار الثلاجة.

ركع لوقا جواري وعانقني. "سمعتُ الأخبار" قال، "من مذياع السيّارة أثناء عودتي. لا تقلقي، إنّه وضعٌ مؤقّت حتمًا".

"هل أوضحوا لمَ؟" قلت.

لم يُجِب عن ذلك. "سوف نجتاز الأمر" قال، وعانقني.

"أنت لا تُدرك كيف يُشْعِرُك ما حدث" قلتُ، "كأنّهم بتروا ساقَيّ". لم أكن أبكي، ولم أتمكّن من معانقته أيضًا.

"إنها وظيفة وحسب" قال محاولاً تخفيف الأمر.

"أظنّك سوف تحصل على أموالي كلّها" قلتُ، "قبل أن أتوفى حتى". حاولتُ بذلك إلقاء نُكتة ما، لكنّ كلامي حملَ نبرةً جنائزيّة.

"صَه" قال، راكعًا أرضًا. "تعرفين أنني سوف أتواجد دومًا لرعايتك".

فكّرتُ أنّه قد بدأ فعلًا يتفضّل عليّ. ثم قلت لنفسي أنّني بتُّ فزعة أكثر مما ينبغي.

"أعرف" قلت، "أحبك".

لاحقًا، بعد أن خلدَت إلى فراشها، وفيما نتناول العشاء، ما عدتُ أشعر أنّني قلقة، أخبرته بما حدث عصْرًا. وصفتُ له المدير داخلًا علينا، راميًا عبء الخبر إلينا. "لبدا الأمر مسلّيًا لو لم يكن مأساة حقيقية" قلت، "ظننْته مخمورًا، وربما كان كذلك. ممثّلو الجيش كانوا هناك، بكلّ عتادهم".

ثمّ تذكّرتُ أمرًا رأيته لكن لم أتمعّنه، وقتئذ. لم يكن جيشنا، كان جيشًا آخر.

خرجت المسيرات، طبْعا، عدد مهول من النساء وبعض الرجال. لكنّها أصغر ممّا قد تتخيّل. أظنّ أن الناس خافوا. وعندما عُرفَ أن الجيش، أو الشرطة، أو أيًّا كانوا، مستعدّ لرشقنا بالرّصاص حتى قبل أن تشرع أيّ مسيرة في التقدّم، توقفت تمامًا. بعض الأشياء فُجّرت، مكاتب بريد ومحطات قطارات أرضيّة. لكن لا تستطيع الوثوق مَن هو الفاعل. ربما الجيش هو فعلها ليبرّر تفتيشه الحواسيب

وغيرها، البيوت بابًا بابا.

لم أخرج مع أيّ مسيرة. قال لوقا إنّها دون جدوى، وإنّه لابدّ أن أضعهما في اعتباري، أسرتي، هو وهي. لكنني بدأتُ فعلًا في التفكير في أسرتي. رُحتُ أنجز كثيرًا من الأعمال البيتيّة، أخبز وأعجن. بذلتُ جهدي ألّا أبكي أثناء تناولنا وجبات الطعام معًا. فبحلول ذلك الوقت كنتُ أنفجر باكيةً بغتة، دون مسبقات، مُطيلةً الجلوس إلى نافذة غرفتي محدّقة إلى الخارج. لم أعرف جيراني جميعًا. وعندما نتقابل خارجًا، في الشارع، نحرص ألاّ نتبادل أيَّ شيء سوى التحية العادية. لم يرغب أحدٌ أن يُبَلّغ عنه أنّه خائن.

أتذكّر ذلك، فأتذكّر أمي أيضًا قبل سنوات ممّا حدث. عمري أربعة عشر عامًا أو خمسة عشر، ذلك السنّ الذي تكون فيه البنات مُحرجات جدًّا من أمّهاتهن. أتذكر عودتها إلى إحدى الشقق الكثيرة التي سكنّاها، رفقة مجموعة نساء أخريات، جزء من حلقات صداقتها المتغيّرة أبدًا. اجتمعن يومئذ في مُظاهرة تخلّلتها أعمال شغب. تلك كانت أوْج أوقات مظاهرات الأفلام الإباحية، أم كانت مظاهرات الإجهاض؟ حدثت تلك المظاهرات في وقتين متقاربين جدًّا. وقعت انفجارات كثيرة: في عيادات طبية، ومتاجر أشرطة الفيديو. يصعب متابعة تسلسلها حقًّا. حملَ وجه أمي كدمةً، وكانت عليها بعض الدماء. "لا تستطيعين أن تمدّي يدك من نافذة إلّا ويقطعونها لك" قالت معقّبةً على ما أصابها، "خنازيرٌ لعينة".

"نازفون ملاعين" قالت إحدى صديقاتها. كُنّ قد أطلقن على المحتجّين الآخرين ضدّهم بالنّازفين، إثر حملهم شعارًا يقول «اتركوهن ينزفن». وإذن، لابُدّ أنها كانت مظاهرات الإجهاض.

ذهبتُ إلى غرفتي لأبتعد عن طريقهن. كن يتحدثن كثيرًا جدًّا، وبأصوات مرتفعة للغاية. تجاهلنني، فحَنَقتُ عليهن، أمي وصديقاتها الغِلاظ الطّبع. لم أفهم لمَ كان عليها أن ترتدي على ذلك النحو، مِشْمَلًا كما لو أنها فتاة صغيرة، أو لِمَ تُكثر من الشّتم.

"يا لك من مُحتشمة" تقول لي، بنبرة توحي أنّها مسرورة لذلك. لكنها أرادتني متمرّدة أكثر ممّا كنت عليه، أكثر انتفاضًا. "لطالما كانت الفتيات الغريرات محتشمات".
أحدى أسباب معاندتي رغبتها تلك هو، حتمًا، الاعتياد، اللامبالاة. لكنني أردتُ منها أيضًا حياةً أكثر استقرارًا، أقلّ تعرّضًا للمؤقّت، للترحّل.
"كنتِ نِعمةً أرادها الجميع. يعلم الله ذلك" كانت لتقول في بعض الأوقات، تتأمّل ببطء دفاتر صوري المؤطّرة. إنها دفاتر انتفخت بصوري مع أطفال آخرين، نُسَخٍ عنّي، نُسَخ راحت تتضاءل في الدفتر كلّما تقدّمتُ في السنّ، كأنّ التعداد السكّاني لنُسَخي قد أُصيب بالطّاعون. تقولُ أمي ذلك متأسفة، كأنّني تكشّفت عن شخصيّة لم تتوقعها قط. لم تكن أيّ أمٍّ، قط، مثالًا حقًّا لفكرة الطّفل عن الأم. وأفترض أن ذلك صحيح أيضًا لو عكسناه. لكنّنا، رغم كل شيء، لم نُسِئ إلى بعضنا في علاقتنا، بل أنجحنا معظمها.
أتمنى لو كانت معي هنا، لأستطيع أن أخبرها أنّني أخيرًا عرفت ذلك.

هناك من خرج من البيت، أسمع من البُعد صوت انطباق باب يأتي مائلًا، ووقع أقدام على الممشى. إنّه نِك، أستطيع رؤيته الآن. لقد نزل عن الممشى وراح يخطو في العشب، ليتنفّس هواءً رطبًا أفسدته روائح الأزهار، روائح تفتُّح لُبّها، كأنّ حفنة لقاح رُميت في الهواء، كرائحة بيض المحار في البحر. ذاك التخاصُب كلّه. إنّه يمدّد أطرافه تحت الشمس. أشعر برعشة عضلاته تسري فيه، مثل قطّة تتمدّد مقوّسة ظهرها. قميصه مشمّر الكُمّين، فيما ذراعاه تبرزان عاريتين دون حياء من طيّتَي القماش المطويّ. إنه بالنسبة إليّ مجرّد شارة انطلاق، علم سيمافور[120]. اللغة الجسديّة.
قُبّعته مائلة الآن. أي أنّني مطلوبة هذا المساء.
ما الذي يناله مقابل ذلك، لعِب دور الغُلام الذي في الخدمة دومًا؟ ما الذي يشعر به، وهو يعمل قوّادًا بتلك الطريقة الغامضة للرئيس؟ هل يملأه ذلك اشمئزازًا، أم يرغّبه فيّ أكثر؟ أن ينال منّي أكثر؟ فليست عنده أدنى فكرة عمّا يجري هناك،

بين الكتب. أفعالٌ منحرفة، هذا كلّ ما يعرفه. الرّئيس وأنا، يغطّي كلّ منا الآخر بالحبر، ثم يلعقه كلّ عن جسد الآخر، أم نمارس الحب فوق صُرَر كبيرة من صُحُف محرّمة. حسنٌ، لن يأخذه خياله إلى أبعد من ذلك.

لكن ثق في ذلك، لابدّ أنه يجني فائدةً ما. فلابدّ أن يستفيد الجميع، بطريقة أو بأخرى. سجائر إضافية؟ حُريّة أكبر لا تُتاح للعامّة؟ وعلى أيّ حال، ما الذي يستطيع إثباته؟ إنّ وشايته، إذا وشى، ستصطدم بكلام الرّئيس نفسه، لا أنا. إلّا إذا أراد أن يتقدّم مجموعة عيون مُراقبة، ويركل الباب ثم يقول لهم: ماذا قلتُ لكم؟ ها هما بالجُرم المشهود! معصية الأحرف اللوحيّة. فلتأكل حالًا تلك الكلمات[121]!

وربما يشعُر بالرّضا عن نفسه لمجرّد معرفته أمرًا سريًّا. أنّه قد نالَ منّي، كما يقولون. إنّه ذلك النوع من القوّة التي تستطيع استعمالها مرّة واحدة فقط. أودُّ لو أستطيع التفكير فيه بشكل أفضل.

تلك الليلة، بعد فقداني وظيفتي، أراد لوقا أن يمارس معي الحب. لمَ لمْ أرغب في ذلك؟ كآبتي وحدها دافعٌ كاف لإثارتي. لكنني لم أنفكّ أشعر بخَدَر ما. بالكاد شعرتُ بيديه تتحسّساني.

"ما الأمر؟" قال.

"لا أدري" قلتُ.

فقال "ما زلنا نملك..."

لكنه لم يُكمل ما الذي ما زلنا نملكه. خطرَ لي أنّه ينبغي ألا يقول «نا»، فلا شيء ممّا أعرفه قد أُخذَ منه.

"نملك بعضنا" قلتُ، وتلك حقيقة. لماذا إذن أبدو، حتى لنفسي، لا مبالية إلى ذاك الحدّ؟

قبّلَني عندئذ، كأنّ ما قلته قد أعاد كل شيء إلى نصابه كما اعتدنا. لكن شيئًا ما قد تحرّك، اختلّ التوازن. شعرتُ أنني أتضاءل إلى حدّ باتت عنده يداه حين تعانقني

كي تلمّني لا تجد سوى دُمية صغيرة، شعرت بممارسة الحب تتقدّم في طريقها دوني.

وهو لا يمانع ذلك، فكّرتُ. لا يمانعه أبدًا. بل ربما أعجبه الأمر. فلم يعُد أحدنا ملكًا للآخر بعد الآن. بل أنا له.

جُور، ظُلم، كذب، لكن ذلك ما حدث.

لذلك يا لوقا: ما أريد سؤالك الآن، ما أحتاج إلى معرفته هو، هل كنتُ على حقّ؟ لأننا لم نتحدث في هذا الأمر قط. فبحلول السّاعة التي يُمكنني خلالها مناقشة ذلك معك، خفتُ. ليس في وسعي أن أخسرك.

أجلس في غرفة الرئيس، أواجهه على الجانب الآخر من مكتبه، مقعد العمل، كأنّني في مَصْرِف وأناقش أمر اقتراض مبلغ ماليّ كبير. لكن بغض النظر عن مكان جلوسي في الغرفة، فإنه لم يبقَ من الأمور الرسميّة بيننا شيء يُذكَر. لم أعد أجلس مشدودة الرقبة، مستقيمة الظهر، ضامّةً رجليّ إلى بعضهما وثابتتين على الأرض، بعينين تترقبان أقلّ حركة. بل ارتخى جسدي، انبسَط في فوضى تقريبًا. حذائي الأحمر مخلوع، وقدماي مثنيّتان تحتي في المقعد، جالسةً عليهما، تغطيهما تنّورتي الحمراء، حقًّا، لكن أطرافها مثنيّة معهما أيضًا، كما كنا نفعل عندما نجلس حول نيران المخيَّمات في أيام النّزهات الكثيرة التي خَلَت. لو أن هناك نارًا مشتعلة في الموقد لتلألأت انعكاساتها على تلك الأسطح الملمّعة، وترقرقت بنعومة على لحوم أجسادنا. أضيفُ ذلك إلى المشهد: ضوء النيران.

أمّا الرّئيس فلم يبدُ قط في هذه الحالة من التبسُّط كما هو هذا المساء. لقد خلع معطفه، وشمّر عن مرفقيه مُسندًا إياهما إلى المكتب. عودُ تخليل أسنان هو كلّ ما يحتاجه إليه، يُعلّقه في ركن فمه، كي يبدو مثل إعلانٍ لنشر الديمقراطية في الأرياف، منقورٍ على قطعة خشب. أو مثل الصّور التي تشكّلها نقاطٌ مدوّرة كثيرة متراصّة، كما في الكتب القديمة المحروقة.

مربّعات الأحرف تمتلئ أمامي في لَوح اللعب: إنني أُقدم على حركتي قبل الأخيرة هذه الليلة. "ضازَ" أتهجّى هذه الكلمة المؤاتية، ذات المقطع الواحد، وحرف الضّاد الكريم[122].

"هل تلك كلمة؟" يقول الرئيس.

"نستطيع بحثها في القاموس" أقول، "إنها لفظة مهجورة".

"سأهبها لك" يقول. يبتسم. يُسَرّ الرّئيس عندما أتميّز، أتباهى بمعارفي، مثل حيوان منزليّ مدلّل، أذناه قائمتان في استعداد وحماس لإتمام الأوامر. يغمرني استحسانه

مثل مياه استحمام دافئة. لا أحسّ فيه أيّ حزازة، كما اعتدتُ استشعارها في الرّجال طُرًّا عندما أتفوّق عليهم، حتى في لوقا نفسه أحيانًا، إنّه لا يُشير إليّ في ذهنه بالعاهرة. يتصرّف معي في الحقيقة بأبَويّة، إيجابيّة. يسْعَد إذ يُسلّيني، وأنا حقًّا أتسلّى، أجل، أنا كذلك.

وبمهارة يجمع محصّلة نقاطنا بفاحوصِه الجيبيّ[123]. "لقد نجوتِ هذه المرّة"، يقول، فشككت أنّه يغشّ لصالحي، يُداهنني، يضعني في مزاج حسَن. لكن لمَ يفعل ذلك؟ ما زال السؤال قائمًا، فما الذي سيناله من تدليلي هكذا؟ لابدّ أن هناك شيئا ما.

يعود إلى الوراء مستندًا، شابكًا أصابعه بعضها ببعض، هيئة باتت مألوفة لي الآن. لقد رسّخنا مجموعة حركات كتلك بيننا، مجموعة نألفها. إنه ينظر إليَّ، لا نظرة يُريد بها شرًّا، بل نظرة فضول، كما لو كنتُ لُغزا ينبغي حلّه.

"ماذا تحبين أن تقرئي الليلة؟ " قال. هذا أيضًا بات عادة مألوفة. قرأت حتى الآن أعدادًا من مجلّة مدموزيل، وإسكواير – إحدى الطبعات الثمانينيّة – وأخرى اسمها الآنسة، أتذكّر رؤيتها دون وضوح في إحدى شقق أمّي العديدة أثناء مراهقتي، وأيضًا عددًا من مجلّة ريدرز دايجست[124]. حتى أنّ عنده روايات. قرأتُ رواية لرايموند تشاندلر، والآن تجاوزت منتصف رواية "أوقات عصيبة" لتشارلز ديكنز. خلال هذه الفُرَص أقرأ في عُجالة، نهَم، أكاد أتصفح الكتاب محاولة أن أتناول منه ما استطعت، قبل حلول المجاعة المديدة. لو أن الكتبَ طعامٌ لتناولتها بشراهَة المُجَوّع، ولو أنّها جنس لاختلسته سريعًا وقوفًا في زقاق جانبيّ.

أثناء القراءة، يجلس الرئيس يراقبني أفعل ذلك، دون أن ينبس حرفًا، ودون أن يرفع عينيه عني. تلك المراقَبة سُلوك جنسيّ مُريب، أشعر أنني عارية. ليْته يدير إليّ ظهره، أو يتجول في أرجاء الغرفة، أو يقرأ أيّ كتاب. ربما لاستطعتُ حينها الاسترخاء أكثر، أن أستغرق. لكن، دون ذلك، فِعل القراءة المحرّم هذا يبدو أشبه بالأداء التمثيلي.

"أفضَل الحديث" أقول، فاندهشت لسماعي نفسي أقول ذلك.

يبتسم مرة أخرى. لا يبدو عليه الذهول. ربما توقّع حدوث ذلك، أو أمْرًا قريبًا منه. "أوه؟" يقول، "وعمّ تريدين الحديث؟".

أتلعثم، فأقول "أيّ موضوع، ربما. حسنٌ، أنت مثلًا".

"عنّي؟" يقول، مُبقيًا ابتسامته "أوه، ليس هناك ما يُقال في شأني، أنا مجرّد فتىً عادي".

مزيّف ما يقول، ويا لزيف الكلمات التي ركّب بها كلامه. "فتى؟" لقد صدمَني. الفتيان العاديّون لا يصيرون رؤساء. "لابدّ أنّك تحذَق أمرًا ما أكثر من غيره" أقول. أعرف أنني أحثّه، أجاري غروره وألعب معه، أستدرجه إلى الخارج، وأكره نفسي لما أقوم به، يبعث على الغثيان في الحقيقة. لكننا نتراوَغ، إمّا أن يتكلم هو أو أنا. أُدرك ذلك. أشعر بالكلام يستعدّ داخلي لأني يفيض، فقد انقضت فترة طويلة منذ أن تحدّثت حقًّا إلى أحد. ذاك المُختصَر الهامس الذي تبادلته مع أوفغلِن، أثناء تبضّعنا اليوم، لا يُعتدّ به، لقد كان مجرّد استثارة، تمهيد. إذ بعدما شعرت بالارتياح جرّاء تبادل ذاك القدْر الضئيل من الحديث، أردتُ المزيد.

إذا ابتدرته الحديث قد أزلّ، أقول ما لا يجب قوله. أشعر بذلك قادمًا، خيانتي لنفسي. لا أريده أن يعرف عني كثيرًا.

"أوه، كنت في حقل دراسات السّوق، لأبدأ بهذا" قال دون اهتمام، "ثمّ تفرّعتُ منه".

استغربتُ نفسي. إذ رغم معرفتي أنّه رئيس، فإنني لا أدري هو رئيس ماذا؟ ما الذي يتحكّم به؟ ما هو حقله كما يقولون؟ فالرؤساء لا تُلحَق بمراتبهم أسماء مناصبهم.

"أوه" أقول، في محاولة لأبدي فهمي ما قاله لي.

"تستطيعين القول إنني عالِمٌ بشكلٍ أو بآخر" يقول، "في حدود معيّنة بالطبع".

ثم يمسك عن الكلام بعض الوقت، وأنا أيضًا. يمطّط كلّ واحد منّا صبرَه على الآخر.

أكسر الصّمت أوّلًا "حسنٌ، ربما تستطيع أن تقول لي شيئا، بخصوص مسألة

تشغلني".

تظهر عليه أمارات الاهتمام. "وما ذاك؟".

إنني أتوجّه إلى المخاطر، لكنني لا أستطيع إيقاف نفسي. "إنها جُملة، أتذكّر قراءتها في مكانٍ ما" من الأفضل ألّا أقول أين، "أظنّها لاتينيّة. وظننتُ، ربما تستطيع أن..."، أعرف أنه يملك قاموسًا لاتينيًّا، وقواميس كثيرة أخرى في الرفّ العلويّ يسار الموقد.

"أخبريني" يقول، واضعًا نفسه على مبْعَدة، لكن بتيقُّظ حادّ، أم أنني أتخيّل ذلك؟

"نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم" أقول.

"ماذا؟!" يقول.

لم أنطقها بشكل صحيح. لا أعرف كيف. "يمكنني تهْجِئتها لك" قلتُ، "أن أكتبها".

يتردد إزاء هذه الفكرة الروائيّة. ربما لم يعد يتذكّر أنّه يُمكنني الكتابة. لم أمسك قلم حبرٍ أو حتى رصاص في هذه الغرفة، ولا حتى لأجمع نقاط اللعبة. لقد قال مرّة مازحًا "النساء لا يستطعن الجمع"، وعندما سألته عمّا يقصده، قال "بالنسبة إليهن، واحد زائد واحد زائد واحد زائد واحد لا يساوي أربعة".

"ما الذي تساويه إذًا؟" قلتُ، متوقعة خمسة أو ثلاثة.

"مجرّد واحد زائد واحد زائد واحد زائد واحد!"

لكنه الآن يقول لي "ليكُن" ويدفع إليّ بقلمه ذي الرّأس المدوّر عبر المكتب دون مبالاة، كأنّه يتجرّأ على فعل ذلك. أنظر حولي باحثة عن ورقة أكتب عليها فيناولني دفتر تسجيل نتائج اللعبة، دفتر ملاحظات مكتبيّة تحمل شعار وجه مبتسم صغير أعلى صفحاته. ما زالوا يصنّعون تلك الأشياء.

أكتب الجملة في حِرص شديد، أنسخها عن ذهني، الذي ينسخها عن غرفة الخزانة، «نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم». لقد بدَت لي هنا، في هذ السّياق، لا صلاةً ولا أمْرًا، بل أشبه بنقش حزين، خُربشَت مرّة ثمّ نُسيَت. القلم بين أصابعي مُفعم بالحسّ، تدبّ فيه الحياة تقريبًا. أشعر بقوّته، وقوّة الكلمات التي يحملها.

"القلم حسَدٌ[125]" لقالت الخالة ليديا، مقتبسةً أحد شعارات الدّار، لتحذّرنا من

تلك الأشياء وأمثالها. كانوا على حق، إنّه يسبّب الحسَد. فأنت تُحسَد بمجرّد أن تعرف كيف تمسكه. أحسد الرئيس على قلمه. إنّه شيء آخر أودّ سرقته.

يتناول الرئيس صفحة الوجه المبتسم، ويشرع في الضّحك، وهل هذه حُمرة الخجل التي راحت تنتشر فيه؟ "هذه ليست لغة لاتينية حقيقية" يقول، "إنّها مجرّد نكتة".

"نكتة؟" أقول وقد اعترتني الحيرة، لا يمكن أن تكون مجرد نكتة. هل خاطرتُ بقطع كلّ هذا الطريق إلى هنا، لأمُدّ يدي إلى المعرفة، فأجني نكتة؟ "وما هي تلك النكتة؟".

"أنت تُدركين كيف يلعب أطفال المدارس" يقول. ضحكته شابها شيء من الحنين. أراها الآن، ضحكة مواجهته لنفسه القديمة الماضية. ينهض ويسير نحو أرفف الكتب، ويجذب كتابا من بين كنز دفائنه الثّمينة. لكن لم يكن قاموسًا. يبدو كتابًا قديمًا، مدرسيًّا، صفحاته مطويّة الزوايا ومبقّعة بالحبر. وقبل أن يريني إيّاه، راح يتصفّحه في تأمّل واستعادة. "هاكِ" يقول واضعًا الكتاب مُشرَعًا فوق المكتب قبالتي.

تقع عيني أوّلًا على صورة: تمثال أفروديت الميلوسيّة، بالأبيض والأسود، خُربِشَ لها شاربٌ وحمّالة صدر، وشعر إبطين يتدلّى منها. في الصفحة المقابلة صورة مدرَج كولسيوم الرومانيّ، طُبع اسمه تحته بالإنجليزيّة، وأسفلها بعض التصاريف: لك، لي، لهم. "هناك" يقول، ويؤشّر. وفي الهامش أراها، كُتبت بالحبر نفسه الذي خُربِشَ به شعرٌ لأفروديت: نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم.

"يصعب تفسير لمَ هي مضحكة إلّا إذا كنتِ تجيدين اللاتينيّة" يقول، "لطالما كتبنا عبارات على ذلك النحو. ولا أعرف كيف حصلنا عليها، ربما من التلاميذ الأكبر سنًّا". ثمّ تناسى نفسه وتناساني فيما يقلب الصفحات. "انظري إلى هذه" يقول. الصورة مُعنونة باسم: النساء السابيونيّات[126]. وقد خُربِشَت في الهامش هذه العبارة: بيم بيس بيتّ بيموس بيستس بانتسه.

"هنالك أخرى أيضًا" يقول، "هي: تشيم تشيس تشيته..." لكنّه توقّف وعاد إلى

الوقت الحاضر، خجِلًا. يبتسم مرّة أخرى. هذه المرّة يمكن أن تقول إنّها تكشيرة. أتخيّله منمّش البشَرة، أتخيّله بخصلة شعر نافرة وقد ثبّتها فوق جبينه. أحببته هذه اللحظة.

"لكن ماذا تعني؟" أقول.

"أيّها؟" يقول، "أوه. عبارتك تعني: لا تتركي أبناء الزّنا يسحقونك أرضًا. ظنَنّا أنفُسنا حاذقين جدّا فيما مضى".

أتكلَّف ابتسامة، لكن اتّضحت الأمور أمامي الآن. أعرف ما الذي دفعها لكتابة تلك العبارة في جدار غرفة الخزانة. أستنتج أيضًا أنّها قد تعلَّمتها هنا، في هذه الغرفة. أين إذًا؟ فهي لم تكن تلميذة مدرسة قط. بل معه، هنا، أثناء فترة من فترات استدعاءه ذكريات الصّبا، بعد أن وثقا في بعضهما تمام الثّقة. لست الأولى إذن، لستُ أوّل من نفذ إلى صمته، ومن لعب معه ألعاب حروف طفوليّة.

"ما الذي حدث لها؟" أقول.

"هل كنت تعرفينها؟" تساءل في ذهول.

"بطريقة ما" أقول.

"شنقتْ نفسها" يقول، في تفكُّر، لا حُزن. "وذاك هو السبب في إزالتنا سِراج الضوء من غرفتك". يصمت. "كشفَت سيرينا أمرنا" يقول، كأنّ ذلك يوضح كل شيء. وهو كذلك حقًّا.

إذا مات كلبك، اجلب آخر.

"بمَ شنقت نفسها؟" أقول.

لا يُريد تزويدي بأيّ معلومة. "هل ذلك يهم؟" يقول. "مزَّقت ملاءة سريرها، أظن. لقد قلّبتُ الاحتمالات".

"أفترض أن كورا هي من عثر عليها" أقول، وأفهم الآن لمَ صرخَت عندما وجدتني على الأرض.

"نعم" يقول، "فتاة مسكينة". يعني كورا.

"ربما يجدُر بي ألّا آتي إلى هنا بعد الآن" أقول.

"ظننْتُ ذلك يُمتعُك» قال في استخفاف، لكن بترقُّب وعينين حادّتين تبرقان اهتمامًا. لو لم أكن قد عرفته جيّدًا بحلول ذلك الوقت، لظننتُ نظراته تلك خوْفًا. "أتمنى أن تواصلي القدوم".

"تُريد لمعيشتي هذه أن تكون مُحتملة" قلتُ، لا بنبرة تساؤل، بل اتّهام صريح، صريح دون لفّ أو دوران. فلو كانت معيشتي هذه مُحتملة، فلا بأس ممّا يفعلونه بي في النهاية.

"أجل" يقول، " أنا كذلك، وأريد ذلك حقًّا".

"حسنٌ إذن" أقول. تغيّر الوضع، أملكُ شيئًا ضدّه الآن. وما أملكه ضدّه هو احتمال موتي نفسه، ما أملكه ضدّه هو شعوره بالذّنب. أخيرًا.

"وماذا تودّين أيضًا؟" يقول، بالخِفّة نفسها، كأنّ الأمر مجرّد تحويلِ ماليّ، لأقلّ الأشياء كُلفة: حلوى، سجائر.

"مع مرطّب الأيدي تقصد؟" أقول.

"أجل، مع مرطّب الأيدي" يقول.

"أودّ..." أقول، "أودّ أن أعرف" وكانت نبرتي متردّدة، بل حمقاء. قلتُ ذلك دون إمعان تفكيري.

"تعرفين ماذا؟" يقول.

"كلّ ما يجدُر بي معرفته" أقول، لكن ذلك لا يبدو طلبًا جادًّا محدّدًا. "أريد أن أعرف ما الذي يحدث حقًّا في الخارج".

XI

ليل

يهبط الليل. أو هبَط الليل. لمَ نقول هبطَ الليل، ولا نقول طلعَ الليل، كما نفعل مع الفجر؟ إذا نظرت شرقًا وقتَ الغروب فسترى الليل يطلع، لا يهبط، الظلام يصّاعَدُ في السماء، من آخر الأفق، مثل شمس سوداء خلف سجّادة سحابيّة. مثل دخان من نيران خفيّة. خطّ نارٍ أُفقيّة في آخر المدى، أدغال تحترق، أو مدينة تشتعل. ربما الليل يهبط لأنه ثقيل، ستارة سميكة تنسدل فوق أعيننا، لِحافٌ صوفيّ. ليت رؤيتي في الظلام أوضح ممّا هي عليه.

هبطَ الليل، إذن. أشعر بثقله يدفعني إلى أسفل سافلين، كأنّه صخرة. لا نسيم يهبّ. أجلس جوار النافذة المواربة، الستائر مُزاحة، فلا أحد في الخارج، لا حاجة إذن إلى الاحتشام. ثوب نومي، الطويل الأكمام رغم الصيف، يحول بيني وبين إغراء لحمي نفسه، وبين احتضان نفسي بذراعين عاريتين. لا شيء يتحرك تحت أضواء القمر الكاشفة. روائح الحديقة تتصاعد كما حرارة الأجساد، لابدّ أنّ هناك أزهارًا تتفتح في الليل، فالرائحة شديدة، أكاد أراها إشعاعًا أحمر، تتماوج صعودًا مثل لألأة الطُّرَق السريعة الأسفلتيّة ظُهرًا.

هناك، في الأسفل، من المساحة المُعشبة، تطلُع قامةٌ ما من بُقعة ظلْماء تحت شجرة الصفصاف، تتقدّم إلى الضوء، فيما ظلّها الطويل معقودٌ بشدّة إلى كعبَيها. هل هو نِك، أم شخص آخر، دون أهميّة؟ يتوقف، يرفع ناظرَيه إلى نافذتي، فتنكشف لي صفحة وجهه بيضاء. هو نِك. نتبادل النّظر. ليس عندي وردة لألقيها إليه، وليس عنده عُودٌ ليعزف لي. لكنّ جوعنا واحد.

جوعٌ لا أستطيع مجاراته. أشُدّ إليّ صفْقةَ الستارة اليسرى لتحول بيننا، حاجبة وجهي. بعد لحظات يستمر في السّير حتى يدخُل خفاءَ مُنعطف الناصية.

ما قاله الرئيس صحيح. واحد زائد واحد زائد واحد زائد واحد لا يساوي أربعة. فكلّ واحد منها يبقى متفرّدًا، ولا سبيل إلى دمجها معًا، ولا يمكن استبدالها، واحدًا

لواحد. ولا يمكن أن يحلّ واحدها مكان آخر. لا يمكن أن يحلّ نِك محلّ لوقا، أو أستبدل لوقا بنك. المُمكنات لا تسري هنا.

"لا يمكنك إنكار ما تشعرين به" قالت مويرا مرّة، "لكن يمكنك تغيير سلوكك نحوه". وذاك كلام حسَن.

لكنّ السّياق هو المهم. أم أنّها الأُهبة[127]؟ أحدهما أو الآخر.

في الليلة السّابقة على مغادرتنا البيت، ذاك الوقت الأخير، كنت أتجول بين الغرف. لم نحزم شيئًا من أمتعتنا سوى أقلّها، فلم ننوِ حملَ كثيرٍ معنا، ولم نكُن لنُغامر بإظهار أيّ علامة على عزمنا الرّحيل. لذا رحت أتجوّل فقط، هنا وهناك، وأنظر إلى الأشياء، إلى القطَع التي جمعناها ووضعناها معًا، إلى حياتنا. ظننتُ أنّي، لاحقًا، سأتذكّر كيف تبدو تلك الأشياء، كلّها.

لوقا كان في غرفة الجلوس. عانقني. شعر كلانا بالتعاسة. كيف لنا معرفة أنّنا سعداء، حتى في تلك اللحظة كنّا كذلك؟ امتلكنا على الأقل تلك الأشياء: أذرعة، تحتضننا.

"القطة" ذلك ما قاله.

"القطة؟" قلتُ، فيما رأسي على صوف قميصه.

"لا نستطيع تركها في البيت بهذه بساطة".

لم أفكّر في القطّة. كلانا لم يفعل. فقرارنا باغتنا، وحينها انشغلنا في التخطيط لما ينبغي فعله. لابُدّ أنني ظننتها قادمة معنا. لكن لا يمكنها ذلك. لا تستطيع اصطحاب قطّة في رحلة نهاريّة قاصدًا عبور الحدود.

"لمَ لا نتركها في الخارج؟" قلتُ. "نستطيع تركها هكذا"

"ولسوف تحوم في الجوار وتتمسح بالباب وتموء. ولسوف يلاحظ أحدهم أننا رحلنا".

"نهبُها لأيّ أحد" قلتُ، "أحد الجيران". حتى أثناء قولي ذلك، أدركت كم هو اقتراح غبي.

"سأعتني بالأمر"، ولأنه قال "بالأمر" ولم يقُل "بها" عرفتُ أنّه سوف يقتلها. فذلك ما عليك فعله قبْل أن تقتل، محو الهويّة، فراغ. تفعل ذلك أوّلاً ذهنيًا، ثمّ تحقّقه في الواقع. هكذا إذن يفعلونها، فكّرتُ. بدا لي أنّني لم أُدرك ذلك قبلًا.

عثر لوقا على القطة مختبئة تحت سريرنا. لطالما حدسَت القطط موتها. اصطحبها إلى المرآب. لا أعرف ما فعله ولم أسأله. اكتفيتُ بالجلوس في غرفة المعيشة، ويداي مطويّتان في حجري. كان يجب عليّ الذهاب معه إلى المرآب، أن أحمل بعض المسؤولية. وجب عليّ على الأقل، لاحقًا، أن أسأله عمّا حدث، فلا يحمل ذاك العبء وحده؛ فتلك التضحية الصغيرة، إزهاق شمعة الحب تلك، قد جرى في سبيلي أيضًا.

وتلك إحدى فِعالهم. يرغمونك على القتل، داخلك.

اتّضح أن ذلك دون جدوى. أتساءل من وشى بنا؟ ربما أحد الجيران، راقب سيّارتنا تنطلق مبكّرًا في الصّباح، فخمّن الأمر، ورشاهم بمعلومة مقابل نجمة ذهبيّة فارِقة تُقدّمه في تسلسل قائمة ما. وربما هو الشخص الذي تدبّر لنا الجوازات المزوّرة؛ فلمَ لا يتلقّى أجْرَين عوضَ أجْر واحد؟ ويُشبههم تمامًا أن يزرعوا رجال الجوازات المزوّرة بأنفسهم، شَرَكًا منصوبًا للمغفّلين. إنما هي أعين الربّ تجول الأرض كلّها[128].

أتساءل لأنهم كانوا مستعدّين لنا، ينتظروننا. لحظة الخيانة هي الأبْأس، لحظة تُدرك دون شكّ أنّك تعرّضت للخيانة، أنّ إنسانًا آخر تمنّى لك أن تواجه هذا القدْرَ من الشّر.

الأمر أشبه بتواجدك في مصعد قُطعت حباله في الطابق الأخير؛ فيهوي ويهوي دون أن تعرف متى سيرتطم.

أحاول استحضار أرواح أحبّائي، لترفع معنوياتي، أينما كانت. أحتاج أن أتذكر كيف يبدون. أحاول أن أُدخلهم في عينيّ، وجوههم، مثل صور في دفتر صور. لكنهم لا يبقون ساكنين هناك من أجلي، بل يتحركون. كانت هناك ابتسامة، الآن اختفت، وملامحهم تنكمش وتنثني كما ورق يحترق، يأكلهم السّواد. لمْحة،

لمعة شاحبة في الهواء، وهج، فَلَق، كُهيرباتٌ تتراقص، ثمّ يطفو وجهٌ مرة أخرى، تتبعه وجوه. لكنّها تتلاشى، رغم أنني أمدُّ ذراعيّ إليها، فإنها تنزلق بعيدًا، أشباح الفجر. تعود إلى أماكنها أينما كانت. ابقي معي، أريد أن أقول لها ذلك، لكنها لا تبقى.

الخطأ خطأي. إنني أنسى كثيرًا.

الليلة سأتلو صلواتي.

لم أعُد أجثو عند أقدام السّرير، رُكبتاي على خشب أرضيّة القاعة الرياضيّة القاس، فيما الخالة إليزابث تقف عند باب القاعة المزدوج، عاقدةً يديها، وتتدلّى من حزامها عصا الماشية، في حين تذرع الخالة ليديا صفوف الجاثيات بأثواب نومهن، تضرب ظهورنا أو أقدامنا أو أردافنا أو أذرعنا ضربًا خفيفًا، نقْرة، ربْتة، بمؤشّرها الخشبيّ، حين نتراخى أو نتباطأ. أرادت لرؤوسنا أن تنحني بطريقة صحيحة، لأصابع أقدامنا أن تستقيم وتتراصّ بعضها ببعض، لمرافقنا أن تأخذ الزاوية الصحيحة. جزء من اهتمامهم بذلك يعود إلى أسباب جماليّة: اهتمّت بمظهر الشّيء. أرادت لنا أن نبدو آنجلوسكسونيّات، منحوتات شواهد قبور، أو ملائكة بطاقات عيد الميلاد، ملفوفات بأثواب طهارتنا. لكنّها تُدرك أيضًا القيمة الروحية لصلابة الجسد، لانشداد عضلاته. "الآلام القليلة تصفّي أذهاننا" كانت لتقول.

ما صلّينا لأجله هو الخواء، لكي نصبح جديرات بملْئنا: بالمجد، والحب، وإنكار الذات، والمنيّ، والأطفال.

"أوه، ربّي، ملك عرش الكون، لك الشّكر أنْ لم تخلقني رجُلا"

"أوه، ربّي، اطمسني، اجعلني مُثمرة. أثْمِر لحمي، حتى أتكاثر. أجِب صلاتي..."

تنجرف بعضهن مع هذه الصلوات، نشوة احتقار الذات. بعضهن ينُحن ويبكين.

"لا جدوى من جعل نفسك سُخرية للجميع، يا جانين" قالت الخالة ليديا.

أصلّي حيث أنا، جالسة جوار النافذة، ناظرةً عبر السّتارة إلى الحديقة الخالية. وحتى أنني لا أُطبق عينيّ. سيّان في الخارج هناك أو هنا في ذهني، تتساوى الظّلمة، أم النور:

ربّي الذي في سماوات داخلي[129]

هبني معرفة اسمك الحقيقي

غير أنّك ستأخذ مسألتي مأخذَ غيرها.

ليتني أعرف مشيئتك. لكن مهما تكُن

دعني أجتازها برحمتك

أتوسّل إليك، حتى لو لم تكن أنت

مُجريها. فلستُ من المصدّقين

بأنّ ما يحدث هو مشيئتك.

خبز يومي كفاني، وقتك لن أُضيع في طلبه

مُصابي ليس ذاك، بل في ألّا أغُصّ به.

أمّا غُفرانك فقَلقًا لا تقلق الآن

أمورٌ أجَلّ لابدّ تلتفت إليها:

صُن الناس مثلًا، في عذابهم لا تنسَهم طويلا

ولو أنّهم يموتون، فعجّل.

هَبْهُم سماءً، تلك حاجتنا إليك،

أمّا الجحيم فبأنفسنا نصنع.

أنْ أغفر لمن أخطأ إليّ وأساء هو ما تريد

لمن يُخطئ ما زال ويُسيء هو ما تُريد

جهدي سأبذل، الصّعب سأذلّل.

أمّا التّجربة في الدّار

فالأكل والنوم ليسا تجربة

المعرفةُ تجربة، ما لا تعرفه تجربة،

قالت الخالة ليديا.

معرفةٌ تُحيط بما يحدث لا أريد
لا أحتمل أن أريد.
فمن البراءة إلى المعرفة كان السّقوط[130].
ما أطول ما أفكّر في ثريّا السّقف، زالت الآن،
لكنّ خطّاف الخزانة ناجع، الاحتمالات قلّبتُها،
بثقلك كلّه ادفَع بالحبلِ ولا تُقاوم.
نجّنا من الشّرير
المُلكُ تاليًا والقُدرةُ والمجدُ
وقتًا أحتاج كي تقرّ في قلبي، جهدي سأبذُل
وأقولُ ما قالَته الشّاهدة: تذرّع بالأمل.
مِزقًا تشعُر أنّك مِزقا
عرفتَ ذلكَ قبْلا
صبرًا لا أصبر لو أنني أنت
بل غضبًا أغضب
لهذا لستُ أنت.
كأنّني أتسرمَد إذ أحادثك هكذا
إلى جدارٍ أهفو
جوابًا منك ليتني ألقى
يا لوحدتي
وحدة التّالف جوار الهاتف[131]
يداي مقيّدتان
ومن أهاتف لو الحُريّة نالتا؟
أوه، ربّي، حياتي ليست مزحة
أوه ربّي، أوه ربّي، كيف لي،
كيف لي المُضيّ فيها؟

XII

إيزابل

كلّ ليلة، حين أضطجع للنوم، أفكّر أنني سأستيقظ صباحًا في بيتي، وستعود الأمور إلى ما كانت عليه.

لم يحدث ذلك هذا الصّباح، أيضًا.

أرتدي ملابسي، الملابس الصيفيّة، فما زلنا في الصّيف، كأنّ الفصول توقّفت عنده. يوليو، نهاراته الخانقة ولياليه الدافئة مثل حمّامات بخاريّة، لا تجعل للنّوم سبيلا. أضع علامةً كي أبقى مُدركة كم مضى من الوقت، يجدُر بي أن أخمش الجدار كلّ يوم خلال الأسبوع، وأشطبها بخطّ أفقيّ عندما يكتمل نصابها سبعة. لكن ما جدوى ذلك؟ فأنا لا أقضي هنا حُكمًا قضائيًا بالسّجن. فلا فترة زمنيّة محدّدة تنتهي كي أخرج، سوى إلى مقرٍّ آخر. على أيّ حال، إنّ كلّ ما عليّ فعله هو السّؤال، كي أعرف في أيّ يومٍ نحن. حلّ بالأمس يوم الرّابع من يوليو، الذي لطالما كان يوم الاحتفالات بإعلان الاستقلال الأمريكي، لكنّهم ألغوا هذا العيد. الأوّل من سبتمبر هو عيد العمّال، لم يُلغوه. رغم أنّه، خلاف الآن، لم يكن له فيما مضى أيّ علاقة بالأمّهات!

لكنني أقرأ الوقت من القمر. أنا قمَريّة، لا شمسيّة[132].

أنحني كي أرتدي حذائي الأحمر، الصّيفي، الأخفّ من سابقه، ويحمل شقوقًا طُوليّة، لكنها ليست جريئة كما الصّنادل. أحتاج جهدًا كي أنحني، هذا الحَدَب، رغم ما أمارسه من تمارين رياضية. أشعر بجسدي يتيبّس تدريجيا، يرفضني. أن تكوني امرأة على هذا النّحو، هي فكرتي عن العجائز. بل أشعر أنني أسير على ذاك النحو: حدباء، يتقوّس عمودي الفقري إلى علامة استفهام، فيما عظامي ينقصها الكالسيوم وهشّة مثل الحجر الجِيْريّ. في صِغَري، عندما أتفكّر في التقدّم في السنّ، ظننتُ أنّك ربما ستُقدّر الأشياء أكثر عندما لا يعود أمامك متّسع من الوقت لها. نسيتُ أن أذكُر فقدان القوّة. إنني أشعر أحيانًا بتقدير

خاص للبيض، والأزهار، لكنني أفكّر عندئذ أنني تحت وابلٍ من هجومٍ عاطفيّ، أَرِقٌّ، ذهني يصوّر ذاكرته بألوان باستيليّة، كما غروب الشمس المذهل في بطاقات المعايدة التي اشتُهرت بها كاليفورنيا.

كما القلوب التي تبرُق في البطاقات أيضًا.

أمّا الخطر، فذهني لا يراه.

ليت لوقا هنا، في غرفة النوم هذه، بينما أرتدي ملابسي، لكي نتشاجر. سخيف، لكن ذلك ما أريد. جدال، حول أيّنا يجب أن يضع الأطباق في الغسالة الكهربائيّة. وطَوي ملابس الغسيل هو دَوْر مَن هذه المرّة، أو ينظّف الحمّام. أيّ شيء يوميّ وغير مهم في الخطة الكّبرى لحياتنا. بل إننا قد نتشاجر حول ما هو مهمّ وغير مهمّ. يا للرّخاء لو حدث ذلك الآن. لا يعني ذلك أننا تجادلنا كثيرًا. خلال هذه الأيام أستدعي نصوص حوارات مشاجراتنا كاملة في ذهني، والمصالحات التي تعقبها.

أجلس في مقعدي. إكليل الزّهر الجصّي في السقف يعلوني هالة متجمدة، مدوّرة مثل فم، مثل ثقب مكان نجمة انفجرت. مثل حلقة، فوق مياه، حيث أُلقي الحجر. الأشياء كلّها بيضاء ومدوّرة. أنتظر أن يفكّ اليومُ طيّاته، أنتظر الأرض أن تدور، حسب وجه السّاعة المدوّر العنيد، تلك الأيّام الهندسيّة التي تبقى تدور وتدور في السّاعة، في نعومة وانسيابٍ زَيْتيّ. العرق نزّ فعلًا من شفتي العليا، أنتظر وصول البيضة المحتمّة، ستكون فاترة كما الغرفة، بقشرة رقيقة خضراء فوق صَفَارها بمذاق كبريتٍ خفيف.

اليوم، في وقت لاحق، مع أوفغلن، في رحلة شراء الحاجيّات:

نذهب إلى الكنيسة، كالمعتاد، ننظر إلى القبور. ثم نذهب إلى الحائط. جثّتان فقط معلّقتان اليوم: الأولى كاثوليكية، ليست لقسّيس حتمًا، وعليها لافتة رُسمَ فيها صليب مقلوب. والأخرى لرجل ينتمي إلى طائفة لا أميّزها. لافتة الجثّة تحمل فقط حرف ألفٍ بلون أحمر. وهذا الحرف لا يرمز إلى أنّه ابن يعقوب،

يهوديّ، فأولئك يُرمَز لهم بنجوم صفراء[133]. وعلى أيّ حال، ليس هناك من اليهود كثير، فقد نُوديَ عليهم بأبناء يعقوب، وبذلك صاروا مميّزين جدًّا، فمُنحوا حقّهم في اختيار مصيرهم. إمّا أن يتحوّلوا من دينهم إلى دين جلعاد، أو يُهاجروا إلى إسرائيل. فهاجر عدد كبير منهم، لو صدّقنا قنوات الأخبار. رأيتهم في التلفاز، قواربَ امتلأت بهم، يتّكئون بمعاطفهم السوداء وقبّعاتهم ولحاهم الطويلة، مُحاولين أن يبدوا يهوديّين ما استطاعوا بأردية انتشلوها من الماضي السّحيق، والنساء لففن الأوشحة حول رؤوسهن، يبتسمون ويلوّحون، بحركات مشدودة قليلًا، كأنّهم يصطفّون لالتقاط صورة. رأيت أيضًا في التلفاز اليهود الأكثر غنى من أولئك، واقفين في صفوف من أجل الصعود إلى الطائرات. تقول أوفغلن إن أناسًا تمكّنوا من الهرب بتلك الطريقة مُدّعين أنّهم يهود، لكنّه لم يكن بالأمر السّهل بسبب اختبارات إثبات ذلك، وقد ضيّقوا الأمر الآن أكثر.

لكنك لن تُشنَق لأنّك يهوديّ وحسب. بل إذا كنت يهوديًّا مُزعجًا لم يُحدّد خياره بعد، أو إذا ادّعى تحويل دينه. ذاك أيضًا أذاعه التلفاز: مداهمات ليليّة، وذخائر سرّيّة من الأغراض اليهودية تُسحَب من تحت الأسرّة: كتاب التوراة، ووشاح صلاة مُوَشّى، قنّينة نبيذ دِرع داوود. مُلاّك تلك الأغراض، بوجوههم العنيدة، دون ندم، قادتهم العيون إلى جدران غرف النوم، فيما صوت المذيع المتأسّف يحكي لنا فيما المشاهد تُعرَض دون صوت عن الغدر والعقوق.

إذن حرف الألف ليس ابن يعقوب يهوديّ. ما الذي يُقصَد به إذن؟ أشْهَاد يهوَه[134]؟ أليسوعيّين[135]؟ مهما كان قصدهم، فإنّ الميت ميت.

بعد ذلك التأمّل الروحانيّ نُكمل طريقنا، متّجهات كالمعتاد إلى مكان مكشوف نقطعه كي نستطيع التحادث أثناء ذلك، لو كان ذلك حديثًا، فنحن نتهامس بشفاه مضمومة دافعاتٍ الكلام إلى جدران قلنسوّتَينا كي يصل إلى مبتغاه. إنه أشبه بالتراسُل البرقيّ، إشارات لفظيّة. حديث مبتور.

لا يمكننا إطالة الوقوف في مكان واحد، أبدًا، فلا نُريد أن يلتقطونا بتُهمة العبث. اليوم ننعطف إلى الاتجاه المعاكس لدكّان لفائف الرّوح، حيث توجد حديقة

عامة بشكل ما، تحوي مبنى واسعًا قديمًا، من الطراز الفيكتوريّ المتأخر، مُبقّع الزّجاج، كان يُطلق عليه القاعة التذكاريّة، لم أُدرك قط ما الّذي تُذَكّر به، أناس ماتوا بشكلٍ ما.

مويرا قالت لي إن تلك القاعة كانت مكان تناول طلّاب السّنة الأولى طعامهم في الأيّام المبكّرة من تأسيس الجامعة. "إذا دخلت امرأة إلى هناك فإنهم يقذفونها بالكعك" قالت.

"لمَ؟" قُلت. أصبحت مويرا بمرور الوقت متمكّنة من التندّر على ما مضى، لم أستسغ ذلك فيها. لم أحب تشبثها باتّخاذ موقف ضدّ الماضي.

"ليدفعوها إلى الخروج" قالت مويرا.

"ربما كان ذلك أشبه برَمْي الفول السوداني على الأفيال" قلتُ.

ضحكت مويرا، تستطيع الضحك دومًا. "وُحوش عجيبة" قالت.

توقّفنا ننظر إلى ذلك المبنى الواسع، له شكل شبيه بالكنائس، أو الكاتدرائيّات. تقول أوفغلن "سمعتُ أن هذا هو المكان الذي يُقيم فيه العيون المُراقبة ولائمهم". "مَن قال لك؟" أقول. لا أحد قربنا، نستطيع الانطلاق في الحديث قليلًا. لكننا بسبب العادة نستمر في التحدث بأصوات خفيضة.

"العصفورة!" تقول. تكفّ عن الكلام وتتفقّد المكان على جانبَيها. شعرت بغشاوة بيضاء في الهواء حين تلفّتت سريعًا بقلنسوّتها. "هناك كلمة سرّ" تقول.

"كلمة سرّ؟" أتساءل، "لماذا؟"

"لكي تستطيعين أن تعرفي" تقول، "من هو منّا ومن ليس منّا".

رغم أنني لا أُدرك كيف سينفعني ذاك، فإنني أسأل "وما هي؟"

"يومٌ مايَويّ" تقول، "لقد جرّبتها معك مرّة".

"يومٌ مايَويّ" أكرّر. أتذكر ذلك اليوم.

"لا تستخدميها إلّا حين تضطرّين" تقول أوفغلن، "ليس من مصلحتنا أن نعرف كثيرًا من رفاقنا في الشبكة. فإذا أوقعوا بكِ لن تكوني قد عرفتِ الكثير".

يصعب عليّ الإيمان بما تقوله هذه الهمسات، هذه الكشوفات، فأنا أشعر بإيماني بها وقتَ سماعي بها فقط. فهي تبدو لي لاحقًا بعيدة الحدوث، بل طفوليّة أحيانًا، مثل شيء قد تفعله من أجل المُتعة. مثل نادٍ للفتيات فقط، أو أسرار مدرسيّة، أو تلك الروايات الجاسوسيّة التي اعتدتُ قراءتها نهاية الأسبوع، في الوقت الذي ينبغي عليّ قضاءه في إنجاز واجباتي المدرسيّة، أو مثل مشاهدة التلفاز منتصف الليل. الأسرار، أمورٌ لا تُقال، أُناسٌ بهويّات سريّة، روابط دكناء: لا يبدو شكلًا طبيعيًّا للعالم. لكنّه ما أتوهّمه، الأثر المتبقي من خمرة الحقيقة كما رأيتها أنا وتعلّمتها في الأوقات السالفة.

والشّبكات... التّشبيك، إحدى كلمات أمّي القديمة، كلمة عاميّة عتيقة منذ السّنين الخوالي. حتى في ستينيّاتها من العمر ما زالت تقوم بأمور تُطلق عليها تلك التسمية، رغم أنّ كلّ ما رأيتها تفعله هو تناول غداء مع امرأة أخرى.

أترُك أوفغلن عند الناصية. "أراك لاحقًا" تقول. تنزلق بعيدًا على الرّصيف، فيما أستمرّ صعودًا نحو البيت. ها هو نِك، قبّعته مائلة، واليوم لا ينظُر إليّ حتى. لابُدّ أنه انتظرَ قدومي ساعات طويلة كي ينقل إليّ رسالته الصامتة، فما إن تأكّد أنني رأيته حتى ضرب سيّارة الزّوبعة ضربة أخيرة بقطعة الشّاموا، ثم انطلق في نشاط إلى باب المرآب.

أسير على ممرّ الحصى، بين المساحات المُعشبة باخضرار فائق. سيرينا جوي جالسة تحت شجرة الصفصاف، على مقعدها، مُسندةً مرفقها إلى عكّازها. ثوبها من القُطن الخفيف البارد. لها ثوب مائيّ الزُّرقة، لا حُمرة ثوبي التي تمتصّ الحرارة وتُشعّ بها في آن. جانب وجهها إليّ. إنها تحيك. كيف تحتمل ملمس الصوف في هذه الحرارة؟ ربما تخدّرت بشرتها فلم تعُد تُحسّ شيئًا، كأنّه احترق سابقًا بماء حار. أُخفض عينيّ إلى الممر. أتجاوزها مُنزلقةً آملةً أنني خفيّة، مُدركة أنها ستتجاهلني على أيّ حال. لكن ليس هذه المرّة.

" أوفرِد" تقول.

أتوقف، متردّدة.

"أجل، أنتِ".

أُدير نحوها مساحة رؤيتي الضيّقة.

"تعالي إلى هنا، أريدك".

أقطع العشب وأقف قبالتها، وعيناي إلى الأرض.

"يمكنك الجلوس" تقول، "هنا، هاكِ الوسادة. أريدك أن تمسكي هذا الصوف".

تحمل سيجارة، والمنفضة جوارها على العشب. وثمّة كوبٌ ما، قهوة أو شاي.

"عُقَد الخيوط متقاربة للغاية، اللعنة، يحتاج مَن سيرتديه إلى هواء ينفذ بينها".

أجلسُ، أضع سلّتي. تحوي بعض الفراولة، مرة أخرى، والدجاج أيضًا، وأفكّر في لعنتها: أمر جديد. تثبّت ضفيرة الصّوف التي على شكل حَلَقَة حول ذراعيّ الممدودتين، فأباعد بين ذراعيّ أفقيًا حتى أشدّها، ثم تشرع في تحريك ذراعها حركة لولبيّة في الهواء بحيث يستدير الخيط حول كفّها ليُصبح كُرة صوف لاحقًا، فيما يدها الأخرى تُسهّل انسياب الخيط من الضفيرة الحَلَقيّة. هكذا، صرتُ مُوثَقة، مقيّدة بشكلٍ ما: واقعة في شَرَك عنكبوت، هذا تشبيهٌ أقرب. الصوف رماديّ، وقد تشرّب رطوبة الجو فبات مثل لِحاف طفل رضيع مبلّل، وتنتشر منه رائحة ضعيفة، رائحة نعجة مبلّلة. على الأقل سوف تتدهّن ذراعيّ بدُهن الصّوف.

سيرينا جوي تلفلف يدها في الهواء، فيما السيجارة معلّقة في رُكن فمها، تحترق دون لهب، مُرسلةً دُخانًا يُغريني. تستمر سيرينا في اللفّ في بُطء وصعوبة بسبب الشّلل المتنامي في يدها، لكنها مصمّمة. ربما أن الحياكة، بالنسبة إليها، تعني أيضًا قوّة الإرادة، حتى لو آلمها ذلك. وربما أنّ ما تقوم به كلّه هو وصفة طبيّة في النهاية: عشرة صفوف من الحياكة الحُرّة يوميًا، وعشرة أُخَر بغرزات معكوسة. لكنها حتمًا تؤدّي أكثر من ذلك. إنني أرى تلك الأشجار الأبديّة الخُضرة، وأولاداً وبناتاً يسّاقط عليهم الضوء في أشكال هندسيّة: هذا دليل صلابتها، وأنها لا تستحق أن تُحتقَر تمامًا.

أمي لم تحِك، ولم تمارس أيّ عملٍ يشبه الحياكة حتى. لكنها، إذا أحضرت ثيابها من المصبغة، تنانيرها الجيّدة ومعاطفها الشتائيّة، تحتفظ بدبابيس المشابك المثبتة إليها، ثم تحولها إلى سلاسل، ثم تثبّت السلاسل في أماكن مختلفة: فراشها، وسادتها، ظهر مقعد، قفاز الفُرن؛ وهكذا لن تُضيعَها. ثمّ تنساها تمامًا، وكنتُ أعثر عليها مصادفة هنا وهناك في البيت، في مُختلَف بيوتنا: آثار وجودها، بقايا نِيّةٍ نامَت، مثل يافطات طريق اتّضح أنه لا يُفضي إلى مكان.
ارتدادات إلى الحياة العائلية.

"حسنٌ إذن" تقول سيرينا، ثم تتوقف، تاركة ذراعيّ مكلّلتَين بشعيرات الصوف الحيوانيّة، ثم تجذب عُقْب سيجارتها من فمها لتُطفئها. "لا شيء حتى الآن؟" أعرف ما الذي تتحدث عنه. فليس هناك الكثير مما يمكننا الحديث حوله معًا، لا أرض مشتركة، سوى هذا الأمر الغامض المُوكَل للحظّ.

"لا" أقول، "لا شيء".

"هذا مؤسف" تقول. يصعب تخيّلها مع طفل رضيع. لكن المَرْثيّات سيَرْعَينه غالبًا، ورغم ذلك فإنها تتمنّى أن أحمل، ألد وأُنهي الأمر تمامًا ثمّ أرحل عن طريقها، فلا يغدو بيننا مزيدًا من تلك الاشتباكات المليئة بالعرق والإذلال، أو مزيدًا من المثلّثات اللحميّة تحت سرادقها من الأزهار الفضية البرّاقة. سلام وهدوء. أكاد لا أصدّق أنها تتمنّى لي مثل هذا الحظ السّعيد، لا لي ولا لغيري.

"وقتك بيننا شارف على الانتهاء" تقول، لم تكن تسأل، بل تقرّ حقيقة واقعة.

"أجل" أقول بنبرة محايدة.

إنها تشعل سيجارة أخرى، تتلمّس القداحة بفقدان سيطرة. وضع يديها يسوء، حتمًا. لكن من الخطأ أن أعرض مساعدتي عليها، ستشعر بالإساءة. لا تجوز ملاحظة نقاط ضعفها.

"ربما لا يقدر" تقول، ولست أعرف مَن تقصد. هل هو الرئيس، أم الرّب؟ لو كانت تقصد الرّب لوجب أن تقول إنّه لا يريد. لكن تلك هرطقة في كلا الحالتين. النساء

فقط هُنّ اللائي لا يقدرن، اللائي يبقين مغلقات في عناد، معطوبات، فاسدات.
"لا" أقول، "ربما لا يقدر".
أرفع عينيّ إليها، وتُخفض عينيها إليّ. المرّة الأولى التي تنظر فيها كلّ منا في عينَي الأخرى لحظةً طويلة، منذ تقابلنا. تمتدّ اللحظة فَسيحة صريحة. تُريد أن تعرف هل أدركتُ تلك الحقيقة أم لا.
"ربما" تقول، رافعةً السيجارة التي فشلت في إشعالها، "ربما يجدُر بك المحاولة بطريقة أخرى". هل تقصد أن أجثو للرّئيس على أربع؟ "ما الطريقة الأخرى؟" أقول، ينبغي أن أبقى جادّة.
"مع رجل آخر" تقول.
"أنت تعرفين أنّه لا يمكنني ذلك" أقول، حريصةً على إخفاء توتّري، "هذا ضدّ القانون. تعرفين العقوبة".
"أجل" تقول. إنها مستعدّة لجوابي هذا، فلقد تأمّلَت الأمر مسبقًا. "أعرف أنّه لا يمكنك ذلك رسميًّا. لكنّه يحدُث. النساء يفعلن ذلك أحيانًا. طوال الوقت".
"مع الأطباء تقصدين؟" أقول، متذكّرةً العينين المتعاطفتين البُنيّتين، والكفّين العاريتين من قفّازيهما. عندما ذهبتُ آخر مرّة كان هناك طبيب آخر. ربما كشَفَه أحد ما، أو وشَت به امرأة. رغم أنّهم لن يعتدّوا بكلامها، دون دليل.
"بعضهن يفعلن ذلك" تقول، باتت نبرتها الآن لطيفة، لكنّ صوتها ما زال متعاليًا بعيدًا. بدا الأمر لي كأننا نُناقش أمر اختيار لون طلاء أظافر. "تلك هي الطريقة التي لجأت إليها أوفوارن. بتدبير الزوجة طبعًا" تقول، ثم صمتت، لتسمح لي باستيعاب ما قالته. "ولسوف أساعدك، سأحرص بنفسي ألّا نقع في أيّ خطأ".
أفكر في الأمر. "ليس مع طبيب" أقول.
"لا" توافق على شرطي. وفي هذه اللحظة على الأقل نتآلف. يمكن أن يحدث ذلك حول منضدة مطبخ، مثلًا، ما نناقشه الآن، نحدّد موعدًا غراميًّا، نرسم حِيلةً نسائيّة، نَكِيدُ ونعبَث. "يلجأ بعضهم إلى الابتزاز. لكن ليس عليك أن تقومي بذلك مع طبيب، ربما مع شخص هو محلّ ثقتنا التامّة".

"مَن؟" أقول.

"فكّرتُ في نِك" تقول، وغدَت نبرتها ناعمة. "لقد قضى معنا وقتًا طويلًا. وهو مُخلِص. أستطيع ترتيب الأمر معه".

إذن، ذاك هو الشّخص الذي يتبضّع لها حاجيّاتها من السوق السوداء. فهل هذا ما يجنيه مقابل ذلك؟

"وماذا عن الرئيس؟" أقول.

"حسنٌ" تقول، في صرامة، بل أكثر من ذلك، بعينين ضيّقتهما، مثل حقيبة يدٍ تنطبق مُغلقة. "علينا فقط ألّا نخبره بأيّ شيء، هل سنفعل؟"

تتدلّى هذه الفكرة بيننا، تكاد تُرى، تكاد تُلمَس: ثقيلة، عبثيّة الشّكل، دكناء، تآمُريّة بشكل ما، غدّارة بشكلٍ ما. إنها تريد طفلًا بالفعل.

"تلك مُخاطرة" أقول، "بل أكثر من ذلك". إنها حياتي التي على المحكّ، لكنها ستكون كذلك عاجلًا أم آجلًا، بطريقة أو بأخرى، سواءً فعلتُ ذلك أم لا. كلانا يعرف ذلك.

"إنّه أفضل لك" تقول، وذلك ما أعتقد أيضًا.

"حسنٌ" أقول، "أجل".

تنحني إلى الأمام نحوي. "ربما أستطيع أن أجلب لك شيئًا يخصّك" تقول، فأنا فتاة مُطيعة الآن. "شيئًا تُريدينه" تُضيف، تكاد تتملّقني.

"وما ذاك؟" قلتُ، لا يخطر لي أيّ شيء أريده حقًّا ممّا تستطيع هي أن تجلبه إليّ.

"صورة" تقول، كأنّها تكافئني بمُتعةٍ صبيانيّة، بوظة مثلًا، أو رحلة إلى حديقة الحيوان. أرفع عينيّ إليها من جديد، في حَيرة.

"صورتها" تقول. "ابنتك الصّغيرة، إذا استطعتُ ذلك".

تعرف إذن أين وضعوها، أين يحتفظون بها. لطالما عرفَت ذلك. شيء ما توقّف في حلقي وراح يخنقني. العاهرة، ولم تخبرني، ولم تأتِ لي بأيّ خبر، أيّ خبر على الإطلاق. لم تقُل لي حتى إنّها تعرفها. هذه العاهرة من خشب، من معدن، لا يُمكنها تخيّل عذاب فقدان الضّنى. لكن ليس لي أن قول ذلك، ليس لي أن أفقد

رؤيتي الآن، حتى لو كانت مركّزة على شيء صغير. لا أستطيع أن أتخلّى عن ذلك الأمر. ليس لي أن أتكلّم.

إنها تبتسم، فعلًا، ابتسامة لَعوب، أرى لمحة من شخصيّتها الماضية، جاذبيّة دُمى عرْض الملابس، حين كانت تظهر في شاشات التلفاز، شخصيّة تتوامَض في وجهها، ثمّ زالت سريعًا. "الحَرّ اللعين اشتدّ هنا، أليس كذلك؟" تقول، ثم ترفع الصوف من يديّ، فما زال في ذراعيّ طوال الوقت. وضعت سيجارتها التي كانت تعبث بها في كفّي، في شيء من الرّيبة، وأطبقت أصابعي حولها. "جِدِي عودَ ثقاب" تقول، "إنها في المطبخ، اسألي ريتا واحدًا. أخبريها أنني أمَرْت بذلك. واحدًا فقط"، ثم تضيف في نذالة، "لا نريد لصحّتك أن تتدهورا".

تجلس ريتا إلى منضدة المطبخ، أمامها جفْنة زجاجيّة تمتلئ بمكعبات ثلج تطفو داخلها. أزْهرَ الفجل، ورودًا أو زنابق، مائلة. لوح التّقطيع أمامها، تقطّع مزيدًا منه، بسكّين تقشير، فكفّاها الكبيرتان ماهرتان، لا فرق عندها. بقية جسدها ساكن دون حركة، كذلك وجهها. بدا الأمر وكأنها تفعل ذلك أثناء نومها، خدعة السّكين البارعة. وعلى سطح المنضدة الأبيض اللامع، ثمّة كومة فجل، مغسولة لكن ليست مقطّعة. قلوبٌ أزتيكيّة[136].

لا تتكلّف حتى النظر إليّ حين أدخل. "جلبتِ كلّ شيء، هاه" تقول، فيما أُخرج لها ما في سلّتي كي تراه.

"هل لي بعود ثقاب؟" أقول، مُنذهلةً كيف تدفعني للشعور كطفلة متوسّلة، فقط بجهامتها، بلادتها. يا لشكواي المستمرّة وإزعاجي.

"عود ثقاب؟" تقول، "وما الذي تريدين عود الثقاب له؟"

" قالت إنني أستطيع الحصول على واحد"، متجنّبة الاعتراف بأمر السيجارة.

"مَن قالت؟" سألت، فيما تُكمل تقطيع الفجل دون أن يختلّ إيقاعها. "ليس من سبب يدعو لأن تحصلي على عود ثقاب. ستُحرقين البيت".

"يمكنك الذهاب وسؤالها إن أحببتِ" أقول، "إنها في الخارج على العشب".

قلّبت ريتا عينيها في السّقف، كأنها تستشير في صمت ربًّا لها هناك. تتنهد، تنهض متثاقلة، ومشّت كفّيها في غرور بمريلتها، لتُشعرني كم سببتُ لها من ضِيق. تذهب إلى الخزانة التي تعلو حوض الغسيل، تُماطل الوقت، حتى عثرت على كتلة مفاتيح في جيبها، ثمّ فتحت قُفلَ باب الخزانة. "نحفظها هنا، إنّه الصّيف" تقول كأنّها تُحدّث نفسها، "لا داعي لأي نارٍ في هذا الطقس". أتذكّر شهر أبريل، كيف أنّ كورا هي من كانت تُشعل المواقد، في غرفة الجلوس وغرفة الطعام، حين يبرُد الطقس. عيدان الثقاب خشبيّة، في علبة ذات غطاء ينزلق، من ورق مُقوّى. النوع نفسه

الذي تمنّيتُ في طفولتي امتلاكه لأصنع من عُلَبه خزانة أدراج لدُماي. تفتح العلبة، تُطلّ فيها كأنها تختار عود الثقاب الذي سأناله. "ذاك شأنها" تقول في تمتمة، «لا سبيل إلى الاعتراض بأيّ شكل». تغمس كفّها الضخمة، تختار عود ثقاب، تمدّه إليّ. "والآن لا تشعلي النّار في أيّ شيء" تقول، "ولا في ستائر غرفتك تلك، فالجوّ يُحرقها بما يكفي".

"لن أفعل" أقول، "هذا ليس لإشعال النار".

لم تتنازل لتسألني لمَ أريده. "لا أهتمّ إذا أكلته أو أيّ شيء" تقول، "قالت إنّك تستطيعين الحصول على واحد، فأعطيتك واحدًا، وكفى".

تستدير مبتعدةً عنّي لتجلس مرة أخرى إلى المنضدة. تلتقط مكعّب ثلج من الجفنة الزجاجيّة وتدفعها داخل فمها. وهذا سلوكٌ غريب لم نعتده منها. لم أرها قط تقضم الثّلج أثناء عملها. "يمكنك الحصول على واحدة منها أيضًا" تقول، "من العار أن يجعلوك تضعين أكياس الوسائد تلك كلّها على رأسك، في هذا الجو".

تفاجأت، فهي عادةً لا تعرض عليّ أيّ شيء. ربما فكّرَت أنّه نظرًا إلى ارتفاع مستواي الاجتماعي الذي أهّلني للحصول على عود ثقاب، فيُمكن لها هي أيضًا أن تقدّم لفتةً صغيرة. هل صرتُ بغتة إحدى اللواتي ينبغي استرضاءهن؟

"شكرًا" أقول، وأنقل عود الثقاب في حذَر إلى جيب كُمّي حيث السيجارة، لكي لا يتبلّل، ثم أتناول مكعّب ثلج. "هذه الأزهار جميلة" أقول، كي أقابل بالإحسان هديّتها التي قدّمتها بإرادتها الحُرّة.

"أحبّ أن أتقن عملي، هذا كل شيء" تقول، تشاكسني مجدّدًا، "وإلّا فلا معنى من العمل".

أعبُر الرّواق، أصعد الدرج، مستعجلة. في مرآة الرّدهة التي اجتزتها طيرانًا، رأيت قامةً حمراء لمْحًا بطرف عيني، طيفًا من دُخان أحمر. لقد دخّنتُ في خيالي أيضًا، فعلًا، أشعر به في فمي، ينساب داخلًا رئتيّ، يملؤني بتنهيدة طويلة غنيّة عاصفة

لها طعم القُرفة، ثمّ فورة النشاط ما إن يندفع النيكوتين في الدم.
بعد مرور كل ذلك الوقت من الحرمان، قد أمرض. ولن أتفاجأ حينئذ. لكن رغم ذلك، أهلًا بالدُّخان.

أعبُر الرّدهة كلّها. أين أشعلها؟ في الحمّام، وأُجري المياه كي تنقّي الهواء، أم في الغرفة، وأنفث الدخان بشفتين مزمومتين من النافذة المفتوحة؟ ومَن سيكشف أمري؟ من يعرف؟
رغم إمتاع نفسي في رحلة مستقبليّة كهذه، أستطعم ما أترقّبه وأُديره داخل فمي، أفكر في أمر آخر.
لستُ أحتاج إلى تدخين هذه السيجارة.
أقدر أن أمزّقها وأرميها، مُجريًا عليها مياه المرحاض. أو آكلها فأستفيد من كلّ ما فيها، ذلك ممكن أيضًا، قضمة من حين لآخر، أستديمها.
هكذا أستطيع توفير عود الثقاب. أحفر به ثقبًا صغيرًا في الفراش، وأدسّه فيه بحرص. فشيء ضئيل مثله لن يُلاحَظ. وهناك سيمكث، ليلًا، تحتي فيما أضطجع في السرير. نائمةً عليه.
أقدر أن أحرق البيت بأكمله. يا للفكرة الباهرة، تجعلني أرتعش.
مهْرَب، سريع وضيّق.

أستلقي في سريري، أتظاهر أنني أغفو.

الرئيس، البارحة، يضمّ أصابعه بعضها ببعض، وينظر إليّ منهمكة في توزيع مرطّب الأيدي على بشرتي. غريب. فكّرتُ أن أطلب منه سيجارة، ولكنني أنكرت الفكرة على نفسي. أدرك أنه ينبغي ألاّ أطلب أشياء كثيرة في آن واحد. لا أريد أن يخالجه الظنّ أنني أستغلّه. كما أنني لا أريد مقاطعته.
البارحة احتسى شرابًا أيضًا، مزيج الويسكي والماء. لقد اعتاد أن يشرب كأسًا

في حضوري، "استرخاء بعد نهار طويل" يقول، أستنتج إذن أنه مضغوط في عمله. لكنه لم يقدّم لي كأس خمر قط، ولا أطلب منه، فنحن نُدرك الغاية من جسدي. عندما أقبّله لكي أقول له ليلة سعيدة، كأنّني أعني القُبلة فعلًا، تكون أنفاسه برائحة الكحول، وأستنشقها كأنّها دخان. أعترف أنّ ذلك يُمتعني، لعقة من عالم المجون.

أحيانًا، بعد احتساء بضع جرعات، يُمسي سخيفًا، فيبدأ يغشّ في اللعب بالأحرف اللوحيّة. ويشجّعني على ذلك أيضا، فنأخذ حروفا إضافية، ونُشكّل منها كلمات لا وجود لها أصلاً، مثل «فلفي» و«طوطي» فنتضاحك. وأحيانًا يُدير المذياع ويتركني أستمع إلى إذاعة حرّروا أمريكا[137] دقيقة أو اثنتين، ليُثبت لي أنّه يستطيع ذلك. ثم يُطفئ المذياع مرة أخرى. "اللعنة على الكوبيين" يقول، "تلك السّفاهة".

وأحيانًا، بعد الانتهاء من اللعب، يقتعد أرضية الغرفة جوار مقعدي ويمسك يدي، فيما مستوى رأسه أدنى من رأسي، فإذا رفع عينيه نحوي تكون هيئته قد اتّخذت شكل التودّد الصبيانيّ. لابدّ أنّه يُمتعه، هذا الخضوع الزائف.

"إنّ منصبه عالٍ" تقول أوفغلن، "عالٍ جدًّا، إنّه هناك في القمّة، في قمّة القمّة". لكنه عندما يقوم بما يقوم به، يصعب عليّ حقًّا تخيّله في ذلك المستوى من الرِّفْعَة.

أحاول من وقت لآخر أن أضع نفسي مكانه. أفعل ذلك تحرُّزًا، لكي أُخمن مقدّمًا كيف يمكن له أن يعاملني. من الصعب أن أدّعي سطوةً عليه من أي نوع، لكنني فعلًا أملك بعض السيطرة عليه وإن كانت ملتبسة. أظنّ أنني، بين فترات متباعدة، أستطيع أن أرى نفسي، غبشًا، كما يراني هو. فهناك ما يريد أن يُثبت لي صحّته، وهناك هدايا يريد منحها إليّ، وخدمات يريد تقديمها أيضًا، ومشاعر رقيقة يُريد أن يُزجيها.

هو يُريد، حسنٌ. خاصة بعد احتساءه الشّراب.

أحيانًا يُمسي متذمّرًا، وأحيانًا أخرى فيلسوفًا؛ أم أنّه يحتاج إلى تفسير الأمور وحسب؟ أن يُبرّر نفسه، كما حدث البارحة.

"لم تكُن النّساء وحدهن يُعانين مشاكل، بل إنّ المُشكلة الأكبر عاناها الرّجال، فلم يعد عندهم شيء".

"لا شيء؟" أقول، "لكن لديهم..."

"لا شيء عندهم ليفعلوه" يقول.

"استطاعوا جنْيَ المال" أقول في بُغض. الآن لا أخافه. يصعب أن تخافي رجلًا يجلس يراقبك بينما توزّعين مرطّب اليدين على بشرتك. لكنّ فقدان الخوف خطير.

"هذا لا يكفي" يقول، "ذاك أمرٌ مجرّد جدًّا، أعني لا شيء عندهم ليفعلوه مع النساء".

"ماذا تعني؟" أقول، "لقد كانت نواصي العاهرات في كلّ مكان، حتى بتْن يُقدّمن خدماتهن في عربات متنقّلة».

"لا أتحدث عن الجنس" يقول، "ذاك جزء من المشكلة، أمر الجنس سهل. يستطيع أيّ فرد أن يدفع مقابله. المسألة هي أنّه لم يعد هناك أمر يسعون إليه، يقاتلون من أجله، لدينا الإحصائيّات منذ ذلك الوقت. هل تعرفين ما أغلب ما يشكُون منه؟ فُقدان الشعور، حتى أنّهم عزفوا عن الجنس. وما عادوا يفكّرون في الزواج".

"وهل عادوا إلى الشعور الآن؟" أقول.

"أجل" يقول ناظرًا إليّ، "عادوا". ينهض واقفًا ويستدير حول المكتب، إلى مقعدي. يضع يديه على كتفيّ من الخلف، لا أستطيع رؤيته.

"أريد أن أعرف بمَ تفكّرين؟" يقول.

"لا أفكّر كثيرا" أقول بخفّة. ما يريده هو المواساة، لكنني لا أستطيع أن أمنحه إيّاها.

"لا يكاد يشغل تفكيري شيء. هل هناك ما يستحق؟" أقول، "ما أفكر فيه ليس مهمًّا".

وهذا هو السبب الوحيد الذي يدفعه لأن يُفصح لي عمّا يفكّر فيه هو.

"هيّا" يقول، ضاغطًا بيديه قليلًا، "يهمّني سماع رأيك. أنت ذكية، وحتمًا قد كوّنتِ رأيًا".

"رأيًا في ماذا؟" أقول.

"رأيًا فيما فعلناه" يقول، "رأيًا فيما أسفرتْ عنه الأمور".

أتمالك نفسي. أحاول أن أصفّي ذهني. أفكر في السماء ليلاً عندما يختفي القمر.

"لا أملك رأيًا" أقول.

يتنهّد، ويُرخي يديه، لكنه يتركهما فوق كتفيّ. إنه يعرف رأيي.

"حسنٌ" يقول، "لا يمكنك أن تُعدّي عُجّة بيضٍ دون أن تكسري قشور البيض. اعتقدنا أنه يمكننا تسيير الحياة بشكل أفضل".

"أفضل؟" أقول في صوت خافت، كيف يمكنه أن يعتقد أن هذه الحياة أفضل؟

"أفضل لا تعني أبدًا على نحو أفضل بالنسبة إلى كل شخص" يقول، "قد تعني على نحو أسوأ بالنسبة إلى البعض".

أتمدّد مستلقية، فيما الهواء الرطب يعلوني مثل غطاء. مثل طِيْب. أتمنى أن يهطل المطر، والأفضل أن تهبّ عاصفة رعدية، سحب سوداء، بروق، وأصوات تشقّ الآذان. قد تنقطع الكهرباء. أستطيع عندئذ النزول إلى المطبخ، وأقول لريتا وكورا إنني خائفة وأريد المكوث معهما حول منضدة المطبخ، فتصدّقان أنني خائفة لأنهما خائفتان أيضًا، وعندئذ ستسمحان لي بالدخول. ستكون هناك شموع مشتعلة، ولسوف يرقب بعضنا وجوه بعض فيما تظهر وتختفي حسب رفرفة الشموع، ووميض البروق البيضاء القادمة من النافذة. "أوه إلهي" ستقول كورا، "أوه إلهي أنقذنا".

وسيصبح الهواء بعدها صافيًا، وأكثر خفة.

أنظر نحو السقف، إلى زخرفة الحفر البارز على هيئة إكليل زهر. تستطيع أن ترسُم دائرة، تخطو داخلها، ولسوف تحميك. كانت الثريّا تتدلى من مركز دائرة الإكليل، وقطعة ممزّقة من ملاءة السّرير تتدلّى ملتويةً منها. من هناك تمامًا

تأرجحَت بخفّة، كما بندول ساعة، كما تأرجحت في طفولتها، فيما يداها تتشبثان بغُصن شجرة. كانت في أمان حينها، محميّة، حتى فتحت كورا الباب. أظنّ أحيانًا أنها ما زالت هنا، معي.

أشعر أنني مدفونة.

في وقت متأخر من النهار، بدت السماء مضبّبة، تخترقها أشعة الشمس لكن بتثاقل وشتات في كل مكان، مثل غبار برونزي. أنزلق مع أوفغلن طول الرّصيف، كلتانا، وأمامنا زوج آخر من النساء، وعبر الشارع ثمّة زوج آخر أيضًا. لابدّ أن منظرنا جميل في البُعد: مشهديّة فاتنة، كما مشهد حالبات البقر الهولنديّات الذي يُطبع على ورق الجدران الصوفيّ؛ أو كما رفّ مليء بخزفيّات من تماثيل ترتدي أزياء العصر السّابق، وحاويات ملح وفلفل؛ أو كما سرب بجع صغير؛ أو أي شيء يكرّر نفسه بأقلّ زِينة ممكنة ودون اختلاف. مشهد يسُر العين، العيون، والعيون المُراقِبة، فهذا الاستعراض من أجلهم. نحن منطلقات إلى مركز الابتهالات الصاخبة، لكي نظهر مدى طاعتنا وتقوانا.

لا زهور هندباء في مرمى البصر، لقد اجتُثّت من المساحات العشبيّة تمامًا. أرغب في واحدة، فقط واحدة، قذرة وعشوائية بكلّ وقاحة ويصعب التخلّص منها وصفراء طوال العام مثل الشمس. مبتهجة وعاميّة، وتُشعّ للجميع دون تفرقة. خواتم كنا نصنع منها، وتيجانا وقلائد، فتترك على أصابعنا من نسغها الحليبيّ. لقد كنت أرفع إحداها قريبًا من ذقنها: هل تحبين الزبدة؟ حينها، إمّا أن تستنشقها فيطير غُبار الطّلع إلى أنفها (أم كانت تلك أزهار الحوذان؟) وإمّا أنّ الزّهرة باتت تحمل بذارها، فتركض بالبذار عبر المساحات الخضراء المُعشبة، ذاك المرج قبالتي مباشرة، وهي في الثانية من عمرها، أو الثالثة، تلوّح بالزّهرة كأنها تحمل أصبع ألعاب ناريّة، كأنّها عصًا صغيرة تتوهّج نيرانًا بيضاء، فيما الهواء حولها يمتلئ بشُعيرات أشبه بمظلاّت صغيرةِ طارت من بتلات الزّهرة نفسها. انفُخي لتعرفي الوقت[138]. تلك الأوقات كلها، تطايرت بعيدًا مع نسائم الصيف. تلك كانت زهرة صيف. أمّا زهور الرّبيع فمن أجل الحب، وقد فعلنا ذلك أيضًا.

نصطف في طابور للتفتيش، زوْجًا زوْجا، مثل فتيات مدرسة خاصّة خرجن في

نُزهة وبقين ينتظرن طويلًا عند عودتهن دخولَ المدرسة، سنوات وسنوات، حتى بِتْنَ أكبر: سيقانهن، أجسادهن، وملابسهن كبُرَت معهن أيضًا، كما لو أنّهن قد سُحرن. قصّة خرافيّة، ليتني أصدّق ذلك. لكننا الآن نُفتّش اثنتين اثنتين، ونواصل السّير.

بعد لحظات قصيرة ننعطف يمينًا، نتجاوز دكّان زنابق الحقل، نحو النهر. ليتني أستطيع الابتعاد أكثر، هناك حيث الضفاف الواسعة، حيث اعتدنا الاستلقاء تحت الشمس، قُربَ قناطر النهر. وإذا سرت مع انسياب المياه مسافة لا بأس بها، متجاوزًا التفافاته الشّديدة، فإنك تصل إلى البحر، ولكن ماذا يمكن أن تفعل هناك؟ تجمَع الأصداف وتُرخي رجليك فوق الأحجار الزّيتيّة.

لكننا لسنا ذاهبات إلى النهر، لن نرى القباب الصغيرة فوق مباني تلك الجهة من المربع السّكنيّ، البيضاء بأُطُر زرقاء وذهبيّة، تلك المسرّات المُباحة. بل نتجه إلى مبنى أكثر حداثة، فنرى يافطةً تدلّت على بابه كُتب عليها: الابتهالات الصّاخبة للنساء اليوم. وهذه اليافطة تحجُب اسم المبنى قديمًا، وهو اسم رئيس سابق اغتالوه بالرّصاص[139]، وتحت الكتابة الحمراء ثمّة سطر طُبع بخطّ صغير أسود، تُحيط به عينٌ مجنّحة، يقول: الرّب مَوْردٌ طبيعيّ. يقف على جانبي مدخل المبنى الأوصياء الواجب تواجدهم، اثنان في كلّ جانب، مجموعهم أربعة. أيديهم مُسدلة وعيونهم ثابتة تنظر أمامها. يشبهون دُمى عرض الثياب في نوافذ الدكاكين، بشعرهم المرجّل وزيّهم الرسمي المنشّى، ووجوههم الفتيّة المشدودة. لا وجوه اليوم تعلوها الدمامل. ويعلّق كلّ منهم مسدّسًا يدويًّا مُلقّمًا، تحرّزًا لأيّ طارئ خطير أو عمل تخريبي قد نرتكبه داخل المبنى.

ستُقام الابتهالات الصّاخبة في فناء مظلّل، فثمّة ساحة بيضويّة ذات كُوَّة ينفُذ منها ضوء النهار. لن تكون كما الابتهالات الصّاخبة في المُدُن، فتلك تُقام في ملاعب كرة القدم، بل ستكون مخصّصة لهذا الحيّ فقط. صفوف من المقاعد القابلة للطيّ أُعدّت على الجانب الأيمن من السّاحة للزوجات وبنات الرّؤساء والضبّاط، لا فرق بينهم حقيقة. أمّا الشرفات الخارجيّة العالية، فوق المقاعد، ذات الحواجز

الحجريّة، فهي للنساء ذوات الرُّتَب الدُّنيا، للمَرْثيّات وزوجات الكفاف في أرديتهن المتعددة الألوان. حضور الابتهالات الصاخبة ليس إجباريًّا عليهن، وخاصة إذا كن مشغولات في إنجاز أشغالهنّ أو الاعتناء بأطفالهن، رغم ذلك فإنّ الشرفات العليا امتلأت تمامًا. أعتقد أنّ هذه الابتهالات الصاخبة هي شكل من أشكال التسلية لهن، شأنها شأن العروض الفنيّة أو السيرك.

ثمّة عدد من الزوجات حضرن مبكّرًا، إنهن جالسات بالفعل، مرتديات أفضل ما يملكن من ثياب زرقاء موشّاة. نشعر بعيونهن تتركّز علينا أثناء سيرنا في أرديتنا الحمراء اثنتين اثنتين في الجانب المقابل لهن. يُنظَر إلينا، نُقيّم، يُحكى عنّا، في استطاعتنا الشعور بذلك كلّه مثل نمْل صغير يجري فوق أجسادنا العارية.

هنا لا مقاعد، فالمساحة المخصّصة لنا قد أُحيطَت بحبل مضفّر حريريّ قُرمزي، كما في قاعات السّينما، للسّيطرة على الناس، وهذا الحبْل يعزلنا، يفصلنا، يَحول بيننا وبين الأخريات فلا نلوّثهن. الحبل يحدّد اسطبلنا، حظيرتنا: ندخل إليها أوّلًا، ثم نُرتّب أنفسنا في صفوف، وهو أمر احترفناه، لكي نجثو بعدها على الأرضية الإسمنتية.

"كوني في الصفوف الخلفيّة" تتمتم أوفغلن جواري، "فُرصة أفضل للحديث". وعندما نجثو، وتصبح رؤوسنا منحنية قليلًا، يتناهى إليّ من كل جانب هسيس حادّ، مثل ذبذبة الحشرات في الأعشاب الجافة الطويلة: سحابة من الهمسات. هذا أحد الأماكن التي نستطيع فيها تبادل الأخبار في بحبوحة من الحُريّة، نمرّرها بيننا. يصعب عليهم معرفة مَنْ منّا تتحدث، أو سماع ما يُقال، فهم لا يريدون مقاطعة هذا الطّقس، خاصّة في وجود محطّات التلفاز وآلات تصويرها.

تنْدُسني أوفغلن جانبيًّا بمرفقها كي أنتبه، فأرفع ناظريّ في بطء وخلسة. من المكان الذي نجثو فيه نرى بوضوح المدخل المؤدي إلى الفناء، حيث يتوافد الناس إلى الداخل باستمرار. لابدّ أنها جانين من تُريدني أن أراها، فقد كانت هناك مع زوجة جديدة، امرأة لا أعرفها. لابُدّ أنّها نُقلت إلى مقرٍّ جديد، إلى أهل بيت آخرين. لكن هذا الإجراء يُعتبر مبكّرًا للغاية. هل عانت من نقص حليب ثديها؟ فهذا هو

السبب الوحيد الذي بموجبه قد ينقلونها إلى مقرٍّ آخر، إلّا إذا خاضَت شجارًا حول طفلتها. وهو ما يتكرّر أكثر ممّا تتصوّر. فما إن تعانق طفلتها الرضيعة حتى ترفض تركها للآخرين. أستطيع تخيّل الأمر. جسدها تحت الرداء الأحمر نحيل للغاية، بل إنّه هزيل. لقد فقدت وَهْج الحوامل. وجهها الآن شاحب مصفرّ، كأنّ عصير شبابها قد امتُصّ منها تمامًا.

"لم يكن ذلك حسنًا كما تعرفين" تقول أوفغلن، قُربَ رأسي جانبيًّا، "إن ما حدث لها مزّقها في النهاية".

إنها تقصد طفلة جانين. الطفلة التي مرَّت من خلال جانين في طريقها إلى مكان آخر. الطفلة آنجلا. لقد كان من الخطأ تسميتها بهذه السرعة. أشعر بمغص، أعلى معدتي. ليس مغصًا، بل فراغًا. لا أريد أن أعرف ما يعنيه ذلك. "يا إلهي" أقول. فأن تتكبّد ذاك العناء كلّه من أجل لا شيء، هو أسوأ من اللاشيء نفسه.

"إنها طفلتها الثانية" تقول أوفغلن، "دون عَدّ ما ولدَته قبلًا. لقد أجهضت مؤخّرًا في شهرها الثامن. هل سمعتِ بذلك؟"

نرقُب فيما جانين تدخل الفناء المحاط بالحبال، مرتدية حجاب المنبوذات، حجاب الحظ العاثر، جرّاء إجهاضها. إنها تراني. حتمًا تراني. وحتى أنها تنظر من خلالي مباشرة. هذه المرة لا ترتسم على وجهها ابتسامة النّصر. تستدير، وتجثو، وكل ما يمكنني مشاهدته الآن هو ظهرها والكتفين النحيلَين المنحنييْن.

"إنها تعتقد أن الخطأ خطأها" تهمس أوفغلن، "تشعر أنها مُذنبة. يقولون إنها حملَت من طبيب، فلم يكن رئيسها مَن أنجبت منه".

لا أستطيع أن أقول إنني أعرف ذلك، وإلّا تساءلت أوفغلن كيف عرفتُ. فأوفغلن هي مصدري الوحيد حقًّا لهذا النوع من المعلومات، وتحمل كثيرًا منها بما يدعو إلى الدهشة. كيف تمكّنت من معرفة تلك التفاصيل كلّها عن جانين؟ هل عرفتْ عن طريق المَرْثيّات؟ أو زميلة سابقة في شراء الحاجيات؟ أو بالتصّنت على الأبواب المغلقة للزوجات فيما يحتسين الشاي والخمور، حائكات شباكهن كالعناكب؟ هل

ستتحدث سيرينا جوي عنّي على ذلك النحو إذا نفّذتُ ما طلبَته منّي؟ "أجابت طلبي فورًا، لم تُبالي ألبتّة. أي شيء له ساقان ويُعجبها. إنهن لسن محتشمات، لا يحملن مشاعر مثلنا". فتنحني بقيّة الزوجات للأمام في مقاعدهن، ويقُلن "يا عزيزتي" في ذُعر وشبق، "كيف تمكّنَتْ من ذلك؟ متى؟ أين؟".
ذاك ما فعلنه دون شك مع جانين. "إنّه لأمر فظيع" أقول لأوفغلن. لكنّ ذاك التصرّف يُشبه جانين، أن تحمل طواعيةً مسؤولية ما حدث، أن تقرّر أن عيوب الطفل الخلقية التي تسبّبت في إجهاضه هي خطأها. لكن، طبعًا، سوف يُفضّل المرء أيّ شيء على الاعتراف بأن حياته ليس لها معنى، لا فائدة، دون حبْكة.

ذات صباح، وفيما كنا نرتدي ملابسنا، انتبهتُ إلى أنّ جانين ما زالت في قميص نومها القطني. جالسة على حافة سريرها.
نظرتُ نحو باب القاعة الرياضيّة المزدوج، حيث تقف الخالة عادةً، لأعرف هل لاحظَت ذلك، لكنّها لم تكن هناك. فبحلول ذلك الوقت باتوا أكثر ثقةً بنا، فصاروا يتركوننا دون مراقبة حثيثة في فصول الدراسة، وحتى في المقصف، عدّة دقائق كلّ مرّة. ربما غطست في مكان ما لتدخّن سيجارة، أو تحتسي قهوة.
"انظُري" قلتُ لآلما التي تشغل السرير المجاور لي.
فنظرَت إلى جانين. ثم سرنا معًا إليها. "ارتدي ملابسك يا جانين" قالت آلما موجهة كلامها إلى ظهر جانين الأبيض، "لا نريد أن نؤدّي صلوات إضافية بسببك"، لكن جانين لم تتحرك.
في تلك اللحظة كانت مويرا قد جاءت إلينا أيضًا. حدث ذلك قبل أن تنجح في الهرب في محاولتها الثانية. ما زالت تعرج بسبب ما فعلوه بقدميها. دارت حول السرير كي تتمكن من رؤية وجه جانين.
"تعاليا هنا وانظرا" قالت لي ولآلما. الأخريات رُحنَ يجتمعن حولنا أيضا، فتشكّل حشدٌ صغير. "عُدنَ إلى أماكنكن" قالت مويرا لهن، "لا تُهوّلن الأمر. ماذا لو دخلت علينا الخالة؟"

أنْظُر إلى جانين. عيناها مفتوحتان دون أن تراني، مستديرتان متّسعتان. أسنانها مكشوفة في ابتسامة ثابتة. ومن خلال الابتسامة، من خلال أسنانها، كانت تهمس لنفسها. اضطررْت إلى الانحناء إليها كي أتمكن من سماع ما تقوله.

"مرحبا" قالت، لكن ليس لي. "اسمي جانين. أنا نادلتكن هذا الصباح. هل أجلب لكُنّ بعض القهوة أوّلًا؟"

"يا يسوع ال..." قالت مويرا جواري.

"لا تلعني" قالت آلما.

أمسكت مويرا بكتفي جانين وهزّتها. "أفيقي من غفوتك. استيقظي، ولا تكرّري تلك التحيّة" قالت في عنف.

"أمامكن يوم لطيف لتقضينه" قالت جانين مبتسمة.

فصفعت مويرا وجهها، مرتين، جيئة وذهابا. "عودي إلى هنا" قالت لها، "فلتعودي الآن إلى هنا، فورًا. لا يمكنك البقاء هناك. لم تعودي موجودة هناك. ذاك عالمٌ قَضَى" صاحت مويرا فيها.

ابتسامة جانين تتلاشى. رفعت كفّها إلى خدها. «لمَ صفعتِني؟» قالت، «لمَ صفعتني؟ ألم تكن القهوة جيدة؟ أستطيع إعداد أخرى. لا داعي لصفعي».

"ألا تُدركين ما سيفعلونه بك؟" قالت مويرا.

كان صوتها منخفضا، لكنّه صارم. "اسمي مويرا" قالت لها، "وهذه هي الدار الحمراء، حدّقي إليّ".

راحت عينا جانين تتركّزان. "مويرا؟" قالت، "لا أعرف أيّ مويرا".

"لن يرسلوكِ إلى مبنى العناية بالمرضى" قالت مويرا، "لذلك لا تفكّري مُطلقًا في ذلك، لن يبذلوا أيّ جهد لعلاجك، ولن يتكبدوا حتى عناء إرسالك إلى المستعمرات. تمادَي في هذا ولسوف يجرّونك إلى معمل حصص الكيمياء هناك ويطلقون عليك الرصاص، ثم يحرقونك مع النفايات كما يفعلون بأشباه النساء. كُفّي عما تفعلين".

"أريد العودة إلى بيتي" قالت جانين، ثم راحت تبكي. "يا إله يسوع" قالت مويرا،

"يكفي هذا. سوف تدخل علينا خلال دقائق، هذا محتّم. بادري بارتداء ملابسك اللعينة وأغلقي فمك".

بقيَت جانين تنشُج، لكنها نهضت أيضًا وشرعت ترتدي ملابسها.

"إذا فعلَت ذلك مرة أخرى ولم أكن هنا" قالت لي مويرا، "عليك بصفعها كما فعلتُ، لكن ليس بقوّة تقلبها عن حافة السّرير، فسوف تلاحظ الخالات الأثَر".

لابدّ أنها كانت تخطّط، حتى قبل هذه الحادثة، كيف لها أن تهرب.

مساحة جلوسنا في الفناء البيضَوي امتلأت الآن. نتضاغط كتفًا لكتف، وننتظر. أخيرًا يصل الرئيس المسؤول عن هذا الطّقس. رجُل أجْرد الرّأس، مربوع الجسد، أشبه بمدرّب كُرة عجوز. يرتدي بزّته الرسميّة: سوداء وَقورة بصفوف نياشين وشارَات. يصعب إنكار أثَر مظهره على النفس، لكنني أبذل جهدي: فأتخيله مثلًا في السرير مع زوجته وجاريته، يلقّحها بجنون، كما سلمون في موسم تكاثره، مُدّعيًا أنه لا يجد متعة في ذلك. هل عندما قال الرب أثْمروا واكْثُرُوا، قصدَ على شاكلة هذا الرجل؟

يرتقي رئيس الطقس درجًا إلى المنصة المكسوة بقماش أحمر، حيكَت فيه عين بيضاء مجنّحة كبيرة. يُرسل نظره عبر الفناء، فتموت أصواتنا، حتى أنه لم يُضطر إلى رفع يديه. ثم تنساب كلماته في لاقِط الصّوت لتنبثق من المكبّرات، وقد سُلبَت منها أيّ نبرة خافتة فغدت حادّة معدنيّة كأنّها لم تصدر عن فمه أو جسده، بل عن مكبّرات الصّوت نفسها. لصوته لون الحديد وشكل البوق.

"اليوم هو يوم تقديم الشّكر" يبدأ قائلا، "يوم التمجيد".

لا أصغي إلى خطبته عن الانتصارات والتضحيات. ثم صلاة طويلة، عن أوْعية ليست مؤهّلةً بعد. ثم ترتفع ترنيمة «هناك بلسانٌ في جلعاد[140]».

"هناك نيرانٌ في جلعاد" هذا ما اعتادت مويرا أن تقول.

والآن يأتي العرض الأكبر. يدخل عشرون ملاكًا جاؤوا حديثًا من جبهة القتال، وتقلّدوا حديثًا أوسمتهم، يرافقهم حرس الشرف، ويشرعون في مسيرة عسكرية إلى مركز السّاحة المُخلا لهم. استعدّ. استرح. والآن، تتقدّم بنات الرّؤساء والضبّاط، العشرون المحجبات في زيهن الأبيض، حييّات، وقد أمسكت أمهاتهن مرافقهن. إنهن الأمهات هذه الأيام، لا الآباء، من يوصلن بناتهن إلى أيدي أزواجهن، ويُساعدن في ترتيبات الزواج. هذه زِيجاتٌ مُدبّرة طبعًا. وأُولاءِ الفتيات لم يُسمح لإحداهن

قط الخلوّ بأيّ رجل على مدى سنوات، منذ قيام جلعاد على الأقل.
هل أعمارهن كبيرة بالقَدْر الذي يسمح لهن بتذكّر أيّ شيء من الأوقات السالفة: أنّهن لعبن البيسبول مرتديات بناطيل جينز وأحذية خفيفة، وقُدن درّاجاتهن، وانفردن بالكتب يقرأنها؟ بعضهن لا تزيد أعمارهن عن أربعة عشر عاما، فتزويجهن صغارًا باتت هي السياسة الآن، كي لا يُضِعنَ لحظة واحدة من أعمارهن – لسوف يتذكّرن إذن لو كُنّ كذلك. والفتيات الأكبر منهن أيضًا بخمس سنوات أو أربع، أو حتى ثلاث، سيتذكّرن، لكن مَن أعمارهن أقلّ من هذا فلن يتذكّرن سوى أنّهن عِشْن مُرتديات البياض، وتحرّكن ضمن جماعات بنات، والْتزمن دومًا الصّمت.
"قدّمنا لهنّ أكثر ممّا أخذنا منهن" قال رئيس الطقس، "فلتفكّرن في ما كُنّ يعانينه قبْلًا، ألا تذكرن طاولات المشْرب الممتدّة بالعزباوات، ألا تذكرن مهانَة مواعيد اللقاء العمياء في المدارس الثانوية؟ سوق لحوم. ألا تذكرن الفجوة الرهيبة بين الفتيات اللائي يستطعن استمالة رجُل ما في سهولة وبين الأخريات اللائي لا يستطعن ذلك؟ لقد بتن يشعرن بيأس مرير، فأهلكن أنفسهن جوعًا من أجل الرشاقة، ونفخن أثداءهن فامتلأت بالسيليكون، وحتى أنّهن قطّعنَ أنوفهن. فلتفكّرن في هذا البؤس الإنساني".
لوّح بيده نحو أكوام من مجلات قديمة. "كن دائمات الشكوى، مشكلة هنا، مشكلة هناك. هل تتذكّرن الإعلانات في صفحة مقالات الأمور الشخصيّة؟ امرأة مُغوية مشرقة عمرها خمسة وثلاثون عامًا، تبحث عن شريك... بهذه الطريقة كن جميعا يحصلن على رجال، فلا تبقى امرأة واحدة. وبعد الزّواج، قد يُهْجَرنَ بعد أن أنجبن طفلًا أو اثنين، فقد ضاق الزّوج ذرْعًا ورحل، اختفى، فتلجأ حينها إلى مصلحة الشؤون الاجتماعية كي تعيش. أو يبقى حولها وأطفالها لينهال عليهم جميعًا بالضرب. أو إذا كان كلّ منهما يشْغَل وظيفة، فأطفالهما في الحضانة النهاريّة، أو يُتركون مع امرأة ما مُهملة متوحّشة، ويضطران إلى دفع أجْر ذلك من أجْرها الزّهيد البائس. ثَمَنُك هو ما تملكه من مال، الجميع كذلك، لا اعتبار

مثلًا لامرأة كونها أُمًّا. لا عجب إذن أنهن كففْن عن الاهتمام بأمر الزّواج كلّه. لكننا هنا، أنتُنّ، محميّات آمنات وتحققن أقداركن البيولوجية في سلام، بدعمٍ كامل وتشجيع. والآن أريد أن أسمع منكُنّ. أنتِ، إنسانة ذكيّة، ما رأيك، ما الذي أغفلناه؟"

"الحب" قلتُ.

"الحب؟" قال الرئيس، "أي نوع من الحب؟"

"الوقوع في الحب" قلت.

نظر إليّ بعينَيه الصّبيانيّتين النّزيهتَين. "أوه، حسنٌ" قال، "لقد قرأت المجلات، ذلك هو الموضوع الذي يسعون إلى إبرازه. أليس كذلك؟ لكن انظري إلى الإحصائيّات، عزيزتي. هل استحقّ الأمر تلك الضجّة كلّها، أعني الوقوع في الحب؟ إن حالات الزواج المدبّر أثبتت نجاحها بالقَدر نفسه، بل أفضل".

"الحب" قالت الخالة ليديا في نفور، "لا تدعننِي أعثر عليكن واقعات في حِباله. لا أريد ليالٍ قمريّات ولا بقريّات هنا، يا فتيات" هازّة إصبعها نحونا، "الحبّ ليس ما نريد".

"تلك سنوات حادَت عن الطريق القويمة،" قال رئيس الطقس، "من الناحية التاريخية. مجرّد عثْرَة. كل ما فعلناه هو إعادة الأمور إلى طبيعتها".

الابتهالات الصاخبة للنساء تُقام من أجل مراسم زواج جماعيّ، كهذا. أمّا الابتهالات الصاخبة للرجال فهي من أجل الانتصارات العسكريّة. يُفترض أن ذلك يُبهجنا، على التوالي. وقد تُجرى أحيانًا، للنساء، من أجل راهبة تعترف علنًا أن معتقداتها السابقة خاطئة. تواترت تلك الاعترافات في وقت مبكر من تأسيس جلعاد عندما راحوا يلتقطون الرّاهبات، لكنهم ما زالوا يعثرون على راهبات قلائل، يخرجونهن من كافّة مخابئهن في جوف الأرض مثل الخُلْد آكِل البَقّ، ويحملن نظرة الخُلْد

نفسها أيضًا: أعينهن ضعيفة الإبصار وقد فاجأها ضوء كثيف. العجائز منهن يُرسلن إلى المستعمرات فورًا، أمّا الفتيات الخصبات فيحاولون إقناعهن بتغيير دينهن، وعندما ينجحون نأتي جميعا إلى هنا لنشْهد مراسم تحوّلهن، واستنكارهن البتولة، يضحين من أجل الصالح العام. إذ بعد أن يجثين، يصلّي عليهم رئيس الطقس، ثمّ يحصلن على الرداء الأحمر، مثلنا. لكن لا يُمكنهن أن يصبحن زوجات، فلا يزال يُنظر إليهن أنهن أكثر خطرًا من أن يشغلن مناصب نافذة كتلك. ما زالت تُحيط بهن الشّكوك كما المشعوذات، غموضهن وغرابتهن. يبقى يُحيط بهن رغم تعذيبهن كي يجِدنَ عن دينهن السابق، رغم دعكهن، رغم سَوط أقدامهن، ودفعهن إلى المحابس المنعزْلة. لطالما ساطوهن ذلك الوقت، لذلك فإن الشائعات استمرّت تقول: إنهن لا يستسلمن بسهولة. وتفضّل كثيرات منهن ترحيلهن إلى المستعمرات. ولا يوجد بيننا من ترغب في سحب واحدة منهن لكي تصبح زميلة لها في شراء الحاجيات. إنهن أكثر تحطّمًا من أيّ منّا. ولذلك يصعب الشعور بالارتياح في رفقتهن.

أوقفت كلّ أم ابنتها بحجابها الأبيض في المكان المخصّص لها، ثم عادت إلى مقعدها. قليلٌ من البكاء يسري بينهن، وبعض التربيت المتبادل والإمساك الحميم بالأيدي، واستخدام المناديل في شيء من التباهي. يستمر الرئيس في صلواته.

«وَكَذلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ يُزَيِّنَّ ذَوَاتِهِنَّ بِلِبَاسِ الْحِشْمَةِ» يقول، «مَعَ وَرَعٍ وَتَعَقُّل، لاَ بِضَفَائِرَ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ لآلِئَ أَوْ مَلاَبِسَ كَثِيرَةِ الثَّمَنِ»

«بَلْ كَمَا يَلِيقُ بِنِسَاءٍ مُتَعَاهِدَاتٍ بِتَقْوَى اللهِ بِأَعْمَال صَالِحَةٍ»

"«لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ» وهنا يرفع عينَيه ناظرًا إلينا. "خضوع" يكرّر.

«وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ»

«لأَنَّ آدَمَ جُبِلَ أَوَّلاً ثُمَّ حَوَّاءُ»

«وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ، لكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي»

«وَلكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلاَدَةِ الأَوْلاَدِ، إِنْ ثَبَتْنَ فِي الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ[141]»

نجاتنا تكون بولادة الأولاد، أفكّر. ما الذي كنّا نظنّ أنه سينقذنا في الأوقات السابقة؟

"ينبغي أن يقول ذلك للزوجات" تتمتم أوفغلن، "عندما يحتسين الخمرة". تقصد آية التعقّل. الآن بات الكلام آمنًا إذ انتهى الرئيس من المراسم الهامّة، فبدأت الفتيات بالتحلّق فيما كلّ واحدة منهن تخلع حجابها. أفكّر، من الأفضل أن تكوني جميلة، فساعة الرؤية قد أزفت، وإلا سيتطلّع كلّ ملاكٍ إلى الحصول على جارية، خاصة إذا كانت زوجته الجديدة لا تُثمر. أمّا أنتن أيتها الفتيات، فإن كلّ واحدة منكن عالقة إلى الأبد، ما تراه هو ما تحصل عليه، حتى لو كان وجهه يمتلئ بثورًا وأشياء أخرى، لكن لا يُتوقّع منها أن تقع في حبّه، سوف تكتشف ذلك في وقت قريب. أنجزن واجباتكن وحسب، في صمت، وعندما تساوركن الشكوك، فيما تستلقين على ظهوركن، حملقنَ في السقف. من يعرف ما قد تشاهدْنه، هناك في الأعلى؟ أكاليل جنائزية وملائكة، أشكال ترابيّة، أو مجموعات نجوم، أو غيرها، الشّباك الملغزة التي تخلّفها العناكب. ثمّة دومًا ما يُشغل الذهن المتسائل.

"ما الخطب، عزيزتي؟" وتستمرّ النكتة القديمة.

"لا، لمَ؟"

"لأنّك تحرّكت"

"..."

"كُفّي عن الحركة[142]"

"غايتنا هي" تقول الخالة ليديا، "إحياء روح الألفة والمودة بين النساء. لابدّ أن نتآزَر".

"روح الخراء" تقول مويرا من ثقب مقصورة الحمّام: "خذوها فغلّوها، يا خالة ليديا، كما كنّا نقول سابقًا. أراهن أنها دفعت جانين لتلعق ما بين فخذيها. ما

الذي تظنّينه يفعلن معًا هناك في مكتبها؟ أراهن أنها جعلتها تهتمّ كثيرًا بفتحتها الجافّة الذابلة..."

"مويرا!" أقول.

"مويرا ماذا؟" تقول، "حتى أنت ظننتِ ذلك أيضًا".

"لا فائدة من وراء هذا الكلام" أقول، رغم أنني أكاد أنفجر ضحكًا. لكنني لم أزل أتظاهر، حتى لنفسي، بأنّ علينا الحفاظ على شيء يدُلّ على الكرامة.

"لطالما كنتِ جبانة" تقول مويرا، "لكن بعاطفة قويّة. قد يفيدك هذا الكلام".

وهي مُحقّة. أفكّر في ذلك الآن بينما أجثو على الأرضية الصلبة، مصغية إلى ترانيم المراسم. ثمّة شيء قويّ في التهامس بالكلام المُقذع، عن أولئك الذين في السُّلطة، شيء مُبهِج، مشاكس، سرّي، محرّم، مثير. كأننا ننفث عليهم لعنةً، بشكل ما، لعنة تفرّغهم من الهواء يفُشُّون ويستعيدون أحجامهم العادية التي تمكّننا من التعامل معهم. في جدار مقصورة الحمّام، هناك من كتب فوق الطلاء: الخالة ليديا تمُصّ. هذه العبارة مثل راية تلوح فوق تلّة أثناء انطلاق تمرُّد ما. إنّ مجرّد تخيُّل الخالة ليديا تقوم بذلك هو أمرٌ يشجّع على العصيان.

وهكذا رُحتُ أتخيل الآن، ما سيحدث بين كلّ ملاكٍ من هؤلاء وبين عروسته البيضاء التي لا تتحرّك، من نخير وتعرّق وتبليل ملاءات الفرو، أو أفضل من ذلك، حالات الفشل المخزية، قضيب متهدّل بحجم إصبع جزر عمره ثلاثة أسابيع، يدعكونه دعكًا مكْروبًا في اللحم البارد دون أن يستجيب، مثل سمكة نيئة.

انتهت المراسم أخيرًا، وها نحن نسير إلى الخارج. تقول لي أوفغلن بهمْسها الخفيف النفّاذ "نحن نعرف أنّك تقابلينه بمفردك".

"من؟" أقول فيما أقاوم رغبة عارمة في النظر إليها، لكنني أعرف من.

"رئيسك" تقول، "ونعرف أن ذلك حدث مرارًا".

أسألها كيف عرفت.

"عرفنا وكفى" تقول، "ماذا يريد منك؟ الجنس في أوضاع غريبة؟"

من الصعب عليّ أن أوضح لها ما يريده حقًّا، فأنا ما زلت غير قادرة على تحديد ما يبغيه مني. كيف أصف ما يدور بيننا؟ لابدّ ستضحك، هذا أوّلًا. من الأسهل أن أقول لها "شيئًا من ذاك القبيل" وبذلك أوحي أنني مُكرَهة وأُبقي على كرامتي. تفكّر في جوابي قليلا. "لسوف يُدهشك" تقول، "أن تعرفي أن عددا كبيرا منهم يفعل الشيء نفسه".

"وماذا في وسعي عمله؟" أقول، "أنا مُرغمة. لا أستطيع ألّا أذهب" لابدّ أنّها تعرف ذلك.

بتنا نسير على الرّصيف الآن ولم يعُد الحديث آمنًا، صرنا قريبتين من الآخرين، وهمس الجموع الذي وقانا في الابتهالات الصاخبة قد تلاشى. نسير صامتتين، ونتباطأ قليلًا. حتى تتّخذ قرارها أخيرًا لتقول: "حتمًا لا تستطيعين. لكن تقصّي وأطلعينا عليه".

"أتقصّى ماذا؟" أقول.

وأشعر، دون أن أرى، بالتفاتة رأسها الخفيفة نحوي "أي شيء يمكنك معرفته".

والآن، توجد مساحة لابدّ أن تُملأ في الهواء الحارّ كلّ الحرارة داخل غرفتي، ووقتٌ أيضًا. مكانٌ وقْتيٌّ: بين هنا-الآن وهناك-آنئذ، يتخلّله العشاء: وصول الصّحفة، محمولة على الدرج كما لو أنها تُصعَد إلى شخص مُعاق. هذه الكلمة الأخيرة قد تعني أيضًا أنّه لم يعد يصلح لشيء: لا جواز سفر صالح، إذن أُعيقَ عن العبور. وذاك ما حدث آنئذ، يومَ حاولنا عبور الحدود بجوازات سفرنا الجديدة الشخصيّة التي لا تكشف عن شخصنا: لم تذكُر مثلًا أن لوقا قد طلّق قط، ولذلك فإن علاقتنا مقبولة وفق القانون الجديد.

ذهب الرجل إلى الداخل ومعه جوازات سفرنا، وذلك بعد أن أوضحنا له نيّتنا في التنزّه، وبعد أن حملق داخل السيارة ورأى ابنتنا نائمة في رحاب حديقة حيواناتها ذات الجلود المبقّعة. ربّت لوقا على كتفي ونزل من السيارة كأنّه يُريد تمديد ساقيه قليلا، فيما هو في الحقيقة يرقُب الرجل من خلال نافذة مبنى شؤون الهِجرة. بقيتُ في السيارة، أشعلتُ سيجارة لكي أسترخي، ساحبةً نفسًا طويلًا من الدّخان إلى أعماقي، ثمّ أُطلقه في استرخاء مُفتعَل. كنت أرقب جنديّين في زيّهما الرسميّ الغريب، الزيّ الذي شاعَ وبدأ يصبح مألوفًا في تلك الفترة، واقفين في تكاسل جوار ذراع الحاجز الأفقيّة المخطّطة بالأسود والأصفر. لم يُبديا أيّ اهتمام، بل إن أحدهما راح يتابع بعينيه سربَ نوارس عالية في السّماء إذ راحت تُدَوّم حتى حطّت على سياج الجسر وراء الحاجز. أثناء مراقبته، رأيت الطيور أيضًا. ما زال كل شيء حينها مُحتفظًا بلونه المألوف، سوى أنّه أسْطَع.

سوف تجري الأمور على ما يُرام، قلتُ لنفسي، وصلّيتُ في ذهني: أوه، حقّقها، دعنا نعبر، دعنا نعبر، هذه المرة فقط، وسأفعل ما تريد. ما ظننت أنني قادرة على فعله لمن أوجّه دعائي له هو أمر لا يمكن أن يُفيده في شيء، أو حتى يهمّه معرفته. لن أعرف أبدًا.

ثمّ عاد لوقا إلى السيارة عاصِفًا، أدارها وعشّقَ إلى الوراء. "لقد رفع سماعة الهاتف" قال. ثم انطلق بالسيارة بسرعة كبيرة جدًّا، وما إن وصلنا طريقًا ترابيّة خلفها غابات حتى قفزنا من السيارة وانطلقنا نركض: كوخ نختبئ فيه، أم قارب يحملنا؟ لا أعرف ما الذي كان يعتمل في ذهنَينا حينها. قال إن جوازاتنا يسهل كشف زيفها، وحينها لن نحظى بوقت لنفكّر في ما سنفعل. ربما خطّط مسبقًا لشيء، ربما يحمل خريطة ما في ذهنه. أمّا أنا فكنت أركض وحسب، بعيدًا بعيدًا.
لا أريد أن أروي هذه القصة.

لستُ مُجبرة على روايتها، لستُ مُجبرة على رواية أيّ شيء، لنفسي أو لأيّ شخص آخر. أستطيع الاكتفاء بالجلوس هنا وحسب، في سلام. أستطيع الانسحاب داخل نفسي، أتوغّل فيها مسافات بعيدة، بعيدة إلى الوراء، إلى حيث لا يمكنهم التقاطي.
نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم. سمينةٌ شَحْمًا، كتابة هذه العبارة لم تعُد لها بأيّ فائدة تُذكَر.
لمَ أقاتلهم بالرواية إذن؟

لكن، رغم ذلك، فإنّ السكوت والانسحاب لن ينفعنا.

"الحب؟" قال رئيس الطقس.
هذا موضوعٌ أفضل، هذا أمْرٌ أُدركه تمامًا، أستطيع أن أروي عنه.
"الوقوع في الحب" قلتُ له. ألم نقع فيه جميعًا، بطريقة أو بأخرى؟ كيف تمكّن من الاستخفاف بالحب على ذلك النحو، بل إنه سخر منه، كما لو كان أمْرًا تافهًا صدرَ عنّا، مجرّد نزوة، زخرفة. لكنّه على عكس ذلك، إنّه شأنٌ ثقيل، شأن جوهريّ، إنّه الطريقة التي تفهم بها نفسك، ولو أنك لم تجرّبه مرّة، فإنك تكون قد تحوّلت من إنسان إلى مخلوق آخر، مخلوق فضائيّ. الجميع يعرف ذلك.

الوقوع في الحب، كنّا نقول في الأوقات الماضية. ووقعت في حُبّه. كُنّا نسوة يقعن في الحب. لقد آمَنّا بها، هذه الحركة نزولًا، الحركة المحبّبة، الأشبه بالطيران، وهي في الوقت نفسه حركة رهيبة، قاسية، نادرة. الله محبّة، كانوا يقولون[143]. لكننا قلبنا المسألة، فبات الحب بعيدًا عند الحافة، كما الجنّة التي تنتظرنا بعد منعطف الحياة. كلّما صعّبوا علينا أن نقع في حُب الرجل الذي جوارنا، رُحنا نؤمن بشكل آخر للحُب، أكثر تجريدًا وشموليّة. كنا ننتظر، طوال الوقت، حدوث التجسّد. الكلمة صارت جسدًا[144].

أحيانًا يقع المرء فيه مرّة واحدة، وهو ليس ذاك النوع الذي يأتي ويذهب ويصعب تذكّره لاحقًا، بل أقصد ذا الألم الثابت. قد تنظرين إلى رجل ذات يوم وتقولين في نفسك «لقد أحببتك» وتنتبهين إلى أنّك صُغتِ العبارة بالزمن الماضي، ولسوف تنذهلين لما حدث، تشعرين أنّ ما فعلتِه مُدهش وسريع ومغفّل، وستُدركين عندئذ لمَ راح أصدقاؤك يتملّصن من إبداء رأيهم فيه وقتها.

إنّه قدْرٌ كبيرٌ من الرّاحة ما أحظى به الآن، لأنني ما زلت أتذكّر ما قلته توًّا.

أو أحيانًا، عندما تكونين ما زلتِ واقعةً في الحب، قد تستيقظين منتصف الليل فيما ضوء القمر يسقط من النافذة مُضيئًا وجهه النائم، ما يعمّق ظلال محجرَي عينيه أكثر ممّا هما عليه نهارًا، فتصيران مثل كهْفَين، حينها تفكّرين: من يعرف حقًّا ما يفعله الرّجال عندما ينفرد أحدهم بنفسه أو يجتمع بآخرين مثله؟ من يعرف ما يقولونه أو المكان الذي يحتمل أن يذهبوا إليه؟ من يستطيع أن يقطع الشكّ ويبوح بحقيقتهم؟ في عادِيّتهم اليوميّة.

وغالبًا ستفكرين أيضًا وقتئذ: ماذا لو كان لا يحبني؟

أو أحيانًا تتذكرين قصصًا قرأتِها في الصحف عن نساء عُثر عليهن – أغلب القصص تتناول ضحايا نساء، لكن هناك رجال أيضًا، أو أطفال، وهو الأسوأ، وقد عُثر على الضحيّة مُلقاة في قناة مياه، أو غابة، أو حتى ثلاجة، أو بعيدًا جدًّا في غُرَف مستأجرة مهجورة، ترتدي ثيابها أو عارية، مُعتدىً عليها جنسيًّا أو لا، لكنها مقتولة على أيّ حال. تتذكّرين الأماكن التي منعتِ نفسك من التجوّل

فيها، تتذكّرين الاحتياطات الصارمة التي اتّخذتِها كأن توصدي النوافذ والأبواب وتتأكدي من ذلك مرارًا، وتُسدلي الستائر وتتركي الأضواء مشتعلة. تلك التدابير قُمتِ بها كأنها صلوات: آملةً في النهاية أن تُنقذك. ولقد فعلَت معظم الأحيان. أم أن شيئًا آخر هو من فعل؟ المهم أنّك ما زلت حيّة.

لكن تلك التداعيات الفكريّة كلها مرتبطة بالليل وهبوطه، ولا صِلة لها بالرّجل الذي أحببْتِه، على الأقل في ضوء النهار. فمعه أردت للأمور أن تجري بخير. والجري، أيضًا، هو أمرٌ أردتِ القيام به كي تحافظي على فِتنة جسدك ورشاقته، من أجل الرّجل. فإذا جرَيتِ حقًّا بما يكفي، فسيفعل الرّجل ذلك أيضًا. وهكذا تتمكنان معًا من إنجاح العلاقة. كما لو كنتما تشكّلان معًا أُحجية يُمكن حلّها. وإلاّ فإن أحدكما، وغالبًا هو الرجل، سيهيم على وجهه في مسار خاصّ به، آخذًا معه جسده الذي أدمنْتِه راحلًا عنكِ فتدخلين في حالة انسحابيّة أليمة من الحياة، وهو أمر تستطيعين أن تُبطليه بالجَري. إذا لم تتمكنا معًا من إنجاح العلاقة فذلك لأن أحدكما اكتسب سلوكًا خاطئًا. آمَنوا سابقًا أن كل ما يجري عليك في حياتك هو نتاج قوى إيجابية أو سلبية تُشعّ من داخل رأسك.

"إذا لم يُعجبك الحال، غيّريه" قال بعضنا لبعض، وقلنا لأنفسنا أيضًا. ولذلك فنحن نغيّر برجُلنا رجلًا آخر. التغيير، كنّا واثقات أنّه لابدّ إلى الأفضل. فنحن من أنصار المحاسبة الدائمة، المراجعة، ولم نحاسب أو نراجع سوى أنفسنا.

أستغرب عندما أتذكّر كيف كنّا نفكّر سابقًا، كأنّ كلّ شيء مُتاح لنا، كأنّ ليس هناك طارئ قد يقع، ولا حدود لنا. كأن لنا مُطلَق الحرية في تشكيل وإعادة تشكيل مجالات حيواتنا الآخذة في الاتساع أبدًا. فكّرتُ أنّني كنتُ كذلك أيضًا. كنتُ كذلك أيضًا. لم يكن لوقا أوّل رجل في حياتي. وكان من المحتمل ألاّ يكون آخر رجل، لو لم يتجمّد على ذلك النحو، عُلّقَ مَيتًا في الوقت، في الهواء، هناك بين الأشجار، فيما مضى، أثناء سقوطه.

سابقًا، كانوا يرسلون لك طرْدًا بصندوق ممتلكاته: ما في حوزته عندما مات. "ذاك ما يفعلونه وقت الحرب" قالت أمي، "إلى متى يُفترض بك أن تنوحي؟ وما الذي

يقولونه لك ساعتئذ؟ أوفي حياتك منذورةً لذكرى الحبيب". وقد كان كذلك، هو الحبيب. الأوحد.
حيّ، حيّ. أقول إنّ لوقا حيّ، حيّ. مجرّد حرفين، أيتها الغبية الرّعناء. ألا تستطيعين أن تتذكّري شيئًا، حتى كلمةً واحدة قصيرة كتلك؟

أمسح وجهي بطرف كُمّي. في الأوقات الماضية لم أكن أفعل ذلك، من أجل ألّا أبقّع القماش. لكن لا يظهر شيء في الكُمّ الآن. إنّ أيّ تعبير خلّفته حركتي هذه، دون أن يكون مرئيًا لي، ما زال هناك، وحقيقيّ.
اغفر لي. أنا لاجئة هنا من الماضي، ومثل اللاجئين جميعًا، تندّ منّي عادات حياتي وتقاليدها، تلك التي تركتها ورائي مُرغمة، فتبدو طريفةً، هنا، وأنا لذلك مهووسة بها. أبدو مثل أحد مواطني روسيا البيضاء سابقًا، يشرب شايًا في باريس، وقد تقطّعت به السّبل في القرن العشرين. أعود هائمةً بذاكرتي إلى تلك الدروب النائية، وقد بتُّ جيّاشة العاطفة وحسّاسة، أفقد نفسي، فأنوح، نواحًا، ذلك ما أفعل، لا بكاءً. أجلس على هذا المقعد وتسيل رواسبي، كأنني إسفنجة.
هكذا. مزيد من الانتظار. سيّدة في الانتظار: كذا كانوا يُطلقون على محلّات بَيع ملابس الحوامل[145]. إنّه يوحي بوقوف سيّدة في محطة قطار. الانتظار مكانٌ أيضًا، وهو حيث تقوم بالانتظار، وبالنسبة إليّ، هو غرفتي هذه. أنا فراغٌ بين قوْسَين. بين أناس آخرين.

قرْعٌ على بابي. كورا حاملة الطعام.
لكنها لم تكن كورا. "جئتك بها" تقول سيرينا جوي.
رفعتُ عينَي، ونظرتُ حولي، نهضت من مقعدي، وسرتُ نحوها. إنها تمسك الصورة، التُقطت بآلة تصوير تطبع اللقطة فورًا، مربعة الشكل ومصقولة ولامعة. ما زالوا يصنّعونها، آلات تصوير كتلك. وإذن، سوف تكون هناك دفاتر صور عائليّة، تضمّ الأطفال جميعهم، دون الجاريات حتمًا. فلو نظرنا من خلال

زاوية التاريخ المستقبليّ، فإننا نحن لسنا مرئيّات. لكن الأطفال ليسوا كذلك، فدفاتر صورهم شيء تقلّبه الزّوجة على الأقل وهي في طابق بيتها السّفليّ، تقرض الأكل من طاولة الطعام، فيما تنتظر الولادة أن تنتهي في الأعلى.
"يمكنك النظر إلى الصورة مدة دقيقة واحدة فقط" تقول سيرينا جوي، بصوت منخفض متآمر، "ينبغي أن أعيدها قبل أن يدركوا اختفاءها".
إنّها مَرْئيّة، حتمًا، من جلبت إليها هذه الصورة. هناك إذن شبكة مَرْئيّات يحصلن على بعض المنافع من خدمات كهذه. معلومة لطيفة.
آخذ الصورة منها وأديرها إلى وضعها الصحيح. هل هذه هي؟ أهكذا صارت تبدو؟ كَنْزي.
لقد طالَت وتغيّرت. إنّها مبتسمة قليلًا، ابتسامة سريعة، وترتدي فستانًا أبيض كأنّها في المُناولة الأولى، فيما مضى[146].
لم يقف الزّمن ساكنًا إذن. لقد جرفني، واجتازني بعيدًا كأنني لست سوى امرأة من رمال، تركها طفلٌ مُهْمِل قُربَ مياه الشّاطئ. لقد مُحيتُ من ذاكرتها. لستُ الآن سوى ظلّ متوارٍ بعيدٍ خلف سطح الصورة اللامع السّلس. أصبحتُ ظِلًّا لظِلّ، كما تصبح الأمهات الميتات. يمكنك أن ترى ذلك في عينيها: أنا لستُ فيهما. لكنها موجودة، في فستانها الأبيض. إنها تكبر وتعيش. هل هذا أمر جيّد؟ هل ذلك نعمة؟
رغم ذلك، لا أحتمل مَحْوي هكذا من ذاكرتها. كان من الأفضل ألّا تجلب لي شيئًا.

أجلس إلى المنضدة الصغيرة، أتناول حساء الذّرة بالشوكة. عندي شوكة وملعقة، دون سكّين أبدًا. وعندما يقدمون لي لحمًا فإنهم يقطّعونه مُقدّمًا، كأنني فاقدة لأيّ مهارة يدويّة، أو تنقصني الأسنان. لكن كلاهما عندي، ولذلك لا يعطونني سكّينًا.

أقرع بابه، أسمع صوته، أرتّب ملامحي، أدخل. إنه واقف جوار الموقد، في يده كأس تكاد تنفد. لطالما انتظر مجيئي ليبدأ شرب الكحوليّات القويّة، رغم معرفتي أنهم يحتسون النبيذ على العشاء. وجهه مُحمرّ قليلًا. أحاول تخمين عدد الكؤوس التي شربها.

"تحياتي" يقول، "كيف حال الجنيّة الصّغيرة هذا المساء؟"

كؤوس قليلة، أستطيع معرفة ذلك من خلال استفاضة ابتسامته التي يرتسمها، والهدف منها. ما زال في المرحلة التملّقيّة.

"بخير" أقول.

"بخير إلى درجة أن تخوضي تجربة مُثيرة قليلًا؟"

"عفوًا؟" أقول. ووراء عرْضه هذا ألمح شيئًا من الخجل والشك في المدى الذي يمكن أن يقطعه معي، وفي أيّ اتّجاه.

"الليلة أحمل مفاجأة صغيرة لك" يقول، ثم يضحك، لا، إنها أشبه بالقرقرة. ألاحظ أن كل شيء في هذا الليلة يبدو موجزًا. كأنه يرغب في التخفّف من كل شيء حوله، أنا أيضًا. "مفاجأة ستعجبك".

"وما تلك؟" أقول، "لعبة الداما الصينية؟" أستطيع الحديث بانفتاح هكذا دون كُلفة. إذ يبدو أنه يستمتع بذلك، خاصة بعد تناول بعض الكؤوس. حينئذ يُعجبه طَيشي.

"لا، أفضل منها" يقول، مُحاولًا استثارتي.

"بالكاد أقوى على الانتظار" أقول.

"حسنٌ" يقول. ثم يذهب إلى مكتبه، ويتفقّد دُرجًا. ثم يأتي نحوي وقد أخفى يده وراء ظهره.

"خمّني" يقول.

"شيء حيواني أم نباتي أم معدني؟" أقول.
"أوه، حيواني" يقول بجاذبيّة متوهّمة. "حيواني أجل، أستطيع تأكيد ذلك" ثم يسحب يده من وراء ظهره. إنه يقبض ملء كفّه، كما يبدو، على رِيش، بنفسجي ووردي. ثمّ يكشف عنه. إنّها حُلّةٌ نسائيّة، لابدّ أنها كذلك: ها هما كوبا النهدين، يكسوهما خرَزٌ لامع بنفسجيّ على شكل نجوم صغيرة. والرّيش يزيّن حدود فتحات الفخذَين والعنق. كنتُ مُصيبةً إذن بشأن مِشَدّ الخصر.
أتعجّب أين عثر عليه. يُفترض بتلك الملابس كلّها أنها أُتلفَت. أتذكر أنني شاهدتُ ذلك في التلفاز، فقد أذاعوا مقاطع مصوّرة في مختلف المدن. في نيويورك، أُطلق على عمليّة الإتلاف تلك: عمليّة تطهير منهاتن. النيران تشتعل في الهواء الطلق في ميدان تايمز سكوير، فيما الحشود تترنّم حولها، والنساء يرفعن أياديهن شُكرًا في الهواء عندما يميّزن أن آلات التصوير مصوبة إليهن. وشُبّان بوجوه حليقة صارمة يلقون في النيران ملء أيديهم حريريّات ونايلونيّات وفِرائيّات زائفة: خضراء ليمونيّة، حمراء، بنفسجيّة؛ وساتان أسود، وأنسجة ذهبيّة، وأخرى لألأتها فضيّة، وملابس داخلية، وحمالات صدر شفّافة وُشّيَت بقلوب ساتانيّة ورديّة فقط لتغطي الحلمتين، ذاك كلّه، فيما صُنّاع تلك الملابس ومستوردوها وبائعوها جاثون أرضًا مُعلنين توبتهم أمام الحشود، وقد علت رؤوسهم قُبّعات ورقيّة مخروطيّة طُبع عليها بالأحمر كلمة: عار.
لكن بعضها بقي موجودا حتمًا بعد انتهاء عمليات التطهير تلك، فلا يُعقل أنّهم أحرقوها كلّها. لابدّ أنه صادف هذه الحِلية بالطريقة نفسها التي صادف بها المجلات فنالها، طريقة غير مشروعة: تفوح منها رائحة السوق السوداء. وهي قِطعة ليست جديدة، استُخدمت قبلًا؛ فحدود القماش أسفل الذراعين مُتقبّضة، ومبقّعة قليلًا، بعرَق امرأة أخرى.
"كان عليّ تخمين مقاسك" يقول، "آمل أن تناسبك".
"هل تتوقع مني ارتداء هذه؟" أقول، مُدركةً أن صوتي شابَتْه نبرة عِفّة رافضة. لكن ما زالت الفكرة جذّابة، فلم أرتدي حِلية كهذه، أو حتى قريبة منها، قط: برّاقة،

مسرحيّة، لابدّ أنها كذلك، زيّ مسرحيّ قديم، أو من مخلّفات نادٍ ليليّ اندثر. إن أقرب ما ارتديته شبهًا بها هو رداء استحمام، وقميص نسائي خَوْخيّ، أحضره لوقا إليّ مرة. رغم ذلك، فإن ثمّة ما يُغوي بارتداء هذه الحِلية، تحمل في طيّاتها إغراءً طفوليًّا إذ ستبدو استعراضيّة للغاية. وفي ارتداءها بعض الزّهو، والهُزء بالخالات، إثمِيٌّ للغاية، حُرٌّ للغاية. شأنُ الحُريّة شأنَ أي شيء آخر، نسبيّة.

"حسنٌ" أقول، وأودّ ألّا أبدو متلهّفة جدًّا. أودّ أن يشعر أنني أُزجي إليه معروفًا. حينئذ قد نصل إليها، رغبته الحقيقية العميقة. هل يخبّئ سوطًا وراء الباب؟ هل سيُخرج لي حذاءً برقبة عالية، ويُحني نفسه أو يحنيني على المكتب؟

"إنه لغرض التمويه" يقول، "لابدّ أيضًا أن تطلي وجهك، جلبتُ ما تفعلين به ذلك، وإلّا لن يسمحوا لك بالدخول".

"أدخل إلى أين؟" أتساءل.

"الليلة سآخذك لنخرج".

"نخرج؟" يا للكلمة التي بادَت. لكن لم يعد هناك مكان يستطيع أيّ رجل أن يصطحب إليه امرأة.

"نخرج من هنا" يقول.

أُدرك دون أن يحذّرني أحد أن ما يقترحه عليَّ خطير عليه، لكن خطره عليّ أكبر، ومع ذلك أودّ أن أخرج. أودّ أيّ شيء يكسر الرتابة، يُفسد النظام الصارم المحترم المَرْعِيّ دومًا.

أخبره أنني لا أودّ أن يشاهدني فيما أرتدي الحِلية، فما زلت أخجل منه في ما يتعلّق بجسدي. يقول لي إنه سوف يدير ظهره عني. يفعل ذلك. أخلع حذائي، جوربي النسائي الطويل، سروالي القطنيّ الداخلي، وأدفع الحِلية ذات الفراء لتنزلق ذراعيّ فيها، لكن من تحت خيمة ردائي الفضفاض. ثم أخلع ردائي، وأترك الحِلية تنزل إلى أسفل معلّقةً من كتفيّ. ثمّة حذاء أيضا، بنفسجي بكعب مبالغ في علوّه. لا شيء على مقاسي تماما. الحذاء كبير قليلًا والحِلية ضيّقة على خصري، لكنها تنفع.

"هاك" أقول، فيستدير إليّ. أشعر أنني حمقاء. أريد أن أرى نفسي في مرآة.
"ساحرة" يقول، "والآن حان دَور الوجه".
كل ما لديه هو إصبع أحمر شفاه قديم وذائب وله رائحة العنب الاصطناعي، وقلما كُحل ومَسْكرة. لا أقلام تظليل ولا مساحيق تورّد الوجنتين. ظننتُ لحظة أنني نسيت كيف أتزيّن بتلك الأدوات. بدأت بتجميل عيني فلطّخت جفني بالأسود كأنني انتهيت توًّا من شجار. لكنني أمسحه بمُرطّب الأيدي ذي الزيت النباتيّ وأحاول مجدّدًا. أدعك وجنتيّ ببعض أحمر الشفاه، أمزجه ببشرتي. وفيما أقوم بذلك كان يرفع قبالتي مرآة يدويّة فضّيّة الظهر، فأميّزها، إنّها لسيرينا جوي. لابدّ أنه استلّها من غرفتها.
لا شيء يمكن فعله بالنسبة إلى شعري.
"باهرة" يقول، لكنّه هذه المرة مُستثار جدًّا، كأننا نلبس لنذهب إلى حفلة.
يسير إلى الخزانة ويستخرج عباءة، لها قلنسوة. زرقاء فاتحة، لون الزّوجات. هذه أيضًا لسيرينا جوي لا شكّ.
"اجذبي القلنسوة حتى تغطّي وجهك" يقول، "حاولي ألّا تُفسدي مساحيق تجميلك. العباءة من أجل أن نتمكن من المرور عبر نقاط التفتيش".
"لكن ماذا عن التصريح؟" أقول.
"لا تقلقي" يقول، "عندي تصريح من أجلك".
وهكذا انطلقنا.

انزلقنا معًا عبر شوارع مظلمة. الرئيس يمسك كفّي اليمنى كأننا مراهقان في قاعة سينما. أُحكم القلنسوة ذات الزُّرقة السماويّة حول رأسي، كما يُفترض بالزوجة المُطيعة. ومن خلال فتحة ضيقة عبر القلنسوة أشاهد قفا نِك. قبّعته مستقيمة فوق رأسه، ظهره مستقيم، ورقبته مستقيمة، كلّه مستقيم. هيئة جسده تستنكر وجودي، أم ذاك من وحي خيالي؟ هل يعرف ما أرتديه تحت هذه العباءة؟ هل هو من جلبه؟ وهل يُشعره ذلك بالغضب أم الشّبق أم الغيض أم ماذا؟ هل

نتشارك شيئًا: يُفترض بكلّ منّا أن يكون خفيًّا، بكلّ منّا أن يؤدّي عمله وحسب. أتساءل إن كان يفكّر في ذلك. عندما فتح الباب للرئيس كي يركب السيارة، فاردًا ذراعه لي أيضًا كي ألحق الرئيس في الركوب، حاولتُ النظر إلى عينيه، لكي ينظر إليّ أيضًا، لكنه تصرّف كأنّه لا يراني. ولمَ لا؟ إنها وظيفة سهلة التي يؤديها، بأجر لا بأس به وفقًا له، يقدّم خدمات بسيطة ومجاملات، ولا يرغب بالطبع أن يعرّضها للخطر.

نقاط التفتيش ليست مشكلة، يسير كل شيء بالسلاسة التي أوحى بها الرئيس، رغم قرع قلبي العنيف، وارتفاع ضغط الدماء في رأسي. لو كانت مويرا معنا لقالت إنني جبانة خسيسة.

"هنا، سيدي؟" يقول نِك، بعد تجاوزنا نقطة التفتيش الثانية.

"أجل" يقول الرئيس.

تتوقف السيارة. "والآن أريد منك أن تنزلي على أرضية السيارة" يقول الرئيس.

"أنزل؟"

"لابدّ أن نعبر البوابة" يقول، كأنني سأفهم ما يقول. حاولتُ سؤاله أين نحن ذاهبون، لكنه قال إنه يودّ أن يفاجئني. "لا يُسمح للزوجات بعبور البوّابة أبدًا" يقول.

وهكذا أسوّي جسدي مع الأرضيّة، مستلقية، فتعاود السيارة انطلاقها. وخلال الدقائق القليلة التالية لا أرى شيئًا: بات الهواء تحت العباءة حارًّا خانقًا. إنها عباءة شتوية، لا قطنيّة صيفية، وتنبعث منها رائحة كرات العثّ. لابدّ أنه استلّها من المخزن آملًا ألّا تلاحظ ذلك. باعد بين قدميه كثيرا لكي يُفسح لي المكان، ورغم ذلك حطّت جبهتي على حذائه. لم أقترب من حذائه إلى هذا الحدّ من قبل، إنه صلب ومشدود مثل أصداف الخنافس: أسود، لامع، وحتى أنّه غامض، كأن لا علاقة له بالأقدام.

نعبر خلال نقطة تفتيش أخرى. أسمع الأصوات، أصواتًا شبه آليّة، تُظهر الاحترام والخوف، وصوت النافذة الكهربائيّة تهبط ثم ترتفع من أجل إبراز التصاريح.

لكنّه هذه المرة لا يُبرز تصريحي، التصريح الذي من المُفترض أنه يخصّني، فأنا الآن لستُ موجودة بالنسبة إلى نقطة التفتيش، لستُ هنا رسميًّا.

تعاود السيارة انطلاقها، ثم تتوقف مرة أخرى. يساعدني الرئيس على النهوض.

"علينا أن نُسرع" يقول، "هذا هو المدخل الخلفيّ. لابدّ أن تتركي العباءة مع نِك. نلتقي هنا بعد ساعة يا نِك، كالمعتاد". إذن لقد جاء هنا من قبل.

يساعدني في نزع العباءة. يُفتَح باب السيارة. أشعر بالهواء ينزلق فوق بشرتي العارية، وأدرك أنني كنت أتعرّق. وعندما أستدير لكي أغلق باب السيارة أرى نِك ينظر إليّ خلال النافذة. إنه يراني الآن. هل تلك نظرات ازدراء، أم لا مبالاة؟ هل ما أفعله هو ما توقّعه مني؟

نعبر الآن زقاقًا خلف مبنى من طوب أحمر، حديث البناء نوعًا ما. صفّ من براميل القمامة وُضعت خارج الباب، وفي الهواء رائحة دجاج أكثروا من قلْيه. الرئيس لديه مفتاح للباب البسيط الرماديّ المُسَوّى تمامًا مع مستوى الجدار حوله، ومعدنيّ كما أظن. وراءه يمتدّ رواق كونكريتيّ مُنارٌ بأضواء فلورستيّة عُلّقت في السقف، كأنّه نفَقٌ حُفر لإنجاز عملٍ محدّد ما.

"هاكِ" يقول الرئيس، ثم يُحيط خصري بخيط مطّاطيّ ذي بطاقة أرجوانيّة، كما تلك البطاقات البيانيّة التي تُثبّت إلى الحقائب التي تُشحن في المطارات. "لو سألك أحد، قولي له إنك مستأجَرة الليلة" يقول. ثم يمسك زندي العاري ويقتادني إلى الأمام. ما أريده هو مرآة، لأرى هل أحمر شفاهي ما زال في مكانه، وهل فرو الحِلية يبدو سخيفًا وقد تشعّث؟ تحت هذا الضوء لابدّ أنّني أبدو صارخة. لكن فات الأوان الآن.

"حمقاء"، لقالت لي مويرا.

نعبر الرواق. ندخل بابًا رماديًا آخر يُفضي إلى رواق آخر، لكنّ هذا إضاءته خفيفة ومفروش بسجّاد بلون الفِطر، بُنيّ ورديّ. ثمّة أبواب مرقّمة في هذا الرّواق: مئة وواحد، مئة واثنان، كما تعدّ أثناء عاصفة رعديّة، لتعرف متى ستضربك. إنه فندق. انبثقت خلفنا ضحكة من وراء أحد الأبواب المغلقة، ضحكة رجل وامرأة أيضًا. مرّ وقت طويل منذ أن سمعت شيئًا مُشابهًا آخر مرّة.

أفضى بنا الرواق إلى فناء مركزي. واسع ومرتفع أيضًا، يعلو الطوابق كلها مُنتهيًا بكُوّة تنفذ منها أنوار السماء. تتوسّط الفناء نافورة، مستديرة، ترش الماء من أشكال أزهار هندباء ناضجة. ثمّة أحواض نباتات هنا وهناك، شُجيرات مورقة، ولكلّ شرفة ساتِرٌ يحمل أشكال أعذاق عنب. ومصاعد بيضويّة الزجاج جانبيًا تنزلق على الجدران صاعدةً نازلة مثل حيوانات رخوية عملاقة.

أعرف أين أنا. جئتُ هنا قبلًا: مع لوقا، خلال ساعات النهار المتأخّرة، قبل وقت طويل. كان فندقًا حينئذ، والآن يمتلأ بالناس.

أقف ثابتةً وأحدّق إليهن. أستطيع التحديق هنا، أنظر حولي، فلا قلنسوة بيضاء تمنعني من ذلك. أحسّ أن رأسي، دون قلنسوة، خفيف بشكل مُريب، كأن ثقلا أزيح عنه، أو مادة أُزيلت منه.

نساء جالسات، وأخريات مسترخيات، ومتهاديات، ومستندات بعضهن إلى بعض. والرّجال يختلطون بهن. رجال كُثر بملابسهم الرسميّة السوداء، بزّاتهم، يُشبه بعضهم بعضًا، لكنهم يشكّلون خلفيّة المشهد وحسب، أمّا النساء فيشكّلن غابةً استوائيّة، يرتدين أنواع الحِليّ الاحتفالية جميعها. بعضهن يرتدين ما أرتدي، فراءً وخرزًا برّاقًا، يرتفع إلى فوق الفخذين، وينخفض إلى آخر النهدين. وبعضهن قمصان نوم قصيرة، ومنامات طفوليّة، وفساتين دانتيل تُظهر قدْرَ ما تُخفي، كما في الأيام القديمة. وبعضهن في أثواب استحمام، أو ملابس داخلية فقط. أرى

إحداهن ترتدي لباسًا مُحاكًا بالصوف، ذا محارتَين ضخمتين تغطيان حلمتيها. وبعضهن بيناطيل قصيرة، وفساتين السّهر عارية الظهر. وبعضهن بملابس رياضية كما النساء اللائي كنا نراهن يتمرنّ في التلفاز، تلتصق بالجسد مع جوارب مُحاكة باستيليّة اللون لتدفئة السّاقَين. بل إن بعضهن يرتدين ملابس المشجّعات الرياضيّات: تنانير قصيرة ذات طيّات، وحروف مكبّرة على الصدر. أظن أنهن اضطررن إلى هذا التنوّع في اللباس لأنه كلّ ما أُنقذَ أو خُبِّئَ من حرائق التطهير. وجميعهن يضعن مساحيق التجميل. أكتشف الآن كيف أنني أمسيتُ لا آلَفُ رؤية وجوه النساء بمساحيق، فعيونهن بدت لي واسعة جدًّا، ودكناء وبرّاقة، فيما شفاههن حمراء جدًّا، مبلّلة جدًّا، غُمست في دماء، ومشعّة، أو أنها من ناحية أخرى أشبه بشفاه المهرّج.

تشعر في الوهلة الأولى بالغبطة ممّا ترى. إنها أشبه بحفلة تنكريّة، وهن أشبه بأطفال كبار ارتدوا ملابس ما زالت مثبّتة إليها بطاقاتها البيانيّة، أخذنها مباشرة من شاحنات النقل. لكن، هل هناك بهجة في هذا المشهد؟ قد يكون. لكن هل اخترن هن، بأنفسهن، ذلك؟ لا تستطيع معرفة الحقيقة من مجرّد النظر إليهن. ما أكثر الأرداف هنا. ما عُدتُ آلَفُ رؤيتها هكذا.

"كأنّك تسيرين في أغوار الماضي" يقول الرئيس. يبدو صوته راضيًا، مسرورًا، "ألا تظنين ذلك؟"

أحاول أن أتذكر هل كان الماضي حقًّا شبيهًا بما أرى؟ لستُ واثقة الآن. أعرف أنه احتوى أمورًا كهذه، لكن اختلفَ المزيج. إنّ فيلمًا عن الماضي ليس هو الماضي.

"بلى" أقول. ما أشعر به ليس إحساسًا واحدًا بسيطًا. حتمًا لستُ فزِعة من هؤلاء النساء، ولا مصدومة. بل أعتبرهن كما المتغيّبات عن مدارسهن دون عذر. إنّ العقيدة الرسمية تنكرهن، تُنكر وجودهن نفسه، لكن ها هنّ هنا. إنّ هذا الوجود، على الأقل، يعني شيئًا.

"لا تحدّقي ببلهٍ هكذا" يقول الرئيس، "سوف تفضحين أمرك. تصرّفي بشكل طبيعي". يقتادني إلى الأمام مرة أخرى. رجل آخر لاحظه، فحيّاه، ثمّ شرع يسير

نحونا. شدّ الرئيس قبضته على زندي. "اثبتي" همس، "لا تفقدي أعصابك".
كل ما عليك فعله، أقول لنفسي، هو أن تطبقي فمك وتنظري بحماقة. ليس بالأمر الصعب.

يؤدي الرئيس مهمّة الكلام مع هذا الرجل ومن تبعوه، لا يتكلم كثيرا عني، لا يحتاج إلى ذلك. يقول عني إنني جديدة، فينظرون إليّ ثم يشيحون بعيدًا، ويُكملون حديثهم في أمور أخرى. قناعي إذًا يؤدّي مهمّته.
يبقى قابضًا على زندي. أثناء حديثه يستقيم عموده الفقري تدريجيًا ويتّسع صدره، وتنبري في صوته أكثر فأكثر حيويّة الشّباب وطرافته. يخطر إليّ أنه يتباهى. يتباهى بي، أمامهم، فيما هم يُدركون ذلك، فيتصرفون بلياقة، مُبقين أيديهم في حدودهم، رغم أن نظراتهم تسير متفحّصة ثديَيّ وساقَيّ، كأنّ لا سبب يوضح لهم لمَ يكفّوا عن ذلك. لكنه هو أيضا يتباهى بنفسه أمامي. يحاول أن يُريني سُلطته على العالم، يجتاز القوانين، تحت أنوفهم مباشرة، يتحدّاهم، ثمّ يُفلت من العقاب. ربما وصل إلى تلك الحالة من السُميّة التي قيل إن السُّلطة تدفعك إليها، تعتقد خلالها أنّه لا سبيل إلى الاستغناء عنك أبدًا، فتفعل ما شئت، ما يخطر إلى ذهنك، أيًّا كان الذي شئته. غمزَ لي، عندما اعتقد أنّ لا أحد ينظر إلينا. مرّتين.
استعراض صبياني، هذا المشهد كلّه، وبائس، لكنّني أتفهّمه.
بعد أن نال كفايته من التباهي، يقتادني مجدّدًا إلى أريكة منتفخة مُزَهّرَة، تمامًا كالّتي توضع في ردهات الفنادق سابقًا. أرائك هذه الرّدهة، في الحقيقة، أتذكّرها، خلفيّتها زرقاء غامقة، فيما وسائدها أرجوانية مُزَهّرَة من تصاميم الفن الحديث.
"خطر إليّ أنّ قدميك قد تعبتا من الحذاء" يقول. وهو مُحقّ، أنا ممنونة له. يُجلسني ثم يجلس جواري، ويمدّ ذراعًا حول كتفيّ. ملمس كُمّه خشن على بشرتي، فلم أعتد مؤخّرًا أن يلمسني أحد.
"حسنٌ،" يقول، "ما رأيك في نادينا الصغير هذا؟" أُجيل النّظر حولي مرة أخرى.

الرجال ليسوا متماثلين كما ظننت في الوهلة الأولى. فعند النافورة مجموعة يابانيّين في بزّات رماديّة فاتحة. وهناك، في الركن البعيد، لطْخة بيضاء، إنهم عرب، كُلٌّ يرتدي ثوبَه الطويل وغُترته وعقاله.

"هذا نادٍ؟" أقول.

"حسنٌ، هذا ما نسمّيه فيما بيننا، النادي».

"ظننت أنّ هذه الأمور محرّمة أشدّ التحريم" أقول.

"محرّمة رسميًّا. لكنّنا بَشَرٌ في النهاية" يقول.

أنتظره أن يُضيء هذه الفكرة أكثر لكنه لا يفعل. لذا أقول له "ما الذي يعنيه ذلك؟"

"يعني أنك لا تستطيعين الاحتيال على الطبيعة" يقول، "الطبيعة حتّمَت التعدّد للرّجال. وذلك منطقي. إنّه عنصر مهم في استراتيجية التكاثر. تلك خطّة الطبيعة". لا أقاطعه، فيُكمل "النساء يعرفن ذلك غريزيًّا. لمَ كُنّ يشترين ملابس كثيرة مختلفة سابقًا؟ ذلك من أجل أن يخدعن الرجال بأنهن كثيرات ومختلفات. امرأة جديدة كلّ يوم".

يقول ذلك كأنّه يؤمن به، لكنه يقول أمورًا كثيرة على ذلك النحو. ربما يؤمن به حقًّا، وربما لا، وربما يؤمن به وينفيه في الوقت نفسه. تستحيل معرفة ما يؤمن به.

"إذن، بما أنّنا الآن لا نملك ملابس مختلفة" أقول، "فإنكم ببساطة تملكون نساء مختلفات". هذه مفارقة ساخرة للغاية، لكنه لا يُقرّها.

"هذا هو الحلّ لمشكلات كثيرة" يقول دون أن تندّ عنه أقلّ حركة.

لا أجيبه. لم أعد أحتمله. أفكّر أن أعامله ببرود، وأقضي بقيّة الليلة في صمت متجهّم. لكنني لن أحتمل عواقب فِعل كهذا، أعرف ذلك. فمهما كان الأمر، إنها ليلة في الخارج.

ما أود حقًّا فعله هو الحديث مع النساء، لكني أدرك أن الفُرَص ضئيلة.

"من هؤلاء؟" أسأله.

"هذا المكان للرّؤساء فقط" يقول، "من كافّة الفروع، والضبّاط أيضًا. وللوفود التجارية طبعًا، فهو يحفّز على التجارة؛ إنه مكان ملائم للقاء الناس، ومن الصعب إنجاز صفقة تجارية ما بعيدًا عن هذا المكان. نحاول أن نوفّر لهم على الأقل ما قد يجدونه في الأماكن المشابهة. تُصادفين هنا أيضًا سماع بعض المعلومات. فالرجل أحيانًا قد يُخبر امرأة عن أشياء لا يُفضي بها أبدًا إلى رجل آخر".

"لا" أقول، "أقصد النساء".

"أوه" يقول، "بعضهن عاهرات حقيقيات" يضحك، "مومسات منذ الأيام الماضية. ما كان في مقدورنا استيعابهن. وعلى أيّ حال، أغلبهن يفضّلن الوجود هنا".

"والأخريات؟"

"الأخريات؟" يقول، "أمامنا هنا مجموعة منهن. تلك المرأة، الخضراء هناك، عالِمة اجتماع، أو كانت كذلك. وتلك كانت محامية، وتلك كانت في عالم التجارة، شغلَت منصبًا رفيعًا في سلسلة مطاعم سريعة أو فنادق. قيل لي إنّ المرء يستمتع بمحادثتها إذا كان كلّ ما يريده منها هو الحديث طبعًا. وهنّ يفضّلن ذلك هنا بالطبع".

"يفضلن الحديث على ماذا؟" أقول.

"على البدائل" يقول، "ربما تفضّلينها أنت نفسك أيضًا على ما ينالك من..." يقول ذلك بكياسة، يريد أن يصطادني، أن أُثني عليه، فأدرك أن الجزء الأهمّ من محادثتنا انتهى.

"لا أدري" أقول، كأنني أقلّب المسألة "الكلام أيضًا صعبٌ أحيانًا".

"عملهن هنا يحتّم عليهن مراقبة أوزانهن" يقول، "زِيدي عشرة أرطال ولسوف يضعونك في محبس العُزلة". هل هذه مزحة؟ لا أريد التأكّد من ذلك.

"والآن" يقول، "لكي تشعرين بروح المكان، ماذا لو احتسيت مشروبًا روحيًّا؟"

"يُفترض بي ألّا أفعل" أقول.

"كأس واحدة لا تضرّ" يقول، "وعلى أيّ حال، سوف يُكشَف أمرك إذا لم تفعلي،

فالخمور والسجائر هنا ليست محرّمة. هل ترين؟ إنهن ينلْنَ بعض المميزات".
"ليكُن" أقول. أحببت الفكرة في سِرّي. فلم أحتسِ شرابًا منذ سنوات.
"وماذا سيكون إذًا؟" يقول، "يتوفّر عندهم كلّ شيء، يستوردونه".
"جِن مع تونِك" أقول، "لكن ليخفّف الكأس أرجوك، لا أريد أن أتسبّب لك بأيّ سوء".
"لن تفعلي" يقول مُكشّرًا، ينهض، ثمّ على نحو مفاجئ، يرفع كفّي ويقبّلها. ثم ينطلق متوجها إلى المشْرَب. كان في إمكانه مناداة النادلة، ثمّة بعضهن هنا، يرتدين تنانير سوداء متماثلة قصيرة جدًّا فيما كُرات صوفيّة صغيرة ملوّنة تغطّي نهودهن، لكن من الواضح أنهن مشغولات ويصعب التلويح لإحداهن للقدوم.

ثمّ، أرى مويرا. إنها واقفة مع امرأتين جوار النافورة. أمعن النّظر، مرّة، وأخرى، لكي أتأكد أنها هي. أفعل ذلك على نبضات، في رفرفة سريعة، لكي لا يلاحظ أحد ذلك.
ترتدي ملابس سخيفة، فستانًا أسود ساتانيًّا كان لامعًا ذات يوم، إنّه أرْدَأ الملابس طُرًّا. حزامه مفقود، وتجري فيه من الداخل أسلاكٌ تنتهي بدفع النهدين إلى أعلى. رغم ذلك، فإنّه لا يتلاءم وجسد مويرا، فهو فضفاض عليها حتى إن أحد نهديها منفوش فيما الآخر هابط. إنها تجذبه فوق نهديها بذهن شارد، ترفعه. ثمّة لُفافة قُطن مثبّتة إلى آخر ظهرها، رأيتها عندما استدارت جانبيًّا، كأنّه فوطة صحية نسائيّة تفرقع داخلها القطن كما الفُشار. أُدرك الآن أنّ المفترض بذلك أن يبدو ذَيْلًا. ثُبّتَتْ إلى رأسها أذنان، لأرنب أو غزال، يصعب التحديد، وإحداهما فقدَت أسلاكها فارتخت نصف متهدّلة. ترتدي ربطة عُنُق فراشيّة سوداء، وجوربًا شبَكيًّا أسود أيضًا، وحذاء أسود كذلك بكعب عال. لطالما كرهت الأحذية ذات الكعب العالي.
زِيها كلّه، قديم وسوقيّ. تذكّرني بشيء ما في الماضي البعيد، لكنّني لا أدركه. مسرحية دراميّة؟ ملْهاة موسيقيّة؟ فتيات يرتدين لعيد الفصح أزياء أرانب؟ لكن

ما معنى رداءها هنا إذن؟ ولمَ أزياء الأرانب مُثيرة جنسيًّا للرجال؟ كيف يمكن لهذا الزي الرثّ أن يُثير أيّ أحد؟

مويرا تدخّن سيجارة. تأخذ نفسا عميقًا طويلاً، ثم تمرّر السيجارة إلى المرأة يسارها، التي ترتدي فستان خرز لامع يمتدّ منه ذَيل طويل مدبّب، وعلى رأسها قرنان فضيّان. زيّ الشيطان. تكتّف مويرا ذراعيها تحت نهديها المدفوعَين إلى أعلى. تستند إلى قدم واحدة حينًا، ثمّ إلى الأخرى حينًا، لابدّ أنّهما تُؤلمانها. عمودها الفقري محْنِيّ قليلًا. تنظر دون تركيز ولا اهتمام في أرجاء الغرفة. إنّه مشهد ألفته طويلًا.

أريدها أن تراني، لكن عينيها تنزلقان فوقي كأنني شجرة أخرى، أو أريكة. حتمًا سوف تلتفت نحوي مجدّدًا، أحدّق إليها بقوّة، لابدّ أن تراني قبل أن يأتيها رجل ما فتختفي معه. فالمرأة الأخرى التي كانت معها، الشقراء التي ترتدي معطفًا قصيرًا ورديًّا موشّى بفراء مهلهل ينتهي أسفل نهديها، قد أُخذَت، أُدخلت مصعدًا زجاجيًا، وأُبعدَت عن الأنظار. تُدير مويرا رأسها مرة أخرى، باحثة ربما عن احتمالات عمل ناجح. يصعب حتمًا الوقوف هناك دون أن يرغب فيها أحد، كأنها تلميذة دون رفيق في حفل راقص في مدرسة ثانوية، تعبر عليها العيون وتتجاوزها. لكن هذه المرّة تتركّز عيناها عليّ. تراني فعلًا. لكنها تعرف جيّدًا كيف تتمالك نفسها. نحملق في بعضنا، محافظتين على ملامحنا فاترة، غير مباليّة. ثمّ تُحرّك رأسها بخفّة. مجرد هزّة نحو اليمين. تستعيد السيجارة من المرأة الحمراء، ترفعها إلى فمها، وتترك يدها معلّقة في الهواء لحظة ناشرةً أصابعها الخمسة. ثم تدير لي ظهرها.

إنها إشارتنا المألوفة القديمة، أمامي خمس دقائق للذهاب إلى الحمّام الواقع إلى يمينها. أنظر حولي: لا لافتة تشير إلى الباب. ولا أستطيع النهوض والسّير أينما كان، دون الرئيس، فلست أعرف ما يكفي عن المكان، لا أعرف الشروط، وقد أصادف تحدّيًا ما.

دقيقة، دقيقتان. تتهادى مويرا مبتعدة دون أن تُلقي نظرةً إليّ. إنها تأمل أنني قد

فهمت إشارتها وسأتبعها.

يعود الرئيس بكأسين، ينظر إليّ مبتسمًا، ويضعهما على المنضدة المنخفضة الطويلة أمام الأريكة. يجلس "هل أنت مستمتعة؟" يقول. إنه يريدني كذلك. فهذه مفاجأته لي في النهاية.

أبتسم له. "هل من حمّام هنا؟" أقول.

"بالطبع" يقول. يرشف من كأسه ولا يدُلّني أين.

"أحتاج الذهاب إليه" أقول. أتابع مرور الوقت في ذهني، بالثواني، لا الدقائق.

"هناك" يومئ لي.

"ماذا لو استوقفني أحد؟"

"أظهري لهم بطاقتك" يقول، "وستكونين بخير، سيعرفون أنّك مأخوذة".

أنهض. أذرع المكان. أعرُج قليلًا، وأكاد أسقط أرضًا قُرب النافورة، إنه الكعب العالي، فدون يد الرئيس على زندي ليثبّتني أفقد توازني. ينظُر إليّ بعض الرّجال في دهشة، كما أظنّ، لا اشتهاء. أشعر أنني حمقاء. أمدّ ذراعي اليسرى أمامي بشكل ملفت للنظر، حانيةً مرفقها شاهرةً بطاقة بياناتي. لا أحد يقول شيئًا.

أعثر على مدخل حمام النساء. ما زالت لافتته تقول: سيّدات، بأحرف مدوّرة كثيرًا وطباعة ذهبيّة. هناك رواق يؤدي إلى باب، تجلس عنده امرأة جوار منضدة، تُشرف على الدخول والخروج. إنها امرأة مُسنّة، تضع عليها قفطانًا بنفسجيًّا وتظلّل عينيها بظلال ذهبيّة. رغم كل ذلك، أستطيع تأكيد أنها خالة سابقة. فعصا الماشية فوق المنضدة، ويمتدّ منها حبلٌ معقودٌ إلى يدها. لا يُسمح بالتصرفات الجنونيّة حتى هنا.

"خمس عشرة دقيقة" تقول لي، وتمُدّ إليّ بطاقة بنفسجيّة ورقيّة صلبة، مستطيلة ومدوّرة الزوايا، أخذتها من كومة كبيرة من بطاقات مماثلة على منضدتها. تمامًا كالطريقة التي تُدار بها غرَف تغيير الملابس في المجمعات التجارية، في الأوقات السابقة. أسمعها تقول للمرأة الواقفة خلفي "كنتِ هنا توًّا".

"أحتاج الدخول مرّة أخرى" تقول المرأة.

"لكِ فترة راحة واحدة في السّاعة. أنت تعرفين القوانين".

تشرع المرأة في الاعتراض، بصوت متبرّم يائس.

أدفع الباب فيُفتح.

أستعيد ما أراه، كنت هنا قبلًا. هنا ردهة للرّاحة، مضاءة بدرجات لطيفة ورديّة، وتحوي عدة مقاعد للاسترخاء، وأريكة خُضرتها ليمونيّة وقماشها مقصّب بأشكال الخيزران، تعلوها ساعة جداريّة لها إطار ذهبي مخرّم. لم يُزيلوا المرآة من هنا، فثمّة واحدة طويلة تقابل الأريكة. فأنتِ تحتاجين هنا إلى معرفة كيف يراكِ الآخرون. ثمّ عبر رواق مقوّس إلى الداخل تمتَدّ مقصورات الحمّام، ورديّة أيضًا، وكذلك أحواض الغسيل، ومرايا أكثر.

عدّة نساء يجلسن على المقاعد والأريكة، أحذيتهن مخلوعة وسجائرهن مشتعلة. يحدّقنَ إليّ عند دخولي. تنتشر في الهواء روائح عطر ودخان كريه، ولحومٍ

مستهلكة.

"أنت جديدة هنا؟" قالت إحداهن.

"أجل" أقول، فيما أبحث عن مويرا التي لا يظهر لها أي أثر.

لا يبتسمن لي. يتابعن التدخين كأنّ ذلك عملٌ أيضًا. ثمّة غرفة خلفهن، فيها امرأة ترتدي زِيّ قطّة ذي ذيل من فرو مزيّف برتقالي، تُصلح من مساحيق التجميل على وجهها. هذا المنظر يشبه تمامًا ما قد تراه في كواليس مسرح: مساحيق شمعيّة، ودخان، وأدوات الخداع كلّها.

أقف متردّدة لا أعرف ما أفعل. لا أسأل عن مويرا، ربما يُعرّضها ذلك إلى مشكلة. ثم يتناهى إليّ صوت جريان مياه مرحاض، وتخرج مويرا من مقصورة وردية. تتهادى في مشيتها متجهة نحوي. أنتظر إشارتها.

"لا بأس" تقول لي وللأخريات، "أعرفها". يبتسمن الآن، ثم تعانقني مويرا. تلتف ذراعاي حولها. الأسلاك التي ترفع ثدييها تنغرس في صدري. تقبّل كلّ منّا الأخرى، واحدة على كلّ وجنة. ثم نتراجع عن بعضنا.

"يا للفظاعة!" تقول، "كأنّك زانيةُ بابل![147]".

"ألا يُفترض بي أن أبدو كذلك؟" أقول، "وأنت كأنّك ما تصطاده القطّة!".

"أجل" تقول، وتجذب فستانها فوق نهديها، "هذا ليس ذَوقي في الملابس، تكاد تفطره الأسلاك مِزَقًا، ليتهم يلتقطون امرأة ما زالت تعرف كيف تصلح هذه الثياب. سأحظى حينها بشيء نِصف لائق على الأقل".

"هل أنتِ مَن اختاره؟" أقول. أتساءل إذا كانت حقًّا اختارته من بين خيارات أخرى، فهو ليس مبهرجًا كما يناسب ذوقها. أسود وأبيض فقط.

"للجحيم جميعًا، طبعًا لا" تقول، "إنّه هِبَة حكوميّة. ربما ظنّوا بطريقة ما أنّ من اختاره هو أنا".

لا أصدّق أنها فعلًا هي، أمامي، أتحسّس ذراعها مرة أخرى، ثم أشرع في البكاء.

"لا تفعلي ذلك" تقول، "سوف تُفسدين كُحل عينيك. على أيّ حال، ليس أمامنا متّسع من الوقت. ابتعدا!" هذا الأمر توجّهه إلى امرأتين جالستين على الأريكة،

بطريقتها المعهودة القطْعيّة المتهورة، وكالمعتاد تنال ما تريد.
"انتهيتُ على أيّ حال" تقول إحدى المرأتين، ترتدي مشدّ خصر ذي زُرقة طفوليّة، بشريط معقود حوله، وجوربا نسائيا أبيض ينتهي عند الفخذين. تنهض، تصافحني. "مرحبا" تقول.
بكلّ طواعيّة تُفسح المرأة الثانية أيضًا مكانها على الأريكة. أجلس وموبرا. وأول ما نفعله هو خلع حذاءينا.
"ما الذي تفعلينه بحقّ الجحيم هنا؟" قالت موبرا بعدئذ، "لا أعني أنّه ليس من المبهج رؤيتك، لكن هذا المكان ليس مبهجًا لك. بماذا أخطأت؟ سخرتِ من قضيبه؟"
أنظر إلى السّقف. «هل هي مزروعة هناك؟" أتساءل، وأمرّر بحذر رؤوس أصابعي حول عينيّ، لكنها تعود مسودة.
"ربما" تقول موبرا، "هل تريدين سيجارة؟"
"أحبّ ذلك" أقول.
"هاتِ" تقول للمرأة الجالسة جوارها، "أعيريني واحدة... ممكن؟"
تمرّر المرأة السيجارة، دون حقد. ما زالت موبرا ماهرة في استعارة الأشياء من الآخرين. يضحكني ذلك.
"لكن" تقول موبرا، "قد لا يزرعون الأسقف هنا بأجهزة تنصّت. لا أصدّق أنّهم يعيرون أي اهتمام لما نقوله. لقد عرفوا كل ما قد نقوله سابقًا، وعلى أيّ حال، لا تخرج امرأة من هنا إلّا في عربة نقل صغيرة سوداء، لابدّ أن تعرفي ذلك ما دُمْتِ هنا".
أجذب رأسها نحوي كي أستطيع الهمْس في أذنها مباشرة. "أنا هنا مؤقّتًا" أقول، "هذه الليلة فقط. فلا يُفترض بي التواجد هنا أبدًا. لقد هرّبَني".
"من هو؟" تهمس، "ذاك الخراء الذي كنتِ معه؟ لقد أخذني قبلًا، إنّه مُملّ حدّ التعب".
"إنه وليّي" أقول.

تومئ. "بعضهم يفعلونٰ ذلك، يتنشّطون بعدها، كأنّهم يضاجعون عاهرة مقدّسة على مذبح كنيسة. زُمرتك من الجواري يُفترض بهن أن يبقين أوعيةً عفيفة، فيما يودّ كلّ واحد من رؤساءكن أن يرى جاريته بأصباغها وزينتها، استعراض تافه آخر للسّلطة".

لم يخطر لي ذلك. أحاول إسقاط كلامها على الرئيس، لكن استعراض القوة يبدو تفسيرًا بسيطًا للغاية وبدائيًّا ليقود الرّئيس. حتمًا أن دوافعه أعمق من ذلك. وربما خيالي وحسب هو ما يحملني على الاعتقاد بذلك.

"ليس أمامنا متّسع من الوقت" أقول، "أخبريني كلّ شيء".

تستهجن مويرا ما قلته. "وما نفع ذلك؟" تقول، لكنها تدرك أنّ هناك نفعًا من المعرفة، ولذلك تخبرني.

هذا ما قالته، أو همسَت به، كلّه تقريبًا، أو ما أتذكره منه، فلم يتوفّر لي أن أدوّنه، وملأتُ فراغات القصّة ما استطعت، فلم يكن الوقت كافيًا لسَرد كلّ شيء، ولهذا اكتفَت بالخطوط العريضة. لقد أنجزنا ذلك خلال جلستين، تدبّرنا أمر فترة استراحة ثانية. بذلتُ جهدي أن يحمل ما سأقوله نبرتها، فتلك إحدى طُرُق إبقاءها على قيد الحياة.

"تركتُ العجوز الشّمطاء الخالة إليزابث موثقة خلف آلة التدفئة مثل ديك الأعياد الرّوميّ. أردتُ قتلها، اعترتني رغبة عارمة لفعل ذلك حقًّا، لكنني مسرورة الآن أنني لم أفعل، وإلّا لأصابني سوء كبير. لم أتخيّل أن الهرب من الدّار الحمراء سهل كما اكتشفت. ففي ذلك الرداء البني شققتُ طريقي في ثبات. وبقيت سائرة كأنني أعرف تماما وجهتي، حتى اختفيت عن الأبصار. لم أكن قد أعددتُ أيّ خطّة عظيمة، لم أرسم الأمر بدقّة، كما ظنّوا، لكنهم عندما حاولوا أن أعترف لهم بكلّ شيء، لفّقتُ لهم الكثير. تفعلين ذلك، عندما يصعقونك بالكهرباء وأشياء أخرى. لا يهمّك حينها ما تقولين مهما كان".

"أبقيتُ كتفيّ مشدودين إلى الوراء، وذقني مرفوعًا، وتابعت السّير، أفكّر في ما سأفعل. لقد قبضوا على كثير من صديقاتي في المنظّمة التعاونيّة النسويّة، عملي السّابق، قبل دخولي الدّار، واعتقدت أنّهم أثناء مكوثي هناك قبضوا على الأخريات أيضًا. كنت واثقة أنّهم يحملون قائمة بأسمائنا. كم كنّا غبيّات لنظنّ أنّه من الأفضل الإبقاء على سَير نشاطنا كما هو، رغم كل احتياطاتنا، رغم استخدام الأنفاق تحت الأرض، رغم نقل كل شيء من مكتبنا الرسميّ إلى سراديب بيوت الناس وغرفهم الخلفيّة. ولذلك كنت أدرك أنّه ينبغي عليّ ألّا أحاول اللجوء إلى أيّ من تلك البيوت إطلاقًا".

"كنت أعرف تقريبًا أين مكاني في المدينة، ولذا سرتُ في شارع لا أتذكر أنني أعرفه. لكنني عرفتُ من الشمس أين هو الشمال. عضويّتي في فريق الكشافة النسائي آتى أُكُله أخيرًا. وفكّرت أنّه ينبغي عليّ التقدّم في ذاك الاتجاه، فربما أصادف الساحة، أو الميدان العام، أو أي شيء حولهما. حينها سأحدّد مكاني بالضبط. وفكّرت أيضًا أنه من الأفضل أن أشقّ الأماكن من وسطها، لا بعيدًا متواريةً عنها، وبذلك لن يشكّ فيّ أحد".

"أقاموا مزيدًا من نقاط التفتيش فيما كنّا داخل الدّار، نقاطًا في كلّ مكان. عندما صادفتُ النقطة الأولى منها فزعتُ فزعًا لا حدّ له؛ إذ قابلتها فجأة، تتمركز وراء منعطف مباشرة. أدركتُ أنّه من غير المناسب أن أستدير عائدة بغتة وعلى مرأى منهم. لذلك احتلتُ عليهم كي أعبر، كما فعلت لأعبر بوّابة الدّار، بعبوس ثابت، وقامة مشدودة، وشفتين مزمومتين، ونظرة تخترقهم اختراقًا، كأنهم بثور متقيّحة. أنت تعرفين كيف يبدو وجه الخالات حين تنطق إحداهن كلمة: رجُل. لقد نفعني ذلك كالسّحر، وعبرتُ بها نقاط التفتيش الأخرى أيضًا".

"لكن الأفكار في ذهني كانت تدور وتدور كالجنون، فلن يطول بهم الوقت حتى يعثرون على العجوز الشمطاء وتصدح أجهزة الإنذار. ثمّ سرعان ما سيبدؤون في البحث عنّي: خالة واحدة مزيّفة، هاربة على قدميها. نبشتُ ذهني لأتذكّر من يمكنه مساعدتي، استعدتُ مرارًا أسماء مناصرينا القدماء. وأخيرًا حاولت تذكّر

أسماء المشتركين في قائمة بريدنا. لقد أتلفناها بالطبع، مبكّرًا، أو أننا لم نُتلفها، بل توازعناها فيما بيننا، بحيث يحفظ كلّ منا أسماء قائمته الصغيرة، ثم أتلفناها جميعًا. ما زال مُتاحًا لنا استخدام البريد في الفترة الأولى من تأسيس جلعاد، لكننا كففنا عن وضع شعارنا على ظروف الرسائل، فقد بات الوضع خطيرًا للغاية".

"وهكذا حاولتُ تذكّر جزئي من القائمة، ولن أفصح لك عن اختياري، فلا أريد لهما أن يواجها أيّ مشكلة، هذا إذا لم يكونا قد وقعا في واحدة فعلًا. ربما أفشيتُ اسمَيهما بنفسي، فمن الصعب أن أتذكّر ما قلته فيما هم يعرّضونني إلى أنواع الأفعال كلّها. سوف تقولين أي شيء".

"وقع اختياري عليهما لأنهما كانا متزوجين. وهما أأمن من اللجوء إلى عازب أو عازبة، أو مثليّ أو مثليّة. وكنت قد تذكّرت الحرف الذي كان مُلحقًا باسمَيْهما في قائمة البريد، إنّه حرف الصّاد، أي أنهما ينتميان إلى الصّاحبيّين. ألحقنا أحرفًا بأسماء المنتمين إلى أيّ جماعة دينيّة، من أجل المسيرات. هكذا نعرف إلى مَن نوجّه نداءاتنا في المنظّمة، فمن غير الملائم توجيه نداء إلى مَن أسماؤهم مُلحقة بحرف السّين مثلًا للمشاركة في مَسيرة من أجل قضيّة الإجهاض. إلى ذلك، كففنا عن المسيرات في تلك الفترة. أتذكّر عنوانهما أيضًا. لقد أهلكنا أنفسنا حفظًا لها، إذ يجب تذكّرها تمامًا، الرّمز البريدي وكلّ شيء"

"بحلول تلك السّاعة كنت قد وجدت نفسي في جادَة ماس، فحدّدت موقعي، وطريق الوصول إليهما. فبتُّ قلقةً بشأن أمر آخر: إذا رأيا خالةً تتقدّم في فناء بيتهما، ألن يوصدا بابهما ويتظاهرا أنّهما خارج البيت؟ ومع ذلك لابدّ أن أحاول، إنها فرصتي الوحيدة. استبعدتُ فكرة أن يرمياني بالرّصاص. كانت الساعة حوالي الخامسة حينها، وقد تعبت من المشي، خاصّة بطريقة الخالات تلك الأشبه بمشية جنديّ لعين، وكما أنني لم أتناول شيئًا منذ الإفطار"

"ما لم أكن أدركه بالطّبع هو أن الخالات، أو الدّار نفسها، لم يكن أمرها شائعًا بين الناس في تلك الأيام المبكرة؛ بل أُحيط بسريّة تامّة، وراء الأسلاك الشائكة. وربما كانت هناك اعتراضات على ما كانوا يقومون به، حتى في تلك الآونة. ولذلك،

رغم أن الناس شاهدوا تلك الخالة المُريبة بينهم، فإنهم لم يعرفوا ما الغرض منها. ربما ظنّوها ممرّضة في الجيش. كانوا قد توقّفوا منذ وقت طويل عن طرح الأسئلة بشكل عام، إلّا إذا اضطُرّوا إلى ذلك".

"وهكذا سمحا لي بالدخول فورًا. المرأة هي التي جاءت إلى الباب. قلتُ لها إنني أوزّع استبيانًا. فعلت ذلك لكي لا ترتسم عليها أمارات الانذهال، في حال كان هناك من يراقبنا. لكنني ما إن دخلت البيت حتى أزحتُ القلنسوة وكشفت عن هويّتي الحقيقية. كان في مقدورهما مهاتفة الشرطة أو أيّ كان، أدركت هذه المخاطرة، لكن كما قلت لم أجد أمامي أي فرصة أخرى. وعلى أيّ حال، لم يفعلا. بل قدّما لي بعض الملابس، أحد فساتينها، ثم أحرقا رداء الخالة وتصريحها في الموقد. عرفا ما يجب فعله في الحال، لم يرتاحا لوجودي بينهما؛ كان ذلك واضحًا تمامًا، فباتا قلقَين للغاية. إنّهما يرعيان ابنين صغيرين لهما، لم يبلغا سبع سنوات من العمر. وقد تفهّمتُ ذلك"

"ذهبت إلى الحمّام. وكم شعرت بالارتياح حين دخلته. حوض الاستحمام مليء بأسماك مطّاطيّة وما يشبه ذلك. ثمّ جلستُ في غرفة الطفلين في الأعلى، ولعبت معهما بمكعّبات التركيب، فيما والداهما بقيا في الأسفل يتباحثان أمري. بحلول تلك الساعة ما عدتُ أشعر بالخوف، بل شعرت في الحقيقة أنني بخير. آمَنتُ بالقضاء والقدر، يمكن أن تقولي ذلك. أعدّت المرأة لي لفافة طعام وفنجان قهوة، وقال لي الرجل إنه سوف يصطحبني إلى بيت آخر لم يجازفا بمهاتفته قبل الذّهاب إليه"

"البيت الآخر، يُديره صاحبيّان أيضًا، كانا في أرض الذّهب، فهو المنْفَذ إلى سكّة قطار تحت الأرض، إلى درب النساء السرّي[148]. بعد انصراف الرّجل الأوّل، قال لي صاحب البيت إنه سيحاول تهريبي خارج البلاد. لن أقول لك كيف، فبعض تلك المحطات ربما ما زالت تعمل. كلّ واحد منهم كان على اتصال بواحد آخر فقط، من يتلوه في تسلسل المحطّات، ولهذا النظام محاسنه، في حال قُبض على أحدهم، فإنه لا يعرف الكثير. لكن له مساوئه أيضًا، لأنه إذا عُثر على محطّة

واحدة، فإن كامل السلسلة التي تتبعها تتوقف عن العمل فلا يمرّ بها عمّال النقل بعرباتهم حتى يأتيهم خبرٌ باتّخاذ مسار السلسلة هذه مجدّدًا. رغم ذلك، فإنّهم منظّمون بشكل يفوق الخيال. ولقد تغلغلوا في بعض الأماكن الحساسة، من بينها مكتب البريد. ثمّة سائق هناك تابع لهم، مزوّد بعربة نقل بريد صغيرة. لقد عبروا بي الجسر إلى داخل المدينة في حقيبة بَريد. أكشف لك هذا الآن لأنهم قبضوا عليه بعدها مباشرة، وانتهى بأن علّقوه على الحائط. تسمعين عن تلك الأمور هنا بالطّبع، تندهشين لكثرة سماعها، فالرؤساء يخبروننا عن ذلك بأنفسهم. وأظنّ أنهم يفكّرون: لمَ لا؟ فلا أحد غريب يمكن أن نمرّر إليه ما يُقال لنا، سوى تداولها بيننا هنا، وهذا لا يعدّ شيئًا".

"أحاول تهوين الأمر. لكنه لم يكن هيّنًا، كنت على شفا الانهيار طوال الوقت. أحد أصعب الأمور كانت معرفتي أنّ أولئك الناس يخاطرون بحياتهم في سبيلي دون وجود ما يجبرهم على ذلك، في حين أنهم قالوا لي إنهم يقومون بذلك لأسباب دينية وليس عليّ حملها محملًا شخصيًّا. ربما يُسعف هذا التبرير البعض. كانوا يؤدون صلوات صامتة كلّ مساء، استصعبت الالتزام بها في بادئ الأمر، فقد كانت تذكرني بالخراء الذي يحدث في الدّار، ولقد ضايقتني حدّ الغثيان، كي أكون صريحة معك. بذلتُ جهدًا كبيرًا، قلت لنفسي إنها مختلفة تماما. كرهتُها في البدء، لكنني وصلت إلى اعتقاد أنها هي التي تثبّت قلوبهم للقيام بتلك المخاطر، فهم يدركون جيّدًا ما سيلقونه لو قُبض عليهم، لا التفاصيل، لكنهم يعرفون النهاية. فبحلول ذلك الوقت، كانوا يعرضون ما سيحدث على شاشة التلفاز، المحاكمات وما إلى ذلك"

"ذلك قبل إطلاق حكومة جلعاد عمليّات عنيفة لتطهير أرضها. وقتها، طالما قلتِ لهم إنّك مسيحية بشكل ما، ومتزوجة، زواجك الأول بالطبع، فإنهم يتركونك في حال سبيلك؛ فقد ركّزوا أولاً على النسوة الأخريات، وضعوهن تحت سيطرتهم قبل أن يلتفتوا إلى الجميع دون استثناء"

"بقيتُ مختفية تحت الأرض ثمانية أشهر أو تسعة. نُقلتُ من بيت آمن إلى آخر،

لم يعد كثيرٌ منها موجودًا الآن. ولم تعُد كلّها إلى صاحبيّين، بل إن بعض مُلّاكها ليسوا متديّنين إطلاقًا، مجرّد أناس رافضين لما يحدث"

"كنتُ على وشك النجاح. نقلوني إلى مسافات بعيدة، وصلتُ مدينة سالم، ثمّ في عربة نقل مليئة بالدجاج حتى مدينة مِين. وكدتُ أتقيّأ من الرائحة الكريهة: هل سبق لك أن فكّرت كيف سيكون الأمر لو شُحنت في عربة نقل، مليئة بدجاج مصاب بالغثيان لكثرة اهتزاز العربة؟ كانوا يخططون أن يعبروا بي الحدود من هناك، لا في سيارة أو عربة؛ فذلك أمر صعب للغاية، بل على متن قارب، حتى الساحل. لم أعرف ذلك إلّا بحلول ليلة التنفيذ، فهم لا يخبرونك أبدًا عن الخطوة التالية إلا قبل حدوثها مباشرة. هكذا كان أسلوبهم الحذر"

"لذا، لا أعرف ما حدث. ربما أحدنا خاف جدًّا فوشى بنا، وربما أحدًا منهم راوده الشك في أمرنا، وربما أن القارب نفسه هو السبب، فكثيرٌ عليهم ربما أن يروا قاربًا يحمل رجلًا في ذلك الليل. لابدّ أن العيون المراقبة في تلك الساعة من الليل كثّفت وجودها هناك وفي كل الأماكن القريبة من الحدود. مهما كان الأمر، فإنهم التقطونا لحظة تسلّلنا نازلين من القارب إلى رصيف الميناء، أنا والرجل وزوجته. وزوجان كبيران في السنّ قليلًا، في خمسينيّاتهما. اشتغل الرجل في صيد سراطين البحر سابقًا، قبل أن يحدث ما حدث للشواطئ وصيّادي الأسماك. لا أعرف ما فعلوا لذينك الزوجين، فقد وضعوني في عربة وحدي"

"ظننتها النهاية، نهايتي. أو أعود إلى الدّار، إلى رعاية الخالة ليديا وسلكها الفولاذيّ. إنها تستمتع بذلك، تعرفين. تدّعي أنها تؤمن بمبدأ أحِبّ-المُخطئ واكره-الخطيئة، لكنها تستمتع بذلك. فكرتُ أن أُلقي نفسي في البحر، ولكنت فعلت لو وجدت أمامي سبيلًا. ثمّة جنديّان معي في مؤخرة العربة، ينظران إليّ مثل صقرَين. لم يقولا بحق الجحيم ولا حرفًا واحدًا، بل اكتفيا بالجلوس والنظر إليّ بتلك النظرة الجداريّة الصّماء التي يتقنونها. لا سبيل للقفز"

"لم نصل المركز، بل مكانًا آخر. لن أقول ما حدث بعد ذلك. أفضّل ألّا أقول. كل ما يمكنني قوله هو أنهم فعلوا بي كلّ ما يمكن فعله دون أن يتركوا على جسدي

أيّ علامة على ذلك"

"وعندما انتهوا، عرضوا عليّ فيلمًا. هل تعرفين عمّ كان؟ الحياة في المستعمرات. هناك يمضون أوقاتهم في أعمال النظافة، فيما عقولهم نظيفة من الجنس تمامًا. أحيانًا كلّ ما يفعلونه هو رفع جثث القتلى بعد معركة ما. جثث القتلى في حارات اليهود هي الأسوأ، فهي تُترك ملقاة فترة طويلة فتتعفّن. لا يحبّون أن تُترك الجثث مُلقاة حولهم، فهم يخشون تفشي الطاعون أو مرض آخر بينهم. النساء في المستعمرات مُوكلاتٍ بحرق الجثث. المستعمرات الأخرى أسوأ حالًا، حيث النفايات السامة والانبعاثات الإشعاعية. لقد قدّروا أن الإنسان يستطيع العيش هناك ثلاث سنوات في الحد الأقصى، قبل أن يسقط أنفه، وتتقشّر بشرته كمن ينزع قفازًا مطّاطيًا. لا يهتمون بتزويدهم بطعام كافٍ أو ملابس واقية، أو أي شيء، ذلك أوْفَر لهم. وهم يريدون التخلّص من سكّان المستعمرات على أيّ حال. يُقال إن هناك مستعمرات أخرى ليست سيئة، حيث يقوم الناس بالفلاحة وزراعة القطن والطماطم وغير ذلك. لكنها ليست التي يتناوله الفيلم الذي عرضوه عليّ"

"العجائز في المستعمرات أيضًا. أراهن أنك تساءلتِ لمَ لمْ تعودي تشاهدينهنّ في الجوار. كذلك الجواري اللائي استنفدن محاولاتهن الثلاث للإنجاب، والعنيدات مثلي. المنبوذات. عقيمات بالطبع. إذا لم يكُنّ كذلك عندما وجدوهن، فإنهن سيصبحن كذلك بعد قضاء بعض الوقت في المستعمرات. وعندما يراودهم الشكّ، فإنهم يجرون للمرأة عملية جراحية صغيرة كي لا يتركوا مجالاً لأيّ خطأ. حوالي رُبع سكّان المستعمرات من الرجال، فليس جميع المتّهمين بالغدْر بالجُندر يعلّقون على الحائط"

"جميعهم هناك يرتدون ملابس طويلة كالّتي نرتديها في الدّار. رماديّة فقط. الرجال والنساء معًا، كما رأيت في لقطات الفيلم الجماعية. أظن أنهم يُذلّون الرجال بذلك. خراء، رداء كذلك سيُذلّني أنا أيضًا. كيف للمرء أن يحتمل؟ لقد قلّبت الأمر من جوانبه كافّة، ولذلك فضّلتُ ارتداء هذا الزيّ"

"قالوا لي إن خطورتي بلغت حدًّا لا يستطيعون معه أن يتسامحوا معي ويعيدوني

إلى الدار الحمراء. قالوا إنني سوف أكون عُنصرًا مُفسدًا، وإنّ الخيار لي، إمّا هنا أو المستعمرات. حسنٌ، خراء، لا أحد يختار الذهاب إلى المستعمرات إلّا الراهبات. أعني، لستُ ساعيةً إلى الاستشهاد في سبيل عقيدة ما. لو أنّني استأصلتُ رحمي سابقًا لما كان عليهم أن يُجروا تلك العمليّة لي. لا امرأة هنا تحمل مبيضَين صالحين، تدركين طبعًا كمّ المشاكل الصحيّة التي تعيشها المرأة بسبب ذلك"

"لذا ها أنا هنا. وحتى أنهم يعطونك مرطّب بشرة. ابحثي عن سبيل كي تنتقلي إلى هنا. ستحظين بثلاث سنوات ممتازات أو أربع قبل أن يبْلى جسدك فيرسلونك إلى مدافن العظام. الطعام هنا ليس رديئًا وتتوفّر الخمور والمخدرات، إذا رغبتِ، ونعمل في الليل فقط"

"مويرا" أقول، "أنت لا تعنين ذلك". لقد أذعرتني، فما أسمعه من صوتها هو اللامبالاة، وغياب الإرادة. هل حقًّا فعلوها فيها، سلبوها شيئًا؟ ما هو؟ أكان جوهريًّا إلى هذا الحدّ؟ لكن كيف لي أن أتوقع منها متابعة حياتها، وفقًا لأفكاري عنها: الشجاعة، المغامرة، العفويّة، عندما أكون أنا نفسي على عكس ذلك؟ لا أريدها أن تصير مثلي: جبانة، مُستسلمة، مُهادنة. حالها هذا هو ما انتهت إليه عندما صارت تشبهني. أريد بسالتها، عنترتها، بطولتها، خوضها الشّجار بيد واحدة لا أكثر. أريد منها كلّ ما ينقصني.

"لا تقلقي عليّ" تقول لي. إنها تعرف ما يدور في ذهني. "ما زلت هنا، تستطيعين رؤيتي. على أيّ حال، انظري إلى الأمور هكذا: الأمر ليس سيئا للغاية، فأنا محاطة بنساء عديدات مثلي، هذا المكان هو جنّة السّحاقيّات، يمكنك قَول ذلك".

ها هي الآن تحاول استثارتي، تشعّ ببعض الطاقة، فأشعر بتحسُّن.

"وهل يسمحون لك؟" أقول لها.

"يسمحون بالجحيم، إنهم يشجعون ذلك. هل تعرفين ما يُطلقون على هذا المكان فيما بينهم؟ بيتُ إيزابل! الخالات يعتقدن أننا جميعا ملعونات، لذلك يئسن منّا تماما، هكذا ما عادت تهمّهن الرذائل التي نمارسها أيًّا كانت، والرؤساء لا يهمهم ما نفعله في أوقات فراغنا أكثر مّما يهمّهم بَولُهم. على أيّ حال، نساء

فوق نساء، ذاك يُثيرهم كثيرًا"

"وماذا عن الأخريات؟" أقول.

"افهمي الأمر هكذا" تقول، "لسن مغرمات جدًّا بالرّجال" ثمّ كشّرت مرّة أخرى. أم أن تلك علامة الرّضوخ؟

هذا ما أريد حكايته. أريد أن أحكي قصّة هروب مويرا، لكن هذه المرّة تنجح في الهرب. أو إذا لم أستطيع أن أحكي قصّةً كتلك، أودّ ان أقول إنها فجّرت بيت إيزابل ناسفةً خمسين رئيسًا كانوا في الداخل. أريدها أن تنتهي بعملٍ شجاع ومذهل، عمل غاضب، عمل يلائمها. لكن، على حدّ علمي، لا شيء من ذاك القبيل حدث. لا أعرف كيف انتهى بها الأمر، أو إذا انتهى أصلًا، فلم أرها مرّة أخرى قط.

يحمل الرئيس مفتاح غرفة. حصل عليه من مكتب الاستقبال، فيما انتظرته على الأريكة المُزهرة. يريني إيّاه، بمَكر، وبذلك ينبغي أن أفهم ما يرمي إليه.
نستقل المصعد الزجاجي البيضوي جانبيًّا، متجاوزين الشرفات بسواتر أعذاق العنب. ينبغي أن أفهم أيضًا أنني معروضة هكذا أمام أعين للجميع.
يفتح قفل الباب. الأشياء كلها هي نفسها، على حالها السابقة، كان يا ما كان، يومًا من الأيام. الستائر ذاتها، المُزهرة الثّقيلة التي تتطابق ومفرش السرير: أزهار خشخاش برتقاليّة على أزرق ملكيّ. والستائر الخلفيّة البيضاء الشّفيفة التي تُخفّف أشعّة الشمس. خزانة الأدراج ومنضدتا السرير، مربّعة الزوايا، بسيطة التصميم. المصابيح وصور الجدران: جفّنة فاكهة، تفّاح بأسلوب تجريديّ، أزهار في إناء، شقائق نعمان ونجماويّات تتلاءم والستائر. كل شيء على حاله.
أستأذِن الرّئيسَ دقيقةً، وأذهب إلى الحمّام. طنين ينبعث من أذني بسبب الدخان، وشراب الجِن أعياني. أبلّل منشفة وأضغطها على جبيني. بعد لحظات أُجيل نظري بحثًا عن أيّ صابونة ما تزال مغلّفة. ما زالت متوافرة، النوع نفسه المجلوب من إسبانيا ويحمل صورة امرأة غجريّة.
أستنشق رائحة الصابون، رائحة مُطهّرة، ثمّ أنتصف الحمّام الأبيض فيما تتناهى إليّ أصوات جريان مياه بعيدة في أحواض استحمام ومراحيض. وعلى نحوٍ غريب، أرتاح، أشعر بطِيب الخاطر والمواساة والهدوء، وأشعر كأنني موجودة في بيتي. أمرٌ ما في الحمّامات يهدّئ الإنسان. أعضاء الجسد تعيش هنا ديمقراطيّتها على الأقل. "كلّ جسد يخْرَى" كما كانت لتقول مويرا.
أجلس على حافة حوض الاستحمام، أحدّق إلى المناشف النظيفة. لطالما أثارتني، لطالما عنَت لي النتيجة، بعد ممارسة الحب.

"رأيتُ أُمّك" قالت مويرا.

"أين؟" قلت، شعرتُ بهزّة عنيفة، كأنني مقذوفة. وأدركتُ حينئذ أنني طوال الوقت أحسَبها ميتة.

"لم أقابلها، بل في ذلك الفيلم الذي عرضوه عليّ عن المستعمرات. في إحدى اللقطات القريبة ظهرَت لي بكلّ وضوح. ملفوفة بإحدى الأردية الرمادية تلك، صحيح، لكنني أكيدة أنها هي".

"شكرًا يا رب" قلت.

"لمَ تشكرينه؟" قالت مويرا.

"لطالما حسبتها ميتة" قلت.

"إنها هناك كالأموات" قالت مويرا، "لذا، تمنّي لها الموت الحقّ".

لا أذكر متى رأيتها آخر مرة، فهي تختلط بغيرها من المشاهد. كان لقاءًا عاديًا: لابد أنها زارتني دون موعد، هذه عادتها: تدخل البيت وتخرج منه مثل تيّار هوائيّ، كأنني أنا الأم وهي الابنة. ما زالت وقتئذ تحمل روح المُسافِر دومًا. أحيانًا، حين تكون في طَوْر الانتقال من شقّة إلى أخرى، في تلك الفترة الفاصلة بين سكنَين، قد تأتي إليّ وتغسل ملابسها وتجفّفها في غسّالتي، وقد تأتي كيفما اتفق لتستعير أي شيء، إناءً مثلًا، أو مجفّف شعر.

لذلك ما كنتُ مُدركة أن زيارتها ستكون الأخيرة، وإلا لحرصت على تذكّرها تمامًا، لكنني لا أذكر حتى ما قلناه.

بعد مرور أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، ساءت الأوضاع فجأة، فحاولتُ مهاتفتها، لكن أحدًا لم يرفع السماعة. حاولتُ مرارًا دون جدوى.

لم تخبرني أنها ستسافر إلى أيّ مكان، لكنّها ربما لم تذهب حقًّا إلى أيّ مكان، أو لم تفعل ذلك كثيرًا. عندها سيّارتها، ولم تكن مُسنّة على السّياقة.

هاتفت أخيرًا مشرف المبنى، وقال إنه لم يشاهدها مؤخّرًا.

قلقتُ، ظننتُ أنها تعرضت لسكتة قلبية، أو ربما دماغية، ذاك محتمل، رغم أنها

لم تُصَب بمرض يهدّد بذلك، على الأقل وِفق ما أعرفه. لطالما اهتمّت بصحّتها. تذهب للسباحة مرة كلّ أسبوعين. اعتدتُ أن أقول لدائرة أصدقائي إن صحّتها أفضل من صحّتي، ذلك صحيح.

ذهبتُ ولوقا إلى المدينة، وأرعب لوقا مشرف المبنى ليفتح باب الشقّة. "ربما هي ميتة، على الأرض" قال لوقا، "وكلّما طال بها الوقت هناك ازداد الأمر سوءًا. هل فكرت في ما ستنشره من روائح كريهة؟" لكن المُشرف قال إنه يحتاج إلى تصريح. لكن لوقا يُجيد الإقناع. أوضح له أننا لن ننتظر أكثر ولن ننصرف. بدأتُ أبكي، وربما ذلك ما أنهى الموضوع.

عندما فتح الرجل الباب رأينا فوضى عارمة: قطع أثاث مقلوبة، بطون الوسائد مبقورة، أدراج الخزائن مُلقاة على وجهها في الأرض فيما محتوياتها مبعثرة في كل مكان. لكن أمي لم تكن هناك.

"سأبلغ الشرطة" قلتُ. توقّفت عن البكاء. شعرت بالبرد من رأسي حتى أخمص قدميّ، وراحت أسناني تصطك بعضها ببعض.

"لا تفعلي" قال لوقا.

"لمَ لا؟" قلت. برّقْتُ عيني في وجهه، أنا الآن غاضبة، فيما هو واقف هناك ينتصف حُطام غرفة المعيشة، ينظر إلي. يدسّ كفّيه في جَيبَيه، إحدى الحركات اليائسة التي يؤديها الناس عندما لا يعرفون ما يفعلون سواها. "لا تفعلي وحسب"، ذاك ما قاله.

"أمّك أنيقة" تقول مويرا، وعندما كنا ندرس في الجامعة. لاحقًا، "يا للإثارة، إنها تقلي قلْبًا...". تقول. ولاحقًا "إنها ظريفة".

"إنها ليست ظريفة" أقول، "إنها أمي".

"يا ررررب" قالت مويرا، "لو رأيتِ أمّي إذن...".

أتخيل أمّي، تكنس تلك السّموم القُماميّة المميتة، كما العجائز الروسيّات عندما ضيّقوا عليهن حتى كنسوا الغبار عن الأرض. هذا الغبار قد يقتلها. لا أصدّق

ذلك. أنا واثقة أنّ غرورها وحُبها الحياة وطاقتها وشخصيتها التي تقلي قليًا، ستمكّنها من النجاة. سوف تتدبّر الأمر.
لكنني أعرف أن هذا ليس صحيحا. إنها تخلّص من المسؤولية، كعادة الأطفال، بتمريرها إلى أمّهاتهم.
لقد بكيتُها فعلًا، ولسوف أبكيها أيضًا، وأيضًا.

أعود بأفكاري، إلى هنا، إلى هذا الفندق. أحتاج أن أكون هنا. والآن، في هذه المرآة الرّحبة، تحت الضوء الأبيض، أُلقي نظرة على نفسي.
إنها نظرة جيّدة، متأنية ومستقيمة. أنا حُطام. سالت المَسْكرة مجدّدًا، رغم إصلاحات مويرا، وأحمر الشفاه الأرجوانيّ انتشر هنا وهناك، وبعض خصلات شعري متطايرة دون هدف. الرِّيش الورديّ راح يتساقط، برّاقًا كما في دُمى العروض الكرنفاليّة، كما أن بعض النجوم اللامعة سقطت أيضًا. ربما كان بعضها ساقطًا أصلًا قبل أن أرتديه، لكنني لم ألحظ ذلك. أبدو مثل تقليدٍ ساخرٍ عنّي، أصباغي رديئة وفي ملابس امرأة أخرى، مبهرجات مستعملة.
ليت عندي فرشاة للأسنان.
أستطيع الوقوف هنا وتأمّل مسألة الفرشاة، لكن الوقت يمضي.
يجب أن أعود إلى البيت قبل منتصف الليل، وإلاّ سأتحوّل إلى يقطينة، أم أنّها عربة الجرّ[149]؟ الطّقس سيُقام غدًا، وفق التقويم. ولذلك فإن سيرينا هذه الليلة سوف تبحث عنّي. وإذا لم تجدني فإنها ستتساءل لماذا، ثم ماذا؟
والرئيس، بدافع رغبته في تغيير الطقس قليلًا، ينتظر. أستطيع سماعه، يذرع الغرفة ببطء. يقف الآن عند باب الحمّام، يتنحنح، "إحمّ" متكلّفة. أفتح صنبور المياه الساخنة، موحية باستعدادي أو أمرًا كذلك. ينبغي أن أنتهي من هذا الأمر. أغسل يديّ. يجب ألّا أبقى خاملة.
عندما أخرج، أجده مستلقيا على السرير الواسع، وكما لاحظتُ فورًا، خلع حذاءه. أستلقي جواره، ليس عليه أن يقول لي ذلك. لفضّلتُ ألّا أفعل، لكنّ

الاستلقاء أراحني، فأنا متعبة.

وحدنا أخيرًا، أقول لنفسي. في الحقيقة لا أريد أن أنفرد به، في فراش. أفضّل لو كانت سيرينا معنا. أفضّل الأحرف اللوحيّة.

لكن صمتي لا يثبّط عزيمته. "موعده غدًا، أليس كذلك؟" يقول لي في هدوء، "ظننتُ أنّه في إمكاننا استباق الأمر". ثم يستدير إليّ.

"لِمَ جلبتني هنا؟" أقول له في برود.

يمسّد جسدي في لُطف الآن، من مقدمة السفينة، كما يقولون، إلى مؤخرتها، كما قد يمسّد قطّة، طول جانبي الأيسر وهبوطا إلى ساقي اليسرى. يتوقف عند القدم، وتطوّق أصابعه كاحلي لحظات، مثل سوار، حيث الوَسْم الذي يُمكن أن يُقرأ لَمْسًا. سوار العنزة ووسْم ملكيّتها

أذكِّر نفسي أنه ليس رجلًا فظًّا، وأنني في الأحوال الأخرى، أستلطفه.

تتوقف يده. "ظننتُ أنّك ستسعدين بهذا من باب التغيير" يقول، عارفًا أن ذلك لا يبرّر شيئًا. "ظننتُ أنّنا لابدّ، من باب التجريب، أن نفعل هذا هنا" يقول، مُدركًا ما زال أنّ ذلك ليس كافيا أيضًا. "قلتِ سابقًا إنّك تريدين معرفة ما الذي يحدث حقًّا في الخارج".

يجلس ويشرع في حلّ أزراره. هل سيكون الأمر أسوأ، أنني دفعته إلى خلع ملابس سُلطته كلّها؟ وصل إلى قميصه التحتيّ. كرشة صغيرة، وشُعيرات نافرة قليلًا.

يجذب إحدى علّاقَتَي ثوبي عن كتفي، مُدخلًا يده الأخرى تحت الرّيش. لكن لا فائدة، أستلقي هناك مثل طائر ميت. إنه ليس وحشًا، أظن. لا أستطيع منحه رغبتي، ولا نفوري، ثمّة أمور كثيرة لابدّ أن توضع جانبًا تحت هذه الظروف.

"ربما من الأفضل أن أطفئ الأنوار" يقول الرئيس في قُنُوط، واستياء دون شك. أنظر إليه لحظة، قبل أن يفعل ذلك. يبدو دون لباسه الرسميّ أصغر حجمًا وأسَنّ، مثل شيء قد جُفّف توًّا. المشكلة هي أنني لا أستطيع، معه، أن أكون شيئًا خلافَ ما أكون عادة معه. عادتي معه هي أن أستلقي هامدة دون حركة. لكن حتمًا هذا المكان يوفّر لنا مساحةً لأشياء غير هذا العبث والتفاهة.

تظاهري بذلك، أصرخ في ذهني على نفسي، تذكّري كيف. انتهي من الأمر الآن وإلا ستبقين هنا الليل كله. أديري لحومَكِ هنا وهناك، تنهّدي بعُلُوّ، ذلك أقلّ ما يمكنك فعله.

XIII

ليل

حرارة الجوّ ليلًا أشدّ سوءًا منها نهارًا. حتى مع دوران المروحة، لا شيء يتحرك، فيما الجدران تختزن الدفء وتشعّ به مثل فُرن استُعملَ توًّا. السماء ستمطر قريبًا لا محالة. لمَ أودّ ذلك؟ فلا يعني المطر شيئًا سوى مزيد من الرطوبة. بَرْقٌ يترامى في البُعد، لكن لا رعْد. أرى منه خلال النافذة ومضًا خافتًا، أشبه بذلك الوميض الفسفوريّ الذي يلمع في المياه المتماوجة لبعض البحار. ومض يتردّد من غياهب السماء، مُرسَل من بعيد بإشارات ضعيفة فيتبدّا رماديًّا مشوبًا بحُمرة إشعاعيّة. الأضواء الكاشفة لا تعمل في الخارج، وذلك ما لم نعتده. قُصُورٌ في التيّار الكهربائي؟ أم أن سيرينا جوي تعمّدت ذلك؟

أجلس في الظلام، لا جدوى من النور، فهو لن يفعل شيئًا سوى أن يُعلن للجميع أنني مستيقظة. أنا في عالمي الأحمر من جديد، غسلت المبهرجات، ومسحتُ أحمر الشفاه بورق الحمّام. آمل ألا يظهر شيء منه، ألا تنبعث منّي روائح كلّ شيء، حتى رائحته. ها هي تصل منتصف الليل، كما قالت لي سابقًا. أستطيع سماعها، وقْعٌ خفيف، وحفيف خافت يصدر عن السّجادة الكتيمة، ثمّ طرْقَة مكبوتة على الباب. لا أقول شيئًا، بل أتبعها، أتبع ظهرها عبْر الرّدهة، نزولًا الدرج. يمكنها النزول بسرعة إذن، إنها أقوى ممّا ظننْت، يدها اليسرى تتشبّث بالسّياج، تتألّم ربما لكنها تتشبّث بها، ليحفظ توازنها. يُخيّل إليّ أنها تعضّ شفتها، إنها تعاني. تريد ذلك الطفل في أسرع وقت ممكن. أرى كلينا، قامَة زرقاء، وقامَة حمراء، في المرآة أثناء نزولنا. نفسي، ونقيضتها.

نعبر إلى آخر المطبخ، حيث الباب الخلفيّ. المطبخ شاغر، ليس سوى مصابيح الليل المعتمة تُركت مضاءة. للمطبخ سُكون جميع المطابخ في الليل. الأوعية على المنضدة، العُلَب الزجاجيّة الكبيرة وجِرار الفخّار المستديرة تبدو في شبه الظلام منتفخة وثقيلة. والسكاكين أُعيدت إلى حافِظَتها الخشبيّة.

"لن أرافقك إلى الخارج" تهمس. أستغرب حقا أن أسمع همسها، كأنها واحدة منّا. فالزوجات عادة لا يُخفضْن أصواتهن. "اخرُجي من هذا الباب وانعطفي يمينًا. هناك باب آخر، مفتوح، اصعدي الدرج وراءه. إنّه يتوقّع مجيئك. لن يراك أحد. سأجلس هنا". ستجلس هنا من أجلي إذن، في حال حدث أمر ما. استيقاظ كورا وريتا مثلًا، لأي سبب كان، وخروجهما من غرفتهما الواقعة آخر المطبخ. ماذا ستقول لهما إذا شاهدتاها هنا؟ إنها لم تتمكن من النوم؟ إنها أرادت بعض الحليب الدافئ؟ ستكون حاذقة بما يكفي لتؤلّف كذبة جيّدة، أستطيع رؤية ذلك.

"الرئيس في غرفة نومه في الأعلى" تقول، "لا ينزل في هذا الوقت المتأخر من الليل، لم يفعل ذلك قط". حسنٌ، ذاك ما تظنّه.

أفتح باب المطبخ وأخطو خارجة. أنتظر لحظات حتى تُبصر عيناي في الظلام. لم أخرج وحدي ليلًا منذ فترة طويلة جدًّا. أسمع الرّعود الآن. العاصفة تقترب. كيف تدبّرت سيرينا أمر الأوصياء؟ قد يظنون أنني لصٌّ يتجوّل في الظلام، سيرمونني بالرّصاص. آمل أنها قد رشَتهم: سجائر، ويسكي، أو ربما هم على عِلم كامل بما يحدث هنا، في مَرْبى الخيول هذا، وقد تُجرّبهم لاحقًا إذا لم ينجح الأمر معي هذه المرّة.

الباب المُفضي إلى المرآب على بُعد عدّة خطوات فقط. أسيرُ بوَقْع صامت على العشب، أفتح الباب سريعًا، أنزلق إلى الداخل. الدّرج مُظلم جدًّا، لا أرى شيئًا أبدًا. أتحسّس طريقي صعودًا. درجةً درجة، مفروشة بالسجّاد. أشعر أن لها لون الفِطْر. هذا المكان كان شقّة خارجيّة دون شك، لطالب جامعيّ ما أو موظّف أعزب. إن أغلب البيوت الكبيرة هنا تحوي مثل تلك الشقق. سكن عزّاب، أستوديو، هكذا كانوا يُطلقون عليها. أفرحني قليلًا تذكّر ذلك. كانت الإعلانات عن هذه الشقق وأمثالها تقول "مدخل منفصل" وذاك يعني أنّه يمكنك أن تمارس الجنس، دون رقابة من أحد.

أصل قمّة الدرج. أطرق الباب. يفتحه بنفسه. وهل كنتُ أتوقّع أحدًا آخر؟ ثمّة مصباح مضاء. مصباح واحد فقط، لكنه يَبْهَر الأعيُن حتى ترمش. أنظر إلى ما وراءه، لا أريد أن تلتقي عيوننا. غُرفة واحدة، تحوي سريرًا من أسرّة الجيش التي يمكن طويها، وفراشه مُعَدّ. ثمّة منضدة في مطبخ صغير في الركن البعيد، وباب آخر لابدّ يقود إلى الحمّام. إنها غُرفة مجرّدة، عسكريّة، في حدّها الأدنى. لا صور معلقة على الجدران ولا نباتات زينة، إنه يسكن خيمةً في الخلاء. غطاء السرير رماديّ، يحمل شعار «و.م».

يبتعد قليلًا إلى الوراء، ويخطو جانبًا، مُفسحًا لي المكان للدخول. يرتدي قميصه المعتاد المكمّم، وفي يده سيجارة مشتعلة. أستنشق الدخان العالق فيه، والمنتشرة رائحته في هواء الغرفة الحار، وكلّ شيء. أريد أن أخلع ملابسي، أستحمّ بالدخان، أدعك به بشرتي.

لا مقدّمات. إنّه يعرف لمَ أنا هنا. حتى أنه لا يقول كلمة واحدة، لمَ نلفّ وندور؟ هذه مَهمّة. يسير مبتعدًا أكثر ويطفئ المصباح. في الخارج، مثل علامات الترقيم في الجُملة، ينبعث وميض البرق، يتبعه مباشرة الرعد. إنه يحلّ أزرار ملابسي، رجُلٌ من مادّة الظّلام. لا أرى وجهه، ولا أكاد أتنفس، ولا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي، أنا لستُ واقفة الآن. فمه ويداه تتحسّس جسدي. لا أقوى على الانتظار، وهو يتحرك فعلًا، يضاجعني، الحبّ: مرّ وقت طويل منذ آخر مرّة التقينا، أنا حيّة، أشعر بجسدي، مرّة أخرى، ألفّ ذراعيّ حوله، أهبط، أنزف ماءً بلُطف من كل مكان، لا أنتهي. ربما لا يحدث هذا مرّة أخرى.

لقد لفّقتُ ذلك كلّه. لم تسِر الأمور على ذاك النحو. هاك ما حدث.

أصل قمّة الدرج. أطرق الباب. يفتحه بنفسه. ثمّة مصباح مضاء. أرمش. لا أعير نظرته أيّ اهتمام، بل أنظر وراءه، غُرفة واحدة، السّرير مفرود، ملاءته مكوّمة، جَيْشِي الطراز. لا صور، لكن غطاء السرير يحمل شعار «و.م». يرتدي قميصه المعتاد المكمّم، وفي يده سيجارة مشتعلة.

"هاكِ" يقول، "خُذي نفسًا". لا مقدّمات، يعرف لمَ أنا هنا، لمواقَعَتي، لإيقاعي في مشكلة، لكي أعلو العمود، كذا كُنا نُسمّي الأمر فيما مضى. آخذ السيجارة منه، آخُذ نفسًا عميقًا، ثم أعيدها إليه. بالكاد تلامست أصابعنا. حتى هذا القدْر الضئيل من الدخان الذي تنفّسته أدارَ رأسي.

لا يوجّه إليّ أيّ كلام، ينظر إليّ وحسب، ولا يبتسم. سيكون الوضع أفضل، أكثر لُطفًا، لو أنّه لمسني. أشعر أنني غبية وقبيحة، لكنني واثقة أنني لست غبية ولا قبيحة. رغم ذلك، فيمَ يفكر، لمَ لا يقول شيئًا؟ ربما يظن أنّني كنت أتعهّر هناك في بيت إيزابل، مع الرئيس أو غيره. ويضايقني اهتمامي هذا بما يظنّه فيّ. لنكُن عمليّين هنا.

"ليس أمامي وقت طويل" أقول. هذا مُريب وأخرق، ولا يوحي بما كنت أريد قوله.

"يمكنني أن أستحلبه في زُجاجة ثم تسكبينه داخلك" يقول، دون ابتسام.

"لا داعي إلى هذه الفظاظة" أقول. ربما يشعر أنّه يُستَغَلّ كأداة. وربما يريد شيئا منّي، عاطفة، اعترافًا ما بأنّه إنسان أيضًا، لا مجرّد مُنتِجٍ لِلِقاح التخصيب. "أدرك أنّ هذا صعب عليك" أحاول.

يستهجن ما قلت، "إنه عملٌ مُقابل أجر" يقول، الفظّ الفاسق. لكن ما زال ساكنًا دون حركة.

مُقابل أجر، عليكِ سيرينا تجُر. أنظمُ شِعرًا في ذهني. إذن هكذا سيسير الأمر. لم تُعجبه أصباغي، ولا زِحافات السّواد حول عينَي. سوف نقسو على بعضنا.

"هل تصعدين إلى هنا كثيرًا؟" يقول.

"وما حاجة فتاة لطيفة مثلي إلى بقعة كهذه" أقول. نبتسم معًا. هذا أفضل. هذا اعتراف أننا كنّا نمثّل، فما الذي يمكننا فعله في أستوديو كهذا؟

"التمنّع يزيد الرغبة". ها نحن نقتبس من الأفلام المتأخرة، في الزمن الماضي. والأفلام حينها كانت تصوّر الزمن الذي قبلها: وهكذا، هذا الاقتباس يعود إلى عصرٍ غير عصرنا برمّته. بل إن أمّي نفسها لم تكن تتكلم بتلك الطريقة، أو على الأقل خلال حياتي معها. وربما لم يتحدّث أحد قط على ذلك النحو في الواقع،

بل كلّه مُلفّق منذ البداية. رغم ذلك، فإنه من المذهل كيف تقفز بسهولة إلى الذهن، تلك الملاطفة الجنسيّة المبتذلة الزائفة الشاذة. أدرك الآن الهدف الكامن وراء ذلك، الهدف الذي لطالما كان هناك: أن تُبقي لُبَّ قلبك بعيد المنال، مُسيّجًا، محميًّا.

أنا حزينة الآن، الطّريقة التي نتكلم بها تُحزنني دون نهاية: موسيقى تتلاشى، زهور ورقية تتلاشى، أقمشة ساتانيّة تتلاشى، صدى لصدى. رحلت كلها إلى غير رجعة، ليست مُمكنة الحدوث. ودون سابق إنذار، أبكي.

أخيرًا يتقدّم منّي. يلف ذراعيه حولي، يمسّد ظهري، ويبقى هكذا كي يبعث فيّ الارتياح.

"هيّا" يقول، "ليس أمامنا وقت طويل" وفيما ذراعه حول كتفيّ يقتادني إلى السرير المفرود، يُضجعني فيه، بل إنه طوى الغطاء أوّلًا. يحلّ الأزرار، يتحسّس، ويطبع القُبَل جوار أذني. "لا رومانسيّات" يقول، "حسنٌ؟"

لكان عَنَى ذلك أمرًا آخر، مرّة. لكان عنَى: لا قصّة رومانسية سوف تنشأ بيننا بعد أن ننتهي. لكنّه الآن يعني: لا أدوار بطوليّة سوف نلعبها لصالح بعضنا بعد أن ننتهي. الآن يعني: لا تخاطري بحياتك من أجلي إذا بلغت الأمور ذاك الحدّ.

وهكذا جرى الأمر، جرى.

أعرف، لن يحدث هذا مرّة أخرى. ولذا، وداعًا، فكّرت، حتى ونحن في خضمّ ما نفعله، وداعًا.

لكن، في الحقيقة، لم يكن هناك أيّ رعد. لقد أضفتُه، لكي أغطّي على الأصوات، التي خجلتُ من إطلاقها.

لم تسِر الأمور على ذاك النحو أيضًا. لست واثقة ممّا حدث. فكلّ ما أحاوله هنا هو إعادة بناء ما حدث، فالطريق الذي يتلمّسه الحب لا يكون إلا طريقًا تقريبيًّا فقط.

ما إن انتصفتُ ذلك حتى فكّرتُ في سيرينا جوي، تجلس هناك في المطبخ، تفكّر:

رخيصة، سوف يُباعدن سيقانهن لأيّ أحد، وكلّ ما عليكِ تقديمه لهنّ مجرّد سيجارة.

وفكّرتُ لاحقًا: هذه خيانة. لا العمليّة نفسها، بل استجابتي لها. حسنٌ، لو كنت واثقة من موته، هل سيغيّر ذلك من الأمر شيئا؟

أريد أن أعيش دون عار. وأريد أن أصير وقحة. وأريد أن أغدو لا مبالية. حينها لن تعذّبني معرفتي كم كنتُ حقًّا لا مبالية.

XIV

إنابة

ليت هذه القصّة كانت مختلفة، ليتها أكثر تحضُّرًا، ليتها أظهرتني تحت ضوء أفضل، وإن لم تُظهرني سعيدة، فعلى الأقل حيويّة، أقلّ تردّدًا، أقلّ التفاتًا للتوافه. ليتني أجدْتُ صياغتها. ليتها كانت عن الحب، أو عن الإدراكات المُفاجئة الحاسمة في حياة الإنسان، أو حتى عن الغروب، والطيور، والعواصف المُمطرة، والثلج.

ربما كانت عن تلك الأمور كلها، بطريقة ما، لكن زاحمَتْها الآن أمور أخرى، همْسٌ كثير، تأمّلات حول الآخرين، شائعات جمّة لا يمكن التثبُّت من صحّتها، وكلمات لا نهاية لها لم تُقَل، تحبو وراء الأسطر وتتخفّى. وساعاتٌ قاسية طويلة ما زلتُ أحملها، ساعات ثقيلة مثل طعام دسم أو ضباب كثيف. ثمّ وسط ذلك كلّه، ومن حيث لا تعلم، تُفاجئك هذه الحوادث الحمراء، مثل انفجارات كثيرة مباغتة، لكنّ الشوارع حولك لا تفتأ ساكنة، وَقورة، كأنّها شوارعٌ تسيرُ في نومها. آسفة لكلّ هذا الوجع الذي تحمله القصّة. آسفة لأنها متشظّية، مثل جسد أتلفته النيران أو بُتِرَت أطرافه ومُثّل به. لكن ليسن بين يديّ ما أفعله لأغيّرها. حاولتُ أن أطعّمها ببعض الأمور الحسَنة. الأزهار، مثلًا، لأنّه لا أعرف أين كنّا سنُصبح لولاها؟

رغم ذلك، فإنّه يوجعني أن أرويها مرّة، وأخرى. مرّة واحدة تكفي: ألم يكن تجريب الأشياء مرّة واحدة يكفيني تلك الأيام؟ لكنّني سوف أُكمل هذه الحزينة، الجائعة، الدنيئة، هذه العرجاء، المشوّهة، هذه القصّة، لأنني أريدك أن تسمعها، وأريد أن أستمع إلى قصّتك ما إن تُتاح فرصة لذلك، إذا قابلتك أو إذا هربتَ، في المستقبل أو في الجنة أو في سجن تحت الأرض، أيّ مكان آخر. ما يجمع بينهم كلّهم الآن هو أنّهم ليسوا هنا بيننا، لذلك إذا رويتُ لك أي شيء فهذا يعني أنني على الأقل أؤمن بك، أنّك هناك، أؤمن بكينونتك الإنسانيّة. أن أروي لك هذه

القصة يعني اعترافي بوجودك. أنا أروي، إذن أنت موجود.
لذلك سوف أذهب بها إلى نهايتها، لكي أذهب بنفسي إلى نهايتها، سوف أُقبِل على جزء من القصة لن تحبّه أبدًا، لأنني خلاله لم أتصرّف كما يجب، لكنني سأحاول رغم ذلك ألّا أترك أيّ تفصيلٍ خارجًا. ففي النهاية لقد عبَرْتَ كل هذا الطريق معي حتى وصلنا إلى هنا، فاستحققت ما بقي عندي، وإن لم يكن كثيرًا، لكنه يحمل الحقيقة كلّها.

هاك القصّة إذن.
عاودتُ الذهاب إلى نِك، مرارًا وتكرارًا، وحدي ودون عِلم سيرينا. لم يكن يستدعيني، لا مبرّر عندي. ولم أكن أزوره لأجله، بل لأجلي وحسب، وحتى أنني لم أعتبر ما فعلته وكأنني أهب نفسي له، إذ ما الذي عندي لأهبه إيّاه؟ لم أشعر أنني سخيّة، بل شاكرة له كلّما سمح لي بالدخول. لم يكن مُجبرًا.
لكي أفعل ذلك صرتُ متهوّرة، أخاطر في حماقة. فبعد أن أخرج من مكتب الرّئيس، أرتقي الدرج كالمعتاد، لكنني حينها أعبر الرّدهة وأنزل درجَ المَرْتيّات الخلفيّ، ثم أعبر المطبخ. خُيّل إليّ، كُلّما خرجتُ من المطبخ إلى الحديقة، أنني أسمع صوت انطباق الباب خلفي، ما يحثّني على الاستدارة والعودة، انطباقٌ له رنينٌ معدنيّ مثل صوت انطباق مصيدة فئران أو تلقيم سلاح، لكنني لا أستدير، بل أسارع في اجتياز المساحة العشبيّة الضيّقة المضاءة، فالأضواء الكاشفة عادت إلى العمل، وتدفعني كلّ لحظة إلى توهّم الشعور بالرّصاص يمزّق جسدي حتى قبل سماعي صوتها. ثمّ أتلمّس طريقي صاعدة الدرج المظلم حتى أستند إلى الباب لحظات كي أرتاح قليلًا، فيما الدماء تنبض في أذني. الخوفُ مُنبّهٌ قويّ. ثمّ أقرع بلُطف، قرْعَ الشحّاذة. ولطالما توقّعت ألّا يكون هناك، أو أسوأ، ألّا يسمح لي بالدخول. يستطيع أن يقول إنّه لا يريد أن يخرق مزيدًا من القوانين فتدخل رقبته المشنقة من أجلي. أو أسوأ من ذلك أيضًا، إنّه لم يعد راغبًا فيّ. إنّ فشله في الإقدام على فعل أيّ أمرٍ سيّئ ممّا توقّعت، اعتبرتُه خيْرًا كثيرًا لي وحظًّا وفيرًا.

قلتُ لك إنّها لن تُعجبك.

وهاك كيف ذهبَت إلى نهايتها.

يفتح الباب. إنّه يرتدي قميصه المُكمّم الذي لا يدسّ أطرافه تحت بنطاله. يمسك فرشاة أسنان، أو سيجارة، أو كأسًا يحوي شرابًا ما. لديه مخبأ سرّي هنا في الأعلى، كلّ ما يجلبه من السوق السوداء، كما أظن. دائمًا ما أجد بين يديه شيئًا ما، كأنه يسير في حياته العادية دون أن ينتظرني أو يتوقّع مجيئي. ربما كان فعلًا لا يتوقّعني، ولا ينتظر. ربما لا يحمل أيّ صورة للمستقبل، أو لا يهمّه تخيّله، أو لا يجرؤ.

"هل الوقت متأخّر؟" أقول، فيومئ نافيًا. من المفهوم بيننا الآن أن الوقت لا يتأخّر أبدًا، لكنني أؤدي طقس الأدب المعتاد من السؤال. ذلك يُشعرني أنني مُسيطرة على الوضع، كأنّني أواجه خيارًا ما، قرارًا لابدّ من اتّخاذه. يخطو جانبًا فأتخطّاه إلى الداخل. يُغلق الباب. يذرع الغرفة ويُطبق النافذة. يطفئ الضوء. ما عدنا نتبادل كلامًا كثيرًا. ليس في هذه المرحلة. بحلول تلك اللحظة أكون قد خلعتُ نصف ملابسي. نؤجّل الكلام حتى ننتهي.

أُطبق عينيّ مع الرئيس، حتى عندما أقبّله فقط قُبلة الذهاب إلى النوم؛ فلستُ أرغب في رؤيته عن قُرب. لكنني الآن هنا، أفتح عينيّ دومًا وأودّ لو كان الضوء مشتعلًا، ولو مجرّد شمعة في زُجاجة – صدىً لحركات السّكَن الجامعيّ – لكن أي شيء من ذاك القَبيل هو مُخاطرة كبيرة. لذا عليّ أن أستفيد ما استطعت من الأضواء الكاشفة، وهْجها قادمًا من الأسفل خارجًا ينفذ من خلال ستائره البيضاء المطابقة لستائري. أريد أن أرى كلّ ما يُمكن أن يُرى منه، آخذه داخلي، أتذكّره، أحفظه لأستدعيه وأعيش على صورته فيما بعد: ملامح جسده، تكوين لحمه، لمعان بشرته المتعرّقه، وجهه الطويل التهكّميّ الكَتوم. كان يجب عليّ أن أفعل ذلك مع لوقا، أن أُزجي تفاصيله مزيدًا من الاهتمام، شاماته ونُدَبه، وخطّ تجاعيده الطويل، لم أفعل، وها هو يتلاشى، يومًا بعد يوم، ليلة بعد ليلة،

فتتعمّق خيانتي.

له، لكنتُ ارتديتُ حِلية الرّيش تلك، خرز نجومٍ بنفسجيّة، لو أراد ذلك، أو أيّ شيء آخر حتى لو كان ذيل الأرنب. لكنه لا يطلب شيئًا. نمارس الحب كلّ مرّة بيقينٍ لا تشوبه ظِلال شكّ أنّنا لن نعيش هذا مجدّدًا، معًا، أو مع أيّ أحد. ثمّ، عندما نلتقي مجدّدًا، نتفاجأ، كأنّه لقاء إضافيّ، هدية.

وجودي معه هنا آمِن، إنّه كهف، نجتمع فيه فيما الرياح تعصف في الخارج. هذا وَهْم، بالطبع. فهذه الغرفة من أخطر الأماكن التي يمكن أن أتواجد فيها. إذا عُثر عليّ هنا فلا رحمة. لكنني تجاوزتُ المبالاة بمراحل. وكيف انتهيتُ إلى الوثوق به إلى هذا الحدّ، بكلّ هذه الحماقة؟ كيف افترضتُ معرفته، أقلّ معرفة، ومن هو في الحقيقة؟

أطرد من ذهني تلك الهمسات القَلِقة. إنّني أتحدث كثيرًا. أقول له عن أمور لا ينبغي قولها. أحدثه عن مويرا، وأوفغلن، لكن ليس لوقا. أريد أن أحدثه عن تلك المرأة في غرفتي، التي سكنتها قبلي، لكني لا أفعل. إنّي أغار منها. فإذا كانت قد جاءت إلى هنا قبلي أيضًا، على هذا السرير، فلا أريد سماع شيء عن ذلك.

أُخبره اسمي الحقيقي، بتُّ أشعر أنني مكشوفة. أتصرف مثل إنسانة بطيئة الفهم. رغم أنني أذكى من الوقوع في هذا الخطأ. لقد افترضتُ فيه ما جعله صَنَمِيّ، صنمًا من ورق مقوّى.

أمّا هو فقليل الكلام، لا مزيد من التملّص من الأسئلة وإطلاق النكت. وهو بالكاد يطرح أيّ سؤال. يبدو لا مباليًا إزاء مُعظَم ما لديّ لقوله، يتنبّه فقط لإمكانيّات جسدي، رغم أنّه ينظر إليّ عندما أتحدّث. يراقب وجهي.

يستحيل عليّ الاعتقاد بأنّ شخصًا أُكِنّ له تلك المعزّة كلّها، قد يخونني.

لا أحد منا نطق كلمة «الحُبّ»، ولا مرّة. وإلّا لأغرينا القَدَر بتحقيقها، لأغريناه أن يُجري رومانسيّةً ما بيننا. «الحُبّ» كلمةٌ نحْس.

اليوم ثمّة أزهار مختلفة، جافّة، واضحة المعالم، أزهار ذروة الصيف: زهور

نجماويّة، وسَوْسَنيّات تنتصف الواحدة منها عينٌ سوداء كبيرة، تستقبلنا في الطّريق النازلة على وشك السقوط. أراها في الحدائق، أثناء السّير مع أوفغلن، جيئة وذهابًا. أكاد لا أُصغي إليها، ما عُدتُ أصدّقها. ما تهمس لي به يبدو غير حقيقي. ما فائدتها لي، الآن؟

"تستطيعين الذهاب إلى غرفته ليلًا" تقول، "فتّشي مكتبه. حتمًا ستجدين أوراقًا، ملاحظات".

"الباب مُقفَل" أتمتم.

"تستطيعين الحصول على المفتاح" تقول، "ألا تريدين معرفة مَن هو، وما يفعل؟"

لكن الرئيس لم يعد مركز اهتمامي. عليّ أن أبذل جهدًا لألّا تطفو عدم مبالاتي به إلى السّطح.

"استمرّي في القيام بكلّ شيء كما كنتِ سابقًا" يقول نِك، "لا تغيّري أيّ تفصيل. وإلّا سيعرفون" ثم يقبّلني وينظر إليّ طوال الوقت. "عِديني؟ لا تزلّي".

أضع يده على بطني. "لقد حدث. أشعر أنّه حدث. أسابيع قليلة وسوف أتأكّد تمامًا من ذلك".

هذا تفكيرٌ رغْبَوِيّ، نابعٌ من أمل.

"سوف يحبك حتى الموت" يقول، "وهي أيضًا".

"لكنّه لك" أقول، "وسوف يكون لك، حقًّا، أريده كذلك".

لكننا، بالطبع، لا نصدّق حدوث ذلك.

"لا أستطيع" أقول لأوفغلن، "أخاف كثيرًا. وعلى أيّ حال لا أصلح لإنجاز هذه المهمة، سوف يقبضون علي".

لا أكاد أبذل أقلّ جهد كي تبدو في صوتي نبرة الخيبة، صرتُ كسولة جدًّا.

"نستطيع تهريبك" تقول، "نستطيع تهريب الناس إذا اضطررنا، إذا اعتقدنا جازمين أنهم في خطر، خطر داهم".

في الحقيقة لم أعد أرغب في الهرب، الخروج، عبور الحدود إلى الحرية، أريد أن أبقى هنا، مع نِك، حيث يمكنني الوصول إليه.

أن أرْوي هذا كلّه، يُشعرني بالعار، لكن هناك أكثر ممّا قلت. إذ يمكنني الاعتراف، حتى الآن، أنّني أتبجّح بسماحه لي الدخول إلى مكانه. ثمّة زهوٌ كامنٌ في الأمر، إذ إنّه يُظهر كم كان صعب التنفيذ، ما يبرّر لي الإقدام عليه. كم استحقّ الأمر فعلًا. إنّه أشبه بقصص مرض الاحتضار والموت الوشيك، بعد أن تُشفى وتنجو. أشبه بقصص الحروب، فهي تُظهر مدى جديّة الوضع.

أن أكون جادّة بشأن رجل، تلك الجديّة كلّها، حينها، بدا أمرًا ما كان ممكنًا بالنسبة إليّ من قبل.

أعيش أيّامًا أجد نفسي فيها أكثر تعقّلًا. فلا أُجري المسألة، بيني وبين نفسي، مجرى الحُب. بل أقول إنني أقمْتُ لي حياةً هنا، بشكل ما. وهذا حتمًا ما كانت تفكّر فيه ربّات البيوت، واللواتي نجين من الحروب، لو بقي لهن رجالٌ أحياء. "الإنسانيّة شديدة التكيّف" قالت أمّي. مدهش حقًّا ما يُمكن للناس اعتياده، طالما هناك بعض التعويضات.

"لن يطول الوقت بنا" تقول كورا، "حتى نتبرّع بحصّة منزلنا من الفوَط الصحيّة النسائيّة. لن يطول أبدًا" وتبتسم لي في حياء، لكن بمعرفة أيضًا. هل تعرف؟ هل تعرف هي وريتا ما أفعل دومًا، أتسلّل نازلةً درج الخدمة الخاصّ بهما في الليل؟ هل فضحتُ أمري بنفسي: أحلم أحلام يقظة، أبتسم ببلاهة نحو لا شيء، أتحسّس وجهي بخفّة عندما أظنّ أنّ لا أحد يراني؟

راحت أوفغلن تيأس مني تدريجيًّا. همساتها قلّت، وتتكلّم أكثر عن الجوّ. ولا أشعر بالنّدم على ما يحدث، بل بالارتياح.

النّاقوس يُقرَع[150]، نسمعه يتناهى إلينا من مسافة بعيدة. إنّه الصباح، واليوم لم نتناول الإفطار. عندما نصل البوّابة، نصطفّ لندخل عبرها اثنتين اثنتين. فرقة مكافحة الشّغب تتواجد بكثافة، إنّهم ملائكةٌ مزوّدون بأدوات المكافحة – خُوَذ ذات أقنعة زجاجيّة شبكيّة دكناء، جعلتهم أشبه بالخنافس، وعِصِيّ طويلة، ومسدّسات إطلاق عُلَب غازيّة – وقد ضربت طوْقًا حول الحائط. كل ذلك للتحكّم بأيّ حِراكٍ هستيريّ لو حدث. خطاطيف الحائط شاغرة.

هذه إنابةٌ مقصورة على السيّدات فقط. الإنابات مفصولة الجنسين دومًا. لم يُعلنوا عنها سوى في الأمس، وهكذا هم، لا يخبرونك إلّا قبل يوم واحد. وهي فترة ليست كافية لأن تتقبّل الأمر وتذهب.

نحو النّاقوس المقروع نسْلُك طُرُقًا كانت ذات يوم للتلاميذ، ونجتاز أبنية ضمّت يومًا ما قاعات دراسيّة، وسكنًا داخليًّا. شعورٌ غريب تبعثه فيك العودة إلى هنا بعد مضيّ تلك السنوات كلها على التخرّج. تبدو من الخارج وكأنّ لم يتغيّر شيء فيها، سوى أن ستائر مُعظم النوافذ مُغلقة. هذه المباني تعود للعيون المُراقبة الآن.

يذرع طابورنا المساحات العشبيّة مقابل ما كانت ذات يوم المكتبة. الدّرج الأبيض الصاعد نحو أبوابها لم يتغيّر، والمدخل الرئيس كذلك. نُصِبَ مسْرحٌ خشبيّ فوق المساحة العشبية، يشبه المسرح الذي اعتادوا نصبه في الرّبيع، لحفل التخرّج. أفكّر في القبّعات ذات الألوان الباستيليّة التي ارتدتها بعض الأمهات، وأوشحة التلاميذ الجامعية السوداء، وتلك الحمراء. لكن هذا المسرح ليس ذاك على أيّ حال، فهنا تنتصب ثلاثة أعمدة خشبية تتدلّى من رأس كلٍّ منها أنشوطة حبل. مقدّمة المسرح يشْغَلها لاقِط الصّوت، أمّا آلة التصوير التّلفازيّة فمُبعدة مسافة طويلة جانبًا احترامًا للمناسبة.

لقد شهدتُ إنابةً مرّة واحدة فقط، قبل عامين. إنابات النساء نادرة جدًّا. الحاجة إليها آخذة في التناقص. فقد أصبحنا نتصرّف كما يجب.
لا أريد أن أروي هذه القصة.

نتّخذ أماكننا وفقًا للنظام المتعارف عليه، الزوجات والبنات يجلسن على المقاعد الخشبية القابلة للطيّ في الخلف، فيما زوجات الكفاف والمَرْثيّات يجلسن حول الأطراف، وعلى درج المكتبة. أمّا الجواري فلنا المقدمة، حيث للجميع تسليط عيونهن علينا. لا نجلس على مقاعد، بل نجثو، وهذه المرة زوّدونا بوسائد، صغيرة من القفطان الأحمر دون أيّ كتابة، ولا حتى «إيمان».
من حُسن الحظ أن الأجواء جيّدة، ليست حارّة، بل تكسو السّماء سُحُب ساطعة. لكانَ الجُثُوّ هنا بائسًا تحت الأمطار. هذا هو السبب، ربما، في تأخّرهم دومًا عن إعلان موعد الإنابات؛ لكي يتثبّتوا من أن الأجواء صالحة، وهذا، لو صَحّ، سببٌ جيّد كأيّ سبب آخر.
أجثو على وسادة القطيفة الحمراء. أحاول التفكير في ما سأفعله الليلة، ممارسة الحب في الظلام، بين الأضواء الشّاحبة المنعكسة عن الجدران البيضاء. أتذكر أنّني حُضِنت.
ثمّة حبل طويل يمتدّ في انثناءات كثيرة مثل ثعبان، عبر الصفّ الأوّل من الوسائد، مخترقًا الصف الثاني، نحو الوراء شاقًّا صفوف المقاعد، هكذا يبدو من أعلى مثل نهر قديم جدًّا وبطيء جدًّا يصبّ في الخلف. إنّه ثخين وبُنّي، وتفوح منه رائحة قطران. طرفه الأماميّ يمتدّ فوق المسرح. إنه أشبه بسِلك كهربائيّ، أو خَيط نفّاخة.
هناك فوق المسرح، في جهته اليُسرى، النساء اللائي سوف يَؤُبْنَ إلى ربّهن فيُنقَذن ويُطهّرن: جاريتان وزوجة. لم نعتد إنابة الزّوجات قط، لذلك أجد نفسي رغمًا عنّي أحدّق إلى الزوجة. أريد أن أعرف ما الذي فعلته.
لقد جِيء بهن إلى هنا قبل فتح البوّابات. يجلسن على مقاعد خشبية قابلة للطيّ،

مثل طالبات متخرّجات ينتظرن تكريمهن على المسرح. أيديهن ترتاح في حجورهن، تبدو كأنّهن يطوينها في وقار. يترنحن في جلستهن. ربما أعطوهنّ حُقَنًا أو أقراصًا، لكي لا يُثرن أيّ ضجة. يفضّل أن تجري الأمور في سلاسة. هل هن مربوطات إلى كراسيهن؟ يستحيل التثبّت تحت تلك الملابس كلّها.

والآن يتقدّم الموكب الرسميّ من المسرح، يصعد درجاته اليُمنى: ثلاث نساء، خالة واحدة تسير في الأمام، وتتبعها مُنِيبَتان، المُنقذتان، كلّ واحدة في قلنسوّتها وعباءتها السوداء. وخلفهم خالات أخريات. الهمْس المُتفشّي بيننا يخفت. تستعدّ النساء الثلاثة، ثمّ يستدرن نحونا: الخالة تتوسّط المنقذتين الملفوفتين بالسّواد. إنها الخالة ليديا. كم سنة مرّت منذ رأيتها آخر مرّة؟ حتى أنني بدأت أعتقد أنها توجد في ذهني فقط، لكن ها هي أمامي، وقد أسَنّت قليلًا. أراها بوضوح من مكاني، بل إنّني أرى الأخاديد عميقة على جانبَي أنفها، والعبوس المنحوت في وجهها. عيناها ترمشان، تبتسم في عصبية، وتُرسل نظرها يُسرةً ويُمنة، تتحقّق من الجمهور. ترفع يدًا تُصلح بها غطاء رأسها. ينبثق صوت نافر من مكبّرات الصوت، إنها تتنحنح.

بدأتُ أرتعد. الكراهية تملأ فمي مثل بصاق.

تنزاح السّحابة عن الشّمس فتغمر أشعّتها المسرح وتُضيء القامات التي تحتلّه، يبدو ما نراه كأنّه مغارة الميلاد[151]. أستطيع الآن رؤية التجاعيد تحت عيني الخالة ليديا، وامتقاع ألوان النساء الجالسات، بل وشُعيرات الحبْل الموجود الذي يمتد أمامي على العشب، وأنصال العشب. أرى أزهار هندباء قبالتي، لها لون صفار البَيض. أشعر بالجوع. يتوقّف النّاقوس عن القرع.

تنهض الخالة ليديا، تسوّي تنّورتها لأسفل بكلتا يديها. تتقدّم نحو لاقِط الصّوت. "سيّداتي، عِمْتُم صباحًا" تقول، ونسمع أزيزًا لحظيًّا يصمّ آذاننا من اللاقط الصّوتي. ومن بيننا، على نحو لا يصدّق، ارتفع ضحكٌ عارِم. يصعب ألّا تنطلق في الضّحك، إنها الأجواء المتوتّرة، ووجه الخالة ليديا المرتبك فيما تحاول ضبْطَ الصّوت. يُفترض بهذه المناسبة أن تكون أمرًا جلَلا.

"سيّداتي، عِمْتُم صباحًا" تقول مجدّدًا. بات صوتها الآن عبر اللاقط يحمل مقوّمات صوت عُلبة الصّفيح. إنها تقول "سيّدات" لا "بنات" بسبب وجود الزوجات بيننا. "أنا واثقة أننا جميعًا نعرف الوقائع البائسة التي جمعتنا معًا هنا في هذا الصباح الجميل، حين كان في إمكاننا القيام بأمور أخرى بكلّ تأكيد، أعني نفسي على الأقل، لكن الواجب سيّد الطُّغاة، أم أقول في هذه المناسبة إنّه عشيقة الطُّغاة؟ وإننا باسم الواجب اليوم هنا".

تستمر هكذا عدة دقائق، لكنني لا أُصغي. سمعتُ هذه الخطبة، أو ما يشبهها، مرّات عدّة. التفاهات نفسها، الشعارات نفسها، العبارات نفسها: مشاعل المستقبل، ومَهْد الجنس البشري، والمهمّة المُناطة بنا. يصعب تصديق أنه لن يكون هناك تصفيقٌ وَقُور بعد انتهائها، ثم يُقَدّم لنا الكعك والشاي على العشب. تلك كانت المقدمة، أظن. والآن سوف تصدح بالمَتْن، المهمّ.

تُقلّب الخالة ليديا يدها في جيبها ثمّ تُخرج ورقة مكرمشة، وتستغرق وقتًا لا نهاية له في فتح طيّاتها ثم تفحّصها. إنها تدعك أنوفنا بها، لكي ندرك من هي تمامًا، تُجبرنا على ترقُّبها فيما هي تقرأ في صمت، تستعرض سُلطتها علينا. داعرة، أفكّر. لننْتهِ من هذا.

"في ما مضى" تقول الخالة ليديا، "كانت عادتنا أن نسبق تنفيذ الإنابة بقراءة وصف تفصيلي للجرائم تُحاكم وفقها السجينات. لكننا اكتشفنا أن إذاعة تلك التفاصيل، خاصّة عبر التلفاز، تعقبه دومًا طفرة لا مناص منها، لو أنّ لي قول ذلك، أو ارتفاع كما يُفترض بي القول، لجرائم مماثلة تمامًا ولذا قرّرنا، لصالح الجميع، التوقّف عن ذلك الإجراء. سوف تُنفّذ الإنابات دون أي تسويف".

همْسٌ جماعيّ يتصاعد منّا. فجرائم الأُخريات هي لُغة سريّة بيننا. نرى أنفسنا خلالها وما هو المُتاح لنا فعله، في النهاية. هذا ليس إعلانًا عامًّا. لكن أمورًا كتلك لا يمكن أن تعرفها من الخالة ليديا، التي تبتسم وترمش كما لو أنها أُغرقَت تصفيقًا. نحن الآن تُركنا مع حواسّنا، وتقديراتنا المحضة. الآثِمَة الأولى، المرأة التي يُنهضونها عن مقعدها بأيادٍ مُقفّزة بالسّواد تقبض على زندَيها، تهمتها القراءة؟ لا، تلك جريمة عقوبتها قطع اليد فقط، في الإدانة الثالثة. عاهرة؟ أم حاولت النّيل

من حياة وليّها؟ أو زوجته، وهذا أكثر وُرودًا. ذاك ما طرق أذهاننا. أمّا الزّوجة، فلا يوجد سوى جريمة واحدة تُعرّضهنّ إلى الإنابة، إذ في استطاعتهن أن يفعلن بنا ما شئن، إلّا قتلنا، بشكل رسميّ. لا بإبر الحياكة أو مقصّات تشذيب الشّجر، أو سكاكين مُختلسة من المطبخ، وعلى نحو خاصّ حين تكون الجارية في حالة حمل. قد تكون جريمتها هي الزّنا طبْعًا، هذا وارِد دومًا.

"أوفتشارلز" تصيح الخالة ليديا. ليست من بين معارفي. تُحْضَر المرأة إلى الأمام، تسيرَ كأنّ كلّ ما تفكّر فيه هو السّير نفسه، هذه القدم، ثمّ هذه القدم، إنّها مُخدّرة دون شك. ثمّة ابتسامة دائخة تحيدُ عن منتصف شفتيها. جانبٌ من وجهها ينقبض لا إراديًّا فتغمز عينها غمزةً مصوّبة نحو الكاميرا. لن يُذيعوها أبدًا، حتمًا، فهذا ليس بثًّا مباشرًا. تعقد المُنيبتَان يديها وراء ظهرها.

أسمع ورائي صوت تقيّؤ.

لذلك لا يُسمح لنا بتناول الإفطار يومَ إقامة الإنابة.

"إنها جانين، غالبًا" تهمس أوفغلن.

شاهدت ذلك من قبل. يُغطّى رأسها بجَوْرَب أبيض، ثمّ تُساعَد الآثمة على الصعود إلى المقعد المرتفع، كما لو أنها تُساعَد على ركوب حافلةٍ مرتفعة. تستقرّ هناك، توضع الأنشوطة في هدوء حول رقبتها، مثل طَوْق كاهن، ثمّ يُرْكَل المقعد بعيدًا. سمعت التنهيدة الطويلة الجماعيّة التي تصاعدت حولي، الأشبه بالهواء الخارج من مرْتبة سرير، وشاهدتُ الخالة ليديا تُحيط اللاقط الصّوتي بكفّها لكي تكتم الأصوات الأخرى المنبعثة وراءها. ولقد انحنيتُ إلى الأمام لكي ألمس الحبل الممدود أمامي، في الآن ذاته مع الأخريات، بكلتا أيدينا. الحبل نافر الشُّعيرات، لزج بالقطران تحت الشمس الحارّة. ثم وضعتُ إحدى يديّ على قلبي لأعبّر عن اتّحادي مع المُنْقِذات، وتأييدي، وتواطئي معهن في موت هذه المرأة. شاهدتُ القدمين اللتين تركلان، شاهدتُ المُنقذَتين في سوادهما تقبضان على القدمين وتجذبانهما إلى أسفل بكامل قوّتها وثقلهما. لا أريد مشاهدة مزيد من ذلك. أُلقي نظري على العشب، وأتأمّل الحبل.

الجثث الثلاثة معلّقة هناك. ما زالت الجوارب البيضاء تغطّي رؤوسها، وتبدو مشدودة جدًّا بشكل غريب، مثل دجاجات معلّقة من أعناقها في نافذة عرض دُكّان بيع لحوم، مثل طيور مقصوصة الأجنحة، مثل طيور عاجزة عن التحليق، مثل حُطام ملائكة. يصعب أن تُشيح بنظرك عن تلك الجثث. من أطراف أرديتهن السفليّة، تدلّت أقدامهن: زوْجا قدمَين بأحذية حمراء، وزوْجٌ بحذاء أزرق. لو أن الحبال والجوارب لم تكن هناك، لأصبح المشهد راقصًا: لقطةٌ لرقصة الباليه الثلاثيّة وقد ومضَت نحوها آلة تصوير: لقطة معلقة في الهواء. الجثث مرتّبة كأنّها للترفيه. لابدّ أن الخالة ليديا هي التي جعلت الجثّة الزرقاء تتوسط الجثّتين الحمراوين.

"انتهت الإنابة اليوم" تعلن الخالة ليديا في اللاقط الصوتيّ، "لكن..."

نُدير أعيننا إليها، نُصغي إليها، نرقبها. لطالما عرفت أين تضع سكتاتها خلال الكلام. الهمْس يسري بيننا، وحركة خافتة. هناك أمر آخر على وشك الوقوع. "يمكنكنّ النهوض والاصطفاف الآن، ثمّ سنتحلّق في دائرة"، تقول، ناظرة إلينا مِن عَلٍ، في ابتسام، وسخاء، ومِنّة. إنها على وشك أن تقدم لنا شيئا ما. تُنعم علينا. "انتظمنَ، الآن".

إنها تتحدّث إلينا، إلى الجاريات. فبعض الزوجات شرعْن فعلًا بالانصراف، كذلك البنات. لكنّ أغلبهن يبقَين، ويقبعنَ في الخلف، خارج الطريق، يرقُبْن وحسب. فهنّ لسْن جُزءًا من الدّائرة.

وصيّان يتقدّمان منّا، يلفّان الحبل الثخين، ويبعدانه عن المكان. يقوم آخرون بنقل الوسائد. نحن الآن ننْتثرُ المساحة العشبيّة أمام المسرح. بعضنا تتدافع للحصول على مكان في مقدّمة الصفّ، أمام منتصف المسرح. وبعضنا تتدافع بقوّة مماثلة ليكُنّ في المنتصف، محميّات من الرؤية. عمومًا، من الخطأ التباطؤ

والبقاء في الخلف وسط مجموعة كبيرة كهذه، فذاك يطبعك في رؤوسهن بطابع التخاذل وافتقاد الحماس. قدْرٌ كبيرٌ من الطاقة يعلو هنا، تمتمات، انتفاضة الاستعداد، غضب. الأجساد متوتّرة والعيون تبرُق، كأنها مُصَوّبة نحو هدف ما. لا أريد الوقوف في مقدّمة الصّفوف، ولا آخرها. لست متأكدة ممّا سيحدث، لكنّي أشعر أنّه لن يكون شيئًا أودّ متابعته عن قُرب. رغم ذلك، تُمسك أوفغلن ذراعي وتجذبني بقوة، تُلصقني بها. والآن نقف في الصفّ الثاني، ليس أمامنا سوى سياج خفيف من أجساد لرؤية ما سيحدث. لا أرغب في مشاهدة أيّ شيء، لكنّي لا أنسحب إلى الوراء. سمعت بعض الشائعات، صدّقتُ أنصافَ ما تقوله وحسب. رغم كل شيء، أنا أعرف فعلًا. أقول لنفسي: لن يتمادوا إلى ذلك الحد.

"أنتن تعرفن قواعد الاستعدام[152]، لسوف تنتظرن حتى أنفخ في الصّافرة، بعدها تفعلن ما يحلو لكنّ فعله حتى أنفخ ثانية، مفهوم؟"

تتصاعد بيننا ضجّة أصوات مؤيّدة لا شكل لها.

"حسنٌ، هيّا" تقول الخالة ليديا، وتومئ برأسها. يأتي وصيّان، لا اللذَين رفعا الحبل، ويتقدمان إلينا من وراء المسرح، يجرّان رجلًا ثالثًا بينهما يرتدي هو أيضًا زيّ الأوصياء الرسميّ، لكن دون قبّعة. زيّه متّسخ وممزّق، وجهه مجَرّح وتملؤه كدمات عميقة بُنيّة مُحمرّة: لحمها متورّم ومُبَثّر، تتخلّل لحيته. هذا ليس وجهًا، بل غدا حبّةَ خُضار لا نُميّزها، بُصَيلة فاسدة أو دَرَنَة، شيء لم ينْبُت كما يجب. وحتى من مكان وقوفي، أستطيع استنشاق رائحته: خراء وقَيْء. شعره أشقر وقد تهدّلَ على وجهه وتشابك بعضه ببعض، لكن ما الذي ألصَقه هكذا؟ عرَقه الجافّ؟

أحملق فيه مشمئزّة. يبدو أنه سكران. يبدو مثل سكران دخل في شجار. لمَ جلبوا مخمورًا هنا؟

"هذا الرجل" تقول الخالة ليديا، "ثبتت تُهمة الاغتصاب عليه" فيما صوتها يرتعش غضبًا، وانتصارًا. "كان وصيّا يومًا" تقول، "لقد لطّخ الزيّ الرسميّ الذي ارتداه بالعار، استغلّ موْضع الثّقة الذي وُضع فيه، ورفيقه في الشرّ أُرديّ قتيلًا

بالرّصاص. عقوبة الاغتصاب، كما تعرفن، هي الموت. سِفْر التثنية، الإصحاح الثاني والعشرون، الآيات من الثانية والعشرين حتى التاسعة والعشرين[153]. وأستطيع أن أُفصح لكُنّ أن هذه الجريمة تضمّنت اثنتان منكُنّ، وحدثت في نقطة تفتيش. ولقد حدث بوحشيّة. لن أُسيء إلى آذانكن بذِكر التفاصيل، بل يكفي أن أقول إن إحداهن كانت حاملًا، وأن الطفل مات".

تتصاعد تنهّدات الحسرة بيننا. ورغمًا عنّي، تنقبض كفّيّ في شدّة. لقد فاقَ الحدود، هذا الانتهاك. والطفل أيضًا، بعد كل ما نمرّ به من شقاء. في الحقيقة، أشعر بعطش لسفك دماء، أريد أن أمزّق لحمًا، أقْلَع عينًا، أفْلق عظامًا[154].

نندفع إلى الأمام، تتلافَتُ رؤوسنا، ومناخير أنوفنا تتّسع، تتشمّم الموت، ينظر بعضنا إلى بعض، نرى الكراهية. رميه بالرّصاص عقابٌ أفضل ممّا يستحقّ. رأس الرجل يدور بترنّح هنا وهناك، هل سمع حتى صُراخ من اغتصبها؟

الخالة ليديا تنتظر لحظات، تبتسم بخفّة، ترفع صافرتها إلى شفتيها. نسمعها تنطلق، حادّة كرنين الفضّة، صدى من مباراة كرة طائرة جاء من تلك الأيام البعيدة.

يترك الوصيّان ذراعي الرّجل، ويتقهقران. يترنح الرجل. هل هو مُخَدّر؟ ويسقط على ركبتيه. عيناه واهنتان تحت جفنَيه المتورّمين كأنّ الضوء سطعَ بشدّة أمامهما. تركوه وقتًا طويلًا في الظلام. يرفع يدًا واحدة نحو خده كأنّه يتأكد أنّه ما زال في الوجود. كل ذلك يحدث سريعًا، لكنّه يبدو بطيئًا.

لا أحد منّا انقضّت عليه بعد. النساء ينظرن إليه في ذعر، كأنه فأر شبه ميت يجر نفسه على أرضية المطبخ. ينْقُل عينيه هنا وهناك ناظرًا إلينا، دائرة النساء الحمراء التي تحلّقت حوله وراحت تَضيق. ترتفع زاوية فمه. غير معقول: هل تلك ابتسامة؟

أحاول أن أنظر داخله، ما تحت الوجه المُهلهل، لأعرف كيف يبدو حقًّا. أعتقد أنه في الثلاثينيات من عمره، ولم يكُن لوقا.

لكنّي أعرف أن الاحتمال قائم. وربما كان نِك نفسه. حينها، مهما كان الذي فعله،

فإنني لن أستطيع مجرّد لمسه.

يقول شيئًا. خرجَ منه ثخينًا، كأنّ في حلقه كدمات أيضًا، ولسانه متورّم جدًّا داخل فمه. لكنني سمعته على أيّ حال. إنّه يقول "لم أفعل...".

ثُمّ حدثَت اندفاعة مفاجئة، مثل جمهور ينتظر دخول حفل فِرقة رُوكْ قديمًا، عندما تُفتح الأبواب، تلك الاندفاعة تعبر بنا مثل موجة. الهواء ساطع بالأدرينالين، سُمح لنا بما نشاء وهذه هي الحريّة، والأدرينالين يندفع في جسدي أيضًا، إنني أُراكِم اندفاعي، ينتشر اللون الأحمر حولي، لكن قبل أن تضربه تلك الموجة من الأردية الحمراء والأجساد، كانت أوفغلن قد شقّت طريقها بين النساء أمامنا، تدفعهن بمرفقيها يمينًا ويسارًا، وتركض نحو الرجل. تدفعه فتلقيه جانبًا على الأرض، ثم تركُل رأسه بعُنف وحشيّ مرّة، مرّتين، ثلاثًا، ثلاث طعنات حادّة مؤلمة برأس حذائها، في صميم رأسه. والآن ارتفعت الأصوات، شهقات، زمجرة، صياح، فتتراكم الأجساد الحمراء أمامي ولا يعود في مستطاعي أن أرى شيئًا، بات مُغلّفًا بالأذرع والقبضات والأقدام. عَلَت صرخة من مكان ما، مثل صهْلة حصانٍ خائف.

ألْزَمُ مكاني خلفهن، مُحاولة البقاء واقفةً على قدميّ. ثمّة ما يضربني من الخلف. أترنّح. وعندما أستعيد توازني أستدير لأنظر خلفي فأرى الزوجات والبنات ينحنين إلى الأمام وهن جالسات، فيما الخالات في الشّرفات يحدّقن إلينا في اهتمام. لابدّ أنّهن يحظين برؤية أفضل من مكانهن هناك في الأعلى.

مَن كان رجُلًا منذ قليل، استحال شيئًا ما.

تعود أوفغلن إلى مكانها جواري، وجهها مشدود، خال من التعبير.

"رأيتُ ما فعلتِه" أقول لها. تتصاعد فيّ الآن مشاعر الصّدمة، والغضب، والغثيان. إنها بربريّة متوحّشة. "لمَ فعلتِ ذلك؟ أنتِ! ظننتُك..."

"لا تنظري إليّ، إنّهم يراقبون" تقول.

"لا يهمني" أقول. صوتي يعلو، ولا أستطيع كبح جماحه.

"تمالكي نفسك" تقول لي، ثمّ تتظاهر بأنها تنفض الغبار عنّي، ذراعيّ وكتفيّ. تقرّب

وجهها من أذني. "لا تكوني غبية. لم يكن مُغتصبًا قط. إنّه مُعارض سياسيّ، واحدٌ منّا. لقد قضيتُ عليه فورًا، خلّصتُه من بؤسه. ألا تدركين ما يعرّضونه له؟"
واحدٌ منّا، أفكّر. ووَصيّ؟ مستحيل.
تنفخ الخالة ليديا في صافرتها ثانية، لكنهن لا يتوقفن فورًا. يتقدم الوصيّان، يجرّانه من بينهن، أو ما بقي منه. بعضهن مستلقيات على العشب حيث ضُربنَ أو رُكلنَ خطأً. وبعضهن فاقدات الوعي. ينهضن ويبتعدن، في جماعات من امرأتين أو ثلاث، أو مُفردات. إنّهن دائخات.
"لسوف تعثُر كُلّ منكنّ على رفيقتها ولسوف تشكّلنَ الصّفوف من جديد" تقول الخالة ليديا في اللاقط الصوتيّ. قليلات فقط من أصغين إليها. تقترب منّا امرأة تسير كأنها تتحسّس طريقها بأقدامها في الظلام، إنها جانين. بقعة دم على وجنتها، وأخرى كثيرة على غطاء رأسها الأبيض. إنها تبتسم ابتسامة شاحبة ومشرقة في آن. عيناها باتتا رخوَتين.
"مرحبًا" تقول، "كيف حالكن؟" تشدّ قبضتها اليُمنى على شيء ما، خصلة شعر أشقر. تضحك ضحكة بلهاء قصيرة.
"جانين" أقول لها، فتراخت قبضتها، تنفتح الآن تمامًا، الخصلة تسقط بحريّة، أُخليَ سبيلها.
"نهارُكُنّ سعيد" تقول، ثم تسير وتتجاوزنا، نحو البوّابة.
أتابعها بنظرتي. الاستسلام سهل، أفكّر. إنّني لا أشعر نحوها حتى بالشفقة، رغم أنه يجب عليّ ذلك. بل يتملّكني نحوها غضب عارم. أنا لستُ فخورة بنفسي للمشاركة في هذا، ولا في أيّ جزء منه. لكن ماذا بعد ذلك؟ هذا هو السؤال.

يداي تفوحان برائحة قطران دافئ. أريد العودة إلى البيت، والصّعود إلى الحمّام، وأدعك، أدعك، بقطعة الصابون الخشنة وحجر الخفّاف، علّي أُزيل هذه الرائحة العالقة ببشرتي؛ إنها تُصيبني بالغثيان.
لكنني أتضوّر جوعًا أيضًا. إنّه شعورٌ قبيح بعد كل ما حدث، لكنه حقيقيّ جدًّا.

الموت يدفعني إلى الجوع. ربما لأنني أُفْرِغت، وربما كانت طريقة الجسد في الاعتناء بي لكي أبقى على قيد الحياة، مستمرًّا في أداء صلاة صخرة الألم هذه. أنا كذلك، أنا كذلك، حيّة ما زلت.

أريد الذهاب إلى الفراش، وممارسة الحب، الآن.

أفكّر في كلمة «مُتعة».

يمكنني أن آكل حصانًا.

44

عادت حياتنا إلى مجراها الطبيعيّ.

كيف لي أن أطلق على هذا الوضع "طبيعيّ"؟ لكن مقارنةً بأحداث الصباح، هو طبيعي.

تناولت في الغداء لُفافة جُبنة برغيف أسمر، وكوب حليب، وأعواد كرفس، وشرائح خوخ مُعلّبة. غداء التلميذ في مدرسته. التهمتُ كلّ شيء، لم أستعجل، بل استطعمتُ كلّ مذاق، مزيج النكهات في لساني، والآن أنطلق لشراء الحاجيّات، كالمعتاد. بل إنّني كنتُ أتطلّع إلى الخروج. هناك حتمًا عزاءٌ ما في الخروج.

أعبر الباب الخلفي، أقطع الفناء. نِك يغسل السيارة. قبّعته مائلة. لا ينظر إليّ. نتجنب ذلك هذه الأيام. لكن، حتمًا، نستطيع تبادل شيء ما خلال هذه اللحظات رغم المكان المكشوف، دون أن يرانا أحد.

أقف عند الناصية في انتظار أوفغلن. لقد تأخّرت. أخيرًا أراها مقبلة نحوي، قامَة ذات أقمشة حمراء وبيضاء، مثل طائرة ورقيّة، تسير في خُطى ثابتة تعلّمناها جميعًا. أراها ولا ألحَظ شيئا في البدء. لكنّها كلّما اقتربتِ زاد يقيني أن فيها خطْبًا ما، لا تبدو سليمةً أبدًا. لقد لحق بها ضرر ما ولا أستطيع تحديده. لم تُجرَح، ولا تعرج. بل تبدو كأنّها تقلّصت.

لكن عندما اقتربت أكثر منّي، عرفتُ ما بها. إنّها ليست أوفغلن. الطول نفسه لكنّ هذه أنْحَف ووجهها أسمر، ليس ورديًّا. تصل إليّ وتتوقف.

" مُباركةٌ هي الثّمرة" تقول لي، بملامح صارمة، وشفتين مستقيمتين.

"فليفتح الله علينا" أقول لها، محاولةً ألّا أُبدي ذهولًا.

"لابدّ أنّك أوفرِد" تقول.

"أجل" أقول، ونشرع في السّير معًا.

ماذا الآن، أفكّر. عقلي يختضّ، هذه ليست أخبارًا حسنة. ماذا حدث لها؟

وكيف لي أن أعرف ذلك دون أن أُبدي اهتمامي الشّديد بها؟ لا يُفترض بنا تكوين صداقات بيننا، ولا ولاءات. أحاول أن أتذكر كم بقي لأوفغلن من الوقت في مقرّ عملها الحاليّ.

"لقد أرسلَ الرّياح بنسائم عذبة" أقول.

"أستقبلها بالفرح" تقول، صوتها ساكن، مسطّح، لا يُفصح عن شيء.

نعبر نقطة التفتيش الأولى دون أن نتبادل أيّ كلام آخر. إنها صموتة، لكنني صموتة أيضًا. هل تنتظر مني أن أبدأ كلامًا، أكشف عن نفسي، أم أنها مؤمنة حقّة، وتستغرق في تأمُّل داخليّ؟

"هل نُقلت أوفغلن إلى مقرّ آخر، بهذه السرعة؟" أسأل، لكني أعرف أنّها لم تُنقَل. لقد رأيتها توًّا هذا الصّباح في الإنابة. لكانت أخبرتني.

"أنا أوفغلن" تقول المرأة. إنها تمثل دورها في إتقان ودون خطأ. فقد أصبحت بالطبع أوفغلن الجديدة. وأيًّا كانت أوفغلن القديمة فهي لم تعُد تُسمّى أوفغلن. لم أعرف اسمها الحقيقي. هكذا تغرق الواحدة منا في بحر من الأسماء وتضيع. لن يغدو سهلًا العثور عليها الآن.

نذهب معًا إلى دُكّان لبن وعسل، ثمّ إلى ذوات الأجساد، حيث أشتري دجاجة، بينما تقوم أوفغلن الجديدة بشراء ثلاثة أرطال من أقراص اللحم المضغوط. الطوابير المعتادة ممتدة. أقابل عددًا من النساء اللائي أعرفهن، نتبادل الإيماءات الخفيفة التي تُشعرنا أننا معروفات على الأقلّ لأحد ما، أننا لا نزال موجودات. خارج دكّان ذوات الأجساد، أقول لأوفغلن الجديدة "يُفَضّل أن نذهب إلى الحائط". لا أعرف ما توقّعته منها بعد هذه العبارة، هل كنتُ أختبر ردّ فعلها؟ أريد أن أعرف ما إذا كانت واحدة منا أم لا. فلو كانت كذلك، لو تأكّدتُ منه، لربما تقول لي حينها ما حدث حقًّا لأوفغلن.

"كما توَدّين" تقول، هل هذه لا مبالاة، أم تحذير؟

تتدلى على الجدار جثث النساء الثلاثة اللائي أُنِبْنَ هذا الصّباح. ما زالت الجثث

في أرديتها وأحذيتها، ورؤوسها في الجوارب البيضاء. الأذرع ما عادت موثقة، فبدت متصلّبة وثابتة إلى جوانب الجثث. الزّرقاء في المنتصف، والحمراوَين على جانبَيها، لكن تلكما اللونين ما عادا ناصعَين، إنهما يتلاشيان في بُطء، يمّحيان، مثل فراشات ميتة، أو سمكة استوائيّة تموت جفافًا على الضفّة. نقف وننظر إليها في صمت.

"فليكن ذلك تذكرةً لنا" تقول أوفغلن الجديدة أخيرًا.

لا أبتدرها جوابًا في البدء. أحاول أن أعرف ما الذي تعنيه. فربما تقصد بذلك الإشارة إلى وحشيّة نظام الحكم. حينئذ ينبغي أن أجيبها «أجل». وربما تقصد العكس، أنّ علينا أن نتذكّر دائمًا المفترض بنا دون الوقوع في المتاعب؛ لأننا إذا لم نفعل سوف نواجه ما نستحقّه. إذا كانت تعني هذا الأخير فلابدّ أن أجيبها «لهُ الحمد». ما قالَته مُداهن، دون جرْس، لا إشارات فيه.

أجازف فأقول "أجل".

لا تُجيب على ذلك، رغم أنني أحسستُ برفّة بيضاء عند حافّة رؤيتي، كأنها ألقَت نظرة خاطفة عليّ.

بعد وهْلة نستدير ونسير عائدتين، نُطابق خطْونا بالطريقة التي أقرّوها لنا، لكي نبدو متّحدتين.

أفكّر أنّه لابدّ لي من الانتظار قبل الإقدام على أيّ محاولة أخرى، فلم تِحن ساعة الضّغط عليها، لسَبْر غَوْرها. لابدّ أن أُمهلها أسبوعًا، أو أسبوعين، وربما أطول، أن ألاحظها عن قُرب، أُنصت إلى نغمات صوتها، زلّات لسانها، كما فعلت أوفغلن معي. الآن وقد ذهبت أوفغلن، فإنّ حذري استيقظ من نومه، ذاك التراخي الذي كنت فيه تهاوى، وما عاد جسدي يتحسّس ملذّاته فقط، بل عواقبها أيضًا. ينبغي ألّا أتهوّر، ألّا أخاطر دون ضرورة. لكنني أحتاج أن أعرف ما حدث. أصْمُد متمالكة نفسي حتى عبرنا نقطة التفتيش الأخيرة، ولم يبقَ سوى بعض الأحياء السكنية لنفترق. ثمّ أفقد سيطرتي.

"لم أكن أعرف أوفغلن حقّ المعرفة" أقول، "أقصد أوفغلن القديمة".

"أوه" تقول. حقيقة أنها قالت شيئًا، وإن كان في تحفّظ، حثّتني أكثر.
"لم أعرفها سوى في شهر مايو" أقول، وأشعر بحرارة تنتشر عبر بشرتي، ويتزايد وقْع قلبي. كلامي هذا حمّال أوجه. فهو من جهة كَذِب، ثمّ كيف لي أن أقفز منه إلى الكلمة التالية الحاسمة؟ "عرفتُها مبكّرًا في شهر مايو كما أظن، خلال ما اعتادوا أن يُطلقوا عليه: يومٌ مايَوِيّ".
"حقًّا؟!" تقول في استخفاف، ولا مبالاة، ونبرة تهديد أيضًا. "ذاك ليس من بين الأسماء التي أذكرها، وإنني مندهشة لأنك تتذكّرينه. ينبغي أن تبذلي جهدًا..." تتوقف قليلًا، "لتنظّفي ذهنك من..." وتتوقف مجدّدًا، "تلك الأصداء".
الآن، أشعر بموجة باردة تغمُر جسدي، كالماء. إنّها تحذّرني.
إنها ليست واحدة منّا. لكنها تعرف.
أجتاز الأحياء السكنيّة المتبقيّة في رُعب شديد. ارتكبتُ حماقة، مجدّدًا. بل أكثر من حماقة. لم أنتبه إلى ذلك مُطلقًا، لكنه انكشف لي الآن: فلو قُبض على أوفغلن، فإنها سوف تتكلم عني مع الأخريات. سوف تتكلم دون شكّ. لا تستطيع أن تمنع نفسها عن ذلك.
لكنني لم أفعل شيئًا، أقول لنفسي. لا شيء حقًّا. لم أفعل شيئًا سوى أنني أعرف. لكنني لم أُفصح لأيّ أحد عمّا أعرف.
إنهم يعرفون مكان طفلتي. ماذا لو أحضروها أمامي، وهدّدوني بإيذائها؟ "تكلّمي وإلّا...". لا أحتمل مواصلة التفكير فيما قد يفعلونه بها. أو لوقا. ماذا لو أحضروا لوقا، أو أمّي، أو مويرا، أو أيّ شخص آخر. أوه ربّي، لا تجعلني أختار، لن أحتمل ذلك، فأنا أعرف نفسي. كانت مويرا مُحقّة في شأني، سوف أقول أيّ شيء يريدونه، سوف أورّط أيّ أحد[155]. هذا حقيقيّ، مع أوّل صرخة، أو تذمّر حتى، فإنني سأتحول إلى مادة هلاميّة مطواعة بين أيديهم، سوف أُقرّ بأيّ جريمة يريدونها، وسأنتهي مُعلّقةً في خطاف على الحائط. أبقي رأسك منكّسًا، لطالما قلتُ لنفسي، وامضي قُدُمًا. لا فائدة الآن.
ذاك ما قلته لنفسي أثناء عودتي إلى البيت.

عند الناصية، نستدير نحو بعضنا بالطريقة المعتادة.

"تحت عينه[156]" تقول أوفغلن الجديدة، العَميلة.

"تحت عينه" أقول، محاولة أن أبدو متحمّسة، كأن هذا التمثيل سوف ينطلي عليها، بعد أن قطعنا ذاك الشّوط إلى هنا.

ثم تقوم بأمر شاذّ. تنحني إلى الأمام حتى تكاد قلنسوّتانا البيضَويّتان تتلامسان، حتى تمكّنتُ من رؤية عينيها البُنيّتين الفاتحتين عن قُرب، وشبكة التجاعيد المرتّبة حول وجنتيها، وتهمس بسرعة تلاشى صوتها معها مثل وُريقات جافّة. "شنقَت نفسها" تقول، "بعد الإنابة. رأت عربة النقل السوداء وقد جاءت لتأخذها. فضّلَت ذلك".

ثمّ سارت مبتعدةً عنّي في سبيلها.

أقف لحظة، مُفرّغة من الهواء، كأنني رُكلت في بطني.

إذن ماتت، وما زلتُ آمنة، في النهاية. لقد فعلتها قبل أن يأخذوها. أشعر بارتياح كبير، أشعر أنني شاكرة لها. ماتت لكي أعيش. أتمالك نفسي، سوف أنوح عليها فيما بعد.

إلاّ إذا كانت هذه المرأة تكذب عليّ. هذا احتمال وارد دومًا.

آخذ نفسًا، بعُمق، ثمّ أزفره. أزوّد جسدي بالأكسجين. المدى أمامي يسودّ، ثمّ يتّضح من جديد. أستطيع رؤية طريقي.

أستدير، أفتح البوابة، أُبقي كفّي عليها لحظات مُستعيدةً توازني، ثمّ أدخل. أرى نِك هناك. ما زال يغسل السيارة ويصفّر. بدا لي بعيدًا جدًّا.

حبيبي وربّي، أفكّر، سأفعل ما شئته، الآن وقد جعلتني أُفلت منهم، سوف أمحو نفسي، إن كان ذلك ما تريده، سوف أُفرّغ نفسي لأصبح حقًّا طاسةً مقدّسة. سوف أهجُر نك، وأتخلّى عن الآخرين، وأكفّ عن الشّكوى. سأرضى بنصيبي، سأضحّي، سأتوب، سأتخلّى، سأزهد.

أعرف أن ذلك ليس صحيحًا، لكنّني أفكّر فيه على أيّ حال. كلّ ما علّمونا إيّاه في الدار الحمراء، كل ما قاومته، يأتي متدفّقًا إلى داخلي. لا أريد الألم. لا أريد أن أكون راقصة، قدماي في الهواء ورأسي شكلٌ بيضويّ من قماش أبيض دون وجه. لا أريد أن أكون دُمية معلّقة على الحائط. لا أريد أن أكون ملاكًا دون أجنحة. أريد أن أبقى حيّة، بأيّ شكل. ولذلك فإنّني أسلم جسدي بحُريّة للآخرين، يفعلون به ما شاؤوا. أنا ذَليلة.

أشعر، للمرّة الأولى، بقوّتهم الحقيقية.

أتابع السّير مجتازة أصص الزهور، وشجرة الصفصاف، نحو الباب الخلفي.

سوف أدخل، وسأكون في أمان. سوف أخرّ على ركبتيّ في غرفتي، شاكرةً أتنفّس ملء رئتيّ هواء الغرفة الثقيل، الذي يحمل رائحة ملمّع الأثاث.
خرجت سيرينا جوي من الباب الأمامي. إنها واقفة على الدرج. تناديني. ما الذي تريده منّي؟ هل تريدني أن أدخل معها إلى غرفة الجلوس كي أساعدها على لفّ الصوف الرماديّ؟ لن أتمكّن من مدّ ذراعيّ في ثبات، سوف تلاحظ ذلك. لكنني أسير إليها على أيّ حال، فلا خيار آخر أمامي.
تقف في قمّة الدّرج، تُطلّ عليّ مثل بُرج. عيناها مُشتعلتان، زُرقة حارّة إزاء شحوب بشرتها البيضاء. أشيح بصري بعيدًا عن وجهها، إلى الأرض نحو قدميها، طرف عكّازها.
"لقد وثقت فيك" تقول، "حاولتُ مساعدتك".
ما زلت لا أرفع عينيّ إليها. الذّنب يجتاحني، لقد فُضح أمري، لكن أيّ أمر؟ أيّ خطاياي الكثيرة يتّهمونني بارتكابها الآن؟ الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك هي بالتزام الصّمت الآن. أن أشرع في تبرير نفسي الآن، لفعلي هذا أو ذاك، هو خطأ فادح، سأبوح حينها بأمور رُبما لم تعرفها قط.
وربما لا شيء. ربما عود الثقاب المدسوس في فراشي. أنكّس رأسِي.
"حسنٌ؟" تسأل، "ألا تدافعين عن نفسك؟"
أرفع عينيّ نحوها وأقول "عمّ؟" وأزيّف لعثمةً في صوتي، لكنّه ما إن خرج من فمي حتى بدا ماجِنًا بطريقة ما.
"انظري" تقول، وتجذب يدها من وراء ظهرها. إنها تُمسك عباءتها الشتوية الزرقاء. "ثمّة أحمر شفاه فيها" تقول، "كيف أمكنك أن تصبحي مبتذلة هكذا؟ لقد قُلتُ له..." ثمّ تُسقط العباءة من يدها، إنها تُمسك شيئًا آخر، يدها عِظامٌ كُلّها، وتلقي به، إنّها الحُلّة البنفسجيّة، على الأرض، تنزلق حتى آخر الدّرج مثل جِلد أفعى، تلمع تحت أشعّة الشمس. "من وراء ظهري" تقول، "أبقي لي شيئًا على الأقل!" هل تحبه بعد كلّ ما فعل؟ ترفع عصاها عاليًا. ظننتها ستضربني، لكنها لا تفعل. "التقطي ذاك الشيء المُقرف واذهبي إلى غرفتك. تمامًا كالأُخرى. مومس.

ولسوف تلقين مصيرها نفسه".

أنحني. ألُمّ الحُلّة. ومن ورائي توقّف نِك عن الصّفير.

أريد أن أستدير، أركض، ألقي ذراعيّ حوله. لكن من الحماقة فعل ذلك. فهو لا يستطيع مساعدتي. وإلا لغَرِق معي أيضًا.

أسير إلى الباب الخلفي، أدخل المطبخ، أضع سلَّتي، ثمّ أصعد الدّرج. أنا مُطيعة، وهادئة.

XV

ليل

أجلس في غرفتي، عند النافذة، أنتظر، وفي حُضني حفنة نجوم بنفسجيّة صغيرة ملء الكفّ.

قد يكون هذا انتظاري الأخير. لكنني لا أعرف الذي أنتظره. «ما الذي تنتظرين؟» اعتادوا قول تلك العبارة في ما مضى، وقد كانت تعني «هيّا أسْرِع». وهي عبارة، ليست سؤالًا، فلا يُتوقّع منك أيّ إجابة. أمّا سؤال «لمَ تنتظرين؟» فهو مختلف تمامًا. ولا أحمل إجابة له أيضًا.

رغم ذلك، فإنّه ليس انتظارًا، تمامًا، بل هو أقرب إلى التّعليق، التأجيل. «دون تأجيل». أخيرًا لا متّسع من الوقت حقًّا لأيّ شيء.

أنا مغمورة بالعار، وهو عكس الشّرف. ظننتُ سابقًا أن شعوري إذا جُلّلتُ بالعار سيكون أسوأ ممّا عليه الآن.

لكنني أشعر بصَفَاء، وسلام، وعدم مبالاة. لا تتركي أبناء الزّنا يسحقونك أرضًا. أكرّر هذه العبارة لنفسي مرّة بعد أخرى، لكنها لا تكشف لي أمرًا جديدًا. يمكنك أن تقول أيضًا: لا تتركي هواءً لهم حتى موتهم، أو: لا تتركيهم.

أظنّ أن في استطاعتك قول ذلك.

لا أحد في الحديقة.

أتساءل إن كانت ستمطر.

الضوء في الخارج آخذ في التلاشي. إنّه مُحمَرّ الآن. قريبًا سيعمّ الظلام. ها هو يُظلم أكثر. لم يستغرقه ذلك شيئًا يُذكَر.

أمامي عدّة أمور أستطيع فعلها. أشعل النيران في البيت بأكمله، مثلًا. أكوّم بعض

أرديتي، والملاءات، وأقدح عود ثقابي المُخبّأ. فإذا لم تشُبّ، فتلك نهاية الأمر. لكنّها إذا شبّت، فهناك حَدَثٌ على الأقل. إشارة ما تُعلن عن خروجي. ألسنة نار قليلة، ستُخمَد سريعًا. لكنّني أستطيع تركها تُطلق سُحُبَ دُخان لأموت مختنقة.

أستطيع تمزيق ملاءة السرير إلى شرائط، أُضَفّرها لتصير حبْلاً، وأعقد نهايته بقدم السرير وأحاول كسر النافذة المضادة للكسر كي أهرب.

أستطيع الذهاب إلى الرئيس، أهوي أمامه أرضًا، وأبعثر شعري، كما يقولون، وأتشبث بركبتيه، وأعترف، أبكي، أتضرع. نوليته تَي باستاردس كاربوروندوروم، وأقول له هذا. ليست صلاةً. أتصوّر حذاءه، أسود، مُلمّع بعناية، لا يُخترق، مُحتفظًا بوقاره.

بدلًا من ذلك أستطيع أن أعقد ملاءة السرير في أنشوطة حول رقبتي، وأثبّت نفسي بخطاف أعلى خزانة الملابس، وأدفع نفسي بقوّة إلى الأمام، أشنق نفسي.

وأستطيع الاختباء وراء الباب، وأنتظر حتى تأتي، تعرُج خلال الرّدهة، حاملة معها ما تحمله، أكان حُكمًا قضائيًّا، أم كفّارة، أم عقوبة، فأنقضّ عليها، أطرحها أرضًا، وأركلها بعنف ودقّة في صميم رأسها. أخلّصها من بؤسها، وبؤسي أيضًا. أُخلّصها من بؤسنا.

سيوفّر لي ذلك بعض الوقت فقط.

وأستطيع نزول الدّرج بخُطىً ثابتة وأخرج من الباب الأمامي وأسير عبْر الشّارع، مُتظاهرةً أنّني أعرف تماما وجهتي، وأرى إلى أين سأصل. لكن الأحمر مُلفت للنظر.

وأستطيع الذهاب إلى غرفة نك، فوق المرآب، ونقوم بما كُنّا نقوم به. وأستطيع أن أتساءل هل سيسمح لي بالدخول، يُؤويني. الآن وقد احتجتُ ذلك حقًّا.

أفكر في تلك الأمور كلّها دون دافع للحركة. فكلّ واحد منها يساوي الآخر بالنسبة إلي. لا أفضّل أحدها. التعب هنا، في جسدي، في ساقيّ، في عينيّ. هذا ما تشعر به حقًّا في النهاية، وما الإيمانُ إلّا كلمة، منمّقة.

أنظُر خارجًا، نحو الغسق، وأفكّر لو كانت الأجواء شتائيّة. يتساقط الثلج، في رِفق، ونعومة، ودون جهد، مغطيًا كلّ شيء بطبقة كريستاليّة ناعمة. والضباب القمريّ قبل انثيال المطر، يموّه ملامح الأشياء ويطمس اللون. الموت بردًا لا يؤلم، يقولون، بعد القشعْريرة الأولى. تستلقي على ظهرك في الثلج مثل ملاكٍ صنعه أطفال، ثم تستغرق في النوم.

ورائي أشعر بها. سَلَفي، نُسختي، تتأرجح تحت الثريّا، في حُلّتها من خرز النّجوم والرِّيش، طائر توقف في منتصف طيرانه، امرأة صارت ملاكًا، تنتظر أن يعثر عليها أحد. أنا من يعثر عليها هذه المرّة. كيف اعتقدتُ أنّني وحدي هنا؟ لطالما كنّا هنا معًا. "انتهي من الأمر" تقول لي، "سئمتُ هذه الميلودراما، تعبتُ من البقاء صامتة. لا أحد هناك ينتظرك أن تحميه، وحياتك نفسها لا تعني أحدًا، أريدها أن تنتهي".

وما إن هممْتُ بالنهوض حتى سمعتُ عربة النّقل السوداء. أسمعها قبل أن أراها، ممتزجة بالغسق، وبدت لي في غير صوتها المعتاد، ما سمعته صوتٌ تجمّد، مثل جلْطة أصابت الليل. تنعطف إلى فناء السيارات، ثم تتوقف. لا أرى سوى العين البيضاء المجنّحة، فلابدّ أنّ طلاءها فوسفوريّ لكي يُرى في الليل. تطفر قامتا رجلين منها، مُنفصلين عنها، ويصعدان الدرج، ويقرعان الجرس. دينغ-دونغ. أسمع قرع الجرس، كأنّ شبح امرأة بأصباغ وجه ذائبة قد خرجَ وراح يذرع الرّدهة[157].

الأسوأ قادمٌ إذن.

لقد بذّرتُ وقتي. لكان من الأجدى لي الانتهاء من شؤوني بيديّ هاتَين عندما ملَكتُ الفُرصة. لكُنتُ سرقتُ سكّينًا من المطبخ، تدبّرتُ أمر الحصول على مقصّ الحياكة. وثمّة هناك مقصّ تشذيب الأشجار أيضًا، وإبَر الحياكة أيضًا: العالم مليء بالأسلحة لو كنت تبحث عنها. كان ينبغي عليّ أن أُزجي التفاصيل مزيدًا من الاهتمام.

لكن تأخّر الوقت للتفكير في ذلك الآن، فأقدامهم الآن تخطو على سجّادة الدرج ذات اللون الورديّ الغُباريّ، وقعُ أقدام ثقيل ومكتوم، مثل تحسّس النبض في الجبين. ظهري إلى النافذة.

أتوقّع شخصًا غريبًا. لكنّه نِك من يدفع الباب ويفتحه، ويُشعل الضوء. لا أستطيع ترتيب الأمر، إلّا إذا كان واحدًا منهم. لطالما كان هذا الاحتمال واردًا. نِك، العَين المُراقبة السريّة. الأعمال الوسخة يقوم بها أُناسٌ وسخون.

أيها الخراء، أفكّر أن أشتمه، وما إن هممتُ بقولها حتى اقترب مني سريعًا وهمس "لا بأس، إنّه يومٌ مايَويّ، اذهبي معهما"، ثمّ يناديني باسمي الحقيقي. لمَ ظنّ أنّ اسمي الآن قد يعني أيّ شيء؟

"معهما؟" أقول، وأرى الرجلين واقفين خلفه، وضوء سقف الرّدهة يشكّل من رأسيهما جُمْجمتين.

"هل جُننت؟" شكوكي تُدَوّم في الهواء فوقه، مشكّلةً ملاكًا أسود يحذّرني منه، أكاد أراه حقًّا. وما الذي تُثبته معرفته كلمة السّر؟ إن جميع العيون المُراقِبة يعرفونها حتمًا، اعتصروا أجسادًا ليعرفوها، سحقوا جماجم ليعرفوها، لَوُوا أعناقًا ليعرفوها، فتحوا أفواهًا كافية ليعرفوها.

"ثِقي بي" يقول لي. وهذه عبارة لم تُثبت جدواها قط، كأنّها تعويذة، والتعويذة لا تقدّم لك أيّ ضمانات.

لكنّني أخطفه من يده، هذا العَرض. فهو كلّ ما بقي أمامي.

واحدٌ أمامي، وواحدٌ خلفي. يرافقانني أثناء نزولي الدرج. سَيْرُنا بطيء، والأنوار مضاءة. ورغم الخوف، يا له من أمر عاديّ. من هنا أستطيع رؤية دولاب الساعة. أقرأها: السّاعةُ الآن، هي اللّا ساعة.

ما عاد نِك في نِطاق البصر. ربما نزل الدّرج الخلفيّ، لا يُريد أن يُرى.

سيرينا جوي تقف في الرّدهة، تحت المرآة، رافعةً ناظِريها إلينا في رِيبة. الرئيس يقف خلفها. وباب غرفة الجلوس مفتوح. شعره رماديّ جدًّا، وبدا عليه قلقٌ شديد،

وعجْزٌ عن المساعدة. لكنه تخلّى عنّي فعلًا، أبعد نفسه. مهما كنتُ بالنسبة إليه، فإنني في هذه اللحظة أشكّل كارثة. لا شكّ أنهما تشاجرا في شأني، ولابدّ أنّها قلبت حياته جحيمًا. ما زلت أشعر داخلي بأسىً عليه. مويرا على حق، أنا جبانة.

"ما الذي فعلَتْه" تقول سيرينا جوي. إذن لم تكن هي من استدعاهم. إذن مهما كان الذي تخبّئه لي جزاءً لما اقترفت، كان سيجري بيننا فقط.

"لا نستطيع أن نجيب، سيّدتي" يقول الرجل الواقف أمامي، "آسف".

"أطلُب رؤية تفويضكما" يقول الرئيس، "هل تحملان أمرَ استدعاء؟".

أستطيع أن أنفجر صارخة الآن، أتشبّث بسياج الدرج، أتخلّى عن كرامتي. قد يوقفهم ذلك لحظات قليلة على الأقل: فلو كانا حقيقيّين سيتشبثان بأخذي معهما، سيبقيان، ولو لم يكونا كذلك فسيهربان، ويتركاني هنا.

"لا نحتاج إلى ذلك، سيّدي، فكلّ شيء يجري وفق القانون" يُجيب الرجل الأوّل مرّة أخرى، "انتهاك أسرارا الدولة".

يُمسك الرئيس رأسه بكلتا يديه. ما الذي قُلته، ولمن، وأيّ أعداءه اكتشف الأمر؟ ربما سيغدو هو نفسه الآن خطرًا أمنيًّا على الدولة. أنا أعلوه في الدرج، أنظر إليه تحتي. إنه ينتفض. لطالما جرَت عمليّات التطهير فيما بينهم هم، لكن الآن ستزداد تواتُرًا. سيرينا جوي، امتقع وجهها.

"عاهرة"، تقول "بعد كلّ ما فعله لك".

كورا وريتا تندفعان من المطبخ. شرعت كورا في البكاء، لقد كنتُ أملها، فخيّبتُ ظنّها، والآن ستبقى أبدًا دون طفل.

عربة النقل تنتظر في الفناء، وبابها الخلفيّ المزدوج مُشرَع. أتوسّط الرّجُلين، نسير وكلّ منهما يمسك لي مرفقًا، ثمّ يساعداني على الصعود. أكانت هذه نهايتي، أم بدايتي الجديدة، فلا سبيل لي لمعرفة ذلك: لقد سلّمتُ نفسي لأيدي غرباء، وهو أمْرٌ لم أستطع صدّه.

هكذا، أخطو صاعدةً، في ظُلمة الدّاخل، أم أنّه الضوء؟

ملاحظات تاريخيّة

ملاحظات تاريخيّة
عن حكاية الجارية

جُزء من سِجلّ محَاضِر الندوة الثانية عشرة من الدارسات الجلعاديّة، التي أقيمت ضمن مؤتمر الجمعيّة التاريخية الدولية، المقامة في جامعة ديناي، نونافوت[158]، في 25 يونيو عام 2195 ميلادية.

رئيس الجلسة: الأستاذة ماريان الهلاليّة[159]، قسم الأنثروبولوجيا القوقازيّة، جامعة ديناي، نونافوت.

المتحدث الأساسي: الأستاذ جيمس دارسي بايكسوتو، مدير أرشيف القرن العشرين والحادي والعشرين، جامعة كامبردج، إنجلترا.

الهلاليّة: يسعدني أن أرحّب بكم جميعًا هنا هذا الصّباح، وسَرّني أن عددًا كبيرًا منكم جاء للاستماع إلى الأستاذ بايكسوتو، أنا واثقة، سيكون حديثًا ماتِعًا وجديرًا بوقتكم. نحن، في جمعية البحوث الجلعاديّة، نؤمن أن هذه الفترة من التاريخ تتطلّب مزيدًا من البحث، بما يوازي مسؤوليّتها الكُبرى في إعادة رسم خريطة العالم، خاصّة في هذا الشّطر من الكرة الأرضية.

لكن قبل أن نبدأ، سأُذيع عليكم بعض الإعلانات. رِحلة صيد السّمك سوف تنطلق غدًا كما خُطّط لها، ومَنْ لم يُحضر منكم أدوات الوقاية من المطر والحشرات فإنها متاحة بأسعار رمزيّة في مكتب التسجيل. أمّا رحلتنا السّير في أرجاء الطبيعة، والتّجوال بالأزياء القديمة مع الغناء، فقد أُجّلتا إلى بعد غد، فقد أكّد لنا المُصيبُ دومًا، الأستاذ جوني رونينغ دوغ، عن فُسحة من الأجواء الجيّدة يومئذ.

ودعوني أذكّركم بالفعاليّات الأخرى التي تدعمها جمعيّة البحوث الجلعاديّة والمتاحة لكم للتسجيل خلال هذا المؤتمر، كَونه جزءًا من ندوتنا الثانية عشرة. عصر الغد، الأستاذ غوبال تشاترجي، قسم الفلسفة الغربية، جامعة بارودا،

الهند. وسوف يقرأ ورقته «عناصر كريشنا وكالي[160] في الديانة الرسميّة لدولة جلعاد المبكّرة». صباح الخميس سيُحاضر الأستاذ سيغليندا فان بيورن، قسم التاريخ العسكريّ، جامعة سان أنطونيو، جمهورية تكساس[161]. سوف يقدّم الأستاذ فان بيورن عرضًا بصريًّا شائقًا، كُلّي ثقّة في ذلك، عن «تكتيك وارسو: سياسة تطويق التّمركزات السكانيّة في الحروب الأهلية الجلعاديّة[162]». أعتقد أن الجميع يتمنّى حضورها.

أُذكّر أيضًا متحدّثنا الأساسيّ، رغم يقيني ألّا داعيَ لذلك، أن يلتزم بجدولنا الزمنيّ، لرغبتنا في توفّر بعض الوقت لتوجيه الأسئلة، كما أنّه ليس من بيننا أحدٌ يُريد تفويت الغداء، كما حدث أمس. (ضحك).

الأستاذ بايكسوتو لا يحتاج إلى تقديم، فنحن نعرفه جميعًا، إن لم يكن على مستوى شخصيّ، فمن خلال منشوراته الجمّة. التي تتضمّن «قوانين الإنفاق عبر العصور: تحليل الوثائق»، ودراسته الشّهيرة «إيران وجلعاد: دولتان توحيديّتان في نهاية القرن العشرين: كما صُوّرَتا في المذكّرات اليوميّة». وكما تعرفون جميعًا، فهو المحرّر المساعد مع الأستاذ كناتلي ويد، جامعة كامبردج أيضًا، في دراسة هذه المخطوطة محطّ اهتمامنا اليوم، فقد لعب دورًا فاعلًا في استنساخها، وتذييل هوامشها، ونشرها. حديثُه يحمل عنوان «مصاعب التوثيق، حكاية الجارية أنموذجًا».

أقدّم لكم الأستاذ بايكسوتو. (تصفيق).

بايكسوتو: شكرًا. أنا واثق أننا جميعًا استمتعنا بتناول السّمك القُطبيّ الفاتن البارحة، والآن نستمتع بفِتنة مماثلة تُشعّ من رئيسة جلستنا القُطبيّة هنا. أستخدم كلمة «مُتعة» بمعنيَيْن مختلفين يخصّان التذوّق والنّظر، مُستبعدًا، بالطّبع، ذاك المعنى الثالث الذي نسيته منذ زمن[163]. (ضحك).

لكن دعوني أحدّثكم بجديّة. أودّ، كما يوحي إليه عنوان حديثي، أن أتأمّل معكم بعض المصاعب المتعلقة بما تزعمه المخطوطة القديمة التي أصبحتم تعرفونها الآن، المُعنونة «حكاية الجارية». أقول 'ما تزعُمه' لأنّ ما هو أمامنا ليس المخطوطة

الأصلية. لأوضح الأمر، لم تكن المخطوطة على شكل مخطوطة عندما وجدناها، ولم تحمل أيّ عنوان. فهذه الترويسة «حكاية الجارية» ألحقها بها الأستاذ ويد، لأسباب من بينها تيمّنه وتقديره لجيفري تشوسر العظيم[164]، فمَنْ تجمعه منكم علاقة غير رسميّة بالأستاذ ويد، مثلي، سيفهمني عندما أقول إنّي واثق من أن هذه اللعبة اللفظيّة هي أمر مقصود، فهذا التحوير من (tale = حكاية) إلى (tail = ذنَب) بما يستدعي المعنى القديم المبتذل للكلمة الأخيرة (مؤخّرة)، يُوضح تقريبًا ما الذي يدور حوله الصّراع في المجتمع الجلعاديّ، في ذلك الزّمن، كما تبيّنه مخطوطتنا الملحميّة هذه. (ضحك، تصفيق).

هذه المادّة – أتردّد في استخدام كلمة 'وثيقة' – قد أُزيل عنها التّراب في الموقع الذي يُعرف باسم مدينة بانجور، التي كانت تُدعى قبل أن يجتاحها النّظام الجلعاديّ بمدينة مِين. نعرف أن تلك المدينة كانت محطّة وقوف مهمّة جدًّا في طريق محطّات السّكك الحديديّة السريّة، أو ما تُشير إليه المؤلّفة باسم «درب النساء السرّي» والذي أطلق عليه بعض مُهرّجينا التاريخيّين اسم «درب الفحشاء السرّي». (ضحك، استهجان). وبسبب هذا الاسم تحديدًا أعطت جمعيّتنا اهتمامًا خاصًّا لهذا الأمر.

هذه المادّة أصلًا عُثر عليها في صندوق معدنيّ عسكريّ، تحمل شعار «و.م»، في حوالي عام 1955. هذه الحقيقة في ذاتها غير مهمّة، فمن المعروف أن تلك الصناديق العسكريّة شاعَ بيعُها على أنها فائضة على حاجة الجيش، ولذلك انتشرت. داخل هذا الصندوق، الذي كان مُغلّفًا بشريط لاصق من النوع الذي استُخدم ذات يوم على الطُّرود البريديّة، يوجد نحو ثلاثين شريط كاسيت، من النوع الذي ما عاد متوفّرًا أصلًا خلال الثمانينيّات والتسعينيات مع ظهور الأقراص المضغوطة.

أذكّركم بأن هذه المادة لم تكن الأولى المكتشفة من نوعها. لا شك أنكم تعرفون، مثلًا، المادّة المعروفة باسم «مذكّرات أ.ب» التي عُثر عليها في مرآب في ضواحي سِياتل، والأُخرى المعروفه باسم «يوميّات ي.» التي استُخرجت مُصادفةً أثناء

عمليّات حفر إنشائيّة لقاعة مؤتمرات جديدة، في المناطق المجاورة لما كان يُعرف بمدينة سَرَقُوسَة، نيويورك[165].

تحمّسنا كثيرًا، أنا والأستاذ ويد، لاكتشاف هذه اللُّقية الجديدة. ولحُسن حظّنا أننا، قبل سنوات عدّة، وبمساعدة فنّيّ الآثار الممتاز، المُقيم حينها في الجامعة للدراسة، أعدنا تركيب جهاز يستطيع تشغيل تلك الأشرطة، وشرعنا فورًا في العمليّة الشاقة، طباعة نسخة طبق الأصل ممّا ورد فيها.

تكوّنت المجموعة من حوالي ثلاثين شريطا، فيها أغانٍ وأحاديث مُختلفة المُدّة. بشكل عام، كان كلّ شريط يبدأ بأغنيتين أو ثلاث، للتمويه بلا شك، ثمّ تنقطع الموسيقى ويظهر الصّوت المتكلم. الصوت يعود إلى امرأة، وطبقا لخبراء التسجيلات الصوتيّة، فإنّ الصوت يعود إلى امرأة واحدة هي من تتحدّث في الأشرطة كلها. المُلصَق البيانيّ على كلّ شريط، أصليّ. صُنعَت الأشرطة بالطبع قبل قيام دولة جلعاد المبكّرة رسميًّا، فتلك الأغاني الدُّنيويّة قد حُرّمَت كافّة بأمر النظام. ثمّة على سبيل المثال أربعة أشرطة من «آلفيس بريسلي – السنوات الذهبيّة»، وثلاثة أشرطة من «أغانٍ بلْطيقيّة شعبيّة»، وثلاثة أخرى من «أنجح أعمال بوي جورج» وشريطان من «مونتوفاني – الأوتار الشجيّة»، وكذلك أشرطة مُفردة حملَت عناوين مختلفة مثل «حفْل فِرقة الأخت الشقيّة – قاعة كارنيغي» وأنا مُغرم فيه بوجه خاصّ.

رغم أن تلك الملصقات أصليّة، وابنة وقتها، فإنها لم تكن صائبة دومًا في الدّلالة على محتويات الأشرطة من أغانٍ. إلى ذلك، لم نجد الأشرطة مرتّبة بأيّ تسلسل كان، بل إنها ملقاة في قاع الصندوق دون ترتيب، ولا ترقيم. لذلك، عاد الأمر إلينا، أنا والأستاذ ويد، في ترتيب مقاطع الكلام وفقًا للمَجْرى الذي ارتأينا الأحداث سائرة فيه. لكن، كما قلت سابقًا في مكان ما، ذاك كلّه قد بُنِيَ على تخمينات ويجب حملها محمَل المُقارَبات، طيّ بحوث لم تُستكمَل بعد.

وما إن باتت النسخة بين أيدينا – وقد أعدنا مراجعتها كثيرًا بسبب وُعُورَة لهجة المتحدّثة، وإحالاتها الغامضة، وكلماتها غير الدّارجة – حتى بات علينا أن نقرّر

ما طبيعة هذه المادة التي حصلنا عليها بشقّ الأنفس. واجهتنا احتمالات عدّة. الأوّل، أن الأشرطة مزيّفة؛ فقد وقعت حوادث مشابهة، كما تعرفون، حيث دفعَت دُور نشر مبالغ طائلة ثمنًا لها، راغبين أن يتاجروا دون شكّ بعاطفيّة تلك القصص. إذ يبدو أن فترات معيّنة من التاريخ تغدو بسرعة – سواء بالنسبة إلى المجتمعات الأخرى أو أولئك الّذين يتتبّعون تلك الفترات – بِناءً أسطوريًّا، ومُناسَبَة تُجَيّر لخدمة مصالح ما. ولو أُذِنَ لي أن أترك جانبًا دَوْري التحريريّ في العمل على تلك المادة، فاسمحوا لي أن أقول إنّه في رأيي لابدّ أن نحذر من تمرير أحكام أخلاقيّة على الجلعاديّين. أنا واثق أننا تعلّمنا عبر التاريخ أن تلك الأحكام ما هي إلا الخصائص الضرورية المميّزة للمجتمع موضع النقد. أيضًا، كان المجتمع الجلعادي تحت ضغوط كبيرة، سكّانيّة وغيرها، ومحكومًا بعوامل نحن سعيدون أننا متحرّرون منها. فعملنا لا يقوم على تحريم الأمور، بل فهمها. (تصفيق).

أقول بعد هذا الاستطراد، إن أشرطة كتلك، رغم كلّ شيء، يصعب تزويرها على نحو مُقنع، ولقد أكّد لنا الخبراء الذين فحصوا الأشرطة كأدوات، أنّها حقيقيّة. وحتمًا أن عمليّة التسجيل نفسها، أي طباعة الصّوت على شريط مُمَغنَط، لا يمكن أنّها حدثت خلال المائة والخمسين سنة الماضية.

وإذن، ما دامت الأشرطة أصليّة وحقيقيّة، حسب افتراضنا، فماذا عن طبيعة الأحداث التي تتناولها؟ بكلّ وضوح، يُحتمل أنّها لم تسجّل في زمن الأحداث المسرودة نفسه. إذا كانت المؤلفة تقول الحقيقة، فكيفَ أُتيحَ لها الحصول على أيّ جهاز أو شريط، أو دبّرت مكانًا لإخفائها؟ أيضًا، هناك تأمُّل ماضَويّ في المسرود، ما يدفع ذهني بعيدًا عن فكرة أنّه كُتب متزامنًا مع الأحداث. ثمّة نفْحَة من عواطف كثيرة وقد أُعيد جمعها من شتّى الجوانب، وإذا لم يُنجَز ذلك في طمأنينة تامّة، فإنّه لابدّ استحضارٌ لأحداث سابقة.

شعرنا أننا إذا تمكنا من تأسيس هوية للمرأة السّارِدَة، فقد صرنا في الطريق الصحيحة لمعرفة كيف وُجِدَت هذه الوثيقة – دعوني أطلق عليها وثيقةً إيجازًا. وفي قيامنا بذلك، سلَكْنا خطّين متباينَين في التحقّق.

أوّلًا، حاولنا من خلال الخرائط القديمة لمدينة بانجور، وغيرها من الوثائق المتبقيّة، أن نتحقق من هويّة سكّان البيت الذين شغَلوه في فترة الأحداث. من المحتمل، فكّرنا بمنطق، أن هذا البيت ربما كان «بيتًا آمنًا» على درب النساء السرّي، أثناء الفترة الزمنيّة قيد البحث، وأن المؤلّفة ربما أُخفيَت فيه، مثلًا، في العِلّيّة أو القبو، أسابيع عدّة أو أشهرًا، ما أتاح لها فُرصة لتسجيل الأشرطة. طبعًا، لا شيء يُبعد احتمال أن تكون الأشرطة قد نُقلت إلى هذا البيت بعد تسجيلها. كنّا نأمل أن نتمكن من اقتفاء ذُريّة سُكّان البيت المفترضين، الذين كنّا نأمل منهم أن يقودونا إلى موادّ أخرى: مذكّرات يوميّة، ربما، أو حتى حكايات عائليّة تناقلوها جيلًا بعد آخر.

للأسف، هذا الخطّ مسدود. فربما أن سكّان البيت المفترضين أولئك، لو صحّ أنّهم حلقة من حلقات سكّة الحديد السريّة، قد افتُضحوا وقُبض عليهم، ما يعني أنّ أيّ وثيقة تدّل عليهم قد أُتلفت تماما. ولذا فإننا قرّرنا الهجوم من الخطّ الثاني. جمعنا كلّ ما توافرنا عليه من سجلّات تخصّ تلك الفترة الزمنيّة، محاولين ربط الشّخصيات البارزة فيها بالأشخاص الواردين في سرديّة المؤلفة. السّجلات المتبقية عن تلك الفترة جميعها مبقّعة ومخربشة، فهي عادَةُ نظام جلعاد أن يمسح محتويات أجهزته الحاسوبيّة تمامًا، ويُتلف مستنداته المطبوعة، بعد قيامة بعدّة عمليّات تطهير، أو إخماده تمرُّدًا داخليًا. لكن بعض المطبوعات نجَت. وبعضها هُرّبَت فِعلًا إلى إنجلترا، لكي تستخدمها جمعيّات "أنقذوا النساء" ضمن جهود نشْر قضاياها والتوعيّة بأهميّتها، فكثير من تلك الجمعيّات برزَت وقتئذ في الجُزر البريطانيّة.

ولم نتلمّس أدنى أمل لتعقّب السّاردة ذاتها مباشرة. فقد اتضح من أدلّةٍ استقرأناها من محتوى الوثيقة نفسها أن السّاردة كانت ضمن الموجة الأولى من النساء اللائي جُنّدنَ حصْرًا من أجل التناسُل، وقد وُزّعنَ بين من احتاجوا تلك الخدمة وكان في مقدورهم أن يطالبوا بها من خلال مناصبهم في الصفّ الأوّل من نظام الحكم. فلم يتأخر النّظام في تشكيل مجموعة مُشتركة من النساء لتقديم

تلك الخدمة، وأنجز ذلك سريعًا عن طريق إعلانه بُطلان أيّ زواج إذا لم يكن الأوّل، وأنّ أيّ علاقة خارج إطار الزواج هي من الزّنا، قابضين على الإناث إيّاهن، مصادرين أطفالهن بذريعة أنّهن فاسدات أخلاقيًّا من أجل أن يتبناهم أزواج الطبقة الراقية اجتماعيًّا الذين لا يُنجبون، لكنّهم توّاقون إلى ذُريّة بأيّ شكل. (في فترة جلعاد الوسطى، توسّعوا في هذه السياسة حتى شملت حالات الزواج التي لم توثّق في الكنيسة الرسمية). لذلك، بات مُتاحًا لكبار رجال الدولة أن يختاروا ما طاب لهم من بين النساء اللائي أظهرن قُدرة على الإنجاب بأن أنجبن سابقًا طفلًا أو أكثر في صحّة جيّدة، فتلك خصّيصة مرغوبة في عصر شهِد هبوطًا حادًّا في معدّلات مواليد القوقازيّين[166]، وهي ظاهرة قد لوحظَت ليس فقط في جلعاد بل في غالبيّة المجتمعات القوقازيّة الشماليّة وقتئذ.

أسباب ذاك الانخفاض الحاد في معدّلات المواليد ليست واضحة لنا تمامًا. يُمكن أن يُعاد جزء من الفشل العام في الإنجاب، دون شك، إلى انتشار طُرُق تحديد النّسل بكلّ أشكاله، منها توفّر عمليّات الإجهاض في الفترة السابقة مباشرة على قيام جلعاد. حينها، بعض حالات العُقم قد حدثت عن قصد، وهذا ما يفسّر لنا السّبب في وجود إحصائيّات متباينة جدًّا بين أعداد القوقازيين وغير القوقازيين، لكن الحالات الأخرى لم تكن مقصودة. ولستُ بحاجة إلى تذكيركم بأن عصرهم هو عصر انتشار مرض الزهريّ المنقول وراثيًّا، وأيضًا وباء فقدان المناعة المكتسبة النّادِر، الذي ما إن انتشر على نطاق واسع حتى قضى أوّل ما قضى على الشباب في فورة عطاءهم الجنسيّ، وبذلك محاهم من دائرة التناسل. وهو أيضًا عصر ولادة الأطفال أمواتًا، والإجهاض قسْرًا، والتشوهات الخلقية المنقولة من الجينات الوراثية، وهذه الأخيرة رُبطت أسبابها بعدّة حوادث مفاعلات نووية، وتعطُّل مصانع، وأحداث التخريب التي اتّسمت بها تلك الفترة، وتسرّبات من ذخائر حربيّة كيماويّة وبايولوجيّة، وأُخرى من مواقع التخلص من النفايات السامة، آلاف المواقع، قانونيّة وغير قانونيّة، ففي بعض الحالات تُرمى تلك النفايات ببساطة في نظام تصريف المياه الصحّي. وأيضًا عدم تقنين انتشار استعمال

البخّاخات الكيماوية، مبيدات الحشرات والأعشاب، وغيرها.

أيًّا كانت الأسباب، فإن النتائج واضحة، ولم يكن نظام الحكم في جلعاد هو الوحيد الذي تفاعل معها حينئذ. رومانيا، مثلًا، سبقت جلعاد في الثمانينيات بحظر وسائل تحديد النّسل كلّها، فارضةً اختبارات حمل إلزاميّة على مواطنيها من النساء كافّة، رابطةً الترقّي في المناصب وعلاوات الأُجور بمعدّل الخصوبة. الحاجة إلى ما يمكن أن أسميه بخدمات الولادة الطبيّة، سُدَّت بحلول محدودة جدًّا انتشرت قبل جلعاد، مثل التلقيح الصناعي، وعيادات الخصوبة، والأمهات البديلات اللائي كُنّ يُستأجرن لهذا الغرض[167]. ولقد حرّمَت جلعاد الحلَّين الأوّلَين لمخالفتهما الدّين، فيما أجازت الثالث، الذي اعتُبر أنّ له سابقة وردت في الكتاب المقدّس، وهكذا ألغوا تعدّد الزّواجات بأن أعادوه إلى الشّكل الذي ساد في الأزمنة الأولى من العهد القديم للكاتب المقدّس، وهو تعدُّد الزّوجات أنفسهن، وقد كان ذلك سائدًا في ولاية يوتا سابقًا في القرن التاسع عشر قبل انضمامها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكما نعرف من دراسة التاريخ، لا يمكن لأيّ نظام جديد أن يفرض نفسه على نظام سابق عليه دون أن يتبنّى بعض عناصره المهمّة: العناصر الوثنيّة مثلًا في مسيحية العصور الوسطى، وتطوّر جهاز مخابرات الدولة الروسيّة من الجهاز القيصريّ للخدمات السريّة السابق عليه. جلعاد لم تشذ عن تلك القاعدة، فسياستها العنصريّة مثلًا كانت متجذّرة عميقًا في الفترة التي سبقت قيامها، وهكذا زوّدت المخاوفُ العنصريّةُ جلعادَ بوقود عاطفيّ سمح لانقلابها واستيلاءها على نظام الحُكم بالنجاح.

مؤلّفتنا، إذن، واحدة بين عديدات، وينبغي النظر إليها في نطاق الملامح الأبرز لتلك اللحظة من التاريخ التي كانت جزءًا منها. لكن ما الذي نعرفه عنها غير ما نعرف، بعيدًا عن عمرها وصفاتها الجسديّة التي قد تنطبق على أيّ أحد، ومكان إقامتها؟ لا نعرف كثيرًا. يبدو أنها كانت امرأة متعلّمة، أو ما يُقال أنّه العِلم عندما كان أيّ خرّيج في جامعة أمريكيّة شماليّة وقتئذ يُدعى متعلّمًا[168]. (ضحك، بعض استهجان). لكن الغابات، كما يُقال، مليئة بهن، أعني المتعلّمات، ولذلك فإن

هذه المعلومة لا تُفيدنا. ولم ترَ مؤلّفتنا أنّه من الأسْلم تزويدنا باسمها الحقيقي، والسجلّات الرسمية عن هويّتها الحقيقية أُتلفت بالتأكيد فور دخولها «دار راحيل وليئة للتأهيل»، أمّا الاسم «أوفرِد» فلا يقدم لنا مفتاحًا، ولا اسم «أوفغلن» أو «أوفوارن»، فكلّ اسم منها هو تركيب من ضمير الملكيّة مع اسم الرّجل الذي ستُنجب منه. إنها أسماء يحملنها نِسبةً إلى مقارّ عملهن، فور ارتباطهن بعلاقة مع أوليائهن، ثمّ يُنزَع منهن إذا نُقلن إلى مقارّ أخرى ليخدمن أولياء آخرين[169].
الأسماء الأخرى الواردة في الوثيقة هي على الدرجة نفسها من فقدان الجدوى لأغراض التحقيق والتثبُّت من الهويّة. «لوقا» و«نِك» لا طائل منهما، كما «مويرا» و«جانين». هناك احتمال كبير أن تلك الأسماء مستعارة لحماية الأشخاص المعنيّين في حال عُثر على الأشرطة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يؤيّد وجهة نظرنا القائلة بأن تلك الأشرطة سُجّلت داخل حدود جلعاد، لا خارجها، وبحيث تُهرّب من أجل أن تطّلع عليها المُعارضة المايَوِيّة السريّة علّها تستفيد شيئًا ممّا ورد فيها.
وهكذا، فإن استبعاد تلك الاحتمالات السابقة ترك لنا احتمالًا واحدًا. شعرنا أنّنا إذا تمكّنا من معرفة هوية «الرّئيس» المُراوغة، فإننا قد نتقدّم في التحقيق قليلًا. وقد ذهبنا في تحليلاتنا إلى أن مثل هذه الشخصية المهمة في نظام جلعاد لابدّ أنه كان عضوًا في إحدى خلايا أبناء يعقوب للعصف الذهنيّ السريّة جدًّا، حيث رُسمت بِنية جلعاد الفلسفية والاجتماعيّة. تشكّلت تلك الخلايا السريّة حين دفعَت القوى العُظمى العالميّة بعضها بعضًا إلى خانة الاستعداد للهجوم وتجهيز أقوى أسلحتها، فاجتمعت لتفادي الأمر ووقّعت اتفاقيّة «اقتسام مناطق النفوذ» ومنع التدخّلات الخارجيّة فيما بينها، وبذلك بات لكلّ قوّة مُطلق الحرية في كيفيّة تعاملها مع الثّورات المتزايدة في نطاقها. وبعد عمليّة تطهير المُعارضين الكُبرى في فترة جلعاد الوُسطى، أُتلفت سجلّات اجتماعات خلايا أبناء يعقوب للعصف الذهنيّ، بسبب سحب الثّقة من عدد من كبار مخطّطي جلعاد الأساسيّين من أعضاءها وتصفيتهم. لكننا عثرنا على مدْخَل للحصول على بعض المعلومات من خلال المذكرات اليومية المشفّرة التي تركها ويلفرد

ليمبكن، وهو المتخصّص في عِلم الأحياء الاجتماعي الآنِيّ (وكما نعرف، فإن نظرية عِلم الأحياء الاجتماعيّ حول طبيعيّة تعدّد الزوجات قد استُخدمت مبرّرًا علميًّا لبعض ممارسات نظام الحكم الأكثر شذوذًا، كما فعلَت الأيديولوجيّات السّابقة بالنظريّة الداروينيّة).

اكتشفنا في مادّة ليمبكن أنّ هناك مُرَشَّحَين اثنين مُحتمَلين، أي شخصين يحتوي اسماهما على اسم «فرِد» وهما: فرِدرك ر. ووترفورد، وب. فرِدرِك جود. لم تنجُ صورة لأيّ منهما، وإن كان ليمبكن يصف الثاني بأنّه ينتفخ شحْمًا ليس إلّا، وأقتبس هنا كلامه نصًّا: «شخص بلغت بلادته حدّ أنّه في لُعبة الغولف قد يحتاج إلى مُداعبات جنسيّة لكي يُدخل كرة الغولف في الحُفرة» (ضحك). ليمبكن نفسه لم يعش طويلًا ليشهد قيام دولة جلعاد، وحصلنا على مذكّراته فقط بسبب أنه تنبّأ بنهايته القريبة فأودعها أختَ زوجته في كالغاري.

وكِلا ووترفورد وجُود يحمل صفات ترشّحه لنا. ووتروفورد مثلًا له سابِقَة في حقل دراسات السّوق، كما قال ليمبكن، وهو مُبتكر تصاميم أزياء النساء في جلعاد، ومَن اقترح أن للجاريات اللون الأحمر، ويبدو أنه استوحى الفكرة من أزياء السّجناء الألمان في معسكرات الأسْر الكنديّة خلال الحرب العالمية الثانية. ويبدو أنه استوحى أيضًا مصطلح «الاستعدام» من برنامج مشاركات رياضي اشتُهر في وقت ما خلال الثلث الأخير من القرن العشرين. لكن طقس تلمّس الحبل الثخين الممتدّ بين الجاريات أثناء الاستعدام هي فكرة مأخوذة من عادات قرية إنجليزية تعود إلى القرن السابع عشر. مصطلح «الإنابة» ربما من ابتكاراته هو، رغم أنّها بحلول ساعة قيام دولة جلعاد رسميًّا كانت قد انتشرت من منشأها في الفلبّين لتُشير بشكل عام إلى عمليّة قضاء جهةٍ ما على أعداءها السياسيّين. وكما قلت في مكان آخر، إنّ أفكار جلعاد لم تكُن أصليّة في معظما، بل تبنّتها ممّن قبلها. إن عبقريّة جلعاد تكمن في توليفها تلك الأفكار بعضها مع بعض.

وإلى ذلك، كان جُود أقلّ اهتمامًا بأمور ابتكار المصطلحات وتلبيس الأشياء، وأكثر اهتماما بأمور التنظيم. إنّه هو من اقترح الاستفادة من دراسات جهاز المخابرات

الأمريكية عن كيفيّة قلقلة الحكومات الأجنبيّة، وأن تكون دليل أولاد يعقوب في قراراتهم السياسيّة. كما أنه من أعدّ أوّل قائمة لأسماء أهمّ الشخصيات الأمريكية التي ينبغي تصفيتها حالًا وقتئذ، بل تحوم حوله الشكوك في أنه هو الذي دبّر مذبحة عيد الرئيس، التي لم يستطيعوا إنجازها إلا بعد أن تغلغلوا في أجهزة الأمن في الكونغرس، والتي لولاها لم يُعَلَّق العمل بالدستور. وهو من خطّط لخصخصة عمليّات نقل اليهود إلى الأوطان التي يريدون الذهاب إليها، ما نتج عن إغراق أكثر من قارب في المحيط الأطلسي لتوفير التكلفة. وممّا نعرفه عن جود، فإن ذلك لم يحرّك في رأسه شعرة. لقد كان متعصّبًا لنهج جلعاد، وقد اقتبس عنه ليمبكن هذا القول: «إن خطأنا الأكبر هو تعليمنا النّاس القراءة، لن نكرّر ذلك أبدًا».

نُسب لجود أيضًا تنظيمه العمليّة التي تجري وفقها طقوس الاستعدام، وقد برّرها أن ذاك الطّقس ليس مجرّد وسيلة لإرعابك كي تخلّص نفسك بنفسك من الأفكار التخريبيّة، بل وأيضًا وسيلة تنفيسٍ لنساء جلعاد. إنّ فكرة ثَور الخطيئة[170] أثبتت بشكل كبير جدواها عبر التاريخ. وحتمًا أمْتَع الجواري، اللواتي يتحرّكن وفق نظام صارم في الأوقات الأخرى، أن يمزّقن رجلًا إلى أشلاء بأيديهن العارية من وقت لآخر. شاعت هذه الممارسة كثيرًا لإثباتها فاعليّتها، حتى نُظّمَت خلال فترة جلعاد الوسطى ووُضعت لها أوقات معلومة، أربع مرّات سنويًّا، مع انقلابَي الشّمس صيفًا وشتاءً، واعتدالَيها ربيعًا وخريفًا. نتلمّس هنا أصداءً لشعائر الخصوبة في الديانات المبكّرة لعبادة إلهة الطبيعة. وكما سمعنا في المناقشة التي أقيمَت هنا عصر الأمس، أنّ نظام جلعاد، رغم أنّه أبَوِيّ الشّكل خارجيًّا، فإنّه من وقت لآخر أموميّ المحتوى، وهو توجّه مُعظَم مكوّنات نسيجها الاجتماعي الذي قادَ مباشرةً إلى قيامها. وكما أدرك مُخطّطو جلعاد، فإن تأسيس أي نظام شموليّ فعّال، أو أيّ نظام آخر مُطلقًا، يتطلّب توفير بعض الامتيازات والحُريّات، للطّبقة العُليا على الأقل، مقابل ما تأخذه منها.

ووفقًا لهذا السّياق، فإن بعض الملاحظات التي تتعلّق بوكالة السيطرة النسائيّة

المُضحكة، المعروفة باسم «الخالات»، قد آن أوان طرحها. جود – وِفقًا لمادّة ليمبكن – هو من ارتأى منذ البداية أن أنجع وسيلة وأقلّها تكلفة للسيطرة على النساء من أجل أغراض الإنجاب وغيرها هو من خلال توظيف النساء أنفسهن. ولهذه الطريقة سوابق كثيرة في التاريخ. وفي الحقيقة، لم تؤسّس أيّ إمبراطورية بالقوّة إلّا وكانت تلك الطريقة إحدى وسائلها: السّيطرة على السكّان الأصْليّين وأهل البلد المُحتلّ بتوظيف عناصر منهم. وفي حالة جلعاد، ثمّة نساء عديدات يرغبن في الخدمة كخالات، إمّا لإيمانٍ صادِق يحملنه بما يُسمّى «القيم التقليدية» أو بسبب الفوائد التي سيتحصّلنها من تلك الخدمة. عندما تصبح السُّلطة نادرة، فإن قليلًا منها يُغري بالسّعي وراءه. وثمّة أيضًا دافع سلبيّ لذلك، فالنّسوة اللائي لم يُنجبن، أو عقيمات، أو عانسات، تُتاح لهنّ فُرَص الخدمة كخالات بدلًا من الجلوس دون فائدة وبالتالي ترحيلهن إلى المستعمرات سيّئة السُّمعة، التي تتألّف من سُكّان متنقّلين، يُشكّلون فِرَقًا لتطهير النفايات المسمومة، لكن إذا كنت محظوظًا فستكلّف بأعمال أقلّ خطرًا، مثل جَنْي محاصيل القطن والفاكهة.

الفكرة، إذن، تعود إلى جود، لكن تنفيذها يحمل بصمات ووترفورد، فمن غيره ضمن خلايا أبناء يعقوب للعصف الذهنيّ، يمكن أن يقترح أن الخالات ينبغي أن يُسَمَّين بأسماء منتجات نسائيّة كانت متوافرة قبل قيام جلعاد مباشرة، وبالتالي تألفها البنات وتستمدّ منها طمأنينةً ما، أسماء شركات مستحضرات تجميل، وخلطات كعك، وحلويّات مجمّدة، وحتى أدوية طبيّة. لقد كانت ضرْبة موفّقة للغاية، وهي تؤكد الرأي الذي توصلنا إليه من أنّ ووترفورد كان – في قمّة عطائه – داهية. وكذلك كان، بطريقته، جود.

عُرف عن كلا الرّجلين أنّه دون ذُريّة، ومُستحقًّا إذن للحصول على خدمات الجواري. ولقد طرحنا، أنا والأستاذ ويد، في بحثنا المشترك «تصوُّر 'البذرة' في جلعاد المبكّرة» أنّ ذَينك الرّجلين – شأنهما شأن العديد من الرؤساء – أصابهما فيروس مسبّب للعقم طوّرَته قبل قيام جلعاد وكالةٌ سريّة تقوم بتجارب فَصْل جيناتٍ معيّنة وإعادة مزجها مع فيروس النُّكاف[171]، والهدف منها هو حقْنها في

صادِرات الكافيار الذاهبة إلى كبار رجال الدولة في موسكو. (أُلغيت تلك التجارب بعد توقيع اتفاقيّة «اقتسام مناطق النفوذ» فقد أدركوا أن السّيطرة على الفيروس من الصّعوبة بمكان، واعتبره كثيرٌ من المأخوذ برأيهم خطيرًا جدًّا، رغم أن البقيّة اقترحت نثره فوق الهند).

لكن لم يكن جود ولا ووترفورد متزّوجًا من امرأة تُدعى بام، ولا سيرينا جوي. ويبدو أن هذا الاسم الأخير كان ابتكارًا كَيْدِيًّا من مؤلّفتنا. فزوجة جود اسمها بامبي ماي، وزوجة ووترفورد اسمها ثيلما. لكن هذه الأخيرة عمِلَت ذات يومٍ في برنامج تلفازيّ على النحو الوارد في الوثيقة. نعرف ذلك من تعليقات ليمبكن السّاخرة حولها. لقد أشْقى نظام الحكم التّغطية على تلك الزلّات السّابقة الخارجة عن الصراط المستقيم لبعض زوجات الطبقة العُليا.

الدلائل بشكل عام تُرجّح كفّة ووترفورد. فنحن نعرف، مثلًا، أنّه لقي حتفه مباشرة بعد الأحداث التي وصفتها المؤلفة، عمليّة تطهير مبكّرة. لقد اتّهم بميوله الليبرالية، وحيازته مجموعة كبيرة وغير مصرّح بها من المُصوّرات البِدْعيّة والمواد الأدبية، وإيواء شخصيّة جانِحة. وقد جرى ذلك قبل أن يفرض نظام الحكم سِريّة انعقاد محاكماته، فمحاكمة ووترفورد أُذيعت تلفازيًّا، وقد سُجّلَت في إنجلترا عبْر قمر صِناعيٍ في شريط فيديو محفوظ في أرشيفنا. اللقطات التي ظهر فيها ووترفورد ليست واضحة، لكنّها كافية للتحقّق من أن شعره رماديّ حقًّا.

أمَّا بالنسبة إلى الشّخصيّة الجانِحة التي اتُّهم ووترفورد بإيوائها، فربما تكون هي أوفرِد نفسها، فهروبها قد وضعها في هذه الفئة. والاحتمال الأكبر أن يكون المقصود هو نِك الذي، بدليل تواجد الأشرطة تلك، ساعد أوفرِد على الفرار. الطريقة التي أنجز بها ذلك تدلّ على أنه عضو في مُعارضة اليوم المايَويّ الغامضة، التي لم تكن أعمالها تشبه أعمال درب النساء السرّي، وإنما على اتّصال بها. فالأخيرة تقوم بعمليّات إنقاذ بحتة، أمّا الأولى فشِبه عسكريّة. فمن المعروف أن عددًا من المشتغلين في مُعارضة اليوم المايَويّ قد تغلغلت في أعلى مستويات أجهزة السطلة الجلعاديّة، كما أن زَرْع عُضو منها ليعمل سائقا عند ووترفورد هو حتمًا خُطوة

نحو الانقلاب، أو حتى خطوتان، فلابدّ أنّ نِك كان في الوقت نفسه عضوًا في جهاز العيون المُراقبة، كعادة السّائقين والخدم الشخصيّين أن يكونوا. ووترفورد كان بالطبع مُدركًا لذلك، لكن لأن كبار الرؤساء عادةً يُديرون بشكل أو بآخر جهاز العيون المُراقِبة تلقائيًا، فإنّه لم يسلّط اهتمامًا كبيرا على الأمر، فلا يريد ذلك أن يتعارض مع مخالفاته للأدوار البسيطة التي يُفترض به الالتزام بها. ومثل مُعظم رؤساء جلعاد المبكّرة الذين طُهّروا لاحقًا، اعتبر منصبه فوق أيّ تهديد. ولذلك صارت جلعاد الوسطى أكثر حذرًا في هذا الشّأن.

ذاك ما توصّلَت إليه فرضيّاتنا. فلو قلنا إنّها صحيحة، إن ووترفورد كان بالفعل هو الرئيس، فإنّ ثغرات كثيرة تبقى مفتوحة. بعضها كان بمستطاع مؤلّفتنا المجهولة أن تملأه، لو فكّرت بشكل آخر: لاستطاعت أن تخبرنا أكثر عن أعمال الإمبراطورية الجلعاديّة، لو كانت تحمل غريزة المراسل الصحفيّ، أو الجاسوس. لاستطاعت سدّ الثغرات التي لم نستطع سدّها حتى الآن. ما الذي لن ندفعه الآن للحصول على أقلّ من عشرين صفحة مطبوعة من حاسوب ووترفورد الشخصي؟ ومع ذلك، علينا أن نشعر بالامتنان لأيّ فُتات تُقرّر أن تحفظه لنا إلهة التاريخ.

أمّا بالنسبة إلى مصير سارِدَتنا، فيبقى ملفوفًا بالظّلام. هل هُرِّبَت خارج حدود جلعاد، إلى ما كان يُسَمّى آنذاك كندا، ثمّ شقّت طريقها حينئذ إلى إنجلترا؟ فتلك خُطوة حكيمة لو أقدمت عليها، إنّ كندا ذلك الوقت لم ترغب في مناصَبة جلعاد، جارتها القويّة، العِداء؛ فقد كان بينهما اتفاق على تسليم المجرمين وإعادة اللاجئين. إذا كان الأمر كذلك، فلمَ لم تحمل معها سرديّتها المسجّلة؟ ربما أزفَت رحلتها فجأة، وربما خافَت أن يعترضها أمرٌ ما. وهناك احتمال أنّه قد قُبض عليها أثناء الفرار. فلو وصلت فعلًا إنجلترا، لمَ لمْ تُذِع قصّتها على الملأ، كما فعلت كثيرات غيرها عندما نجحن في الخروج إلى العالم؟ ربما خافَت أن يُثأر منها بإيذاء لوقا، على افتراض أنه ما زال حيًّا (وهو أمر بعيد الاحتمال) أو حتى إيذاء ابنتها، فنظام جلعاد لا يترفّع عن تلك الفِعال، نفَذَتها لتثبيط عزْم من تسوّل له نفسه

أن يُسيء إليها في الدّول الأجنبية. لقد تسلّم أكثر من لاجئ متهوّر يدًا، أو أذنًا، أو قدمًا في طرْدٍ بريديّ، مدسوسة في علبة قهوة مثلًا. أو ربما صُنّفَت كإحدى الجاريات اللائي يواجهن صعوبة في التأقلم مع العالم الجديد بعد فرارهن، بعد الحياة المحافظة جدًّا التي عشنها طويلًا. فربما انتهت مثلهن، متوحّدة، لا نعلم. لا نستطيع أيضًا، إزاء دوافع نِك لتهريبها، سوى أن نستنتج فرضيًّا وفقًا للمعلومات التي بين أيدينا. نستطيع مثلًا افتراض أنه فورَ انكشاف علاقة رفيقتها أوفغلن بمعارضة اليوم المايَوي، فقد أحاقه هو نفسه خطر داهم، لأنه يدرك من خلال عضويّته في العيون المُراقِبة أنّ أوفرِد سوف تُسْتجوَب. إنّ عقوبة العلاقة الجنسيّة غير المصرّح بها مع جارية عقوبة قاسية، ولم تكن لعضويّته في العيون المُراقِبة أن تُنجيه. المجتمع الجلعاديّ بيزنطيٌّ حتى النّخاع، متشدّد جدًّا. وقد تُستخدم أيّ مُخالَفة ضدّ فاعلها بيد منافسيه داخل الحكومة نفسها. لاستطاع، بالطبع، لو أراد، أن يغتالها، وربما كان ذلك هو الحلّ الأكثر حكمة، لكنّ قلبَ الإنسان يبقى في الحُسبان. إذ كما نعرف، لقد اعتقدا أنّ أوفرِد ربما كانت حاملًا، منه. وأين هو ذاك الذّكر في أيّام جلعاد الذي يستطيع رفض احتمال أن يغدو أبًا؟ يا للمكانة العَطِرة، يا للغنيمة العالية! بدلاً من ذلك، شكّل فريق إنقاذ من العيون المُراقِبة، الذي ربما تكوّن من عيونٍ مُراقبة حقيقيّين، وربما لا، لكنه على أيّ حال تحت أمره. وبفعله ذلك، ربما حفرَ قبره بنفسه. وهذه النهاية، أيضًا، لن نعرف حقيقتها أبدًا.

هل وصلت سارِدَتُنا إلى العالم الخارجيّ وبنَت لنفسها حياة جديد؟ أم عُثر عليها مختبئة في عِلّيّة، فأُرسلت إلى المستعمرات، أو بيت إيزابل، أو أُنيبَت؟ إن الوثيقة بين أيدينا، رغم استرسالها، فإنها تصمت عند ذلك الحدّ. هل نستدعي يوريديس[172]، من عالم الموتى؟ لكن لا يمكننا دفعها إلى الكلام. فما إن نلتفت عند ظهورها لكي نراها، حتى نلمحها لحظة واحدة فقط، قبل أن تنزلق من قبضتنا وتهرب. يُدرك جميع المؤرّخين، أنّ الماضي ظلامٌ عظيم، ترجُّه الأصداء. قد تتناهى إلى سمعنا بعض الأصوات، لكن ما تقوله لنا يلُفّه غموض الرّحم الذي جاءت

منه. يمكننا المحاولة ما حلَت لنا المحاولات، لكن لن نستطيع أبدًا أن نفكّ مغاليقها لتتضّح لنا وضوح النّهار الساطع في أيّامنا.

(تصفيق).

هل هناك أيّ سؤال[173] ؟

الهوامش

1 صدرت ترجمة أولى للرواية عام 2006 عن المشروع القومي للترجمة (مصر) بتوقيع المرحوم عبدالحميد فهمي الجمال، تحت عنوان «قصّة الخادمة».

2 (U.S) الولايات المتحدة.

3 الأوصياء، خَدَمٌ وحُرّاس. رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية 4 : 2 «بَلْ هُوَ تَحْتَ أَوْصِيَاءَ وَوُكَلاَءَ إِلَى الْوَقْتِ الْمُؤَجَّلِ مِنْ أَبِيهِ.»

4 الملائكة، أفرادُ العساكر ومختلف أجهزة الجيش. سفر الملوك الثاني 19: 35 «وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ خَرَجَ وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُّورَ مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا. وَلَمَّا بَكَّرُوا صَبَاحًا إِذَا هُمْ جَمِيعًا جُثَثٌ مَيْتَةٌ».

5 سفر الملوك الأوّل 1 : 19 «وَقَدْ ذَبَحَ ثِيرَانًا وَمَعْلُوفَاتٍ وَغَنَمًا بِكَثْرَةٍ، وَدَعَا جَمِيعَ بَنِي الْمَلِكِ، وَأَبِيَاثَارَ الْكَاهِنَ وَيُوآبَ رَئِيسَ الْجَيْشِ، وَلَمْ يَدْعُ سُلَيْمَانَ عَبْدَكَ.»

6 إنجيل لوقا 10:38 «وَفِيمَا هُمْ سَائِرُونَ دَخَلَ قَرْيَةً، فَقَبِلَتْهُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا مَرْثَا فِي بَيْتِهَا.»

7 (Unwoman) اسم مركّب، أطلقت الروائيّة على النساء اللواتي أُرسلن إلى المستعمرات ليخدمن في تنظيف النفايات السامّة والتخلّص منها. اجتهدتُ وقابلته بـ "أشباه النساء".

8 سفر راعوث 4 : 6 «فَقَالَ الْوَلِيُّ: لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفُكَّ لِنَفْسِي لِئَلاَّ أُفْسِدَ مِيرَاثِي.»

9 سفر هوشع 8 : 7 «إِنَّهُمْ يَزْرَعُونَ الرِّيحَ وَيَحْصُدُونَ الزَّوْبَعَةَ.»

10 سفر الملوك الثاني 2 : 11 «وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ.»

11 سفر أيوب 40 : 15 «هُوَذَا بَهِيمُوثُ الَّذِي صَنَعْتُهُ مَعَكَ يَأْكُلُ الْعُشْبَ مِثْلَ الْبَقَرِ.»

12 العيون هم الجواسيس. سفر الأمثال 15: 3 «فِي كُلِّ مَكَانٍ عَيْنَا الرَّبِّ مُرَاقِبَتَانِ الطَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ».

13 سفر التثنية 28 : 4 «وَمُبَارَكَةٌ تَكُونُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ وَثَمَرَةُ بَهَائِمِكَ، نِتَاجُ بَقَرِكَ وَإِنَاثُ غَنَمِكَ.»

14 سفر الخروج 23 : 21 «احْتَرِزْ مِنْهُ وَاسْمَعْ لِصَوْتِهِ وَلاَ تَتَمَرَّدْ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ لاَ يَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبِكُمْ، لأَنَّ اسْمِي فِيهِ».

15 (Compuchek) كلمة مركّبة، محاكاة ساخرة لأجهزة المسح المحوسبة التي تقرأ بطاقات الائتمان وأرقام التسعير والشّفرات الخيطيّة. اجتهدتُ وقابلتها بـ "الفاحوص المزدوج".

16 إعدامات عامّة غير مختلطة. استخدمت الروائية مصطلح «Salvaging" بمعنى رفع البقايا والأنقاض لحفظها (سفينة غريقة مثلًا)، وهو تعبير تلطيفي مقصود للمصطلح الصحيح وهو «Salvation"، أيّ أن ينقذ الربّ روحك لدخول الجنّة وذلك بتخليصك من الخطايا. اجتهدتُ وقابلتها – تلطيفًا أيضًا – بـ «إنابة» أي الرّجوع من الكلّ إلى من له الكلّ {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ} [الزمر:54].

17 (Pray-vaganza) كلمة محوّرة عن (extra-vaganza) التي تعني العمل الأدبي أو الموسيقي المتّسم بحريّة مطلقة أسلوبًا وشكلًا، وعناصره الرئيسة هزليّة ساخرة. وهي هنا تُشير إلى احتفالات عامّة غير مختلطة لعرض قوّة جلعاد. تُقام للنساء بمناسبة الزواجات الجماعية غالبًا، وللرجال للعروض العسكرية. اجتهدتُ وقابلتها بـ «الابتهالات الصاخبة».

18 (Birthmobile) كلمة مركّبة. اسم العربة التي تنقل الجواري إلى مكان ولادةٍ ما ليشجّعوا أختهم الجارية التي تلد ويكتسبوا خبرة تُعينهم في حملهم لاحقًا وتزويد جلعاد بالأطفال. اجتهدتُ وقابلتها بـ «الولّادة المتنقّلة»

19 الجمهورية الجديدة التي انقلبت على سابقتها. سفر هوشع 6:8 «جِلْعَادُ قَرْيَةُ فَاعِلِي الإِثْمِ مَدُوسَةٌ بِالدَّمِ.»

20 زوجها في السنوات السابقة على قيام جلعاد. رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 3 : 14 «يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ لُوقَا الطَّبِيبُ الْحَبِيبُ، وَدِيمَاسُ.»

21 (Econowives) كلمة مركّبة من «Economic" و "Wife". اجتهدتُ وقابلتها بـ "زوجات الكَفاف" عوضًا عن "الزوجات الاقتصاديّات" فذاك أسلس نُطقًا، ولتحييد مفهوم الاقتصاد ومعانيه ومجالاته الواسعة.

22 (Freedom From) (الحريّة من) (الحرية السلبية) هي غياب أي مانع خارجي يمنع الفرد من القيام بالأفعال المتاحة له. تُختصر بشعار "أنا عبدٌ لمن لا أعرف". (Freedom To) (الحريّة لـ) (الحرية الإيجابية) هي أن تتوفّر للفرد الإمكانية ليقوم بالأفعال التي يسيطر من خلالها على حياته ويوجّهها نحو أهدافه الجوهرية. تُختصر بشعار "أنا سيّد نفسي".

23 إنجيل متى 6 : 28 «وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ.»

24 همفري بوغارت (1899 - 1957) أحد أكبر نجوم السينما الأمريكية.

25 لورين باكال (1924 - 2014) ممثلة أمريكية وعارضة أزياء.

26 كاثرين هيبورن (1907 - 2003) هي ممثلة أمريكية، اشتهرت باستقلاليتها الشديدة وشخصيتها الحماسية.

27 سفر الخروج 3 : 8 «فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا».

28 (Libertheos) اسم مركّب من اللاتينيّة (Liber) (الحرية) والإغريقيّة (theos) (الإله). وقد تشير إلى حركة قامت في كنيسة الرومان الكاثوليك في الثمانينيات وقد انتُقدَت كونها تحاول "تعميد" الأفكار الماركسيّة. اجتهدتُ وقابلته بـ "أحرار العقيدة".

29 دار رعاية الإناث الخصبات وتأهيلهن للحمل وممارسة دورهن الأسمى في إنجاب أطفال جلعاد. اسمها الرّسمي هو "دار راحيل وليئة للتأهيل". سفر التكوين 29 : 16 «وَكَانَ لِلاَبَانَ ابْنَتَانِ، اسْمُ الْكُبْرَى لَيْئَةُ وَاسْمُ الصُّغْرَى رَاحِيلُ».

30 (Compubite) كلمة مركّبة. اجتهدتُ وقابلتها بـ "الفاحوص الشّرائيّ"

31 أشعياء 40 : 6 «وَعِنْدَئِذٍ قَالَ صَوْتٌ: نَادِ بِرِسَالَةٍ. فَأَجَبْتُ: أَيَّةُ رِسَالَةٍ؟ فَقَالَ: كُلُّ ذِي جَسَدٍ عُشْبٌ، وَكُلُّ بَهَائِهِ كَزَهْرِ الصَّحْرَاءِ.»

32 الطُّوَالة هي إحدى رجلين خشبيتين يعتليهما المرء ويسير بهما ليزيد من طوله، ويُعَدّ المشي بهما ضربًا من البراعة كما يفعل البهلوان، وتستعمل في غالب الأوقات كوسيلة للتسلية وللرقص.

33 تبنّت جلعاد رؤية أخرى للدّين، تصحيحيّة، سلفيّة بمعنى ما، تنبني على تعاليم الكتاب المقدّس كما هي دون تراكم تاريخي أو قبول للاختلاف «المذاهب» أو الرؤى المغايرة. ولهذا فإن كل ما يمتّ إلى الدين قديمًا، إذا لم يخدم أغراضها، فإنّه يُمحى أو يُحوّل جذريًّا لخدمة هدف آخر، أو يُهمَل فيبيتُ فُرجةً، كما حدث للكنائس والمقابر.

34 لوحات تُصوّر لاهوتيّين تطهيريّين، أو بيوريتانيّين (Puritan)، وهم مؤسسو وممثّلو التطهريّة، وهو مذهب مسيحي بروتستانتي ظهر في إنجلترا إبّان عهد الملكة إليزابث الأولى وازدهر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية. وتستند تعاليمه إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدرًا وحيدًا للعقيدة الدينية من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة.

35 تذكرة الموت، أو ميمنتو موري (Memento mori) عبارة لاتينية تعني «تذكّر موتَك» وهي تشير إلى نوع من الأعمال الفنية التي تذكّر بالموت يعود ظهورها إلى العصور القديمة، وغالبا ما تحوي جماجم وعظامًا وملائكة.

36 سفر صموئيل الأول 15 : 11 «فَأَشْرَعَ شَاوُلُ الرُّمْحَ وَقَالَ: أَضْرِبُ دَاوُدَ حَتَّى إِلَى الْحَائِطِ. فَتَحَوَّلَ دَاوُدُ مِنْ أَمَامِهِ مَرَّتَيْنِ.»

37 تستدعي الروائية هنا، في استطراد سرديّ، الفرق بين (lie) و (lay) بما أنها استخدمت الأولى (مستلقية)، قائلة إن الثانية تُستخدم دائمًا بضمير الغائب، وضربت مثلًا على قول الرجال في أمريكا (I'd like to get laid) وهو ما يعني، تقريبًا للمعنى، «أرغب أن أُضاجَع». قصُرَت معرفتي عن العثور على كلمة مشابهة ويدْرُج استخدامها بصيغة الغائب، فحوّلت المُقابلة من ضمير الغائب-المتكلّم إلى الوحدة-الشراكة، وذلك أدعى، في نظري، آخذًا سياق الرواية وما تعيشه نساء الأردية الحمراء من حياة جنسيّة تخالف ما عشنه قبل عهد جلعاد.

38 (Date Rape) لم أجد لهذا المصطلح مقابلًا عربيًا شائعًا. إنّه يشير إلى حالات الاغتصاب التي تحدث بين اثنين يشعر كلّ منهما بحميمية تجاه الآخر وحُب وقُرب. وهو يختلف عن اغتصاب المعارف أو الأهل، فهذه الأنواع لا تشترط وجود مشاعر متبادلة بين الطرفين. يسود «الاغتصاب أثناء المواعدة» في الجامعات المختلطة حيث تنتشر حالات شرب الكحول أو تناول موادّ مخدّرة تهيئ وتسهّل الإقدام على هذا الجُرم.

39 "الجندر" أو "الجنوسة" هي العلاقات والأدوار الاجتماعية والقيم التي يحدّدها المجتمع للجنسين رجالًا ونساءً. العلاقات المِثليّة، في جلعاد، محرّمة، فهي خرقٌ لتلك الأدوار المرسومة سلفًا للجنسين، وتعاقب عليها بالموت بتهمة (Gender Treachery) أي، كما حاولت تقريب معناها: الغدر بالجندر.

40 تعاود الروائية هنا طرح أفكار مستقاة من ألعاب لغوية. لو نطقنا (MAYDAY) فقد نعني أحد أمرين، أوّلهما هو يوم ما من أيّام شهر مايو، وثانيهما نداء استغاثة متعارف عليه دوليًا، يُطلق من خلال الراديو ثلاث مرّات للإبلاغ عن خطر يهدد مركبة ما (طائرة أو سفينة أو قطار...)

41 (Unbaby) اسم مركّب. يُطلق على الأطفال ذوي الإعاقة الخلقيّة التي تتسبّب في موتهم بعد الولادة أو يُصبحون عالة على جلعاد دون فائدة. بما أنّ الطفل هو ثمرة البطن، فإن إعاقته هي فساده، وهكذا اجتهدت وقابلتها بـ «الطفل الفاسد»

42 الطّاس المقدّسة، كأس النبيذ المخصّصة لأداء طقس التناول المسيحيّ، تناول النبيذ والخبز، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع صُحبة تلاميذه عشيّة آلامه.

43 إنجيل لوقا 23 : 34 «فَقَالَ يَسُوعُ: يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ. وَإِذِ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ اقْتَرَعُوا عَلَيْهَا.»

44 وردَت هكذا في النصّ الأصل «Nolite te bastardes carborundorum».

45 Hiking (المصدر: مجمع اللغة العربية الافتراضي)

46 ترنيمة مسيحية (Amazing Grace: how sweet the sound) كتبها الشاعر ورجل الدين الإنجليزي نيوتن جون (1725–1807) وهي الأكثر شهرة من بين جميع الترانيم الشعبية. تغنّى سنويًا أكثر من عشر ملايين مرّة، وقد سُجّلت آلاف المرّات.

47 الأسطر الختاميّة من أغنية ألفيس بريسلي «Heartbreak Hotel».

48 الدنيم هو نسيج مبرد قطنيّ متين. من الشائع صباغته بالأزرق لإنتاج قماش الجينز.

49 (underwhore party) كلمة ساخرة مركّبة من «under» و«whore» على غرار (underwear) «ملابس داخلية». قابلتها بـ «كسوة العاهرة»

50 (Compudoc) اسم مركّب.

51 تحوير لعصا هرمس، أو القادوسيوس، وهي عصا ذات رأس مجنّح يلتفّ عليها ثعبانان. تستخدم في أمريكا الشمالية خاصةً كرمز للطب، وتختلف عن عصا اسكليبيوس.

52 سفر التكوين 30 : 1 «فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلَّا فَأَنَا أَمُوتُ!».

53 "لا تنسيني" (forget-me-not)، هي أزهار أذن الفأر (Myosotis) بالعربيّة. سُمّيت كذلك لورودها في أسطورة ألمانيّة، حيث كانت تلك العبارة هي آخر ما قاله حبيب لحبيبته قبل أن يغرق وهو يحاول أن يأتيها بتلك الزهرة.

54 إنجيل متى 5 : 5 - 10 «طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ. طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ. طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ، لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ. طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللهَ. طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ. طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ».

55 مثل مصادر المياه والمعادن، النساء في جلعاد مصدر البشر.

56 لم أقع على نصّ عربي مسيحي لهذا المقطع من إحدى صلوات المائدة قبل الأكل:

"may the Lord make us truly grateful"

57 (Les Sylphides) مقطوعة باليه ألّفها العظيم شوبان (Frédéric Chopin). يُشار إليها دائمًا كأوّل مقطوعة باليه أُلّفت من أجل الرّقص وأمزجته وحالاته، دون سرديّات أو تتابع من أيّ نوع، حتى

أن راقصيها يرتدون ملابس بيضاء ناصعة وحسب. ليس لاسم المقطوعة ترجمة عربية، لكنها تُشير إلى أرواح هوائيّة تعيش في الجوّ، وردَت في الأساطير.

58 تحريف جلعاديّ لطقس دينيّ أصيل، يعترف خلاله المسيحيّ بخطاياه كي يهجرها ويؤوب إلى الدين القويم. تعترف الجواري في الدّار الحمراء أمام الجميع بتجاربهن الجنسيّة.

59 سفر نشيد الأنشاد 2 : 1 «أَنَا نَرْجِسُ شَارُونَ، سَوْسَنَةُ الأَوْدِيَةِ».

60 تحوير لعهود الزواج الكَنَسيّة.

61 تلعب الروائية، في المقطع السابق كاملًا، بكلمة (Hold) على هذا النحو: (household = أهل البيت) و (to hold = يحملنا) و (ship hold = عنبر) ثم التصادي الصوتي في (house) و(hollow = خواء).

62 (The Church in the Wildwood) ترنيمة كتبها الطبيب والملحّن الأمريكي ويليام بيتس (1830-1918).

63 سفر رؤيا يوحنا اللاهوتيّ 21 : 8 - 10 «وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ الْكَذَبَةِ، فَنَصِيبُهُمْ فِي الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي.ثُمَّ جَاءَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتِ الْمَمْلُوَّةِ مِنَ السَّبْعِ الضَّرَبَاتِ الأَخِيرَةِ، وَتَكَلَّمَ مَعِي قَائِلاً: هَلُمَّ فَأُرِيَكَ الْعَرُوسَ امْرَأَةَ الْخَرُوفِ. وَذَهَبَ بِي بِالرُّوحِ إِلَى جَبَل عَظِيمٍ عَالٍ، وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ».

64 الصاحبيّون (Quakers) طائفة دينيّة مُسالمة تتحكّم وتنظّم أنفاق السّكك الحديديّة السريّة، وهي تساعد المستضعفين على تخطّي حواجز التفتيش حتى النهاية شمالًا إلى كندا أو إنجلترا. استعارت الروائيّة هذا الاسم في الحقيقة من جمعيّة أصدقاء دينيّة (مسيحيّة) نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا وما تزال منتشرة. تعتبر هذه الطائفة جزءًا من كنائس السلام؛ يرفضون المشاركة في الحروب، والألبسة الفاخرة، والرقّ، والخمرة. ويتّخذون موعظة الجبل دستورًا لهم. اعتُبرت منشقّة عن الكنيسة وقتئذ.

65 سفر التكوين 10 : 6 «وَبَنُو حَامٍ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ». إشارة إلى الأُمَم الإفريقيّة السوداء التي تحدّرت كما عُرف من حام بن نوح. تستخدم الطوائف المتعصّبة هذه الآية لتبرير عنصريّتها.

66 (Compucount) محاكاة ساخرة للبطاقات الإتمانيّة.

67 الروائيّة مستمرّة في ألعابها اللغويّة. تشبيه أوفرِد بالورقة استتبع متقابلات لغويّة لا تتضح تمامًا

بالعربية: يأتي البهاض هنا بمعنى الشحوب، والاستواء الصّدق، والرّفعة الهشاشة.

68 الكتب محرّمة في جلعاد، كما أن الكتاب المقدّس لا يقرأه سوى الخاصّة لألّا يخرج أحد بخُلاصات مضادّة للفهم الرّسمي. وهو أمر مُستقى من اعتراض الكنيسة على ترجمة الكتاب إلى اللغات الأخرى، وقصر قراءته على دارسيه، في أوروبا القرون الوسطى.

69 تقابل الروائيّة قضيبَ الرّجل بمجسّات الحيوانات – كأذرع الأخطبوط – وعين الحلزون التي تمتدّ بعيدًا عن رأسه بساقٍ بصَريّة.

70 جملة ساخرة، هي مقلوب ما يقوله رُعاة البقر إذا تلاقى منهما اثنان في نزال أخير.

71 سفر التكوين 1 : 28.

72 سفر التكوين 30 : 1 - 3.

73 إنجيل متى 5 : 3 - 7.

74 سفر التكوين 30 : 18.

75 سفر أخبار الأيام الثاني 16 : 9.

76 تُماثل الروائيّة، بلعبة لغويّة أيضًا لا تتضح في النصّ العربي، بين بطن الحامل المنتفخة وبين الأشرعة التي تهبّ عليها الرّيح بشدّة فتقوّس بطونها وتدفعها إلى مبتغاها.

77 أحد معاني الإتيان، في اللغة الإنجليزيّة، هو بلوغ الذّروة.

78 Organic.

79 إشارة إلى نزول آدم وحواء من الجنّة حسب رواية الكتاب المقدّس.

80 Lithograph.

81 في مسعاها لتأكيد ندرة حدث الولادة في زمن جلعاد، خالفت الروائيّة الكتابة الصّحيحة (Birthday) بشطرها وإعادتها إلى الكلمتين الأساسيّتين المكوّنتين لها (Birth Day) فباتت أوقع وأظهر للدلالة المرجوّة.

82 استطراد لغوي: "مقعد = chair" و "إحسان = charity".

83 Deathwatch beetle

84 الكهيرب، الإلكترون (electron) المكوّن الرّئيسي للذرّة.

85 استطراد لغويّ (فالق = الصّدْع = Fault) و (خطأ = Fault). أمّا فالِق سان أندرياس فيقع في كاليفورنيا.

86 إيزابل (Jezebel) في الكتاب المقدس هي قرينة الملك آخاب ملك إسرائيل. نشرَت عبادة البعل في مملكة إسرائيل الشمالية، وقامت بأعمال شريرة أخرى منها القتل والسرقة والشهادة زورًا. تنبّأ النبيّ إيليا بأن الكلاب سوف تأكلها، وقد حدَث. سفر أخبار الملوك الأوّل 16: 31 «وَكَأَنَّهُ كَانَ أَمْرًا زَهِيدًا سُلُوكُهُ فِي خَطَايَا يَرُبْعَامَ بْنِ نَبَاطَ، حَتَّى اتَّخَذَ إِيزَابَلَ ابْنَةَ أَثْبَعَلَ مَلِكِ الصِّيدُونِيِّينَ امْرَأَةً، وَعَبَدَ الْبَعْلَ وَسَجَدَ لَهُ».

87 اقتصرت الروائية في تسمية سيّارة الإسعاف (Emergency ambulance) بمُقْتَطع صغير (Emerge) وهو يعني الانبثاق والبزوغ والارتفاع. بدا لي أن في "سعف" إذا اقتطعناها بالمثل من «سيّارة إسعاف» إشارة ووعدًا شبيهًا بذاك الاختزال.

88 سفر التكوين 3 : 16.

89 العامل البرتقالي (Agent Orange) هو الاسم الحركي لمبيد أعشاب ونازع ورق شجر، استخدمه الجيش الأميركي أثناء حرب فيتنام كجزء من برنامج الحرب السامّة بين عامَي 1961 - 1971. بلغ عدد المشوّهين والقتلى بسببه 400,000 بحسب تقديرات الفيتناميين، إضافةً إلى 500,000 من الأطفال الذين ولدوا بعيوب خلقيّة.

90 تحوير لشعار روّجه كارل ماركس ورد في كتاب له عام 1875 (من كلٍّ حسب قُدرته، إلى كُلٍّ حسب حاجته). وقد أعاد بعض الدّارسين أصل العبارة إلى العهد الجديد من الكتاب المقدّس. ففي سفر أعمال الرسل يوصَف نمط حياة جماعة المؤمنين في القدس بأنه اشتراكي (دون ملكية فردية). سفر أعمال الرسل 4 : 32 - 35 «وَكَانَ لِجُمْهُورِ الَّذِينَ آمَنُوا قَلْبٌ وَاحِدٌ وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِ لَهُ، بَلْ كَانَ عِنْدَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مُشْتَرَكًا. وَبِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ كَانَ الرُّسُلُ يُؤَدُّونَ الشَّهَادَةَ بِقِيَامَةِ الرَّبِّ يَسُوعَ، وَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ كَانَتْ عَلَى جَمِيعِهِمْ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مُحْتَاجًا، لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ حُقُول أَوْ بُيُوتٍ كَانُوا يَبِيعُونَهَا، وَيَأْتُونَ بِأَثْمَانِ الْمَبِيعَاتِ، وَيَضَعُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرُّسُلِ، فَكَانَ يُوزَّعُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ كَمَا يَكُونُ لَهُ احْتِيَاجٌ».

91 Overall

92 استعيدوا الليل (Take Back The Night) شعار حقوقي نسويّ تداولته المظاهرات النسويّة في أمريكا منذ السبعينيات جرّاء ارتفاع أعمال العنف ضدّ النساء، ما دفعهن إلى الخوف من

الخروج ليلًا ومهابة الأماكن المعتمة.

93 (Pronatalist) أو (Natalism) هي فلسفة الحثّ على الإنجاب والتكاثر لأسباب غير فرديّة، اقتصاديّة مثلًا أو دينيّة، وهي عكس فلسفة اللاتناسل (Antinatalism) التي ترى في التكاثر دمارًا للأرض وتعذيبًا لمخلوق لم يختَر أن يوجَد في الحياة بتعريضه إلى كلّ مآسيها وعذاباتها انتهاءً بتجربة الموت. ومن أشهر مؤيّديها العرب الشّاعر أبو العلاء المعرّي إذ لم يُنجب أبناءً ووصّى أن يُكتَب على شاهدة قبره: هذا جناهُ أبي عليّ – وما جنَيتُ على أحد.

94 الخَرُوسُ: البكرُ في أوّل بطن تحمله.

95 بيغلت (Piglet) هو شخصيّة خنزير وردي لطيف في مسلسل الرسوم المتحركة ويني-ذا-بوه (Winnie-the-Pooh) وهو جبان جدًّا وخجول أيضًا ورقيق، رغم تمتّعه بفضول وحماسة كبيرتين.

96 يبلغ في الأمّ الحنَق مبلغه، فتنحو في فورة اعتراضها ودون قصد إلى نطق الكلمة الإنجليزية بأسلوب يعود إلى أصولها اليديشيّة كما يبدو، دون إيصال أيّ معنى سوى الاعتراض، وهذه إشارة قلّما يُلتفَت إليها للاستدلال على أصول أوفرِد.

97 سفر صموئيل الأوّل 12 : 5.

98 فتيات غيشا: نسوة يابانيّات يتدرّبن على أداء الفنون المسرحيّة القديمة من رقصٍ وغناء وتمثيل ويؤدّينها في بيوت ترفيه خاصّة بهن، ويتميّزن بملابسهن الفولكلوريّة ومساحيق تجميلهن الثّقيلة جدًّا. نشأ هذا المصطلح خلال المراحل المبكرة من التاريخ الياباني، وأُطلق على فتيات الترفيه اللائي كُنّ غالبًا من عائلات مشرّدة ومكافحة، وكُنّ يمارسن الدعارة أيضًا في البيوت إيّاها بموافقة رسميّة واجتماعيّة.

99 (Computalk) اسم مركّب للهاتف الجلعاديّ.

100 مَقلوب جُملة شَهيرة « إنها هي التي تتردّد، مَن تضيع»، إشارة إلى أن الحياة في جلعاد مقلوبة رأسًا على عقب، وأنّ التفكّر في القرار في ظلّ ظروفها أنجع من العجالة.

101 سكرابل (Scrabble) لم أجد لها مقابلاً عربيًا. هي لعبة تشكيل كلمات من مربّعات أحرف على لَوح أشبه بلوح الشطرنج.

102 اسم ألمانيّ.

103 «الرّحم المتنقّل» هو اعتقاد يقول إنّ الرّحم يُمكنه التنقّل من مكانه والتجوّل داخل الجسد،

مثل حيوانٍ داخل حيوان، وهو جزء من معتقدات قديمة يونانيّة، وقد ذكرَها الفيلسوف أفلاطون أيضًا وهي إحدى تعاليم أبُقراط. كانوا يعتقدون أنّ ذاك التنقّل هو سبب أمراض عدّة من بينها هستيريا النّساء، وانتقل هذا الاعتقاد من النصوص الطبيّة اليونانيّة القديمة إلى الطب الأكاديمي الأوروبي واستمرّ فيه قرونًا حتى انتهى بداية العصر الحديث.

104 كاميكازي (Kamikaze) تُشير إلى هجمات انتحاريّة قام بها طيّارون يابانيّون ضد سفن الحلفاء إبّان الحرب العالمية الثانية. حيث كان الطيارون الانتحاريون (الكاميكازي) يصطدمون بحمولة متفجرات طائراتهم كلّها بسفن الحلفاء لتدميرها.

105 بيلتزكريغ (Blitzkrieg) أسلوب هجمات حربيّة عنيف ومفاجئ طوّره واستخدمه الجيش الألماني (الفيرماخت) خلال الحرب العالمية الثانية.

106 ألفريد تنيسون (Alfred Tennyson) (1809 - 1892) شاعر إنجليزي من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، عُيّن شاعرَ البلاط الملكي عام 1850، ومن بين أشهر قصائده، قصيدة «تعالي إلى الحديقة، يا مودا» وتحوي من وصف الحديقة التي يلتقي فيها بعشيقته ما تحويه من مُماهاة بينهما. يقول فيها: لكن الزّهرة قامَت يقظةً طوال الليل لك/ عارفةً أن المجيء كان وعدك/ السواسن والزّهور استيقظت لك/ وراحت تُشير للفجر إلى مكانها كي تدلّك.

107 خُيّل إلى الروائيّة أن هسيس الشّجر يردّد كلمتَين (Rendezvous = موعد) و (terraces = شرفات) ولا معنى لهما في سياقهما سوى جرسهما وكثرة حروفهما «الهوائيّة» التي تُجيز لهما أن تصدرا عن هسيس شجرة. تأمّل لغويّ كعادتها. استعضتُ عنهما بأسرار ولمسة.

108 مجلة فوغ (Vogue)

109 لم يعرف التاريخ شُهرةً للمدن الساحليّة كما حدث في العصر الإدواردي بداية القرن العشرين (1901 - 1910). تلك المصائف الساحليّة في إنجلترا أصبحت وُجهة رئيسية بفعل التوسّع في مدّ سكك الحديد وصار الترحال إليها ممكنًا بالقطار وغير مُكلِف. مُعظم الزائرين كانوا من الطبقة الوسطى، وصادف أنّه في تلك الفترة تحديدًا ظهرَت أوّل مرّة بطاقات البريد المصوّرة وانتشرت واشتهرت واستعملها الناس كثيرًا.

110 (outside woman)

111 من معجزات يسوع هو تكثير الرّغيف والسّمَك لإطعام ضيوفه. وهذا ما يفسّر سعادة السّمكة، وإعجاز أن يكون لعينها رموش رغم أن الأسماك لا أجفان لها. إنجيل متى 14 : 17 «فَقَالُوا لَهُ: لَيْسَ عِنْدَنَا ههُنَا إِلَّا خَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَانِ».

112 إنجيل متى 6 : 11 «خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ».

113 سفر الجامعة 1 : 1 - 3 «بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، قَالَ الْجَامِعَةُ: بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، الْكُلُّ بَاطِلٌ. مَا الْفَائِدَةُ لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ؟ دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ، وَالأَرْضُ قَائِمَةٌ إِلَى الأَبَدِ».

114 لعبت الروائيّة كثيرًا بكلمة (job = عمل، وظيفة، مهنة) خلال المقاطع السّابقة. تذهب بعيدًا أيضًا فتورد (The Book of Job = سفر أيوب) في تناص مُذهل مع ما عاناه أيّوب في حياته.

115 إنّه وصف للأوراق النقدية الأمريكية من فئة الدولار الواحد. كُتب أعلى الهرم «In God We Trust". سفر المزامير 56 : 11 «عَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَلَا أَخَافُ. مَاذَا يَصْنَعُهُ بِي الإِنْسَانُ؟»

116 استُخدم الودع (نوعٌ من الأصداف) كنقدٍ ماليّ أشبه بالقروش لتبادل البضائع في شتّى أنحاء العالم القديم.

117 Compmbank

118 عربات نقل صغيرة مكمّمة النوافذ عبارة عن غُرَف دعارة متنقلة.

119 Compucard

120 لغة السيمافور تعني التخاطب عن بُعد بواسطة الأعلام. هذه الطريقة تسهّل تبادل الإشارات البحريّة خاصّة.

121 قد تعني أيضًا: تراجع عمّا قلت. هنا لا تُشير الروائيّة إلى المتكلّم والمخاطَب، قد تكون أوفرد تطلب من الرّئيس في يأس أن يُخفي دليل ذنبهما، وقد يكون الرّئيس يخاطب نِك نفسه أن يتراجع عمّا قاله.

122 تستخدم الروائية في هذا المشهد كلمةً ليست شائعة في اللغة الإنجليزية وغير معروفة المصدر تمامًا، هي "Zilch" بمعنى لا شيء، ما يبرّر جهل الرّئيس بها واقتراح أوفرِد العودة إلى القاموس، فعملها في المكتبة وبين الكتب أثرى قاموسها اللغويّ. ضازَ، أي جارَ في الحُكم. (لسان العرب).

123 Pocket computer

124 (Mademoiselle) و (Esquire) و (Ms) و (Reader's Digest)

125 " Pen Is Envy" تحوير لكلمة فرويد الشّهيرة " Penis Envy" أي "حسَد القضيب" وهو مصطلح يشير إلى حالة تمرّ بها الفتاة الصغيرة خلال تطوّرها النفسي والجنسي، تحدث عندما تكتشف الفتاة أنه ليس عندها قضيب كالذّكور.

126 السّابِيُون (Sabines) قبيلة إيطالية قديمة. اشتُهرت بأسطورة تروى عنها بأنّ مدينة روما لم تكن فيها أيّ امرأة عندما بناها رومولوس. فطلبَ من أهل القرى المجاورة أن يسمحوا للرومانيين بأن يختاروا من نسائهم زوجات لهم. وعندما رفضت القرى طلبه، دعاهم رومولوس إلى احتفالات عظيمة، قام الرومان أثناءها بانتزاع فتيات السابيين عنوة. فنشأت حروب طاحنة بينهم وبين الرومان. لكن أولئك الفتيات استطعن حقن الدماء بين الطرفين، بعد أن أقنعنهم بإيقاف القتال والاندماج في أمة واحدة.

127 وردَت أهميّة السيّاق سابقًا في جُملة قالتها مويرا. أمّا الأهبة، فهو اقتباس عن شكسبير في مسرحية الملك لير، الفصل الخامس، المشهد الثاني: «الأُهبةُ هي الكُلّ» (ترجمة جبرا إبراهيم جبرا) والمقصود هنا هو أنّ المُهم للإنسان، من حيث الموت، هو أن يكون مستعدًّا له ومتأهّبا.

128 سفر زكريا 4 : 10 «لأَنَّهُ مَنِ ازْدَرَى بِيَوْمِ الأُمُورِ الصَّغِيرَةِ. فَتَفْرَحُ أُولئِكَ السَّبْعُ، وَيَرَوْنَ الزِّيجَ بِيَدِ زَرُبَّابِلَ. إِنَّمَا هِيَ أَعْيُنُ الرَّبِّ الْجَائِلَةُ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا».

129 صلاة أوفرِد الشخصيّة هنا، أو دعاءها، هي تحوير وتوسّع في الصّلاة الربّانية المعروفة. إنجيل متى 6 : 9 - 15 «فَصَلُّوا أَنْتُمْ هكَذَا: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ، إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ. فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ، لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَتِكُمْ».

130 من الجنّة إلى الأرض، آدم وحواء.

131 (all alone by the telephone) أغنية إرفينغ برلين (1888 - 1989 نيويورك) ملحّن أمريكي.

132 دورة القمر كلّ شهر هي رمز في حضارات كثيرة وثقافات عدّة لعادَة المرأة الشهريّة.

133 اختارت القوّات الهتلريّة النجوم الصّفراء رمزًا لليهود في بطاقاتهم الشّخصيّة لتمييزهم في ألمانيا إبّان الحرب العالمية الثانية.

134 شهود يهوه إحدى الطوائف المسيحية التي لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى، تأسّست في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. لا يحتفل الشهود بأعياد الميلاد الفردية، ولا يخدمون في الجيش وهم محايدون سياسيا، ولا يؤمنون بالثالوث ولا بشفاعة القديسين ولا بنار الهاوية كوسيلة لتعذيب الأشرار.

135 يسوعيون، أو الرهبنة اليسوعية، هي واحدة من أهم الرهبنيّات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها. تأسست في القرن السادس عشر في إسبانيا، كجزء من الإصلاح المضاد، وأخذت

على عاتقها مهمة التبشير ونشر الديانة في العالم الجديد. اصطدمت أواخر القرن الثامن عشر ببعض السلطات الأوروبية. عند تأسيسها اعتبرت الرهبنة اليسوعية الأكثر حداثة، مُجسّدة كفاءة وفاعلية أصبحتا سِمَتين أساسيّتين في الحضارة الحديثة.

136 ترى أوفرِد الأزهار أمامها شبيهة بقلوب الأزتيك (أحد شعوب القارتين الأمريكيّتين)، كانوا في عباداتهم يضحّون بالبشر باقتلاع قلوبهم وهي تنبض. هكذا تنظر أوفرِد إلى نفسها في هذا البيت، ضحيّة يُقتلَع قلبها أثناء عبادة طقوسيّة ما.

137 إذاعة للمتمرّدين، تُماثل المحطات الإذاعية غير المشروعة التي سادت في أوروبا إبان حُكم هتلر، وروسيا تحت حُكم الستالينيّة، حيث ينشُد المُستمع إليها معرفة أنباء تحظُر نشرها سلطات البلاد.

138 لُعبة أطفال فلكلوريّة، حيث يُحصي الطّفل كم نفخةً احتاجها لكي يُعرّي الزّهرة، والعدد الذي يصل إليه هو ما سيجده لو أنّه نظر إلى الساعة.

139 كِلا الرّئيسَين الأمريكيّين، أبراهام لينكن (اغتيل عام 1865) وجون كيندي (اغتيل عام 1963) سُمّيت باسمهما مبانٍ عامّة، بما فيها جامعات ومدارس.

140 سفر إرميا 8: 22 «أَلَيْسَ بَلَسَانٌ فِي جِلْعَادَ، أَمْ لَيْسَ هُنَاكَ طَبِيبٌ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تُعْصَبْ بِنْتُ شَعْبِي؟»

141 رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس 2 - 9 : 15

142 لا يُفترض بالفتاة الجلعاديّة الاستمتاع بالجنس، ولذا تُحرّم عليها أدنى حركة أثناء تلقيحها.

143 رسالة يوحنا الرسول الأولى 4: 8 «وَمَنْ لَا يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اَللهَ، لِأَنَّ اَللهَ مَحَبَّةٌ».

144 إنجيل يوحنا 1: 14 «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا» أي أن المرأة لطالما آمَنت بالحُبّ وانتظرت فارسها الذي يجسّده لها، لكي تهبه قلبها. لكن أوفرد هنا تناقش رغبة جلعاد في تعزيز الحُب المجرّد لكي توجّهه أينما تريد وتستغلّه.

145 سيّدة في الانتظار (Lady in waiting) هذا الاسم الطويل يُطلق على الرفيقات الدائمات للملكات ومن تقوم مقامهن، فهن يحضرن دومًا جوارهن ويشهدن لقاءاتهن الرسميّة. وغالبًا ما يكُنّ نبيلات المحتد هنّ أيضًا. لكن انتشرت محلّات بهذا الاسم لبيع لوازم الحوامل، إذ أكملوا الجملة بالقول: سيّدة في انتظار الأمومة (Lady in waiting maternity)

146 طقس احتفالي تختص فيه الكنيسة الكاثوليكية، يُقام للطفل عند بلوغه الثامنة.

147 سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 17: 3 - 6 «فَمَضَى بِي بِالرُّوحِ إِلَى بَرِّيَّةٍ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً جَالِسَةً عَلَى وَحْشٍ قِرْمِزِيٍّ مَمْلُوءٍ أَسْمَاءَ تَجْدِيفٍ، لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ. وَالْمَرْأَةُ كَانَتْ مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ، وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ، وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا، وَعَلَى جَبْهَتِهَا اسْمٌ مَكْتُوبٌ: سِرٌّ. بَابِلُ الْعَظِيمَةُ أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الأَرْضِ. وَرَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقِدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبْتُ لَمَّا رَأَيْتُهَا تَعَجُّبًا عَظِيمًا!»

148 السّكك الحديدية السريّة (Underground Railroad) هي شبكات سكك حديديّة سريّة تحت الأرض تعلوها بيوت تشكّل منفذًا وحيدًا إلى تلك السّكك دخولًا وخروجًا. أنشئت في الولايات المتحدة الأمريكية منتصف القرن التاسع عشر، واستخدمها العبيد الأمريكيين الأفريقيّين للهرب من الولايات الأمريكية الجنوبية التي تؤيّد العبودية إلى الولايات الشمالية الحرّة وكندا التي تعارض العبوديّة، بمساعدة المنتمين إلى حركة إبطال العبودية وبعض التكتّلات التي تؤمن بحقهم في الحريّة. (للتوسّع أكثر، يمكن مراجعة رواية: السكك الحديدية السرية، للروائي كولسون وايتهيد). تستلهم الروائيّة هذا العالم القديم بشكل مستقبليّ، إذ تضع هذه السّكك تحت سيطرة معارضي حكومة جلعاد وسياستهم في استرقاق النساء، فتطوّع هذه السّكك لتهريبهن إلى الشمال الكندي.

149 إشارة إلى حكاية سندريلا.

150 استعارة من قصيدة للشاعر والكاهن الإنجليزي جون دون (1572 - 1631): «الإنسانُ ليسَ جزيرةً، إن موت أيّ إنسانٍ يُقلّلني أيضًا، فنحن جميعًا معًا مثل ضفيرة، لذا لا تبعث أحدًا يسألُ لمن يُقرَع النّاقوس، الناقوس يُقرَع دومًا لك»

151 مغارة الميلاد (Nativity scene) أو (Christmas crèche) درجت العادة عند المسيحيين أن يبنوا مغارة في البيوت والكنائس خلال موسم عيد الميلاد، تحوي تحفًا فنيّة لشخصيّات وكائنات، تصويرًا لمشهد ولادة المسيح. وهو تقليدٌ أقدم من شجرة عيد الميلاد تاريخيًا.

152 (Particicution) كلمة مؤلّفة من كلمتين: (participate = مشاركة) و (execution = إعدام)، اجتهدتُ وقابلتها بـ «استعدام».

153 سفر التثنية 22 : 23 - 29 «إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُل، فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الْفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لَمْ تَصْرُخْ فِي الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ. وَلكِنْ إِنْ وَجَدَ الرَّجُلُ الْفَتَاةَ الْمَخْطُوبَةَ فِي الْحَقْلِ وَأَمْسَكَهَا الرَّجُلُ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، يَمُوتُ الرَّجُلُ الَّذِي اضْطَجَعَ مَعَهَا وَحْدَهُ. وَأَمَّا الْفَتَاةُ فَلاَ تَفْعَلْ بِهَا شَيْئًا. لَيْسَ عَلَى الْفَتَاةِ خَطِيَّةٌ لِلْمَوْتِ، بَلْ كَمَا يَقُومُ رَجُلٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَقْتُلُهُ قَتْلاً. هكَذَا هذَا الأَمْرُ. إِنَّهُ فِي الْحَقْلِ وَجَدَهَا، فَصَرَخَتِ الْفَتَاةُ الْمَخْطُوبَةُ فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُخَلِّصُهَا. إِذَا وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ، فَأَمْسَكَهَا وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَوُجِدَا. يُعْطِي الرَّجُلُ الَّذِي اضْطَجَعَ مَعَهَا لأَبِي الْفَتَاةِ خَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَتَكُونُ هِيَ لَهُ

زَوْجَةٌ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَدْ أَذَلَّهَا. لَا يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا كُلَّ أَيَّامِهِ».

154 استلهام من رواية «1984».

155 استلهام من رواية «1984».

156 استلهام من رواية «1984».

157 وفقًا لتقاليد قصص الرّعب والأشباح، لطالما ظهرَت أشباح البيوت إلى العلن عندما تُقرع ساعة البيت مُعلنةً حلول منتصف الليل.

158 إقليم نونافوت، يقع في الشمال الشرقي لكندا، سكّانه الأصليّون من شعوب الأسكيمو.

159 (Maryann Crescent Moon) يُشير اسمها إلى أصولها العائدة إلى هنود كندا الأصليّين.

160 آلهة هندوسيّة للخير والشّر.

161 ولاية تكساس سابقًا، إشارة إلى تفكّك الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى جمهوريّات منفصلة.

162 الحروب الأهليّة إذًا هي سبب نهاية جلعاد، وقد طبّقت الدولة الجلعاديّة خلالها تكتيك وارسو الذي عمِلَت به قوّات الاحتلال النازيّة في بولندا بدءًا من عام 1940 حيث حصَرَت تواجد 400 ألف يهوديّ في حارات ضيّقة (غيتوهات) في مركز مدينة وارسو. وإذ تفشّى فيها المرض والجوع، ومع سحب بعض سكّانها إلى معسكّرات الإعدام، قَلّ عددهم كثيرًا، فراحت السّلطات تضيّق حدود الأحياء تلك مُستقطعةً مساحات كبيرة منها، ما حصرَ السكّان في مساحات أضيق فأضيق يسهل التحكّم بها. وفي أبريل عام 1943، هجموا على ما بقي من السكّان الذين قاوموا ببسالة لكن دون فائدة. وبحلول مايو، فتّشت القوّات تلك الأحياء بيتًا بيتًا، واكتشفت أن السكّان أُبيدوا جميعًا.

163 يُشير إلى المُتعة الجنسيّة وكهولته.

164 جيفري تشوسر (Geoffrey Chaucer) (1343 – 1400) شاعر إنجليزي. مؤلّف رائعة الأدب العالميّ الشّهيرة «حكايات كانتربري».

165 سَرَقُوسَة (Syracuse) سُمّيت على اسم المدينة الصّقليّة (Siracusa) وعرفها العرب باسم سرقوسة، هي مدينة أمريكية في ولاية نيويورك تعدّ مركزها الصناعيّ.

166 مصطلح أنثروبولوجي يُشير إلى الشعوب التي تعيش في أوروبا، والقوقاز، وشمال أفريقيا، وغرب آسيا، وآسيا الوسطى. أي كافّة الشعوب الأوروبية والساميّة (والعرب منهم) والإيرانيّة والتركيّة.

167 تأجير الرحم (surrogacy) أو الحمل البديل، تجري فيه عملية الإخصاب خارجيًّا بتلقيح بويضة المرأة بماء زوجها في المختبر، قبل أن تُزرع واحدة أو أكثر من تلك البويضات المخصّبة في رحم امرأة متطوّعة لتنمو وتستكمل فترة الحمل. وفي هذه الحالة يطلق على المرأة صاحبة الرحم اسم الأم البديلة، بينما تكون صاحبة البويضة هي الأم البيولوجية. في مقدّمة الدول السّامحة بذلك المملكة المتحدة وأستراليا وروسيا والهند، وفي مقدّمة الدول المانعة البُلدان الإسلاميّة كافّة وفرنسا والصّين.

168 يُشكّك الأستاذ في جدْوى العلوم التي كانت تُدرّس في الجامعات في ذلك العصّر، إذ كيف لم ترفع مستوى الوعي في المجتمعات والأنظمة كافّة لتفادي تلك المشاكل البيئية والبشريّة التي تهدّد الحياة على الأرض بشكل مباشر؟

169 هكذا نعرف أنّ «فرِد» هو اسم رئيس أوفرد (Handmaid of Fred = Offred) وأنّ "غلِن" هو اسم رئيس أوفغلن (Handmaid of Glen = Ofglen).

170 (كبش الفداء) سفر اللاويين 16: 6 «وَيُقَرِّبُ هَارُونُ ثَوْرَ الْخَطِيَّةِ الَّذِي لَهُ، وَيُكَفِّرُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ بَيْتِهِ».

171 النكاف، المعروف أيضا بالتهاب النّكفيّة الوبائي، هو مرض فيروسيّ يُسبِّب انتفاخا وأوجاعا في الغُدد اللعابيّة. ينتقل الفيروس عن طريقِ الرّذاذ التنفّسي أو الاتصال المباشر مع المُصاب. من مضاعفاته التسبّب في التهاب أغشية الدّماغ، وانتفاخ خُصْوِيّ مؤلم يؤدّي إلَى العُقم.

172 في الميثولوجيا اليونانية، زوجة أورفيوس الموسيقيّ المُلْهَم. زعموا أن أفعى لدغتها فماتت. فلحق بها إلى «مثوى الأموات» وأخذ يغنّي ويعزف على القيثارة سائلاً الآلهة أن يعيدوها إليه، فما كان من الآلهة التي استخفّها الطرب، إلا أن أجازت له إخراجها من «مثوى الأموات» شريطةَ أن لا ينظر إلى الوراء إلا بعد بلوغه العالم العلوي. ولكنه لم يكد يتنسّم هو وزوجته الهواء الطلق حتى التفت ليرى إلى وجهها، فانتُزعت منه وخسرها إلى الأبد.

173 انظُر الاسم الأخير، في السّطر الأخير من الفصل الأوّل.

حكاية الجارية

رؤية مخيفة للمجتمع وقد تحوّل جذريًا بسبب ثورة سياسيّة دينيّة متشدّدة. لقد باتت "حكاية الجارية" واحدة من أوسع الروايات قراءة في العالم وأكثرها تعلّقًا بالحاضر وقضاياه المؤثّرة.

"أوفرِد" هي جارية في "جمهورية جلعاد"، تخدم في منزل "الرئيس" الغامض وزوجته حادّة الطّباع. تخرج مرة واحدة يوميًا إلى الأسواق، حيث استُبدلت الصّور بكلّ اللافتات المكتوبة، فالنساء في جلعاد تحرّم عليهن القراءة. يجب عليها أن تصلي من أجل أن يجعلها الرّئيس حاملًا، ففي زمنها انخفضت معدّلات الولادة حتى صار وجود الأطفال في البيوت أمرًا نادرًا، وهكذا باتت قيمة المرأة تكمن في قُدرتها على الحمل، أمّا فشلها فيعني إرسالها إلى المستعمرات لتنظيف النفايات الإشعاعيّة. تتذكر أوفرد الأوقات التي عاشتها مع زوجها وابنتها، وفي وظيفتها، قبل أن تسلبها الثورة حتى اسمها الحقيقي.

رواية تُعتبر في مصافّ رواية جورج أورويل "1984" و آلدوس هكسلي "عالم جديد شجاع"، إذ لم تترك بصمتها وحسب في أدب الدستوبيا، بل وشكّلت تحذيرًا لمُستقبل يُحتمل وقوعه، ونشعر الآن برعشة برودته.

الكلاسيكيّة الدستوبيّة الأكثر تأثيرًا في القرن الواحد والعشرين

الآن مسلسل تلفازيّ!

مكتبة 434



